المرتضى
لكتب السودانية

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الإسلام فى السودان

تأليف

ج. سبنسر تريمنجهام

ترجمة

فؤاد محمد عكود

234

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الإسلام فى السودان

تأليف
ج. سبنسر تريمنجهام

ترجمة
فؤاد محمد عكود

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠١

محتويات الكتاب

مقدمة	٧
مدخل	٩
١- الأرض والسكان	١١
١- الأرض	١١
أ- حدود وطبيعة البلاد	١١
ب- المعالم الطبيعية	١١
جـ- المناخ	١٢
٢- السكان	١٣
أ- القبائل المتحدثة بالنوبية	١٦
ب- قبائل البجة	١٩
جـ- القبائل المتحدثة بالعربية	٢٤
د- القبائل المسلمة شبه الزنجية	٣٨
هـ- القبائل الوثنية فى جنوب السودان	٤٢
و- اللغات	٤٢
٢- موجز تاريخى : من الممالك المسيحية حتى قدوم العرب	٤٧
١- التاريخ المبكر	٤٧
٢- اعتناق النوبيين المسيحية	٥٧
٣- تاريخ مقرة	٦٧
٤- التغلغل العربى ونهاية مملكة مقرة	٧٤
٥- مملكة علوة	٧٩
٦- أسباب اضمحلال وأفول المسيحية فى السودان	٨٢
٣- السودان تحت الحكم الإسلامى	٨٧
١- توسع القبائل العربية وتعريب السودان	٨٧
٢- النوبة ودنقلا	٩٠

٣- كونفدرالية سنار ٩١
٤- دارفور ودخولها فى الإسلام ٩٥
٥- التركية ٩٧
٦- المهدية ٩٩
٧- السودان الإنجليزى - المصرى ١٠١
٨- انتشار الإسلام فى السودان ١٠٣

٤- الإسلام القويم ١٠٩

١- تمهيد : خصائص الإسلام السودانى ١٠٩
٢- الدولة الدينية الإسلامية ١١٦
٣- النظام التقليدى فى السودان ١١٨
٤- التنظيم الحديث للعلماء ١٢٣
٥- المساجد: موظفوها وجماعات المعلمين ١٢٥

٥- معتقدات وممارسات شعبية فى الإسلام ١٢٩

أ- تأليه الأولياء ١٢٩
١- الأولياء فى الإسلام : فكرة المسلم عن الإنسان التقى ١٢٩
٢- غرائب تقديس الولى فى السودان ١٣١
٣- الأضرحة والممارسات المرتبطة بها ١٤٢
ب- العوامل الإيمانية بالبعث والحساب ١٤٧
١- الاعتقاد فى المهدى ١٤٧
٢- المهدية فى السودان ١٤٩
٣- استمرار الاعتقاد بالمهدى والمهدية ١٥٥
جـ- التأثيرات الأرواحية فى الإسلام السودانى ١٦١
١- الإسلام والأرواحية ١٦١
٢- الخرافات غير الإسلامية والممارسات الوثنية ١٦٣
٣- التأثيرات الوثنية على الحياة الاجتماعية والأسرية ١٧٤

٦- الطرق الدينية ١٨٣

١- تطور الصوفية فى الإسلام ١٨٣

٢- نشأة الطرق الدينية ١٨٧

٣- دخول الطرق السودان ١٩٠

٤- منهج التنظيم ١٩٧

٥- المذاهب ٢٠٠

٦- الشعيرة والممارسة ٢٠٥

٧- القادرية ٢١٠

٨- الشاذلية ٢١٤

٩- المجذوبية ٢١٦

١٠- السمانية ٢١٨

١١- الإدريسية (الأحمدية) والرشيدية ٢١٩

١٢- الميرغنية أو الختمية ٢٢٢

١٣- الإسماعيلية ٢٢٥

١٤- التيجانية ٢٢٦

١٥- طرق ثانوية (السنوسية والزبالعة والعزمية والطرق المصرية الأخرى) ٢٢٩

٧- الإسلام والسودان الوثنى ٢٣٣

١- الإسلام واتصاله بالسودان الوثنى ٢٣٣

أ- قبائل شرقى النيل ٢٣٣

ب- النوبا والتغلغل الإسلامى ٢٣٤

جـ- القبائل النيلية الوثنية ٢٣٧

٨- تأثير الاستغراب على السودان ٢٤٣

١- أثر الاحتلال البريطانى ٢٤٣

٢- تطور التعليم ٢٤٤

٣- التحول الفكرى والاجتماعى ٢٤٧

٤- التحول الاقتصادى ٢٥٣

٥- المرأة والتحول الاجتماعى ٢٥٦

٦- الصحافة ٢٥٧

فهرس بأسماء الأعلام والأماكن والبلدان والقبائل والخرائط ٢٥٩

مقدمة

الغرض من هذه النظرة هو مساعدة كل الذين لهم اهتمام بالسودانيين ، وذلك لفهم دلالة الإسلام فى حياتهم ، وبينما هو حقيقى أن الفهم الحقيقى للتأثير الذى شكل - وما زال يشكل - الفكر الدينى ، والممارسة الروحية لأى شعب إسلامى يمكن التماسه فى الحياة الفعلية المتصلة بحياتهم الثقافية والروحية ، والآن وقبل أن نقوم بذلك يجب أن تكون لدينا معرفة بالإسلام كأساس للتفسير، زيادة على ذلك فإن الدين الحى لأى شعب يعيش فى منطقة بعينها ميزه ذلك الانحراف والاختلاط الذى تسلح به القادمون الجدد : كتاب مدرسى عام حول الإسلام أعد ليلائم بالكاد صورة الدين الفعلى . لقد كان هدفى محاولة تزويد القارئ بخلفية يرتكز عليها لفهم السودانيين بشكل حقيقى وصادق ، وتمهيد الطريق للاتصال المباشر الحى ، ويجب أن يكون واضحا تماما أننى لا أصور الإسلام النظرى ، ولكن الدين الحى لمنطقة بعينها، فلو كنت أصف المسيحية فى إنجلترا اليوم فلن أهتم بما يقوله المنظرون عما هى المسيحية ، ولكن سأهتم بالأحوال الاجتماعية التى كانت فيها المسيحية العامل الاجتماعى المؤثر على مر القرون ، موضحا كيف شكلت المسيحية الناس ، وكيف أن صفة وبيئة الشعب قد صاغت بدورها شكل مسيحيتهم ، هذا ما حاولته فيما يتعلق بالسودان الشمالى ، آملا ألا تكون الحاجة للمنهجية والتنظيم قد أفسدت الغاية والهدف ، وعلى أية حال لقد حاولت أن تكون مقدمتى اجتماعية بالإضافة إلى كونها إسلامية أو - بكلمة أخرى - تركيبية بالإضافة إلى كونها تخصيصية .

ولا يمكن تجنب مسألة « الاقتراب » من الإسلام إذا كنا سنحدد معناه بالنسبة لنا وللآخرين اليوم ، ولكن عند التعامل مع دين إنسان آخر فإننا نحتاج إلى اقتراب خاص، إذ إننا كما تقول الأبيات الشعرية :

لقد نثرت أحلامى تحت قدميك

فسر عليها برفق لأنك تدوس على أحلامى

أعرض فقط تقدمتى على أمل أن تكون حقيقية بما فيها الكفاية للإسلام الحى فى السودان ، وذلك لتمكين القارئ ليكوّن لنفسه اقترابا حقيقيا .

لقد تمت كتابة هذا الكتاب أثناء سنوات الحرب ، وبينما أقوم بتنفيذ المهام الإدارية التى كانت لها الأولوية ، وبالطبع فقد تأثر تأليفه بهذه الأحوال ، بالإضافة الى صعوبة تحمل فترات الدراسة والحصول على المكتبات، كل ذلك أدى لأن يكون الكتاب الذى كتبته تنقصه الدراسة المثلى التى كنت أرغب فى كتابتها ، وإن كان علىَّ أن أذكر بالاسم كلاً من أصدقائى السودانيين والمسئولين الحكوميين والإرساليات الذين ساعدونى بطرق عدة ، فإن هذه المقدمة ستتم قراءتها كما لو كانت قاموسا ، ولكن

بالرغم من أننى لم أذكرهم بالاسم فإننى مدين لهم جميعا ، إذ لولا مساعدتهم لما كتبت هذا الكتاب ، كما أدين للكتاب الآخرين الذين أظهرت بجلاء مصادرهم فى الهوامش ، كما أنني ممتن لمصلحة المساحة فى حكومة السودان للسماح لى بنشر الخريطة المرفقة فى آخر الكتاب .

ج.س. تريمنجهام

يونيو ١٩٤٦

مدخل

السوداني الشمالي هو موضوع هذا الكتاب ، والسوداني مظهره الديني بصفة خاصة ، وسنقوم أولاً برسم « إسكتش » بخلفية دراستنا – الشعب وبيئته .

فلدينا من جهة البيئة تقسيماتها من جبل ووادى ونهر وسهل ومناخ وأمطار ورياح قوية وخفيفة ورمال وتربة. ومن جهة أخرى الإنسان المزارع المحصور في قريته في مجال حراثتها وحياته الاجتماعية ، ولكنه معزول فى مجتمعه ، ثم البدوى المنعزل ، القلق ، المستقل ، ولكنه ليس حرا ، المدفون فى واقع الأمر مع جمله فى الصحراء . إن الانسان في الحياة الاجتماعية التي تعرفها محكوم ببيئته – الجغرافية والبشرية – التي تقرر طريقه ببيئته في الحياة وتشكيله النفسي . إن الأرض ، وليست العوامل الإثنية هى التى تساعدنا لشرح هذا الانسان – المستقر والبدوى – فيما يتعلق بظروفه النفسية والاجتماعية ، ونجد هنا التكافل الأساسي بين الروح والطبيعة التي شكلت وامتصت النفوذ الأجنبى على مر العصور .

ولامجال للحقيقة المطلقة ، فالإنسان له فعل ورد فعل ، فالأرض لم تعد هي التي تتخذ القرار بالنسبة للإنسان ، إذ هى سلبية ، ولكن الإنسان هو الذي يقرر. إن أي إنسان هو الذى يضحي بنفسه في سبيل بيئته ، وهكذا فقد حول البقارة أسلوب حياتهم من الجمل إلى البقر؛ وتأتى الجهود وكلها من الإنسان . إن الطبيعة محتملة حتى في السودان ، وتقدم إمكانيات لانهائية بقدرات الإرادة الإنسانية – أى السيد وليس المزارع – أن تفاضل أياً من الأساليب تختار ، وهكذا فالقطن يأخذ اليوم مكان الصدارة بالنسبة للمنتجات الأخرى .

ومع ذلك فقد أصبح واضحا تماما أن كلاً من نصفى وجه الحياة يخضع – فى الغالب -- للآخر بشكل مفرط . ولكن هناك تفاعلاً مستمراً بين الروح والمادة ، والإنسان والطبيعة . وبينما تحدد الأرض جزئيا صفة وقدر الشعب ، نظرا لأن الإنسان عليه أن يغير من نفسه ليعيش عليها ، فإنه تغلب أيضا على الأرض وانتزع نفسه منها بالألم والمعاناة وحدد موقع إقليمه من العالم .

ويبقي مع ذلك التأثير العميق للبيئة الجغرافية على البشر الذين يعيشون عليها، خاصة في أرض صعبة جداً مثل أرض السودان التى تجعل قهر الإنسان للطبيعة يبدو ضئيلاً جداً، وعندما أضاف الشعب الأصلى إلى البيئة الجغرافية ذلك التأثير المشترك الذى أصبح فى الغالب التعديل الكامل الذى مكن المهاجرين – مثل العرب فى السودان – من الاندماج فى الشعب الأصلى .

وكانت رتابة حياة المزارع والبدوى هى ردهما على رتابة ووحدة الأرض ، سواء التربة الطينية أو الرملية . فالسواقى والشواديف على ضفاف النيل ، والجزو فى

البطانة والتربةالطينية فى الجزيرة ، ومراعى البقارة ، كلها تفسر بشكل كبير حياة المزارع أو البدوى ، وتنقل له أيضا سماتها وعيوبها ، ولأن الرمال مجسدة فى البدوى فهو مستقل تماما ، ولكنه راكد أيضا ، ولأن التربة مجسدة فى المزارع فإنه متين جدا ، ولكنه ساكن أيضا . لقد أدى الاضطراب العنيف فى المجتمع الذى سببته المهدية إلى إفساد مغزى الحياة البدوية والمستقرة ، وبدأت الآن القبائل البدوية فى استرداد تماسكها السابق ، كما بدأ المزارع يعد لزراعته .

وما زال حتى هذا التكيف المتبادل بين الطبيعة والشعب غير كاف لتوضيح الشعب والوحدة الثقافية للإقليم الذى أصبح يسهم الآن فى المصير المشترك ، وهناك عامل داخلى كبير جداً أصبح يشكل قبل كل شئ حياة السودانى الشمالى ، إنه التأثير المتواصل لتلك الرقعة الكبيرة التى تقع شرقى البحر الأحمر ، إنها الجزيرة العربية . لقد أرسلت الجزيرة العربية شعبها ولغتهم ودينهم ، وفوق كل شئ ذلك النظام الثقافى «الإسلام » الذى كان له أعظم الأثر – بعد البيئة – على سيكولوجية الشعب ، ومهد دينهم وأفكارهم الاجتماعية فى وحدة تثير تعجبنا وإعجابنا .

لقد تلقى السودانيون الإسلام بصدق وإخلاص ، ولكن من خلال مقدرتهم الفذة على الاستيعاب ، شكلوه فى عقليتهم الخاصة ، منفلتين من صيغة علماء الدين . غنوا فيه ورقصوا فيه وبكوا فيه وأدخلوا فيه عاداتهم الخاصة وأعيادهم الخاصة ، وأدخلوا فيه قدرا كبيرا من الوثنية، ولكنهم حافظوا دائما على الحقيقة الحية لوحدة تراثه تحت حكم إله واحد .

ولإدراك فهم حى للسودانيين علينا أن نضع فى الاعتبار حركتين، إحداهما مرجعها عملية حياة الشعب فى اتصاله المباشر مع بيئته الجغرافية، بينما الأخرى هى الدين العالمى – الإسلام – والثقافة والنظام الاجتماعى المشترك لأعداد مختلفة من الشعوب ، والذى ينتج من التفاعل والتركيبة العقلية والبدنية ، ويمكن أن نفهم هذا الشعب إذا ما وضعنا فى الاعتبار هذين الاتجاهين ، إن دراستنا الخاصة ستكون الإسلام كما هو موجود اليوم فى السودان ، والذى قبله وألفه السودانيون مع عاداتهم النفسية والفطرية .

-١-

الأرض والسكان

١- الأرض

أ- حدود وطبيعة البلاد

بالرغم من أن التعبير العربي « بلاد السودان » يشمل معظم إفريقيا جنوب الصحراء ،إلا أن اسم السودان أصبح يطلق على تلك المنطقة الإفريقية شبه الصحراوية التي تمتد من الأطلنطى حتي البحر الأحمر، والتى تمت أسلمتها ، وهي ليست فى حقيقة الأمر موطن الزنوج ، ولكنها المنطقة المتوسطة والتى تقع بين المجموعة الحامية لشمال إفريقيا ، والمجموعة الزنجية لوسط إفريقيا،ومع ذلك فقد استخدم البريطانيون كلمة السودان في معني أكثر دقة لتعني المنطقة الإدارية الشرقية التى تسمى السودان الإنجليزى - المصرى .

وهذا الاستعمال هو مادة هذه النظرة العامة بالتحديد ، وسنحتاج فى بعض الأحيان للتحدث عن « السودان الغربى » : المنطقة التي تشمل حوض السنغال وجامبيا وفولتا العليا والنيجر الأوسط، و« السودان العام » الذى يضم حوض بحيرة تشاد، و «السودان الشرقى » الذى سيقصد به السودان الإنجليزى - المصرى الشمالى .

إن السودان الإنجليزى - المصرى بلد شاسع مساحته حوالي مليون ميل مربع ، يحده فى الشمال مصر، وفى الشرق البحر الاحمر وإرتريا والحبشة وفى الجنوب أوغندا والكنغو البلجيكي ، وفى الغرب أفريقيا الاستوائية الفرنسية ، ولا توجد حدود طبيعية لهذه المساحة الشاسعة فيما عدا التلال الحبشية فى الشرق ومستجمعات أمطار النيل الكنغو فى الغرب .

ب- المعالم الطبيعية

أهم الملامح فى السودان هو النيل وروافده ؛ إذ يجرى النيل الأبيض من بحيرة ڤكتوريا ويدخل السودان فوق شلالات ، وبعد أن يجرى خلال إقليم السافانا المسطح يسير لعدة مئات من الأميال خلال مستنقعات السدود ، ويظهر أخيرا في إقليم تكثر فيه الأدغال ما بين ملكال وكوستي ، ثم فى سهل شبه صحراوى ، إلى أن يلتقى مع النيل الأزرق عند الخرطوم ، ويجمع في مجراه مياه النيل الأعلى ، بحر الغزال وبحر الزراف والسوباط ليوفر المياه المنتظمة طوال العام ، ويجمع النيل الأزرق وعطبرة معا مياههما من هضبة الحبشة ، وبسبب الظاهرة المعروفة بفيضان النيل الذى يوفر ٨٠٪ من مياههما النيل ، كما يجلبان معهما أيضا الطمى الذى يشكل الأراضى الزراعية على ضفاف النيل ، ويبدأ النيل الأزرق فى الارتفاع فى يونيو ، ويصل ذروته فى أغسطس ثم يبدأ فى الهبوط فى سبتمبر .

ومع ذلك فلم يكن النيل أبدا طريقا عاما للهجرة والمدنية، ويعترض النيل خمس سلاسل من الشلالات والانحناءات الطويلة مما يجعل الطرق الصحراوية أسرع وأرخص ؛ لذا فقد كان النقل يشمل كلا الطريقين .

وتشكل المنطقة التى يجري فيها النيل سهلا واحداً واسعا وهى منطقة واضحة المعالم سياسياً وليست جغرافياً أو إثنولوجياً ، وسنقوم برسم صورة مبسطة الملامح .

تقع الصحراء النوبية بين الساحل والنيل، وفى الغرب الجزء الجنوبى من الصحراء الليبية وصحراء بيوضة، وجزء كبير من هذه المناطق خال تماما من أى نبات، وتتكون من سهول صخرية وتلال متفرقة والعديد من الخيران والوديان ، ويمتد هذا السهل الصحراوى جنوباً حتى الخرطوم ، ويمتد شريط زراعى ضيق على طول ضفتى النيل حيث يقطنه النوبيون .

أما جبال البحر الأحمر التى تميز الجانب الشرقى لوادى الصدع الكبير فهو إقليم واضح المعالم ، وتقع فيه الوديان التى توجد بها الحياة النباتية ، كما أن السهل البحرى يتميز أيضا عن الجبال و تسقط الامطار فيه أيضا في فصل الشتاء . وبعد الامطار تتوفر المراعى للقطعان ، وتتم زراعة المحاصيل فى قيعان الوديان .

وتقع إلى الجنوب من الصحراء منطقة السهب ، وهى الموطن البدوى النموذجى الذى يوفر المرعى الوفير للإبل والأغنام فى أوقات معينة من العام طبقًا لسقوط الامطار المنتظمة ، أما المنطقة التى يطوقها النيل ونهر عطبرة والنيل الأزرق ، وخط المغازه – القصارف – والمعروف بالبطانة فهو سهل مستو من التربة الطينية وتتخلله الوديان والخيران . إنه موطن رعوى نموذجى ، ويتوفر فى موسم الأمطار المرعى الجيد رغم وجود قبائل الشكرية والبطاحين الرعوية .

كما يقع جنوبى الخرطوم – فى كردفان والغرب – حزام سهل السڤانا الذى تنمو فيه الشجيرات الشوكية ، كما ينمو العشب هنا بشكل وفير خلال موسم الأمطار، وتتزين الأرض بالشجيرات الشوكية الصغيرة ، وتزدهر أشجار الصمغ العربى على هذه التربة الرملية ، وتهطل الأمطار بغزارة تكفى لزراعة الذرة بشكل مستمر وتسمح بالرعى لأعداد كبيرة من القطعان. ويعيش هنا العرب المستقرون في كردفان : البقارة الذين يربون البقر والشلك الرعاة والنوبا الوثنيون فى الجبال ، كما أن دارفور في أقصى الغرب هي منطقة سهول بها الشجيرات أيضا ، بالإضافة إلى مساحة من الأرض الخصبة يتوسطها جبل مرة .

وشبه الجزيرة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق والتى تعرف بالجزيرة هى أرض واسعة يزرع فيها القطن ، وهى أكثر أجزاء السودان كثافة سكانية . ويقع جنوب السافانا الشوكية سهول التربة السوداء « البادوب » (أو التربة القطنية) منطقة السافانا العشبية المفتوحة ، والتى تحدها منطقة مستنقعات السدود حيث يعيش الدينكا والنويه الرعاة ، وإلى الجنوب والغرب من هذه السهول العشبية تقع غابة السافانا حيث توجد ممالك الزاندى جنوبى بحر الغزال ، وهناك انتقال تدريجى نحو إقليم التربة الحمراء حيث الغابة الاستوائية أقصى الجنوب على طول ضفاف الأنهار الصغيرة .

جـ – المناخ

نجد التفسير فى عدم وحدة هذا الإقليم فى فقدان التشابه المناخى الذى يتراوح ما بين الجفاف التام فى الامتداد الشمالى للصحراء وبين هطول الامطار الشديدة فى

الغابات الاستوائية فى الجنوب، كما أن للمناخ تأثيراً على البشر بشكل كبير أكثر من التأثير الجغرافى ، ويحدد المناخ الحياة النباتية والحيوانية فى الإقليم ، وخصوبته وطبيعة محاصيله، ومن ثم طريقة حياة الناس .

إن أهم عامل مميز فى مناخ السودان هو توزيع هطول الأمطار ، وبسبب تنوعه فإن أحزمة المزروعات التى تؤثر بشكل حيوى على حياة الإنسان والحيوان تمتد غربًا - جنوبًا - غربًا وشرقًا - شمالاً - شرقًا ، ولا تهطل الأمطار أبدًا شمال أبو حمد ، ويتدرج سقوط الأمطار جنوبًا داخل الإقليم الأوسط حيث تكون كافية للرعى والزراعة حتى أقصى الجنوب حيث الأمطار التى تسقط بكثافة ولفترات طويلة .

وفى السودان الشمالى والأوسط - حيث مجال اهتمامنا - هناك ثلاثة مواسم :الصيف من مارس إلى يونو أو يوليو، وهو موسم الانتظام الرتيب ، فالحرارة شديدة تصل ذروتها فى مايو ، ويتذبذب معه الهواء فى النهار ويجف كل شئ أخضر ، وتصبح الحياة فى منتصف النهار ساكنة ، ويبحث الإنسان والحيوان عن البرودة النسبية فى المنازل وتحت ظلال الأشجار القليلة ، وهناك أيام تهب فيها الرياح الصحراوية الجافة خاصة العواصف الترابية (الهبوب) التى تحول السماء إلى اللون الأحمر البنى ، ويبتلى بها النبات والإنسان والحيوان على حد سواء ، وفى مثل هذه الأوقات فإن المساء يجلب بعض الراحة ، وفى الأمسيات خلال الصيف تهبط درجة الحرارة جالبة النسيم البارد وتمتلئ السماء بالنجوم ويضئ الأرض نور القمر السحرى ، وتبدأ الحياة فى التنفس مرة أخرى .

وفى يونيو تتحول الرياح إلى الجنوب ، وتتجمع السحب الكثيفة ، وتخمد الرياح والهبوب ، ثم تأتى الأمطار العاصفة . إنها بداية موسم الأمطار (الخريف) ، وتظهر هذه العواصف فى كردفان كل ثلاثة أو أربعة أيام ، إنها (الرشاش) موسم الزرع. ومع نهاية يوليو - عندما تبدأ الأمطار الغزيرة - تصبح الأرض الزراعية مغطاة بالمزروعات الخضراء ، ويلى ذلك فى سبتمبر الفترة المعروفة « بالدرت » ، وهى موسم الحصاد ما بين نهاية موسم الأمطار وبداية الرياح التجارية الشتوية الجافة ، عندما يصير الطقس حارا ورطبا، وتصبح الحياة مرهقة . ومع مجئ الرياح الشمالية الجافة فى أكتوبر يعدالشتاء قادمًا ، ويكون الحصاد قد انتهى ، وتنحدر الشمس ويصبح النسيم منعشا ، وتجف النباتات الحولية ويستمر هذا الموسم حتى مارس .

٢- السكان

السكان دائما قليلون بطبيعة الحال فى المنطقة الصحراوية ومنطقة السهب ، وتزداد الكثافة السكانية فى الأرض النهرية الخصبة وفى المناطق الشمالية ، برغم أنها لم تكن أبدا كثيفة جدًا ، وقد قدر عدد السكان قبل حكم الخليفة بحوالى ٨,٥٠٠,٠٠٠ نسمة ،

وفى عام ١٩٠٥ هبط العدد إلى ١,٨٥٣,٠٠٠ نسمة فقط ؛ وذلك بسبب المجازر والمجاعات تحت حكم الخليفة ، ومنذ ذلك الحين وتحت الحكم المستقر زاد عدد السكان بشكل مطرِد ، ووصل العدد فى عام ١٩٤٤م إلى حوالى ستة ملايين ونصف نسمة .(١)

ويندرج سكان السودان بالطبع فى طائفتين كبيرتين : منطقة الشمال المسلم ومنطقة الجنوب الوثنى ، أو ما يسمى بمنطقتى العرب والزنوج ، ولا تتحدد المنطقتان بأى معالم طبيعية ، ولكنهما مميزتان بجلاء إثنيا (عرقيا) وثقافيا ، وتشمل المنطقة المسلمة شعوب الإقليم الصحراوى والسهب الشمالية ، وهم المسلمون الذين يتحدثون العربية . ويوجد فى الإقليم بعض اختلاط للدم العربى مع السكان الأصليين ، ونتج عن تبنى الإسلام انصهار السكان لدرجة أنهم أصبحوا متجانسين ثقافيا ، أما فى الغرب فإن هذه المنطقة الإثنولوجية تمتد جنوبا حتى منطقة بحر الغزال وسط الزنوج ، وفى الشرق حتى النيل الأزرق مع منطقة جبال النوبة جنوبى كردفان،وهى زنجية إثنيا وثقافيا .

أما السودان الجنوبى الذى لا يمكن تحديده بأى خط عرض (سوى وجود تغير على النيل عند خط عرض ١٢ْ شمالاً) ، ومن جهة أخرى فهو مختلف إثنيا وثقافيا ، ويضم كل شعوب الجنوب سوداء البشرة ذات الأعراق المختلفة . إننا سنتعامل بشكل جوهرى فى هذه الدراسة مع المنطقة المسلمة الواقعة شمال خط العرض ١٢ْ شمالاً ، والتى تمتد حتى الحدود المصرية ، وسنقوم بدراسة السودان الجنوبى فقط بقدر ما تأثر بالإسلام .

ومن النادر أن نجد أى نمط سلالى خالص وسط أى من شعوب السودان ؛ إذ عانت هذه البلاد من العديد من منافذ التشتت السلالى ، فكل سكانها تشكيلة ما بين السلالة القوقازية الخالصة والزنجية الخالصة ؛ لذا فأبناء الشعوب سوداء البشرة فى الجنوب عادة ما يعدون زنوجا . أما مصطلح « عرب » فهو ذو دلالة لغوية وثقافية أكثر من كونه مصطلحاً سلاليًا ، ويستخدم فيما يتعلق بمحصلة الامتزاج الحالى للسكان الأصليين والقبائل العربية التى استقرت فى العصور الوسطى فى الأقاليم الشمالية والوسطى . لقد جلب العرب معهم لغتهم ودينهم التى حلت محل اللغات الأصلية (فيما عدابين بعض القبائل النوبية وقبائل البجة) والمسيحية أو الوثنية .

---

(١) يجب ترك هامش كبير للخطأ فيما يتعلق بكل الأرقام الرسمية الخاصة بالسكان ، فالأرقام الأولى مجرد تخمين من قبل السير ويخت ، أما الأرقام الأخيرة فهى منتقاة من التقديرات التقريبية لمفتشى المراكز . إن ثلاثة أرباع القرن المضطرب وفر للحكومة الحالية الكثير من المخاطر المتعلقة بالزيادة السكانية . إن عزوف الحكومة عن البدء فى إجراء إحصاء سكانى لهو أمر مؤسف ، ويجعل إجراء المسح الاجتماعى أمرًا مستحيلاً .

السودان الشمالي

عندما غزت العرب النوبة التقت بشعب هجين مكون من سلالة قوقازية وزنجية ، وهذه السمة موجودة في الكنوز والمحس والسكوت والدناقلة ، تلك المجموعات التى تسكن على ضفاف النيل من جنوب دنقلا العجوز حتى أسوان ، وتتحدث مختلف لهجات اللغة التى لا تنتمى إلى هذه المنطقة ، والتى من المحتمل أن يكون قد أدخلها الزنوج فى بداية العصر المسيحى . فهؤلاء النوبيون برغم تبنيهم الإسلام حافظوا على أنفسهم ككيان مستقل ، وامتصوا العرب والعناصر الأخرى وحافظوا على لغتهم ، وإلى الجنوب من النوبيين توجد مجموعات حامية زنجية أخرى عانت تحولات أكثر بتعريبهم عن طريق التزاوج الاجتماعى والهيبة الدينية .

والتقى العرب فى الصحراء الشرقية بقبائل البجة البدوية ، وهى طبقا لسلجمان[1] سلالة ذات أصل مصرى بدائى تعدل أكثر في الشمال بالتأثير الزنجى أكثر من الجنوب، وهم أقرباء الشعوب النوبية النيلية . ونجد اليوم أن الكثير من البجة ذوو دم عربى ممزوج ، ويبرزون شجرة نسب عربية مزيفة ، و بالرغم من إسلامهم حافظوا على لغتهم ومميزاتهم السلالية .

ومنذ الفتح العربى كان هناك امتصاص تدريجي للعرب من قبل النوبيين فى الشمال والسود فى وسط السودان ، ويسمى العنصر الناتج نفسه الآن « عربيا » ، إلا أن ادعاءهم باللقب يتفاوت بشكل كبير، ويقول كاتب من أبناء البلد : إن سكان السودان الأصليين هم النوبة والحبش والزنوج ، وكل « قبيلة » نشأت من الهمج تنتمى إلى المجموعة الزنجية ، وكل « قبيلة » نشأت من النوبة فهي تنتمى للمجموعة النوبية . إن القبائل العربية التى فى السودان عدا هؤلاء (أى النوبة والحبش والزنوج) يعدون أجانب ، وقد اختلطوا فقط مع القبائل آنفة الذكر وتناسلوا معها ، والبعض احتفظ بالصفات العربية ، وتبنت الصفات النوبية والزنج التى انتشرت هنا وهناك وسطهم بالصفات العربية . وبالقبائل كان هناك بعض العرب الذين انصهروا فى النوبة والزنج وتبنوا صفاتهم ، ولكن فى كل الاحوال فهم يعرفون أصولهم .

قد تكون هذه الإفادة صحيحة ، فهى قد ميزت العنصر الوطنى ، ولكنها مختصرة وتعترف بالعرب فقط . ومن السهل جدا أيضا أن يلتبس الأمرين الحامى والسامى فيما يتعلق بالخصائص الجسمانية ، خاصة عندما يكون الأمر راجعًا إلى السكان أنفسهم الذين أصبحوا مسلمين ، وهم يتوقون بلا دعاء بالانتساب إلى العرب ، وهم ٥٠٪ ساميون ثقافة .

---

(1) C.G. Seljman: „Some Aspects of the Hamilice proplem in the A.E Sudan„ F.R.A. 1.xliii,1913,pp . 595-610

لقد تعرض سكان السودان - على مدى التاريخ - لتغيرات عميقة ، ولكنه بقانون ما غامض حول المهاجرين بطبعهم بطابعه الخاص ، ويمكن مشاهدة العملية وهى تجرى الآن فى السودان ، ففلاته ميللى فى كسلا قد تأثروا بشكل كبيرببيئتهم لدرجة لا يمكن تميزهم من البجة في آخر الأمر ، فقد تحولوا من حالة شبه البداوة إلى حالة البداوة الكاملة، وربوا شعرهم مثل البجة « التفة » ، وأصبحت أكواخهم تشبه أكواخ الهدندوة[١].

ثم إن القادمين الجدد إلى السودان تم امتصاصهم بالتدريج ، وانصهروا فى السكان الذين استقروا وسطهم ، بينما يعانى من بعض التعديل فى الشكل الجسمانى الذى تفاوت طبقا لخط العرض وهطول الأمطار الذى أثر على نوع التربة، ومن ثم على مزروعاته ونوع الحيوان الذى يربيه ، كان دائما يتجه نحو إعادة تأكيد ذاته ، ومع ذلك فإن العرب فرضوا لغتهم وثقافتهم الدينية على كل هذه الشعوب لدرجة أنهم صهروا سكان السودان الشمالى فى شعب واحد ، إن لم يكن فى جنس واحد ، وكان تأثيرهم أقوي من أى تأثير آخر ، وكان هناك فى الوقت نفسه تقدم ضئيل فى الثقافة : لأن حاجة الطبقات المسيطرة وحاجة الجماهير كانت متشابهة .

وسنقوم بدراسة سكان السودان الشمالى تحت العناوين اللغوية للنوبة ، فالبجة ثم المتحدثين بالعربية ، ونتبعه بمسح مختصر للمسلمين الزنوج .

أ- القبائل المتحدثة بالنوبية

يعيش النوبيون على طول النيل فى الحدود المصرية من أسوان حتى حلفا، وفى السودان فى منطقة حلفا ودنقلا جنوبا حتى الدبة حيث ينحرف النهر شمالاً، وكان السكان الأوائل لهذا الإقليم هم نفس سلالة المصريين لما قبل الأسرات ، ولكن من خلال امتصاصهم لموجات الزنجية المتتالية وهم يتحدثون لغة زنجية وأصبحوا عنصرا زنجيا حامياً متجانساً يمثلهم النوبيون الحاليون [٢].

وهناك أربع مجموعات قبلية رئيسية تختلف - داخل حدود المجموعة - في اللهجة والعادات ، بما فى ذلك بناء المنازل والملابس وتصفيف شعر المرأة :

١- **الكنوز** (٤٢.٠٠٠) فى الحدود المصرية بين أسوان والمضيق ، وقد حصلوا على اسمهم من بنى كنز الذين كانوا ذوى نفوذ قوى خلال الأيام الأخيرة لملكة دنقلا المسيحية ، وإلى الجنوب من المضيق على مسافة قصيرة يوجد ٥٠٠٠ نوبى يتحدثون العربية .

---

(١) H.A.MacMichael, His . Arabs in Sudan , 1922, Ms . D.lvol. ii,p.197

(٢) ينظر SNR .lx(z),pp.85-6

٢- الفديجا (١) (٢٠.٠٠٠) يقطنون القرى الواقعة بين كورسكو ووادى حلفا، وتنتشر فى وسطهم قبيلة المتوكية ذات الأصل الزنجى .

٣- المحس : فى الأراضى السودانية من وادى حلفا إلى القرب من دنقلا ، وقد احتفظوا برطانتهم المحلية (المريس) ، ويذهبون إلى مصر فى الأساس بحثاً عن الرزق ، وهناك الكثير من الشرائح تقطن فى مستعمرات قرى حول الخرطوم وعلى النيلين الأبيض والأزرق ، وقد هاجروا جنوباً منذ القرن السادس عشر ، وهم يتحدثون العربية الآن ويدعون شجرة نسب عربية ، وهم مزارعون فى الأساس ، ولكن أصبحت لهم سمعة كبيرة كفقرا ، ويعتمد اقتصاد القرية كلها فى الغالب على تجارة الفكى .

٤- الدناقلة [٢] وهم يعيشون على طول النيل من المنطقة المجاورة لدنقلا وحتى الدربة، وهم ذوو سمات حامية قوية فى الوجه، وهم شعب قوى متينو البنية وذوو ملامح جميلة بصفة عامة بالرغم من أنه فى بعض الأحيان يمكن مشاهدة الأنف الأفطس والشفاة الزنجية الغليظة، وهم ذوو أصالة جديرة بالاعتبار وسريعو تعلم اللغات. وفى وطنهم فإن معظم الرجال يتكلمون لغتين ، ويتحدثون عربية لا قواعد لها ، ولكن القليل من النساء يعرفن العربية .

وبصفة عامة فإن السمة النوبية تعكس كلا الصفتين الحامية والزنجية . وقد يتنوع المظهر العام من اللون البنى الغامق إلى اللون الأسود بشفاة غليظة وجمجمة مستطيلة، والشعر صوفى مجعد فى الغالب واللحية خفيفة . والشعب النوبى شعب زراعى فى الأساس يعتمد على النيل فى معيشته ، البعض منهم صيادو سمك ومراكبية ، وهناك طريقتان أساسيتان لرى الأرض : إما بطريقة الغمر بعد هبوط النيل حيث يتم زراعة الجزر وضفتى النيل ، أو صناعيا بالساقية التى تديرها الثيران أو الشادوف الذى يرفعه الانسان . ومع ذلك فإن زراعة الشريط النيلى الضيق لا ينتج ما يكفى لمواجهة النمو الطبيعى لسكانه ، لذا فإن أغلبية الرجال يقضون جزءاً لا بأس به من حياتهم يعملون في المدن المصرية والسودانية طباخين وسفرجية وبوابين وجلابة وكتبة . وكل مجموعة مهنية منظمة فى طائفة لها شيخ ، وتفرض ضريبة على أعضائها، ويفترض أن يكون الشيخ مسئولا عن سلوك أعضاء الطائفة أمام مخدميهم ، وبعد تكوين ثروة يقنع معظمهم بالعودة إلى وطنه مزارعا ، ويعيش سعيداً بقية حياته على خبز الذرة .

وبينما يحب النوبيون المغامرة والاستعداد للسفر ، فهم فى الوقت نفسه عاطفيون نحو العشيرة ويعشقون وطنهم وأرضهم ، وبرغم وجود عداوات شديدة بين الأسر فى معظم القرى بسبب بعض المنازعات حول ملكية الأرض الضئيلة ، فإن المشاعية

(١) يدعى الفديجا أنهم من أصول شمالية (أى تركية أو جركسية أبوسينة

(٢) هناك مجموعة الدناقلة - الجعليين التى تعيش على طول النيل ، والتى تبنت العربية وشجرة أنساب عربية لا يمكن تميزهم من بقية الدناقلة - وسيسجلون ضمن القبائل التى تتحدث العربية .

هى التى تحكم حياة سكان القرية ؛ إذ كلهم يشتركون فى الأفراح والأحزان والأعياد. إنها روح المشاعية نقيض الروح الفردية العربية ، وهى التى مكنت وشجعت وسهلت للحكومة الحالية توفير التسهيلات المشتركة مثل مشاريع الطمبات والمستوصفات التى تعنى بها المجموعة ، ومن المعتاد ربط الأطفال ببعضهم وذلك بالزواج المبكر الذى يتم أثناء البحث عن لقمة العيش فى « الخارج » .

ويشكل الدناقلة القسم الأكبر والمزدهر اقتصادياً فى كل المدن فى السودان، وهم الذين فتحوا مع أقاربهم الجعليين منطقة أعالى النيل وبحر الغزال فى القرن الماضى ،وكان معظم سكان هذه المدن قد فقدوا لغتهم ، ولكن بقى الآن عنصر واضح من السكان بدأ فى استعادة كل عاداتهم القديمة وأسلوب حياتهم .

إن وضع المراة النوبية سيئ ، ورموز العريس هى السيف والسكين والكرباج ، وبالتأكيد فالكرباج لا يبقى بلا استخدام . يمارس عادة الختان الفرعرنى بالنسبة للفتيات ، ويعد الطلاق أحد أكبر مخاوف المرأة النوبية ، تعود المطلقة الى أسرتها حيث تصبح أمة تركل وتلطم إلى أن تجد من يأخذها ، ولا يؤخذ بحكم الشريعة التى تنص على أن الرجل مسئول عن التدبير التام نحو أطفاله وعليه مسئولية إعادة زوجته المطلقة . وتبلى المراة النوبية سريعًا إذتعمل منذ طفولتها المبكرة ، ويقع علي كاهلها العناية بكل شئون البيت : الأطفال والحيوانات ، حتى فى بعض الأحيان بناء المساكن عندما يكون الرجال بعيدين ، وكانت النوبية منذ خمسين عاما مضت ترتدى ثوبا نسائيا قصيرا يصل حتى الركبة ، ولكنها ترتدى الآن ثوبا موحد القياس (الثوب المألوف) .

وبرغم أن النوبيين كانوا مسيحيين في وقت ما ، ومازالت بعض عاداتهم ذات أصل مسيحى ، فقد تلاشت كل ذكرى عن دينهم السابق .

إنهم مسلمون متعصبون ، ولكن إسلامهم تنقصه القوة ما لم يثار بمسحات دينية أخرى مثل الحركة المهدية ، وينتمى معظمهم إلى الطائفة الميرغنية والإدريسية .

لقد كانت ثقافتهم فى المملكة المسيحية – تلك الثقافة التى ورثوها من بقايا الثقافة المصرية والتى تم تنشيطها من الخارج ، ثقافة جد متطورة ، لقد استخدموا الفخار الملون وبنوا مساكنهم ذات السقوف المقوسة بالطوب المجفف بالشمس ، أما مساكنهم الآن فذات سقوف مسطحة ، ويستخدمون قليلاً من المصنوعات اليدوية التى لا تعيش طويلاً من الأطباق المصنوعة من السعف والفخار ، كما لا تساعدهم الأدوات الرخيصة الصنع المستوردة على الازدهار والنشاط من جديد .

ب- قبائل البجة البجة هو الاسم الذى أطلقه الكتاب العرب [١] على مجموعة القبائل البدوية الحامية الحقيقية ، والتى تعيش في المنطقة الشرقية بين النيل وعطبرة والبحر الأحمر ، وتعانق السهل الأوسط وجبال البحر الأحمر والمنطقة الشرقية والجبال جنوب طوكر . وبالرغم من أنه كان هناك اختلاط بالدم الأجنبى فقد شكلت هذه القبائل وحدة فى كل من مميزاتهم الجسمانية واللغوية . وأشار سلجمان [٢] إلى أن هناك شبهًا جسمانيًا واضحًا بين بجة اليوم والمجموعة المصرية لما قبل الأسرات ، وهناك بعض من الدم العربى ؛ إذ إن ربيعة استقرت بينهم فى القرن التاسع الميلادى ، ولكنها لم تغير من صفاتهم الجسمانية والاجتماعية [٣] ، وكان بجة الشمال أكثر تحولاً بالدماء الزنجية من أولئك الذين يقطنون الجنوب . وقد اعتنق البجة الإسلام واتخذوا النسب العربى، ولكنهم حافظوا على لغاتهم الأصلية وصفاتهم السلالية وعاداتهم ، لدرجة أنهم لا يختلفون إلا قليلاً عن البجة الذين وصفهم ابن سليم قبل ألف عام .

إن الرواية التى ذكرها ابن سليم [٤] بأن البجة شعب بدوى وثنى صحيحه ، وما زال ينطبق عليهم حتى اليوم ، ولكن دخولهم في الإسلام أدى الى حشد أقصى درجات التعصب فى بعض المجموعات ، ومع ذلك فالأرضية المشتركة لأسلوب حياتهم وعاداتهم لم تتغير فيما عدا مايتعلق بالنسب الأمومى . إن عاداتهم – خاصة المتعلقة باللبن – تصنفهم مع معظم القبائل الحامية الموجودة فى شرق إفريقيا . والملامح الطبيعية للبجة هى :

قصار القامة فى اعتدال ، الرجال أقوياء إلى حد ما ، ذوو بشرة بنية ضاربة إلى الحمرة أو بنية ، مع وجود مسحة متفاوتة من اللون الأسود ، والوجه عادة طويل وبيضاوى أو يقترب من البيضاوى فى الشكل ، والفك قوى إلى حد ما ، والذى يجمل – مع وجود الذقن البارزة – الجزء الأعلى من الوجه يبدو أعرض عما هو عليه فى الواقع، والأنف جميل وقوقازى الشكل عدا فى بعض الأفراد – عددهم قليل نسبيًا – الذين أثرت فيهم الزنجية ، والشعر عادة محمر [٥] .

---

(١) اسمهم الجماعى هو « بداوى » ، وهو ايضا اسم لغتهم ، وقد ورد ذكرهم Beya فى نقوش Adulis (القرن الثانى الميلادى) و BovyaelAwa فى نقوش ملك اكسوم .

(٢) Journ, Anthr. inst, 1913,xliii . 595-610

(٣) يشير المسعودى في مروج الذهب (Les prairies d,or-iii.33) أنه فى عام ٩٤٣ م كانت تحت قيادة بشر بن مروان ٣٠٠٠٠ من البجة الذين يسكنون الشاطئ واعتنقوا الإسلام ، ويوضح هذا كيف أن المهاجرين من العرب سيتم امتصاصهم بسرعة داخل القبائل الأصلية ، وكيف أن الأخيرة ستحرز مظهرا ثقافيًا إسلاميًا زائفًا . إن قوتهم فى استيعاب العناصر البدوية الأخرى يظهر حقيقة أن ابن بطوطة (حوالى عام ١٣٤٠م) وجد مجموعة من البجة وتفهم لغتهم (تحفة النظار القاهرة ١٩٣٩ المجلد الأول ص ١٨٨) ، ويبدو أن هؤلاء العرب لم يكونوا هناك لفترة طويلة .

(٤) المقريزى . الخطط (القاهرة ١٣٢٤ هـ) المجلد الأول صـ ٣١٣ – ٣١٩

(٥) Handbook of the Anglo-Egyptian Sudan,1922,p.206.

والبشارين والهدندوة – نتيجة للحياة فى الجبال لقرون – شعب رجولى ومستقل، أما المجموعات النائية فهى مشاكسة وقاسية وانتقامية . والبدو – خاصة النساء – خجولون جدا فى الاتصال بالغرباء ، وبدأت في التحول صفات أولئك الذين سلكوا حياة الاستقرار الجديدة تحت إدارة النظام الحالى من خلال تطوير مشاريع القطن في القاش وبركة ، والأمرأر والبنى عامر مسلمون وأكثر قابلية للتعلم من المجموعات الشمالية والجبلية .

وبينما هذه القبائل بدوية بدرجات مختلفة ، وتبدى نفس الصفات العامة ، فإن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية تختلف بشكل جوهرى عن حياة البدو العرب ، وهذا مرجعه بشكل كبير للجدب الشديد لبعض الجبال من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى الخصوبة النسبية للجبال الأخرى . والسهل الواسع المرتفع الذى يشغلونه ، والتنظيم القبلى للبجة فضفاض بشكل عام عما هو عليه عند العرب ، وهو يقدم صفات المجتمع الأمومى الذي تكون فيه الوحدة هى الأسرة ، وهم لا يقومون بتحركات كبيرة مشتركة كالقبائل العربية فى كردفان أو البطانة ، ولكنهم يتجولون فى مجموعات أسرية صغيرة بحثا عن الكلأ ، وهو في حالة البشارين بسبب قلة عددهم ، وبالنسبة للآخرين بسبب الكثرة النسبية للعدد الصغير للقطعان . وتنقسم القبائل الرئيسية إلى « بدنات » لكل منها وسمها الخاص للجمال ، والحدود الإقليمية وحقوق الآبار . وتسير عملية توحيد القبائل بشكل سريع تحت إدارة الحكومة الحالية .

وقد سمحت لهم أساليب التطور التى تبنتها الحكومة الحالية باستخدام أساليبهم الخاصة فى التعامل مع الجريمة ، وهى مبنية على صفة خاصة بالبجة تفضل التسوية بدلاً من العقوبة ، والتعويض بدلًا من الانتقام ؛ لذا فالمحاكم الأهلية تطبق قوانينها العرفية (السوالف) ؛ ولم تمسهم الشريعة الإسلامية حتى في مجال العلاقات الأسرية . فالبجة مثلا يؤمنون بشكل كبير فى قدسية الأرض ، وعدم قابلية تحويل ملكية الأرض ، وليس للنساء نصيب فى إرث الأرض [1]، وغالبا ما يرفض قضاة القبيلة تطبيق الشريعة الخاصة بالميراث عندما يكون الابن عديم الفائدة ، وفى وهذه الحالة يبقى الميراث أمانة عند شخص ما ، كما أن عاداتهم مغايرة للقانون القبلى العربى بالرغم من أنهم يقتربون الآن أكثر نحو ذلك الاتجاه . ولم يكن البجة يدفعون « الدية » أبداً حتى وقت قريب ، ويفضلون الانتقام الشخصى الأكثر وحشية ، ويفضل الآخرون

---

(١) يعتبرأصل الأرض أنه يخص القبيلة ، ولكن ملكية القبيلة معترف بها على أساسين فقط : احتلال الأرض العذراء أو الغزو ، ويجب مقارنة ذلك مع ما يقوله العرب بالعمارة أو الحقوق الدائمة التى تكتسب باحتلال الأرض بنية وضع اليد وتنمية أرض الغير . ويسمح البجة دائما باحتلال الأرض بغرض وضع اليد، ولا يمنحون أبدا حقوقاً ، وإنما بسبب نظرية ملكية القبيلة للأرض.

التسوية بطريقة ما . أما بالنسبة للجروح فإذا لم يتم الثأر فى اللحظة والتو فلا إلحاح الطريقة العربية «العين بالعين» : فالذى يتسبب فى الجرح عليه رعاية ضحيته ومساندة أسرته حتى يشفى تماماً ، ثم يرسله بعيداً بعد أن يعطيه هدية مناسبة ؛ سيفاً مثلا إذا كان الجرح قد حدث بتلك الوسيلة . وهناك أربع وحدات قبلية رئيسية هى البشاريين والأمرأر والهدندوة والبنى عامر .

البشاريين :(١٥.٠٠٠) ظهروا أولا كقبيلة متميزة فيما بين عامى ١٠٠٠ و١٤٠٠م، ويرجعون بنسبهم إلى بشر بن مروان بن اسحق بن ربيعة الذى استقر فى منطقة المناجم فى القرن الرابع الهجرى ، ويمتد موطنهم اليوم من سهول البطانة ، وشمالاً حتى داخل الحدود المصرية ، وتغطى مساحة واسعة تبلغ ٥٠.٠٠٠ ميل مربع ، ويقطن فى الشمال العالياب والحمادوراب الذين لهم ارتباطات مع مصر عن طريق التزاوج مع عبابدة العشاباب ، وعن طريق التجارة مع أسوان ، وتتكون ثروتهم الرئيسية من الجمال ، ويقطن إلى الجنوب من هؤلاء الشانتيراب ، وهى مجموعة متوحشة وغبية تعيش منعزلة فى جبالها ، ثم يأتى العمراب وعتباى أم ناجى ، وتقطن الأخيرة فى السهول الواقعة بين الجبال والنهر ، وهم بدو خلص ، ولكنهم تعربوا أكثر من خلال اتصالهم بالنيل وهناك أيضا مجموعات عمادية عطبرة التى تتحدث لغتين ، واختلطت مع الجعليين : البعض منهم مزارعون أشباه البدو ، والآخرون يملكون الحيوانات .

إن التنظيم القبلى للبشاريين - خاصة أولئك الذين فى الشمال - فضفاض جداً ، وهذا مرجعه تحركهم فى مجموعات صغيرة بحثا عن الكلأ ، وعزلتهم وسط الجبال والصحارى القاحلة . ويتم الاعتراف بشيوخ البدنات فى حد ذاتهم ، إلا أن السلطة الحقيقية هى سلطة رؤساء القبائل .

أما الأمرأر : (٤٥.٠٠٠) فهى سلالة بجاوية نقية ، وقد قارنهم « ريزنر» بنوبيى المجموعة (س) ، وقد أصبحوا كيانا قبليا فى حوالى عام ١٧٥٠ م ، ويسكنون الآن على منحدرات تلال البحر الأحمر والسهل الساحلى شمال بورتسودان ، وكانوا قبل مائة عام قبيلة غير مهمة، ولكن لامتلاكهم قطعاناً ضخمة من الضأن والإبل التى لا تنجح فى الجبال أمنوا لهم موطئ قدم فى السهول خاصة فى المنطقة الجنوبية بين خور عرب ونهر عطبرة . وتحمل تسللهم فى البداية الهدندوة والبشاريون السكان الأصليون ولكن حدث خلافًا واحتكاكًا فيما بعد ، والبعض منهم مزارعون، خاصة الذين يسكنون حول سنكات فى أو حول الخيران، والبعض الآخر يزرع القطن فى طوكر والقاش، وقد أدى هذا التوسع للتزاوج الكبير مع القبائل الأخرى، وما زالت الأغلبية منهم فى واقع الأمر بدواً، وليست لهم مساكن دائمة، وهم مع ذلك يظهرون نزعة أقل من البجة الآخرين فيما

عن مميزاتهم العامة قائلا :

لغتهم خالية تماما من التعابير العربية ، وهم أفضل من ينطقون التبداوية وهم يربون « الثقة » بشكل أكبر مما هي عليه في أي مكان آخر ، وهم مرعبون جدا في القتال أكثر من القبائل الثلاث الأخرى ، ومن النادر أن يتحداهم الآخرون . إن طريقتهم العامة للحياة – كما هي الحال مع كل البجة – روضتهم على تحمل نقص الطعام والماء ، كما مكنتهم بنيتهم الجسدية القوية مع الطعام المناسب على العمل حمالين وتولي الأعمال اليدوية الشاقة أكثر من الآخرين (١) ... والأمرار رفقاء مبهجون وسريعو البديهة ، مع روح دعابة قوية ومغرمون عادة بالنوادر (٢)

الهدندوة : يعتبر الهدندوة اليوم أكبر وأهم القبائل المتحدثة باللغة التبداوية ، وقد تطوروا من مجموعة جبلية صغيرة إلي قبيلة كبيرة من عام ١٦٠٠م ، واحتلت أو تزاوجت مع أو امتصت تلك القبائل التي صاهرتها . ويعد الشيخ موسى بن ابراهيم الذي كان ناظراً خلال الفترة المصرية (توفى عام ١٨٨٤م) هو المسئول بشكل كبير عن اندماج وتماسك القبيلة . وقد جذبت هيبتهم – تحت النظام الحالي – العديد من المجموعات غير الهدندوية للانضمام تحت إدارة ناظر واحد ، ويصل تعداد الهدندوة اليوم ٧٠,٠٠٠ نسمة .

ويعيش الهدندوة بين نهر عطبرة والبحر الأحمر وجنوباً حتى حدود إريتريا والحبشة، وهم مجموعات بدوية أو شبه بدوية ، يربون الإبل ويعملون أدلاء قوافل ، وبدأوا في عام ١٩٢٨م في زراعة القطن ، والآن فإن ٥٥٪ من حصص القاش و٢٥٪ من حصص طوكر مخصصة للهدندوة . وبالرغم من هذا التطور الاقتصادي الجديد فإن النظام العشائري ما زال مُحْتَفَظا به وبقوة كما كان . وبسبب عمل أفراد من كل « بدنة » في زراعة القطن فإن انتعاشهم الإقتصادي يؤثر على اقتصاد القبيلة كلها حتى في التلال البعيدة .

البني عامر : يتحدث معظمهم التجرية ، وهي لغة سامية . وأصبحوا مسلمين منذ قرن تقريباً (٣) وعددهم في السودان ٣٠,٠٠٠ نسمة ، ويعيش بعضهم في منطقة طوكر ، وبعضهم بالقرب من كسلا ، والبعض الآخر على طول الحدود الإريترية .

وتعيش أغلبية القبيلة (٦٠,٠٠٠) نسمة في إريتريا ، حيث تعترف معظم الأقسام بالرئيس « دقلال » الذي يعيش في أقوردات . ويعد البني عامر أقل وحشية من الهدندوة ، ويعمل الذين يعيشون في السودان بتربية الماشية بشكل أساسي ، بينما القليل منهم مزارعون ، ويملك أولئك الذين يعيشون في إريتريا الإبل بالرغم من أن العديد منهم قد امتهن الزراعة .

---

(١) الحمالون الذين يشاهدهم المسافر من هذه القبيلة .

(٢) G.E.R. Sanders,,, the Amarar,,, SNR .xviii .pp 214-15

(٣) بدأ محمد عثمان الميرغني نشر دعوته في عام ١٨١٧ م .

إن التنظيم الاجتماعي للبني عامر مع المجموعات المتحالفة من الهباب تثير الاهتمام ، فقد نشأت القبيلة من اتحاد العناصر البارزة بشكل مغاير للهدندوة التي نشأت من اندماج المجموعات المتحالفة ، وبينما تحقق القبائل البجاوية الأخرى المساواة التامة لكل أعضاء القبيلة فإن التنظيم الاجتماعي للبني عامر ارتكز على شكل من أشكال الطبقية التي نتجت من فرض الجعليين أنفسهم حكاماً على خليط المجموعات الأصلية للتجرى والبلو [1] . والطبقة الارستقراطية تعرف بالنباتاب ، وهي منتشرة وسط مختلف الأقسام في إريتريا ، أما في السودان فهم يوجدورن فقط وسط قسم الهسرى ولا يتزوج النبتاب من خارج طبقتهم ، وهم يتحدثون البداوية ، ويدعون الأصل الجعلى والانحدار من العباس ، بالرغم من أن مظهرهم لا يختلف عن بقية القبيلة . أما اعضاء القبيلة العاديون المنحدرون من البلو والعناصر الأخرى التي تم امتصاصها فيعرفون بالتجرى - الموالى ، وربما العبيد . وربما جاء الاسم من أن معظم اللاجئين الذين أصبحوا « موالى » أتوا من محافظة تجرى في الحبشة . ويحدث الخلط والتشوش من حقيقة أنهم جميعا يدعون بأنهم عرب بشكل مغاير مع النبتاب .

وما زالت العلاقات القديمة بين النبتاب والتجرى قائمة ، برغم أن التقسيم القديم للعمل قد انتهى ، كما أنه لم يعد هناك وجود تحت إدارة الحكومة الحالية - للامتيازات التي كانت لدى النبتاب - كأن يقتل النبتابى التجرى ولا يقتص منه . ويكمن أساس النبالة في الاحتفاظ بالإقطاع ، فالقطعان نظرياً هي ملك للنبتاب ، ولكنها تركت للتجرى كما لو كانت ملكه ، وهي خاضعة لرسوم محددة : مثلا يأخذ النبتابى رأساً من كل قطيع ، في العيد الكبير ، ويبقى لاستخدامه بقرة حلوباً نعجة حلوباً من كل قطيع ، ويعيدها عندما لا تدر اللبن ، كما على التجرى دفع رسوم محددة عند الزواج ، كما تبقى محرمات اللبن الخاصة بالبجة بالنسبة للنبتابى كما هي بالنسبة للنساء في البجة والنبتابى كالمرأة قد لا يحلب اللبن .

أما القبائل الأخرى الصغيرة فهي الحلنقة والأرتيقة والكمبالاب - (كسلا) والشاياب (منطقة طوكر) والعبابدة . وكانت الحلنقة التي تعيش في منطقة كسلا قبيلة هامة ، ولكن نتيجة للانقسامات والخلافات وسنوات من النزاع مع الهدندوة والأحباش والمهديين ضعفت ، وهي مستقرة الآن تقريبا ، ويفترض أنها جاءت أصلا من «سراى » في شمالي الحبشة ، كما تحتوى البداوية التي يتحدثونها على الكثير من الكلمات الأمهرية والتجرية والتبداوية . أما العبابدة [2] فينتشرون أساساً في الحدود

(١) طبقا للويو lobo كانت هناك مملكة البلو المسلمة في القرن السادس عشر قبالة سواكن « كما أن قبيلة البلو المسلمة والتي سكنت تجرى(legrand, Relation historyique d,Abyssinie,p.38) مذكورة في « فتوح الحبشة » (ed., R.Basset , p.39) وأدى هجوم البلين إلى ضعف القبيلة .

(٢) يدعى العبابدة أنهم ينحدرون من جد يسمى عباد ، كما تعني الكلمة أيضا مسيحي نسطورى بنظرة Journ Asidt.,1838,ii والمسعودى ed.,sprenger,247,951

المصرية بين النيل والبحر الأحمر ، ويسكن المليكاب الفرع الكبير من العبابدة على طول الحافة الزراعية للنيل من كورسكو حتى بربر، وهم فى الغالب يتحدثون لغتين ، ولكن البعض منهم يتحدث العربية فقط ؛ نتيجة لعملهم مدة طويلة مرشدين للقوافل فى بطن الحجر واستقرارهم فى وادى النيل ، كما أنهم ما زالوا محافظين على لهجتهم البداوية ، وقد اقترح اعتبارهم مثيلاً للبليميين الذين ذكرهم الكتاب الكلاسيكيون .

إن إسلام أغلبية البجة إسلام سطحى ، فلا أحد منهم يُعَدُّ تقيًا بشكل واضح ، ولو أنهم مثل معظم السودانيين يؤمنون بالخرافة ويصدقون بسرعة أى فكى ينال وسطهم سمعة بأنه يمتلك البركة . إن مثل هؤلاء الرجال – برغم أنهم قد يكونون غرباء – يتم الاعتراف بهم كوسطاء لحل الخلافات . [1]

ولم تتعصب دينيًا سوى أقسام من الهدندوة خلال فترة المهدية ، بالرغم من أن الدين لا يلعب سوى دور صغير فى ولائهم . والقبائل الأخرى إما ابتعدت بنفسها أو – مثل البنى عامر – قاومت المهدية أولاً ، ثم أعلنت ولاءها للمهدية درءًا للمشاكل .

ولا يهتم معظم البدو بالطوائف الدينية التى تلعب دورًا أساسيًا فى الحياة الدينية للسكان المستقرين فى السودان ، ولم يتأثروا إلا قليلاً بفقراء فترة الفونج ، أما اليوم فإن كل من يدعى أنه ينتمى لأى طريقة يصبح عن طريق الدعاية ميرغنيًا ، وسيقول الآخرون فى بعض الأحيان أن شيخهم هو عبد القادر الجيلانى ، ولكنهم لا يعرفون شيئا عن التعاليم ولا يقيمون الذكر . وبعض مجموعات الهدندوة (الترك والشرعاب والآخرين حول سواكن) مجاذيب . وللحلنقة ولى يسمى الشيخ عبد الله تلميذ دفع الله العركى وضريحه فى المكلى .

وبعض نساء الهدندوة المستقرات غيورات على دينهم ، ويؤدين الصلوات والصوم بشكل صارم ، وكانت هناك خلاوى للنساء ، وتستخدم زاوية للنساء فى سواكن ، حيث ينشدن أناشيد الختمية بعد صلاة الجمعة .

ج – **القبائل المتحدثة بالعربية** – دخلت معظم القبائل العربية السودان عن طريق مصر ، وسنقوم بدراسة هجرتهم فى الفصل القادم . إن مصطلح « عرب » الذى يستخدم فى الوقت الحاضر فى السودان كمصطلح إثنى هو مصطلح غامض . إن العديد من القبائل النوبية والبجة الذين قمنا بدراستهم أعلاه ، بالإضافة إلى بعض القبائل الزنجية الخالصة مثل الفونج تدعى كلها السلالة العربية . ولا يمكن الوثوق فى

(١) هناك العديد من التقاليد التى تقول بقدوم فقراء من الخارج ، وتزوجوا من القبيلة وكونوا عشيرة جديدة . وللحلنقة العنصر الزيلعى الذى انحدر من الفكى أحمد الزيلعى (من زيلع فى أرض الصومال) الذى يتمتع بامتيازات خاصة فى المسائل الدينية ، وله مسجد يعرف باللابسنياب ، كما أن قسمًا من الأشراف يدعى أنه منحدر من الفكى حامد بسى الذى قدم من الحجاز كى يدخلهم فى الإسلام .

شجرة الأنساب بالمرة لأنها زائفة بشكل واضح ؛ لذا فإن « عربى » اليوم قد يكون فى الغالب إفريقياً صرفاً ، بلا أى أثر للأصل العربى . (١)

لقد حدثت عملية التحلل العرقى ، وإعادة التوحيد عن طريق تحالف حركتين أكثر من كونها عن طريق الغزو : الأولى من خلال تسرب القبائل العربية واستقرارها وتزاوجها مع الشعوب المحلية (٢) ، وأصبحت القبيلة المحلية تحت سيطرة زعيم عربى، كما ألحقت قبائل أخرى نفسها بالعرب ، أخذت كلها اسم ذلك الزعيم . إن قبيلة حامد فى كردفان – المستقرة الآن – هى مثال على القبيلة المركبة (٣). والثانية من خلال نزوح القبائل الأصلية نتيجة التحول المفاجئ الذى سببه التسرب العربى وغزو الفونج . لذا نفهم تشتت القبائل الحالية – الجعليين – الدناقلة الذين عدلوا أنفسهم أو حجبت الدماء الزنجية عناصرها الحامية بالكامل – وكذلك مجموعات النوبا – الفونج الزنجية .

وأفضى هذا التشتت إلى الانصهار التدريجى بين السود والبيض – سكان البلاد الأصليين والمهاجرين – مع الاتجاه العام نحو إعادة إنتاج شكل جسمانى جديد ما عدا فى حالة الآبالة الذين حافظوا على أسلوب حياتهم القديم ، والذين ينتمون أكثر وبشكل قاطع للسلالة العربية عن أى سلالة أخرى . وحتى هؤلاء البدو فإن العنصر قد تحول بالتوالد من الإماء السود اللواتى تم امتلاكهن خلال فترات الحكم المصرى والمهدية . وبالرغم من أن هذه القبائل العربية جلبت معها الإسلام ، فإنها فى المقابل تبنت العادات والثقافة الإفريقية المميزة . فالكبابيش مثلاً القبيلة التى تعد مع بعض الحقيقة قبيلة عربية خالصة ، تدين بتكوينها الحالى إلى اندماج العديد من العناصر العربية والحامية خلال فترة طويلة خاصة بعد أن أدى الاضطراب العنيف للمهدية إلى تقطيع أوصال القبيلة إرباً ، وكان مرجع بعض هذه العناصر عدداً من الإماء اللاتى تم اقتناؤهن، وغيرت بشكل جوهرى الدماء الزنجية . وقد تبنت العادات الحامية مثل چيرتق الزواج وممارسة ختان النساء .

وقسم السيرهـ . ا. ماكمايكل عرب السودان إلى قسمين رئيسيين : المجموعة الجعلية – الدنقلاوية التى تضم معظم المستقرين حول النيل وفى كردفان ، وهذه القبائل الرئيسية هى الجوابرة والبديرية والشايقية والبطاحين والجموعية والجوامعة .

---

(١) أى فحص لأشجار النسب التى أوردها ما كما يكل فى Hist. of the Arabs in the Sudan يظهر كيف أن « أسلاف وهميين » قد تم إدراجهم لربط مجموعة جديدة تتحدث العربية مع قبيلة مميزة .

(٢) introd. to H.field,s Arabs of central iraq

(٣) ينظر . ما كما يكل . مصدر سابق الجزء الاول صـ ٢٥٦ – ٢٥٧ ، ويجب ملاحظة أن أسماء القبائل التى تحت الجذر جم مثل جموعية ، جميعاب تشير إلى أنها خليط .

ولهذه القبائل نسبة ضئيلة جدا من الدم العربى ، ولا يمكن تمييزهم إثنيًا وثقافيًا عن الدناقلة الرطانة الذين من الأفضل أن نضيف إليهم تلك القبائل . أما بعض القبائل الأخرى مثل الدواليب والجوابرة والبديرية والجوامعة ، والشواهيت فى كردفان الذين تركوا النيل فى زمن الفونج واستقروا فى كردفان فقد امتصتهم العناصر الزنجية رغم أنهم ما زالوا يسمون أنفسهم جعليين . كما أن القوديات التى نزحت فى الوقت نفسه وتنتمى للمجموعة السلالية النوبا - الفونج تسمى نفسها جعليين . ثانيا : مجموعة جهينة ، وهى تدعى حقيقة الدم العربى ، وهى تضم معظم البدو الأبالة فى كردفان (الكبابيش - دار حامد - الحمر) ، وكذلك القبائل الموجودة فى البطانة والجزيرة (شكرية - رفاعة) ، والبقارة ملاكى الماشية [(١)]

ولأغراض وصفية يمكن تصنيف العرب إلى مجموعتين مهنيتين : المستقرين والبدو . وهذه المجموعات ليست ثابتة بشكل مطلق ، وهناك دائما انتقال من مجموعة إلى أخرى وذلك طبقا لطبيعة استقرار أو عدم استقرار البلد . وعندما تكون الحكومة المركزية قوية فإن بعض القبائل البدوية تتجه لأن تصبح شبه البدو [(٢)]، مثلا قبائل البطاحين النهابة فى البطانة ، وهى تتاجر فى قطعان الغنم والماشية والإبل والماعز ، كما تزرع الذرة فى موسم الأمطار ، وأصبحت مهن أعضائها تتجه نحو التخصص . وتطورت قرية أبو دليق فى الوقت الحاضر لتصبح مركزًا دائمًا لهم ، حيث يعيش شيخهم أو ناظرهم . كما أن الرباطاب حول أبو أحمد مزارعون وبدو، وينتجون أفضل التمور فى السودان . كما حدثت العملية نفسها مع الشكرية والشايقية والحسانية والحمر ، وأجبرت بعض «الأقسام » فى كردفان لتصبح مستقرة بسب تدمير قطعانهم خلال فترة المهدية . كما أن حفرالآبار العميقة للمساعدة فى توفير وتثبيت ضرورات الحياة قد أدت أيضا إلي الاستقرار ، ومع ذلك فالبيئة هى العامل الحاسم الحقيقى الذى يحدد حياة القبائل البدوية رعاة الإبل والمجموعات المستقرة .

---

(١) هناك مبالغة فى عدد العرب الذي جاءوا إلي السودان ، كما أن المورفولوجي السامى كان نادرًا وسط الشعوب المستقرة ، وإذا كانت السامية قد جاءت فى البداية وكانت تمثل ٥-١٠ ٪ من السكان فإن مميزاتهم السامية قد تقلصت إلى ١-٢٪ ، كما أن هيمنتهم ثقافيًا قد عدلت بشكل كبير مميزات الشعوب التى استقروا بينهم . وثقافيا قد يكون هناك عامل سامي ما بين ٢٥-٥٠٪ ، وقد أدت هذه الهيمنة الثقافية إلى المبالغة فى العامل السلالى العربى (كما جاء فى ماكمايكل . Hisl. of the Arabs ، وموقف المسئولين الحكوميين هو تصنيف أى مسلم إفريقى يتحدث العربية بأنه عربى متجاهلين بذلك العنصر الحامى القوى وهذا شبيه بالاستخدام الفرنسى لكلمة عربى . إذن فالكلمة « عربى » هى مصطلح ثقافى أكثر منه مصطلحا إثنيا ويمكننا أن نصنف ببساطة السكان المستقرين على أنهم إما حاميون « تسيمو » ، أو زنوج - تسيمو (أى أصبحوا ساميين) ، ولكن الاكثر وضوحًا أنهم حاميون - زنوج - تسيمو (مثلاً الجعليين) أو زنوج - حاميون - تسيمو (مثلا الجوامعة) - انظر ماكمايكل الجزء الأول ص ٢٢٣.

(٢) تعنى عادة تسمية القبيلة بأنها شبه البدو ، إذ فى زمن الخريف يبقى جزء من القبيلة فى القرى للزراعة ، بينما ترحل بقية القبيلة مع القطعان ، أما أثناء بقية العام فلا يبقى إلا كبار السن فى القرى بينما تتحرك البقية باستمرار بحثًا عن الكلا .

ويعتمد البدو والمستقرون كل منهم على الآخر إلى حد ما . فالبدوى يجلب الزبد والجبن والحيوانات والجلود إلى المدن أو الأسواق ، ويستبدل بها الحبوب والسكر والبلح والملابس وأدوات الزينة والعطور .ولا يملك العربي إحساساً بالوحدة القومية ، ولم تتحد القبائل أبداً لأى غرض سوى فى مناسبة واحدة ، فليس هناك إحساس عميق بالتعاون مثل وطنيى الأمة المستعدين للتكاتف من أجل ازدهار بلادهم . وقد فهمت الحكومة التركية - المصرية هذا الأمر جيداً ووضعته فى المحك العملى فى أساليب حكمها ، لذا فقد تسببت ظروف خاصة أحدثت تمردا قوميا ناجحا . وتوضح هذه الأمور حالة التخلف التى كان عليها السودانيون قبل إعادة الفتح ، وعاشت كل منطقة أو قبيلة من أجل حياتها ولها كلمة واحدة التافهة مع جيرانها ، ولم تكن لها اهتمامات أو أنشطة مشتركة مع الآخرين . وهم مستقلون سواء المزارعين أو البدو ، منفصلون - فى الأساس - كل منهم عن الآخر ، ومستقلون ، وفى خصومة غالبا .

ويسود نظام طبقى قوى وسط الشعوب المتحدثة بالعربية ، ويحتقر ابن المدينة والمزارع عرب (بدو) الصحراء [1] الذين يدعون بحق الدماء العربية ، وكلهم يحتقرون الزنوج الجنوبيين بالرغم من أن العديد منهم لا يمكن تمييزهم من الزنوج .

وكانت أحوال السودان عندما دخل العرب - مع وضعنا فى الاعتبار زراعة المحاصيل وتربية القطعان - كما هى دائما فى الفترة الحالية التى تم فيها إدخال نظم الرى ، لذا فالعرب الذي استقروا فى المناطق النهرية تم امتصاصهم داخل المزارعين وتبنوا العادات النوبية التي تظهر الآن نفس المميزات الجسدية مثل الدناقلة الذين احتفظوا بلغتهم ، كما أن أولئك الذين استقروا جنوباً تم امتصاصهم داخل مختلف المجموعات الزنجية التي عدّلتهم ثقافيا . كما احتفظ البدو - من جهة أخرى - على معظم مميزاتهم السلالية والحياتية وتنظيمهم القبلى .

المزارعون : وهم يعيشون فى الغالب على طول النيل والنيلين الأزرق والأبيض وفى الجزيرة وفى سهول كردفان . وتتميز المجموعتان بطريقة زراعة الحبوب . فالنيل بالنسبة للكثيرين من « أهل السواقى » هو مركز وجودهم كوسيلة لرى أراضيهم على طول ضفافه ، وللحفاظ على القطعان والأسراب ، ويمكن بصعوبة تمييز أسلوب حياتهم عن أسلوب حياة الدناقلة، ومع ذلك فالنيل ليس المصدر الوحيد للحياة فى السودان، وهناك الكثير من القرى حتى فى الشمال لديها أمطار كافية تمكنها من الحفاظ على الحياة الزراعية ، ويعتمد الناس بشكل أساسى جنوب الخرطوم - خاصة فى كردفان - على الزراعة المطرية .

---

(١) يستخدم مصطلح « مستقرون »لأى بدوى مقارناً مع الكلمة المصرية القديمة « عامو» لكل من بدو آسيا الساميين والبجة الحاميين بين النيل والبحر الأحمر .

وبالرغم من أن القرويين يفتخرون بنسبهم الزائف أو نسبهم القبلى ، فإن التنظيم القبلى ضعيف أو معدوم وسطهم . وقد أضعفت الفترتان المصرية والمهدية ، أو دمرت بشكل كبير التجمع القبلى، واليوم فإن معظم القرى تتكون من أعضاء عدة قبائل مختلفة ، ربما تكون موجات لمختلف المهاجرين أو من بقايا جنود المهدية ، ويجد المرء مثلا - فى قرية من قرى مديرية النيل الأزرق - خليطا من قبائل رفاعة والمحس والجعليين والدناقلة وآخرين [١] ، لذا فقد حل التنظيم المشاعى محلّ التنظيم القبلى واتجهت عملية انتقال السلطة ببطء عما هى عليه في القبائل البدوية . وكانت البداية فى عام ١٩٢٥م بمجالس كبار السن للبت فى القضايا البسيطة .ومنذ ذلك الوقت تسارعت عملية تطور الحكومة المحلية والإدارة المحلية التى تعمل فى المناطق الريفية والمجالس البلدية ومجالس المدن والمناطق الحضرية [٢] ، ورغم وجود هذه الاختلافات العرقية والقبلية فإن النظام يسير بنجاح .

فى بعض الأحيان - عندما تكون القبيلة فى حالة تحول من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار - فإن سلطة ناظر القبيلة وعمدة مجموعة من القرى تبدو متشابكة ومتداخلة ، إلا أن المنازعات يتم حلها بواسطة السلطة المحلية . إذا حدث مثلاً أن سكنت مجموعة من الشكرية فى منطقة للهدندوة فيجب عليهم إخطار ناظر الهدندوة ، ويسير الاتجاه نحو دمج المجموعات القبلية المختلفة تمام الاختلاف مثلما حدث بالنسبة للإدارة المحلية لنوبا تقلى (المسلمين) مع الحوازمة البقارة البدو فى الجبال الشرقية فى عام ١٩٤٢م.

إن الحياة اليومية للمزارع هى الاشتغال بالزراعة سواء على النيل أو بالأمطار أو فى بطن الاودية ، وبتنظيف الأرض وعزقها وبذرها وحصاد المحصول. ويبدأ الخريف من يونيو حتى نوفمبر وهو أكثر شهور السنة ازدحاماً ، أو يعمل فى إعداد الأراضي المطرية في ظروف مرهقة وصعبة تحت المطر فى الطين ، ولا يفعل المزارع شيئا فى الصيف سوى الثرثرة ، ويعمل مزارعو الأراضى النهرية عملاً أكثر عما يفعله أولئك العاملون فى الأراضى المطرية ، إذ يزرعون ثلاثة محاصيل ، فلديهم الزراعة المطرية

(الضهرة) وكذلك الساقية أو زراعة الجرف بالسلوكه ، وسواء أكان المزارع يعمل فى الأرض النهرية أو المطرية ، فإن مقتضيات بيئته تستعبده وتصبح حياته حياة التابع . إن الالتحاق بالأرض مع ميل السكان الاصليين نحو زراعة كل ما يمكن زراعته بالأساليب القديمة هو نهاية المشوار الطويل المجهد اليومي من القرية ، ولا تهتم القرية سوى بالاشياء التى تدخل فى نطاق حياتها . وكل إنسان وحيوان يعرف من نظرة ،ويعرف كل منهم الدور الذى يلعبه في حياة القرية ، أما ما عدا ذلك فهو

---

(١) ماكمايكل . مصدر - سابق الجزء ١ ص ٢٤.

(٢) فى عام ١٩٢٥ كانت هناك ٥ مجالس ريفية و٤ مجالس مدن و٤ مجالس بلدية ذات سلطات تنفيذية وميزانيات مستقلة .

خارج أفقها. ولعلامات السماء أهميتها العملية. وتعد الصناعات الريفية بدائية لبلدكان له اتصال بالثقافات الأعلى ، وهى محدودة لتزويده بالوسائل الضرورية للزراعة وصناعةالقوارب والدباغة وغزل الصوف للخيام والحبال ، والقطن لصنع الدمورية ، وضفر السعف لصناعة البروش والأطباق والمقاطف « والقففافة » وصناعة الأدوات والأوانى البدائية والفخار والعناقريب والحجول الفضية والأسورة والمصنوعات الجلدية (السروج والأخراج وغمد السيوف والأحذية والحقائب) .

وكقاعدة عامة لا توجد دكاكين في القرية أو الفريق ، ولكن هناك ملمحاً مهماً فى الحياة المحلية وهو أن لكل منطقة عدداً محدوداً من الأسواق تعقد بانتظام كل أسبوع أو شهر فى مكان مفتوح ، وللسوق اسم اليوم الذى يعقد فيه ، وتقام هذه الاسواق فى مكان تقليدى لا تحدده أى مبانى سوى توفر الأشياء الضرورية وموارد المياه ، ويبيع الريفيون والبدو فى هذه الاسواق منتجاتهم ويشترون كل شئ من الحجاب حتى الجمل ، ويسافر التجار من سوق إلى آخر ، وهم يحملون بضاعتهم على ظهور الحمير والجمال ، ويتواجد العمدة دائما فى السوق لتسوية القضاياالصغيرة التافهة ، ولا تعمل الأسواق كمراكز للحياة الاقتصادية الريفية البدوية فحسب ، وإنما كمصدر للأخبار أيضا . ولدى كل المدن أسواقها الدائمة ، وأدى الانتعاش الاقتصادى الذى أحدثه الاحتلال البريطانى إلى تحول العديد من القرى المهمة إلى مدن تجارية ، كما تتركز فى المدن النشاطات الصناعية ، و تشكل كل مهنة شكلاً من الأشكال النقابية لها شيخها الذى يحل المنازعات الصغيرة ويتفاوض مع السلطات. وتتجمع كل مهنه فى شارع يحمل اسمها ، ويتم فى هذا الشارع صناعة وبيع المواد ، وتباع المنتجات ذات الأوزان والأحجام الكبيرة مثل الحبوب والبطيخ والعلف والفحم والخشب فى أماكن معينة تسمى « الملجة » . والعديد من السلع الأوربية مثل الشاى والسكر والمصنوعات القطنية أصبحت ذات أهمية قصوى لأبسط سودانى .

ومن المتيسر تحقيق أخطر الأشياء ، وإطلاق التعميمات بشأن صفة وخلق المزارع على حساب إغفال أهم العوامل ؛ لأن الحقيقة الحية معقدة جداً . إن العوامل المشتركة لأى مجموعة هى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعرقية . ويجب ملاحظة أن أى اختيار قد يكون محدداً ومقيداً برؤية واهتمام الكاتب أو المؤلف . إن هؤلاء الناس – مع النوبيين المغامرين – هم أهم شعوب السودان ، طالما كان التخطيط يتعلق بالمستقبل ، ولكن يجب ان نتذكر أن مصطلح « عرب » كما أطلق عليهم هو أكثر قليلاً من مجرد مصطلح لغوى ، لأنهم فى الحقيقة شعوب ذات أصول قديمة فى البلاد .

هناك عامل خلود فى حياة هؤلاء الناس ، إن احتياجاتهم بسيطة جدا [1] والحياة معهم انسجام طبيعى لدرجة يشعر معه الانسان أن هذا الاحتفاظ البسيط بالإيقاع الطبيعى هو الذى يوجه حياتهم لتبلغ غاياتها . إن نبل وكياسة كل الذين لم تفسدهم حياة المدينة هى مضرب الامثال ، وذكاء السودانى المستقر هو بالتأكيد ذكاء ساكن عن كونه ذكاء ديناميكيًا ، وقد ظهر ذلك فى الطريقة التي بها تبلورت خبرة أسلافه فى الأمثال المحكمة البليغة التى ظهرت بإصرار في حديثه عن متغيرات أحوال حياته المحدودة، وتنزع نحو تحرير اهتماماته الشخصية ، وهو يستطيع أن يصون ويكرر ولا يمكنه أن يخلق .

إن التضامن الصريح بين الروح والطبيعة المترسبة فى روح المزارع سببه عبوديته للأرض لقرون ، والتى يمكن فصم عراها فقط بتحطيم القيد بين الانسان والطبيعة، وهذا يفسر فقد روحه الفنية وعدم وجود أى فن حى وقوى، وهو يعبر بشدة عن أى قوة خيالية يملكها فى إسلامه الذى تحرر روحيا من الجسد . والسودانى غير مصقول بسبب أميته ، وقد نتج جمود الشخصية هذا من بيئته الطبيعية وتدينه ، والآن وبكل هذا الجمود فإن حبه للإيقاع والغناء للأرض والحياة يُظْهِرَان أنه إذا ما تم تحرره من إرثه الدينى فإن تطور فكره وخياله وحبه للجمال سيكون سهلاً .

إن فهم المزارعين البالغين بطئ بشكل مروع ، برغم أن ذاكرتهم قادرة على التذكر ، ويجد المرء أن الأطفال سريعو الحركة ونشطون وأذكياء كالأطفال الانجليز الذين فى نفس السن ، إلى أن يصلوا سن البلوغ وعندها يحدث تغير مفاجئ ، وهذا التغيير مرجعه سببان : النضج البدنى المبكر والطقس ، كما ينمو النبات أيضا بسرعة فائقة ، بالاضافة الى بدء الخبرة الجنسية المبكرة ، والسبب الثانى انضمامهم إلى بيئة عقلية راكدة . وهم يبدأون الحياة بإمكانيات لانهائية ، ولكن البيئة التى يجدون أنفسهم فيها تثبط همتهم ، وإذا ما تم أخذهم بعيداً عن بيئة قريتهم بشكل كاف فإنهم يصبحون اذكياء وقادرين على العمل كإداريين ومهندسين وأطباء وكتبة وتجار،كأنما إهدار الطاقة الجنسية يؤدى الى إبطاء النشاط العقلى . وليس الطقس وحده – رغم تثبيطه للهمم – هو المسئول عن تبلد شخصية الشاب السودانى المفعم بالحيوية والنشاط ، وإنما البيئة الدينية الاجتماعية التى تحجمه أيضا ، وبمعنى آخر إنه الجهل التام والبلاهة والخرافة والإفلاس الدينى الذى يطوقه عندما – بعد الختان فى حوالى العاشرة من العمر – يدخل مجتمع الرجال ويغرق فى عبودية الزراعة مع تكراره الرتيب لنفس

---

(١) عادات الأكل بسيطة جدا ، ويتم شرب الشاى عند الاستيقاظ من النوم ، ويأتى « الغداء » بين الساعة ١٢و٢ ظهرا ويتكون من كسرة تقطع وتغمس فى صحن به ملاح . أما الوجبة الأخيرة فهى « العشاء » وهى كالغداء تماما . كما تصنع المريسة التى يشربون منها كميات كبيرة . ويأكلون اللحوم فى مناسبات محدودة عند قدوم ضيف أو فى « الكرامة » .

العمليات يوماً بعد يوم ، إذ إن الذكاء يتطور وينمو بالمكتسبات الجديدة ، ويظهر هذا بشكل خاص مع الفتيات . إن الفتاة الواعدة فى سن المدرسة تخضع لصدمة الخفاض الفرعونى فى حوالى الثامنة من عمرها ، وحتى إذ ما كانت حياتها العقلية والشخصية تبقى حية بعد ذلك فإنها تتزوج صغيرة وتسجن فى الحوش . وأساس الحياة هى الأسرة ، ولكن ليست الأسرة بالمعنى الذى نعرفه ، إذ إن الحياة الاجتماعية للمسلم تجعل ذلك مستحيلاً . إن تعدد الزوجات وسهولة الطلاق والاحتفاظ بالسريات وإنتاج أسراب من الأطفال ذلك كله يؤدى لأن تصبح النساء والأطفال مجرد قطيع . إنه قطيع أكثر من كونه مجرد أسرة يولد فيها السودانى ، وهذا يفسر العديد من الأشياء فى شخصيته . وتتجمع الأسرة فى الحوش الذى يتكون – عند سكان الأراضى النيلية وسكان المدن – من منازل من « الجالوص » مكونة من غرفة أو اثنتين أو أكثر، وعند مزارعى الجزيرة وكردفان من « تُكُلْ » من القش يحيط به سور من الشوك (١) . وتتم المشاركة فى الحوش على النمط الأبوى مع الأبناء وزوجاتهم وخدمهم ، وربما عبيدهم، وبرغم إلغاء الرق فإنه ما زال موجوداً فى واقع الأمر بدرجة ما (٢)، والكل تحت سيطرة الحبوبة التى تحكم النساء والأطفال بالقهر ، وتحافظ على التقاليد وتقاوم كل فكرة أو طريقة أو أداة جديدة ، وهى مصدر الرعب لكل أسرة وليست كل النساء منعزلات إلى حد كبير بين الأسر الموسرة ؛ إذ تحجز الفتاة – بعد سن الثانية عشرة – فى حوش الأم ، إلى أن تنتقل إلى عزلة أخرى فى حوش زوجها ، وليس من الاحتشام أن تخرج

---

(١) يجب أن نلاحظ تأثير الجغرافيا على المساكن ، إذ تسود المنازل الطينية على طوال شواطئ النيل . إن المسكن المعتاد فى مناطق السافانا هو القطية المستديرة (تسمى التُكُل)، وهى مصنوعة من إطار مستدير من الأعمدة ومسقوف بالقش ، وقد تبنى السكان العرب هذاالبناء من السكان السود . ويحيط بالقطية سور من الشوك ، كما تحبس ليلاً قطعان وأسراب الحيوانات فى حظائر داخل هذا السور ، كما يستخدمون أيضا «الراكوبة » وهى مأوى مصنوع من الأعمدة الخشبية والقش ، وهى جيدة فى الطقس الحار لأنها تسمح للهواء بالمرور فيها إلا أنها عديمة النفع فى الأمطار . ويمتلك البجة كوخًا مصنوعًا من بروش منسوجة من سعف الدوم مفروشة فوق عصى طويلة معقوفة . كما أن العرب ملاك الإبل يحتفظون بخيامهم المصنوعة من وبر الجمال أو صوف الماعز (الشقاق – الشباكا) والبروش فى شرقى النيل . أما بيوت البقارة (الشكايا) فهى ذات شكل دائرى مصنوعة من حصير مشدودة بالحبال يمكن طيها بسرعة عند التحرك، كما يشيدون أيضا مأوى خشناً من لحاء السنط ، ويشيد الكثير من أشباه البدو أكواخا خشنة من قصب الدخن .

(٢) ما زالت مذكرة اللورد كتشنر Memorandumto Mudirs تحكم الموقف الرسمى بالنسبة للرق : لا يعترف بالرق فى السودان ، ولكن طالما يخدم الخدم سادتهم عن طيب خاطر، فليس من الضرورى التدخل فى الشروط الموجودة بينهما ، ومع ذلك عندما يتعرض الأفراد للمعاملة القاسية ، ولكن إن تعرضت حريته أو حريتها قد تعرضت للتدخل ، ففى هذه الحالة يمكن محاكمة المتهم عن هذه الاتهامات التى يجرمها القانون، ويجب تطبيق أقسى العقوبة فى حالات القسوة الشديدة . وتم فى عام ١٩٢٨م تسجيل ٦٠٠٠ عبد بقارى مولّد . ولم يقبل إلا ثلثهم صكوك الحرية ، وفضلوا أمان العبودية عن القيام بالمبادرة للقتال من أجل وجودهم ... وهذا ليس حجة بشأن العبودية المنزلية ولكنه مجرد توضيح لحقيقة المثل اليونانى القديم « إن يوم الخلاص يجرد الإنسان من نصف رجولته» .(odyssey,vii,11. 322).

وهناك مثل سودانى يقول « عبداً بن سيده ولا حراً مجهجه «المترجم »

النساء وحدهن أو غير محجبات ، إذ إن ترك الرأس مكشوفاً هو علامة الرق أو الأصل الاسترقاقي، ويختلف وضع المرأة في الأسرة طبقا لمجموعة الطبقة السلالية التى تنتمى إليها، فقد تكون بذلك سيدة المنزل أو خادمته . إن لعنة حياة الأسرة الإسلامية ليس فى تعدد الزوجات ، ولكن فى سهولة الطلاق . ويعاملهن الرجال بشكل عام معاملة جيدة ضمن نطاق التعاليم التى فرضها الإسلام والتقاليد المحلية ، ويجب معاملة بنت العم – بسبب لقرابتها ونفوذها العائلى – معاملة حسنة ، ومن النادر تطليقها عداسبب عدم الإنجاب . واذا ما عاملها زوجها بقسوة فإنها تذهب إلى حوش أبويها وتفرض شروطا لرجوعها ، ربما ثوباً جديداً أو زوجين من الأقراط . وعلى الزوجة التقيد بالاحترام الواجب لزوجها : المشى خلفه ولأكل بعدما ينتهى هو من الأكل ، ولا يناديها باسمها، ولكن « يا مرة » أو « يا بت » ويشير إليها بأم أولادى أو « العيلة » ، ويجب أن يخدع نفسه بأنه السيد ويتظاهر باحتقارها ، ومن النادر أن يظهر لها أى تعبيرات حب وحنان ، وكلما كبر فى السن كلما أصبح كثير المطالب .

والنظام هو أن تبقى النساء فى المنزل فى جهل تام بأى شي سوى الحديث الضرورى والزواج التقليدى . وتشكل المسائل الجنسية الموضوع الرئيسى فى حديثهن ويعاقب بشدة على ارتكاب الآثام الجنسية التي قد تصل لدرجة القتل فى الأسر الكبيرة ،وهذا يغاير بشكل كبير اللين الموجود عند البقارة والبجة .

وتختلف النساء فى الصفات بشكل كبير بسبب اختلاط دمهن لدرجة يستحيل معها التعميم ، ففى السن المبكرة وبالرغم من محدودية محيطهن فهن ذكيات مشرقات ومحببات وحنونات وذكيات بشكل مدهش ، ولكن سرعان ما يتوقف نموهن وتطورهن ويدفن فى رمال الحياة الإسلامية الإفريقية ، أو يظهرن بعد الزواج قوة عظيمة فى التحمل وعدم الشكوى ويرجعن كل الظلم والحرمان وبؤس حياتهن إلى إرادة الله . ويؤدى صبرهن الصامت وعبوديتهن للعادة إلى استعباد الرجال لهن ، ويتقبلن قيودهن بهدوء بسبب جمود السودان والإسلام . إنهن جزء من الحياة كما يعلمنها ويعلن بسرور بالغ « نحن بهايم » ، إن أقصى سعادة بالنسبة لأى امرأة هو الاستمتاع بالإثارة أثناء شهور الإعداد لتزويج ابنتها . إن العاطفة السائدة فى خلفية حياتهن هى عبودية الخوف ، وخوفهن نوعان : المخاوف الحقيقية مثل الفشل فى الإنجاب أو أن تفقد جاذبيتها الجسدية لزوجها وعواقب الطلاق أو الزوجة الثانية أو الخوف من الألسنة الحاقدة خاصة الحبوبات ، وثانيا المخاوف المجهولة من عوالم الجن والأرواح التى لا تعد ولا تحصى ، وأن تصيبها أو تصيب طفلها عين الشر، وهى المخاوف التى لايبددها دينها .

ويسود دينها العامل الاجتماعى : اللقاء يوم الجمعة فى المقابر وزيارة ضريح الولى فى المناسبات ، ولا يدخل فى حياتها اليومية الدين القويم . إن عقيدتها هى مجموعة من الخرافات والفلكلور ؛ لذا فهى عندما تصبح « حبوبة » تبدأ فى التسبيح وصوم رمضان والذهاب فى بعض الأحيان إلى الحج جالبة بذلك الحسنات لكل العائلة .

وتختلف القبائل البدوية اختلافًا بينًا عن المزارعين بسبب الاختلاف الجذرى لتأثيرات الريف وحياة الاستقرار عن كونه اختلافًا فى الدم ، إذ بالنسبة للعديد من المجموعات وبعض القبائل العربية البدوية (على سبيل المثال الكواهلة) ، فإن الغالب فيهم هو الدم الحامى . وللصحراء تأثير موحد على السلالات الواضحة المعالم أصلاً، واختلفت خصوصيتهم من خلال انتظام بيئتهم . وتنقسم القبائل البدوية إلى مجموعتين بارزتين يحددهما تأثير الأرض على الحياة ونوع الحيوان الذى يربونه ، وهما « أهل الإبل » (أو الأبالة أو البادية) والبقارة (أهل البقر) ، وتتجول الأولى فوق أرض واسعة قليلة السكان ولا تختلف كثيراً عن سكان الجزيرة العربية ، وبقيت بعيدة عن التأثيرات الأجنبية ، حيث غيرتهم بشكل طفيف بيئتهم رغم تبنيهم الكثير من العادات المحلية [1]، وتغيرت البقارة من جهة أخرى بشكل كبير فى صفاتها عن طريق التزاوج كما تغيرت فى أسلوب حياتها .

أ- ينقسم أهل الإبل إلى مجموعتين رئيستين ، تعيش كلها بين خطى عرض ١٨ و١٣ شمالاً ، ومنهم من يجول غربى النيل ، كما يتحركون خلال موسم الصيف (موسم الجفاف) باتجاه الشمال والشمال الغربى نحو الكلأ الطرى وبرك المياه ، وثانيا أولئك الذين يجولون شرق النيل الأزرق ليصبحوا فى موسم الجفاف قريبين من النيل ومراكز الآبار ، ويتحركون شرقا وشمال شرق فى موسم الأمطار إلى البطانة أو مديرية النيل الأزرق .

إن الملمح الواضح لحياة العرب البدو هو خضوعهم الجامد للدورة السنوية لطقس السهب وأسلوب سيطرته . والوحدة هى القبيلة التى تتكون نظرياً من مجموعة من الأسر ترتبط بدرجات متفاوتة برابطة الدم ، ومع ذلك لا يوجد فى السودان قبيلة واحدة متجانسة التكوين ، وتتحد فى الغالب عدة قبائل تحت اسم واحد . إن العامل الحقيقي والدائم هو الأسرة أو العشيرة ، ويحكم القبيلة شيخ أو ناظر بلغة حكومة السودان ، وهو « البريمو » فى حقيقة الأمر ، ولا يتوارث منصبه من حيث المبدأ ، ولكنه يتوارث فى الواقع العملى ، وليس من الضرورى أن يرث المنصب الابن الأكبر ، إذ يرشح الأب فى بعض الأحيان الابن الأصغر إذا بدا أنه مناسب للمنصب أو إذا كانت أم الابن الأكبر أمَة . وكثيراً تتدخل الحكومة المركزية فى اختيار الوريث أو خلع الشيخ الذى لا يحكم القبيلة بشكل جيد .

ويجمع شيخ القبيلة فى يده السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية [2] ،و هوغير مقيد سوى بالحكومة المركزية ، وتحت سلطته شيوخ « خشم البيوت » . والسياسة

---

(١) جاءت قبيلة الرشايدة التى تشغل مساحة واسعة فى منطقة كسلا من الجزيرة العربية فى عام ١٨٤٦م ، ولا يمكن تمييزها عن القبيلة العربية ، وتحتفظ بلغتها وزيها العربى وترفض الخضوع لشيخ مشترك مما شكل مشكلة إدارية للحكومة الحالية ، وقد بدأت الآن فى التكيف مع الظروف الجديدة .

(٢) تطبق عقوبات محكمة الشيوخ طبقاً لقانون العرف غير المكتوب ، وليست الشريعة ، وتدار محاكم الشيوخ طبقًا للشكليات المحددة ، وتعقد الجلسات علنية ، وهى مفتوحة أمام كل من يرغب الحضور .

التفويضية التى تبنتها الحكومة الحالية منذ عام ١٩٢٢م هى دعم سلطة الشيوخ وتجنب أى تدخل ظاهر فى الحياة القبلية ، كان هذا معناه تقوية نفوذ شيخ القبيلة ، إذ إن السلطة التى منحت له كقاضٍ قد عززت من سلطته التنفيذية إلا أن استقلال بعض القبائل قد ضعف بالتأكيد تحت الحكم المركزى القوي للحكومة . إن وحدة أى قبيلة شئ غير مستقر ، إذ يتوقف هيبتها بشكل كبير على الشيخ ، ومن ثم كثيرا ما يحدث تبدل فى تحالف أجزاء القبيلة ، ومع ذلك فقد منحت الحكومة حياة جديدة لبعض القبائل وذلك بدمج العناصر المشتتة ، مثلا الحمر فى كردفان ، وقد حافظت الكثير من القبائل على عاداتها القديمة مثل « النحاس » – الرمز المهم لسلطة الشيخ والذى ترتبط به الهيبة الخرافية والشعائرية المعقدة [١] والاحتفالات عند التحرك من معسكر إلى آخر .

ويولد البدوى ويتناسل فى ظروف قاسية ، ويعيش فى إيقاع حياة رتيبة تتكيف مع الأحوال الطبيعية التى يمكنها أن تدعم الحياة فقط ؛ لأن الجمل والشاه ينتزعان سبل الحياة من أقاليم السهوب الجافة فى المناطق الواسعة جداً ، حيث تتجول بحثًا عن العلف النادر الوجود وإمكانية الوصول خلال أيام قليلة إلى المياه المحدودة ، وهو يتجول بقطعان قليلة من الإبل التى تشكل ألبانها ولحومها وجلودها ووبرها الأساس الاقتصادى لحياة البدوى . ولكل قبيلة دائرة رعى معترف بها ، إلى جانب امتلاكها للآبار وأماكن المياه ، ولا يمكن لقبيلة أخرى أن تسقى أو ترعى داخل هذه الدائرة دون أن تنتهك حقوق تلك القبيلة . ولم تحل سوى مؤخراً المنازعات الطويلة الأمد بين الكبابيش والكواهلة فيما يتعلق بحقوق الرعى . إن المحافظة الذاتية للتحركات القبلية يحكمها بشكل صارم التغيرات فى الفصول ، وبينما هم لا يزالون فى منتصف فصل الشتاء يتم اختيار الدمر للصيف القادم بالقرب من بعض أماكن السقى عند البئر أو النهر . ويبقون هناك حتى تظهر بوادر السحب المطيرة ، وعندها تتحرك القطعان جنوباً بحثًا عن العشب الطرى وتترك الخيام والنساء فى الدمر ، ولكن عندما تنتظم الأمطار تساق الجمال وتحمل الأمتعة ويتحرك المعسكر . ويسمى هذا التحرك بالنشوغ وهو أسعد أيام البدوى .

أما فيما يتعلق بالملامح حيث لا يوجد اختلاط بالدم الزنجى ، فإن ملامحهم ذات سمعة حامية مثل البجة أكثر من كونهم مثل العرب . فالوجه بيضاوى وهم يحلقون شعورهم ولا « يصففونه » مثل البجة ، ويتفاوت لونهم بشكل كبير ، إلا أن القليل منهم

---

(١) يتكون النحاس من مجموعة من ثلاث قطع أو أكثر تسمى « الثور » و« البقرة » و« العجول » ويبدو أنه تقليد محلى لم يأت به العرب ، يضرب النحاس فى ثلاث مناسبات : (١) الدعوة للحرب ، (٢) الاحتفالات القبلية ، (٣) عند موت الشيخ أو عضو مهم فى القبيلة . وتقدم الحكومة فى الغالب النحاس إلى القبائل التى تم إعادة تشكيلها أو تم اندماجها .

نوو بشرة بنية مثل البجة . ويكيف الطقس والإقليم أسلوب الحياة ، وتفسر الفردية المطلقة والاستشراف الضيق الذى يشكل الصفة المميزة للبدو ، ولا يوجد فى الصحراء أو عند شعوبها اللون « الرمادى » ، فإما أبيض وإما أسود . لقد أجبر البدوى على العيش فى عزلة مع أسرته ، وفى حالة توتر مع جيرانه فيما يتعلق بضرورات الحياة ، أي المياه والمرعى ، وهو يملك كلاً من مميزات وعيوب الفردية ، وقد أجبرته العزلة والاعتماد على نفسه وتقوية صفاته الطبيعية : الواقعية والتصميم والكرامة ، وقادته ضالة وفقر الحياة إلى الكرم الزائد والجشع المفرط ، وهو من جهة أخرى ودى ومشاكس وشجاع ومرتاب . وهناك التفاخر والغيرة والتنافس بين رجال نفس القبائل والأسرة والتى غالباً ما تؤدى إلى جرائم الغيرة والعنف . ويوجد نظام الدية بين كل البدو سواء العرب أو البجة ، وغالباً ما تدفعها القبيلة كلها ، وقد حدث تطور غريب للوعى الأخلاقى والقدرة على تحويل معظم المواقف داخل عالمه المحدود إلى منفعته . إن النظام العشائرى وأسلوب حياته لم تمكن البدوى أبداً من تطوير سلطة منتظمة أو مجتمع مستقر ، كما يقول ابن خلدون « إن غاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب ، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ، وليس لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض ، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو غرامة ».[١] إن ما يسمى بحرية البدوى هى مجرد أسطورة ، ومع ذلك فهو متحرر من مخاوف الظلام والأماكن الفسيحة الواسعة التى تجلب الحزن للريفى . لقد تكيف تماما مع بيئته ، حتى برغم أن الحياة الاجتماعية قد غلت يده وقدمه واستعبدته الموانع الاجتماعية وعرضته للخطر ،وجعلته يخاف من الرأى العام وقيده القانون العرفى .

والأبالة غير مبالين بدينهم ، مهملون للشعائر الدينية ؛ لذلك فهم أقل تعصباً من المزارعين ، ويظهرون روحاً أكثر تسامحاً وعقلاً متفتحاً ، وقد وجدت آثار من عبادة النجوم القديمة فى العديد من عاداتهم ، وما زال التقويم القمرى يلعب دوره فى حياة الصحراء ، وما زالت كلمات «دوتى » تبقى صادقة بالنسبة لبدو السودان كما هى عليه بالنسبة لبدو الجزيرة العربية ،، ،، لهذه الإسماعيلية التزام طبيعى بما يمليه الضمير بالنسبة للخير والشر أكثر من الآخرين ، ولكن لا أحد يراها أقل مرتبة فى كل معاملاتهم البشرية،،[٢]

واقتضت الضرورة على البدوى ألا يتزوج إلا بواحدة ، ولكن الشيخ يتزوج حتى أربعة ، بالإضافة إلى العديد من السرارى ،لأن الزواج وسيلة لزيادة علاقاته وكذا نفوذه . وللمرأة نفوذ قوى ، وتتمتع بحرية كبيرة . وبالرغم من أن الرجل يتزوج عادة بنت عمه

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة القاهرة) ص١٤٩ - ١٥٠

(٢) Doughty : Arabia Deserta, i.264

كزوجة أولى ، فعادة ما يكون الزواج نتيجة للرغبة الشخصية ، ولكن الأب لا يرضى إلا فى النادر إعطاء ابنته لمن يعتبره أدنى منه درجة اجتماعية .

ب: البقارة [1] إصطلاح عام يطلق على تلك القبائل التى تربى البقر ، وقد تبنت قبائل جهينة هذه الممارسة من القبائل السوداء ، وكانت قبائل جهينة قد تغلغلت حتى جنوب خط العرض ١٣ْ شمالاً إلى المناطق التى لا يمكن للإبل العيش فيها بسبب الذباب . وفى هذه البيئة الغريبة ذات الأرض الرعوية التى قدموا إليها ، فكر أبناء الصحراء الضائعون أن يتخذوا لظروف حياتهم الجديدة أسلوب حياة السود ، ولأنهم كانوا أصحاب قطعان إبل فقد أصبحوا أصحاب قطعان بقر ، وبالضبط كما كانوا يغيرون على قطعان الإبل من جيرانهم العرب ، فإنهم أغاروا على قطعان الأبقار من جيرانهم الجدد (السود) ، وبدأوا برعي الأبقار ثانية فى الأرض الرعوية التي استولوا عليها حديثًا حيث ماتت إبلهم، لم يكن هذا كل شئ ، لقد وجدوا أنه ما زالت هناك «مواشٍ» محلية أخرى ، وهم السكان السود المستقرون في تلك الأراضى والذين أغاروا عليهم أيضًا لأداء الأعمال الحقيرة في المنزل وفى الحقل والسهل ، كما وجدوا أيضًا أن نساءهم قد يصلحن فى المحافظة على استعادة كيانهم الاجتماعى الذى بدأ فى النقصان .

وتحتل هذه القبائل شريطًا يمتد من الضفة الشمالية للنيل الأبيض حتى بحيرة تشاد ، وتغطى في السودان الإنجليزى المصرى سهول كردفان ودارفور حتى بحر العرب ، وتعيش أغلبيتهم فى السودان الفرنسى ، ويرتحلون بأبقارهم فى موسم الجفاف إلى أراضى الرعى الجنوبية ، ويصطادون الفيل والزراف للحصول على اللحم والجلد والعاج ، وكانوا قديماً يصطادون الرقيق [2]. وقد أدى منع تجارة الرقيق إلى اضطراب اقتصادهم وجعل حياتهم أكثر كآبة . وعندما تهطل الأمطار وتصبح الأرض الطينية سبخة ينقلون أبقارهم هربًا من الذبابة إلى الأرض الرملية الأعلى شمالاً على طول خط عرض ١٢ْ و١٣ْ شمالاً ، وتقضى قبيلة الحوازمة العام كله فى سهول منطقة جبال النوبا ولمعظم القبائل بعض الأقسام المستقرة ، ولاضطرارهم – خلال الفترة المهدية – القيام ببعض الزراعة بسبب هلاك قطعانهم ، ومن أجل البقاء والحصول على المال لشراء مزيد من الأبقار ، والبعض منهم – خاصة من المهاجرين والرقيق – بسبب هبوط أسعار الأبقار وفرض ضريبة الرؤوس عاشوا حياة الاستقرار فى القرى . وبدأت بعض قبائل المنطقة الشرقية فى زراعة القطن ، وحرفتهم الرئيسية الآن نقل التجارة

(١) فيما يتعلق بالبقارة ينظر :

G.D lampen in the Anglo-Egyptian Sudan from within ,pp.30ff.., and SNR .xvi,97ff

(٢) ما زالوا يتوقون لممارسة التجارة ، وقد تم فى عام ١٩٢٨م اكتشاف قافلة فى برتا ، وهى تنقل رقيقًا من الحبشة .

يليها بيع الأبقار والضأن ، وبالرغم من أنهم يملكون العديد من الخيول فإن انتقالهم يتم بواسطة الثيران التى بإمكانها حمل حمولة أكبر تصل ما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ رطل .

وهذه القبائل ضخمة [١]ولكنها تداخلت بشكل كبير ، وقد اتخذوا تعريفاتهم القبلية الحالية فى خلال المائة سنة الأخيرة ، ولكل قبيلة ناظر تحته عُمَد أو رؤساء أقسام . وللناظر مناديب لهم فى بعض الأحيان سلطة فض المنازعات بين العُمَدْ ، ويدعى البقارة كلهم أنهم من جهينة ولكنهم اختلطوا بدماء الزنوج والفلاتة بشكل كبير ، كما تغيرت مميزات ثقافتهم العربية السابقة بسبب افتقارهم قابلية التحرك التى لدى الأبالة ، بالإضافة الي التزواج مع الزنوج . وبعض القبائل مثل أولاد حامد كلهم تقريبا زنوج بالرغم من أنهم اكتسبوا بعض العناصر الأخرى عن طريق الزواج من القبائل الأخرى خاصة ، ويوجد فى كردفان أفضل وآخر البقارة الذين تحولوا . والعديد من القبائل الأخرى خاصة فى دار فور يشبهون الزنوج أكثر من العرب ، ويقول ح.د. لامبن للرجال عادة شفاه غليظة وأنوف فطساء والنساء قصيرات القامة وفى الغالب شعرهن قصير جداً ، واللون السائد فى أى مكان هو اللون الأسود » [٢] ، ومن جهة أخرى

« لجمع jimi » النيل الأبيض أصل نوبى حامى ، وكانوا قد هاجروا إلى كردفان وأصبحوا من مربى الأبقار ، واكتسبوا عادات البقارة مثل نظام تصفيف الشعر والرقص، وللبقارة لهجة مميزة جداً وعاداتهم مختلفة بسبب انفصالهم عن القبائل العربية الأخرى وهم أكثر العرب ولعًا بالحرب فى السودان ويستخدمون تكتيكات حرب العصابات لأنهم فرسان مهرة ، وكذلك أكثر تعصبًا للدين على عكس ملاك الإبل اللامباليين ، ومن المحتمل أن يكون هذا التعصب مرجعه دماؤهم الزنجية ؛ فالخليط العربى - الزنجى دائما ما يكون متعصبًا ، ومن السهل أن يحركهم الفقراء ويسيرون وراء أحدهم كقائدلهم ، وقد حافظوا على روح الاستقلال والاعتزاز بالسلالة ، ولكنهم فقدوا بعضاً من صفة الفردية العربية ، وهم أميون تماماً ويتسمون بقلة التبصر عدا فى المسائل المتعلقة بالأبقار ، وحياتهم مختلفة عن حياة إخوانهم الشماليين ، وهى حياة سهلة تفتقر كل أنواع الإثارة ، لذا فهم كسولون ويتسمون بالبلادة العقلية ، والعديد منهم مرضى بسبب سكانهم بجوار المستنقعات ، ويقضون وقتهم فى الفريق فى تراخ وكسل وثرثرة ، بينما تقوم النساء والعبيد بأداء كل الأعمال ، والثرثرة فن جميل ولغتهم غنية فى تعبيراتها ، إلا أن موضوع النقاش تافه ويقتصر على الفضائح والقيل والقال مع التعريج على الذكريات والتاريخ القبلى ، وتتمتع نساؤهم بحرية أكبر حتى بالنسبة للبدو الشماليين ، ويلبسن الكثير من الحلى والكهرمان ، وتسليتهم الوحيدة هى الذهاب

---

(١) القبائل الرئيسية فى دارفور هى الرزيقات والمعاليا والتعايشة وبنى هلبه ، وفى كردفان أولاد حامد والحوازمة والمسيرية والحُمْر على النيل الابيض . دار محارب والأحامدة والسنخاب والسليم والتعايشة(الجبلين)

(٢) لامبن . مصدر سابق ص ١٣١

الى السوق ، والرقص الذى اكتسبوه من السود والذى يؤدونه مع الغناء الذى ألفته شاعرة القبيلة (الحكامة) ، وهى شخصية مهمة جدا فى حياة القبيلة .

وهناك اختلاف كبير بين عادات الزواج عند البقارة وعند الأبالة ، ولاترتدى عروس البقارة زينة أو ملابس خاصة، بالرغم من أن بعض هذه العادات قد بدأت فى الانتشار .

د- **القبائل المسلمة شبه الزنجية** أصبح العديد من المجموعات الزنجية التى تقطن أساسًا فى وسط وغرب السودان مسلمة ، وحافظ معظمهم على لغاتهم وعاداتهم الخاصة ، والعديد منهم عند الخط الفاصل بين الوثنية والإسلام ، ويتطلب هذا الأمر التعرض له باختصار :

١- **الفلاتة** وهم جماعات كبيرة من المهاجرين فى السودان الشرقى ، ويستخدم هذا المصطلح فى السودان ليعنى أي شخص من سكان غرب إفريقيا ، وهم فى الدرجة الأولى هوسا وفولبى وكانورى وبرقو [(١)] ، وهم فى الأصل حجاج استقروا بعد عودتهم من مكة خلال القرن التاسع عشر فى السودان بشكل دائم ، وأصبح العديد منهم يستخدم العربية الآن ، ويمكن تصنيفهم إلى ثلاث مجموعات (١) الحجاج المارين عبرالسودان ويشمل العديد من الجماعات المهاجرة التى على طريق الحج ، والطريق الرئيسي هو عبر دارفور إلى الأبيض حيث يستقل منها الأغلبية القطار ، وبسبب اضطرارهم لكسب بعض المال ، وهم فى طريقهم فإن رحلة الحج تستغرق من أربعة الى سبعة أعوام .(٢)جماعات المهاجرين الكبيرة الدائمة خاصة فى منطقتى كسلا وسنار ، وقد نتج العديد منها من استقرار مجموعات كبيرة من أفارقة الغرب الذين تم تسريحهم من جيش الخليفة فى المناطق القليلة السكان بين سنار وسنجة ، وهناك جماعات كبيرة بالقرب من سنار تحت سلطة ماى برنو ابن سلطان سوكوتو السابق ، والأخرى تحت ماى أحمد الأمير السابق لمساو ، وتوجد جماعات فى أم درمان أيضا وكذلك العديد من الحجاج - يعمل معظمهم بصورة متقطعة - وقد نمت مستعمراتهم هذه حول معظم المواقع الحكومية لاحتياجات العمل ، كما أن مشروع الجزيرة لا يمكن أن يعمل بدونهم . (٣) عشيرتان بدويتان من ملاك الإبل (إيكا وإيبا) ، ولهم دارخاصة فى جنوب دارفور ،وهم هناك منذ مائتى عام على الأقل ، وهم يتحدثون العربية الآن .

والفلاتة بشكل عام خمولون وشكاكون ومقتصدون وكادحون ومنافقون ومتعصبون ،

---

(١) كما يعرفون بالنسبة للسودانيين بالتكارير (جمع تكرورى وهو فى الحقيقة اسم القبيلة) أو ناس الغرب . ويطلق على الفولبى الفلاتة بالكانورى والفلانى بالهوسا . وفى عام ١٩٢٥ قام المستر لاثام من الحكومة النيجيرية بإجراء مسح للنيجيريين فى السودان وقدر عددهم بـ ٨٠.٠٠٠ منهم ٤٠٠٠٠ استقروا بشكل دائم و١٥٠٠٠ فى سبيلهم إلى الاستقرار و٢٥٠٠٠ ترانزيت ، ولا يوجد تقرير عن الغرابه الآخرين .

ويتأثرون بالفقرابسهولة ، ويحتقرهم العرب ولا يحبونهم ، ولكنهم يستخدمونهم فى الأعمال اليدوية ، ويمارس الفقرا مهنة طرد الأرواح الشريرة بالرقى والتعاويذ ، ولهم فى ذلك سمعة كبيرة ، وهناك أسطورة سارية فى السودان لتعزيز قوتهم السحرية مفادها أنهم ينحدرون من الحرباء .

٢ - **فى دار فونج** بمنطقة جنوب الجزيرة بين النيلين الأبيض والأزرق ، وتسمي مجموعات الفونج ، وهم مجموعات زنجية شبه عربية ولا ينتمون الى وحدة إثنية محددة ، ويسميهم العرب الهمج ، ولكنهم يطلقون على أنفسهم أسماء مختلف الجبال التى يسكنونها (چولى ، مويا .. الخ) ، ومن المحتمل أنهم واحدة من السلالات التى قهرتها الفونج . ويحمل ناظر المنطقة لقب مانجل ويعتبر نفسه منحدراً من ملوك همج سنار ، ويتحدث الأغلبية العربية وتدعى الإسلام ، ولكنهم يحتفظون بلغتهم الأصلية والتقاليد الوثنية ، ويعيشون بجوار المجموعات الزراعية المستقرة التى مازالت وثنية وهى البرتا الإنقسنا [1] والجبلاوين مع البرون والخما إلى الجنوب .

٣- **سكان دارفور غير العرب** : ويمكن تصنيفهم إلى المجموعات التالية :

أ- التبو أو الحاميون الزنوج الشماليون فى الصحراء الشرقية ، وهم الزغاوة شبه البدو ، وهم شعب عنيف يتحدث العربية الآن ويعش على الجبال (مثل جبل العطشان) شمالى دارفور ، ولهم علاقة وثيقة مع القرعان البدو والبديات فى جبال عنيدى ، وينتمى معظمهم إلى إفريقيا الاستوائية الفرنسية ، ولكنهم يغيرون داخل غرب السودان ، وعددهم قليل ، ويتأثرون بالفقرا (يسميهم الزغاوة هوجى والبديات هيكى)، ولكنهم يحافظون على الخرافات والعادات الفتيشية المتعارضة مع الإسلام .

ب- السلالات المحلية المستقرة : وتشمل الفورالقاطنين فى جبل مرة والإقليم الواقع غربيه ، والمساليت بين الفور ووداى والداجو فى وسط دارفور ، وكلهم مستقرون فى قري ويزرعون الدخن أو الذرة حسب نوعية التربة .

والفور مهمون تاريخيًا ، وهم سلالة زنجية تقطن منطقة جبل مرة ويقول هـ . أ. ماكمايكل عنهم :

> الفور بصفة عامة – باستثناء فرع الكنجارة – أدنى درجة اجتماعياً ودينياً وعقليًا عن المعدل المتوسط القبائل التى تجاورهم فى الشرق والشمال ، ولكن الكنجارة هى التى حافظت على تفوق السلالة التى اكتسبها أسلافهم منذ ثلاثة قرون مضت . وتفوق الكنجارة هذا مرجعه السلالة العربية التى اكتسبوها ، وهم بصفة عامة شعب أفضل من ناحية التكوين الجسمانى وأعلى ذكاءً ، وعاداتهم أكثر تهذيباً عن الفور وأفضل إسلامًا [1]

---

(١) الاسم العربى لسكان جبال تابى فى دارفونج ، وأصبح لشعب الكوكر (أحد هذه الجبال) علاقة منذ زمن بعيد مع العرب الرعاة الذين يتجولون بقطعانهم حول السهول ، ودخلت الأعياد الإسلامية لرمضان والأضحى فى العادات الاحتفالية للكوكر.

وشكلت الإدارة الأهلية للفور صعوبة بسبب تنافس زعماء القبيلة ، إلى أن اعترفت الإدارة فى عام ١٩٣٠ بالوضع الوراثى للمقاديم رؤساء للمحاكم القبيلة ، وتدار الزالنجي – إحدى وحدات الفور المتجانسة – عن طريق الشراتى مباشرة ، وهى قيادات فرعية وراثية ، ويليهم كبار رجال القبيلة (الدمالج) .

والفور مسلمون ، ولكن حفظ القرآن يعد من الشعائر السحرية ، وهم يحافظون على الممتلكات الكاملة للأرواح المحلية الضارة التى تسكن الحيات والأحجار والأشجار والتى يتم استرضاؤها بالطقوس السحرية [٢]

وللمساليت الذين يسكنون الدار التى باسمهم فى أقصى الغرب سلطانهم الخاص ، وهو السلطان محمود بحر الدين أبو بكر ، ويعرف المسئول الحكومى بالمقيم [٣] هو مثال كامل للإدارة الأهلية فى السودان . وللسلطة ميزانيتها ونظام موظفيها وقوة شرطتها ومحاكمها ، ويقول هـ.ا. ماكمايكل عن المساليت أنهم « أكثر من نصف زنوج مع خميرة عربية طفيفة جدا ، وهم شعب مولع بالحرب وذو تكوين جسمانى وذكاء جيد ، وتنظر إليهم قبائل دارفور وكردفان بارتياب بسبب ذلك الاعتقاد الخاص بقوة التحول إلى صباع تلك القوة التى يعتقد أنهم يملكونها » [٤] ، وقد أصبحوا مسلمين اسمياً منذ فترة قريبة ، وقمع وحشيتهم السلطان أبكر اسماعيل فى حوالى عام ١٨٩٠ ، وانتشرت المهدية بشكل سريع وسط المساليت المتعصبين ، ويعنى الإسلام لهم الآن الإخلاص لشخص عبد الرحمن المهدى [٥] ، وأصبح أولئك الذين فى الشمال متعربين بشكل سريع ، وتحتوى لغتهم على عدد كبير من الكلمات العربية .

والداجو واحدة من أقدم السلالات فى دارفور ، وهم يعيشون فى وسط الإقليم فى دار المسيرية وعلى الحدود الشمالية الغربية لمنطقة النوبا ، ويحكمهم سلطان ، ويعيشون على الزراعة وتربية الأبقار .

---

(١) مصدر سابق . ص ٩١

(٢) عن حياة الفور وعاداتهم ينظر ماكمايكل مصدر سابق جـ ١ صـ ٩١ – ١١٤ .

(٣) ظهرت هذه السلطنة إلى الوجود أثناء فترة المهدية ، وحققت الاستقلال عن على دينار فى عام ١٩٠٥ بعد سلسلة من الحروب ، كما اشتبكت فى قتال مع الفرنسيين فى عام ١٩١٠ ، وحل السلام مع انفصال جزء من الإقليم ليتبع فرنسا ، أصبح لحكومة السودان السيادة على السلطنة فى عام ١٩٢٠ بعد توقيع المعاهدة الإنجليزية الفرنسية فى عام ١٩١٩ .

(٤) ماكمايكل . مصدر سابق صـ ٨٧–ويروى التونسى (Voyage au Dar four,PP.352-6) أن كل الفوراوية يعتقدون أن المساليت يمكنهم أن يحولوا أنفسهم إلى ضباع وقطط وكلاب .

(٥) تخلى السلطان أندوكا (حوالى عام ١٩١٠) عن المهدية وانضم الى التيجانية ، ولكن إخوته وكل الفقراء فى الدار مهديون .

جـ – المهاجرون مثل الميدوب شبه البدو في الجبل المعروف باسمهم في محيط دائرة تبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠ ميل ، ولهم قرى على سفوح التلال ، ولكنهم يقضون معظم الوقت بعيداً مع قطعان الأغنام والماعز وهم زنوج بأصل حامي ، ويدّعون القرابة للنوبيين ويتحدثون لغة قريبة من لغتهم ، أما البرتي فهي قبيلة مستقرة ذات أصل مختلط وتعيش في جبال تقابو جنوب غرب جبل ميدوب والأرض الرملية شرقي الفاشر.

أما البرقد فهي قبيلة كبيرة نسبيًا تعيش بين جبل الحراز ودار الزريقات والبيغو والميما والفلاتة البدو مربيي الأبقار .

٤- نوبا جنوب كردفان : وهم رغم كونهم وثنيين في الأساس ، فإنهم مهمون في هذا المسح بسبب وضعهم الجغرافي ، والنوبا مصطلح عام استخدم في كردفان لأي وثني أسود ، وهم قبائل بدائية تسكن في الجبال المنعزلة وسلسلة سهول كردفان الجنوبية ، ويحيط بهم المسلمون ويتداخلون وسطهم ، وهم مجموعة متجانسة ، إذ هم خليط من العديد من القبائل الإفريقية التي بحثت عن ملجأ لها في الجبال ؛ لذا فهم مختلفون بشكل عميق في الشكل الجسماني واللغة والثقافة [(١)] ، وبالرغم من أن عددهم أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ أو ٧٢٪ من سكان المنطقة (١٩٢١) ، فإن جولة سريعة داخل الإقليم تعطي الانطباع بأن النوبة عينة نادرة . وتبدو السهول مسكونة بالبقارة ذوي الملمح الزنجي و« العرب » السود المستقرين ، وهم مجموعات زراعية تملك القليل من الأبقار ويعملون بجد لتوفير الدخن والسمسم والمحاصيل الأخرى لاحتياجاتهم السنوية ، وهم أقوياء جدا ومرحون وذوو استقلال عقلي كبير وتقاليد قبلية نشطة ويعيشون في مجموعات مستقلة تحت سيطرة الكجور ولدى البعض منهم سلطة دنيوية وروحية ، وللقبائل الأخرى ملك يمارس سلطة دنيوية ويلعب دينهم – وهو عبادة أرواح الأسلاف – دوراً حيوياً في حياتهم ، إذ إن كل بنيتهم الاجتماعية قائمة عليه ، وقد حافظت معظم مجموعات هذا الشعب على وثنيتها بالرغم من الضغط الإسلامي المستمر الذي أجبرهم على ترك السهول واللجوء إلى الجبال ، وأصبحوا الآن تحت التأثير الثقافي العربي السلمي أكثر فأكثر .

---

(١)قارن «Hilleson,SNR.xii,144» يطلق العرب والأوروبيون اسم « نوبا » على الزنوج سكان الجبال في كردفان ، وأدى ذلك للأسف إلى تشوش ، وحتى الآن فإن الانطباع قد خلق أن الزنوج الذين صنفوا باسم عام هم تقريباً شعب متجانس . ويوحي الدليل اللغوي أن هناك ثلاث سلالات متميزة : (١) المتحدثون بنوبية الجبال . (٢) المتحدثون باللغات السودانية . (٣) المتحدثون بلغات محددة . ولا ينطبق اسم « نوبا » إلا على المجموعة الأولى ، أما بالنسبة للمجموعتين الأخريين فهو اسم مغلوط .

هـ- القبائل الوثنية فى جنوب السودان

يعيش جنوب منحنى الشريط الذى يتجول فيه البقارة قبائل زنجية وثنية ضخمة ، وهى تعيش فى عالم بلا نظام ، وليست لديها لغة مشتركة ولا مفهوم سياسى أو وحدة ثقافية ، ويقسم البروفسور سلجمان [1] هذه القبائل الى أربع وحدات سلالية فرعية كبيرة :

١- الرءوس الطويلة التى بها عنصر حامى

أ- النيليون : الشلك والنوير والدينكا ، وهم طوال القامة طوال السيقان وذوو بشرة داكنة ويزدرون الملابس والثقافة الاسلامية أو الأوربية ، وكلهم رعاة يقضون نصف العام خارج قراهم مع أبقارهم .

ب- النيليون الحاميون : البارى الحقيقيون ومختلف اللاتوكا - الدونجا والقبائل المتحدثة بالتركانا وهم رعاه فى الاصل ، ولكنهم مزارعون جيدون ولهم ثقافة مختلفة جدا عن النيليين ، وهم الآن فى حالة الانتقال من حياة الرعى إلى حالة الزراعة نتيجة لفقدهم معظم أبقارهم .

٢- الرءوس العريضة

أ- الفونج والنوبا : وقد سبق ذكرهم .

ب- المجموعة الجنوبية الغربية : الزاندى وقبائل هضبة حجر الجديد البنجو والمتو والمجموعات التى من نفس الأسرة ، وهم على النقيض من المجموعتين النيلية والحامية فى المظهر الجسمانى والمزاج والثقافة واللون النحاسى ،وهم مرحون واجتماعيون، وأظهروا استعداداً للتحول طبقًا لتبدل ظروف الحياة ، وهم زراعيون فى الأساس ولايملكون أبقاراً ، وهم صيادون ممتازون .

و- اللغات

النوبية هى اللغة التى يتحدث بها النوبيون النمط الحامى القريب من الصومالى ، والذين يعيشون على ضفاف النيل بين الشلال الأول والرابع ، وهناك أربع لغات :الكنزية المتوكية والسكوتية والمحسية والدنقلاوية . فالكنزية والدنقلاوية رغم تباعدهما جغرافيًا يبدو أن هناك ارتباطًا وثيقًا بينهما ، وتنتشر الكنزية من الشلال حتى كورسكو والسكوتية جنوبها والمحسية من وادى حلفا حتى حنك والدنقلاوية من كرمة حتى أمبكول.

(1) Pagan Tribes of the Sudan.

واللغات المشابهة لهذه اللغات موجودة على طول جبال النوبا الزنوج شمال منطقة جبال النوبا [١] وفي كردفان [٢] ،وهناك أمر واحد مؤكد هو أن النوبة لا يمكن أن يكونوا من السكان المتأصلين بوادى النيل ، وليست لها أى علاقة مع نقوش اللغة المروية لهذه المنطقة ، والتى استمرت حتى فترة الممالك المسيحية المبكرة فى النوبة ، ولكننا لا نعرف بوضوح الأحداث التي أدت الى تغير هذه اللغة .

ويعتقد زهلر [٣] أن النوبية دخلت وادي النيل من جنوب كردفان بواسطة النوبا في القرن الثالث ق.م، فإن كان الأمر كذلك إذاً يجب أن تكون النوبية والمروية قد بقيتا جنباً إلى جنب فى جزيرة مروى ، ومن المحتمل أن النوبية كانت لغة الحديث بينما بقيت المروية لغة الكنيسة واللغة الرسمية حتى سقوط المملكة عام ٣٥٠م . وهناك رأى آخر يقول إن المروية بقيت لغة البلاد إلي أن أدخل النوبا اللغة النوبية من كردفان أثناء غزو تم فى القرن الرابع ق.م. ، وهذا الرأى هو الأكثر احتمالًا بالنظر إلى حقيقة أنه لا يوجد سوى القليل جداً من الكلمات المروية فى النوبة .

وقد تطورت اللغة المكتوبة وحلت محل اليونانية مع اتحاد الممالك الشمالية ، وهناك نصوص من العصور الوسطى (القرنين الثامن والتاسع) مكتوبة بالحروف اليونانية مع إضافة علامات استعيرت من الديموطيقية ، واستخدام شكل من أشكال اللهجة تشبه المحسية الحديثة . وهذا يظهر أن اللغة تطورت قليلاً خلال هذه الفترة . كما أن اللغة العربية زودت المفردات النوبية الحديثة بـ ٣٠٪ من الكلمات ، ويفكر القليل من العلماء الذين درسوا النوبية بالطريقة نفسها فيما يتعلق بتصنيفها – أنها تتحد فى أسس النحو والصرف مع الدينكا والشلك – وأدرجها وسترمان [٤] وما ينهوف [٥] ضمن أسرة اللغة السودانية . أما وجهة نظر ح.و موراى [٦] فهى أن أساس اللغة سودانى ، أثر فيها نفوذ الموجات التى ركبت فوقها ، ويعتبر رينش [٧] أن هناك علاقة

١) الحجيرات – أبو جنوك – طبق – شفر – كاشا – كاركو – – كونتى (أو لجوريا) فاندا – واللى – دلنج – غلفان – (مجموعتى جبال) ديرى – هبيلة – كاديرو – واير (عدا سيدرا) التى إليها فقط يتطابق اسم النوبا على مجموعة شعب جبال النوبا، وهذه اللغات النوباوية تختلف عن تلك الموجودة فى الشمال ، إلا أن هذا الشبه سمة مميزة جداً ، ولا يصبح هناك أى شك فى أن يكون أصلاً مشتركاً .

(٢) جبال ميدوب والبرقد– نمط نوبى ثالث سماه زهلر النوبية الجنوبية الغربية .

(٣) Zur Srellung des Darfur - Nobischen W.Z.K.M.xxxv.1998

وينظر ايضا دراسة هللسون لورقة زهلر فى SNR.xiii 137ff.

(٤) Die Sudansprachen

(٥) Eine studien fahrt nach Kordofan , Abhandlungen d.Hamdkolonidlinstituts, xxxv.1916

(٦) An-English-Nobian comprarive Dicionary,1962,intro

(٧) Die sprochliche sellung des Nuba, Vienna

ارتباط بين السودانية والحامية . ويدعى هامبورجر [1]أنها بالتأكيد حامية ، وتعرف وسط العرب والنوبيين بالرطانة .

ويتحدث التبداوية أغلبية البجة في تلال البحر الأحمر من مصر حتى كسلا ، وهناك خمس لهجات رئيسية : العبابدة والحلنقة والامرأر والبشاريين والهدندوة ، والأخيرة هي اللهجة الرئيسية للغة ، وتعد التبداوية أوسع اللغات الحامية المتحدث بها [2] وبسبب احتكاكها مع اللغة العربية دخلها عدد لابأس به من جذور وقواعد اللغة العربية . والتجرى لغة سامية ذات صلة بالتجرينا الإريترية ، وهى النموذج الحديث للجعز القديمة ، ولم تتأثر كثيراً باللغة الأمهرية مثل التجرينا ، والجعز ذات صلة وثيقة بالسابيانية أكثر من العربية . وربما تعتبر التجربة نموذجا للأصل السامى القديم أكثر من العربية ويتحدثها الكثيرمن مجموعات البنى عامر والهباب وتعرف محليا بالى ساو وهو اسم أكبر فروع البنى عامر .

ويتم التحدث بالعربية فى منطقة كبيرة فى شمال السودان ، وهى النموذج والحافظ لوحدة المنطقة ثقافيا ، واللغة الأدبية هى الأصل لكل العالم الذى يتحدث العربية وتستخدم فقط فى الكتابة والمحاضرات والمؤتمرات ، وليست لغة الحديث أبداً . إن مصطلح عربية السودان أطلقه الأوربيون على Kolvn التى يتم التحدث بها ومفهومة فى كل المنطقة ، أو يمكن تمييز شخصيتها التى تميزها عن اللهجة السورية أو المصرية، أو أية لغة أخرى ، ومع ذلك فهناك تنوع كبير للهجات الفرعية التى تختلف بشكل كبير فى المفردات والاستخدام الفردى ، ومن الصعب تصنيفها ، إذ لم تتم دراستها وتتداخل كل مجموعة مع الأخرى ، ويمكن تمييز مجموعات اللهجات الرئيسية الآتية والتى يتحدث بها السكان المستقرون :١- الشمالية: المديرية الشمالية ٢- الوسطى : أم درمان والجزيرة وريفى شرق النيل الأزرق ٣- الغربية : النيل الأبيض وكردفان ودارفور [3]

واللهجة الحضرية لأم درمان خالية من أية ملامح قبلية أو محلية ، وتتطور بسرعة وحساسة للتأثيرات الخارجية الأدبية والسياسية ، وفى طريقها تدريجيًا لأن تصبح اللغة المعيارية للسودان العربى ووسيلة التخاطب المشتركة بين المتحدثين فى المدن الذين تربوا تحت تأثير اللهجة المحلية ، وقدتشكلت من خلال تكتل الناس من كل أنحاء السودان ، وهناك شبه عائلة بينها وبين معظم اللهجات الأخرى ، ومن الطبيعى أن يتخلى القرويون الذين يشكلون أغلبية السكان عن لهجاتهم المحلية ، وسوف يتعدل ذلك

(١) L,Hamburger La Morphologie ubienne et L,egptien,Journ. Asiat. 1931

(٢) S. Hillelson,s Sudan ArabicTexts (1935)

(٣) تختلف لهجة قبائل البقارة فى دارفور وكردفان بشكل كبير فى المفردات والعبارات وحتى فى القواعد (النحو والصرف) مع الكثير من الكلمات الخاصة بتسمية الأشياء أو الأفعال . وربما مرجعه تأثير اللغات السودانية ، كما أن للقبائل البدوية الأخرى فى السودان لهجاتها الخاصة بها والتى لم تدرس ، ومن ثم لا يمكن تصنيفها وتوجد حتى لهجات داخل بعض القبائل (الكبابيش مثلا) مرجعها اندماج مختلف العناصر .

بمرور الوقت ، وهناك تقدم الآن نحو الـ Kolvn التى بدأ يستخدمها زعماء القرى والآخرون الذين لهم اتصال بالعالم الخارجي ، وبرغم أنها محاطة باللغات الإفريقية وبرغم التزاوج الذي أدى إلى أن تصبح الأقلية هى التى تحمل الدم العربى النقى ، فمن المدهش أن تبقى لهجات السودان حرة من التحريف الخارجي ، لقد فرضت نفسها على النوبية التى لم تؤثر فيها إلا بشكل ضئيل ولم تستعر منها سوى القليل من مصطلحات الزراعة والرى [1] ، ومن الطبيعي أنها تعدلت من خلال احتكاك إحداهما بالأخرى ، هذا بالإضافة إلى التأثيرات الأخرى ، وهناك لهجات داخل بعض مجموعات معينة من الأبالة مثل الكبابيش لم يتم دراستها ، ومن ثم لا يمكن تصنيفها بسبب اندماج العوامل المختلفة .

(١) تم استعارة كلمات قليلة من البجة مثل : عنقريب ومرفعين : الضبع وبعشوم : الثعلب.

-٢-

موجز تاريخي : من الممالك المسيحية حتى قدوم العرب

١- التاريخ المبكر

لم يحفظ لنا التاريخ شيئا عن التاريخ الداخلي للشعوب السودانية ، وكل ما وصلنا جاء من احتكاك السودانيين بالأمم الأخرى خاصة المصريين والبيزنطيين والمسلمين، والتي تم حفظها في النقوش والكتابات بالإضافة إلى الكمية الكبيرة من الشواهد الآثارية الداخلية وتقاليد الشعب نفسه المهمة جداً بالنسبة للمنطقة الوسطى خلال الأربعمائة سنة الأخيرة ، وكخلفية تاريخية لمثل هذه الشواهد يجب أن نرسم صورة لبلد فسيح يسكنه وثنيون متفرقون في عدد لا حصر له من القبائل التي تتحدث لغات مختلفة ، وهجرات وحروب وغارات للحصول على الماشية والنساء والرقيق والتي يلازمها تدمير المحاصيل وحرق الأكواخ واسترقاق القبائل ومخاوف الأوبئة والمجاعة .

وأقدم اسم معروف لنا هو المصطلح المصري الغامض « تانحسو » والذي يشبه الاسم العربي « بلاد السودان » ، وكان الاسم المصري المتأخر هو كاش والذي يشابه الاسم التقليدي « إثيوبيا » ، وقد تم إطلاق الاسم غير المعروف والمعرف بشكل غامض على الإقليم الواقع جنوب الشلال – والمتصل بالنيل – والذي يضم المنطقة الشرقية للبحر الأحمر ، كما أن اسم النوبة الذي يمثل الجزء الشمالي من هذا الإقليم لم يظهر حتى الفترة الرومانية ، وهكذا فسنحتاج إلى استخدام ذلك المصطلح لتمييز المنطقة الواقعة بين الشلال الأول (أسوان) والثالث (حنك) ، وستعود بنا الصورة المبكرة للسودان إلى خمسة آلاف سنة إلى ما وراء بدايات الأسرة الأولى المصرية ، تظهر لنا أن مصر جنوب الدلتا والنوبة قد سكنتها سلالة واحدة لها ثقافة محلية حامية ، وهي التي سميت شعب ما قبل الأسرات ، ويشبههم البجه الحاليون ، وكانت لهم فنونهم وصناعتهم اليدوية الخاصة بهم ، وهم ذوو إلمام بالنحاس والزراعة على طول النهر، ومن الطبيعي – بسبب كونها منطقة سهوب صحراوية مع اختلاف دوري في الطقس – أن تكون قد تأثرت بفترات من التشتت السلالي ، وبعد ألف عام تحركت قبائل زنجية قصيرة القامة ذات رأس عريض – لم تكن موجودة في السودان – شمالاً داخل النوبة وأدخلت ثقافة ذات سمة إفريقية سرعان ما تضمنت العديد من الملامح الحامية ، وبدأ يستقر في الوقت ذاته الليبيون في النوبة ، حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م ، وانصهرت هذه العناصر الحامية والزنجية في هجين واحد يشبههم النوبيون الحاليون الذين يقطنون المنطقة ذاتها ، وتمت صياغة حضارة نوبية .

وبعد فترة وجيزة قدمت مجموعة زنجية أخرى ذات عناصر مختلفة ، وكانت هذه العناصر طويلة القامة رجالها أقوياء يشبههم نوبا جنوب كردفان الآن ، وتقدمت هذه العناصر شمالاً مكتسحة كل ما أمامها مدمرة الجيوش ومحطات الشرب التى شيدها الفراعنة فى منطقة دنقلا، وشعر المصريون أن هذا الغزو يشكل تهديداً مباشراً لطرق تجارتهم وحتى للإمبراطورية التى شيدوها والتي كان مركزها طيبة ، لذا فالأمر يجب أن يؤخذ بجدية ، وأرسل الفراعنة إلى الجنوب سلسلة من الحملات استطاع سنوسرت الثالث فى الحملة الثالثة (١٨٧٩ق.م) أن يهزم أخيراً الزنوج السود ، ومن ثم قام بإعادة بناء القلاع وتنظيم الإقليم الجنوبى على أساس دائم ، وكانت سياسة الحملات التأديبية قد أثبتت عدم جدواها ، ولم يكن الفراعنة مطمئنين إلى الضم السياسى ولكنهم تبنوا سياسة استيعاب البلاد ثقافياً ، وتم تأسيس مستعمرة مصرية عند كرمة التى أصبحت المركز الإدارى للمنطقة ، إلى أن دمرتها النيران حوالى عام ١٦٠٠ق.م .

وكانت البلاد – فى عهد أحمس الأول (الأسرة الثامنة عشرة) الذى طرد الهكسوس من مصر – مقسمة إلى منطقتين يحكمها نائبان للملك فى ووات فى الشمال وكاش (كوش فى التوراة) ، وتشتمل على مقاطعتى دنقلا وحلفا وحدود جنوبية متفاوتة فى الجنوب ، وتم إرسال بعثات عسكرية أو تجارية إلى كردفان وسنار ، وكانت الثقافة المصرية هى أهم مؤثر ثقافى خارجى على النوبة .

وأصبح المصريون عن طريق سلسلة من المراحل السياسية والاقتصادية مختلفين تماماً ثقافيًا عن الجنوبيين فى زمن تأسيس المملكة المتحدة (٣٤٠٠ ق.م) ، وتم ضم مساحة واسعة من النوبة لتعمل كحاجز برغم اندماجها الكامل فى الدولة المصرية ، وكان موقف الفراعنة من النوبة هو اعتبارها إقليماً تابعًا يملك طرق تجارة مهمةتجلب لهم الرقيق والذهب ، ولكنهم مصروها بعد ذلك بشكل تام وملأوها بالمهاجرين المصريين الذى طوروها حضارة مدينية تماماً مبنية على الحضارة المصرية ، برغم تأثرها بالتقاليد المحلية والبيئة الطبيعية ، وبقى معظم النوبيين فلاحين غير متحضرين ورعاة ، ولكن بسبب الأحوال المستقرة فإن المنطقة النهرية من أسوان حتى سمنة أصبحت ذات كثافة سكانية لا بأس بها ، وتكونت العديد من المدن تحت حكم الإمبراطورية الجديدة وشيدت المعابد الجميلة التى كانت كل واحدة منها مركزاً للدعاية ومجمعاً للمؤلفين الذين درسوا فى مصر الطب والقانون والدين ، وكذلك المهنيين الذين تدربوا على مختلف الحرف القديمة [1] وتمت جباية الضرائب ، كما نمت تجارة فى العاج والرقيق والأبنوس والتوابل ، واشتغلت مناجم الصحراء الشرقية لاستخراج الذهب والزمرد .

---

(١) Reisner,SNR.i.236

وفى المنطقة الشرقية يجب ألا ننسى تأثير البجة البدوية – تلك السلالة التى تتحدث الحامية – والتى تشبه مصريى مصر العليا قبل الأسرات والتى تسربت باستمرار داخل المناطق المحيطة حيث تم امتصاصها ، وقد واصلت الحياة فى صحرائها على مر القرون بلا تعديل تقريبًا حتى اليوم (١).

مملكة نبتة (٧٥٠- ٣٠٠ ق.م)

فى حوالى عام ٩٤٧ ق.م قامت أسرة ليبية كانت قد استقرت بمصر وتزاوجت مع الأسرة الملكية فى طيبة بالاستيلاء على السلطة ، وأسست الأسرة الثانية والعشرين تحت حكم شيشنق ، كما دخلت النوبة عناصر رعوية ليبية (التمحو) (٢) وأسست مملكة عاصمتها نبته بالقرب من جبل البركل ، وقد جلب كهنة آمون احترامًا ونفوذًا كبيرين للمدينة ، وذلك بالانتقال مع آلهتهم من طيبة إلى نبته مما جعل الملك النوبى كاشتا (حوالى ٧٥٠ ق.م) والذى كان يحمل لقب ملك كاش ، يحاول توحيد كل العالم المصرى سياسيًا ، وقام بنفسه بغزو مصر حتى طيبة ، وقام خليفته بعانخى (٧٤٤ -٧١٠ ق.م) بإتمام التوحيد ووصل حتى الدلتا وهدم بيوتها وفرض الجزية على كل مصر ، ونصب فرعًا للأسرة المالكة فى مروى (بالقرب من كبوشيه) .

أما الحاكم التالى وهو شباكا (٧١٠ - ٧٠٠ ق.م) فلم يحكم فقط مصر كلها بل أرسل حملة بقيادة تهارقا – ابن بعانخى – لمساعدة حزقيال ملك يهوذا ، وكون معه حلفًا ضد الملك الآشورى سنحريب ، وبعد وفاته واصل تهارقا الحرب ضد الآشوريين ، إلا أنه هزم فى عام ٦٧٠ ق.م ، وتم احتلال مصر وعندما مات تهارقا خلفه الملك تانوت أمانى ، وقام بإعادة فتح مصر لفترة ، إلا أن آشور بانيبال قام بطرده ، وعادت فى حوالى عام ٦٦١ - ٦٥٤ ق.م حدود نبته إلى أسوان ، ومنذ ذلك

(١) Seligman, the Hamitic problem in the Anglo- Egyptian Sudan. J.R A.I.xliii (1913) 593-705; G.W Murray the Northern Beja J.R.A.I.lvii(1927) 39-53

(٢) ويعتقد Eduard Meyes(Geschichte des Altertums,ii,52) أنهم ليسوا ليبيين ، ولكنهم من سلالة حرحور كبير كهنة آمون ، والذى أسس حكومة الكهنة فى طيبة حوالى عام ١٠٧٥ ق.م .

التي حكمت الأسرة الأثيوبية فقط ، والتي كانت حدودها آنذاك جنوبا نحو منطقة السدود [١] ، وانتهت بذلك الفترة القصيرة للتوسع السياسى الإثيوبى ومشاركته فى أحداث العالم الكبير ، ولكن بينما أصبحت مصر خاضعة للغزاة الأجانب المتتالين ، بقيت أثيوبيا قوة مستقلة ذات حضارة مصرية حتى قدوم النوبة فى القرن الثالث الميلادى .

وأدى التأثير المصرى إلى خلق ثقافة نوبية مستقلة ، وإن بقيت بقوة مصرية فى صفاتها ، وكان يحكمها فى عصرها المزدهر ملوك فراعنة مصريون أيضا جلبوا المهندسين المصريين المهرة ، وكذلك الحرفيين لبناء وتزيين معابدهم ومبانيهم العامة ، واستخدموا خطًا مستمداً من المصرية لكتابة لغتهم الوطنية ، وعبدوا الآلهة المصرية الى جانب آلهتهم الخاصة ودفنوا ملوكهم فى أهرامات ، وأصبحت نبته - كما رأينا - مركزا مهمًا لحكم كهنة آمون وثقافة طيبة ، وكانت الدولة ثيوقراطية ، وكان يتم إجبار الملك علي التنازل عن العرش بأمر آمون الذى ينصب حاكمًا جديداً ، وكانت السلطة المادية لنبته قائمة على السيطرة على مناجم الذهب وطرق التجارة بين مصر والمراكزالجنوبية التى تزودهم بالرقيق والعاج ، وعندما انقطع الاتصال مع مصر - بعد عام ٦٦١ ق.م- تدهورت الثقافة الأجنبية أيضًا وأصبحت مقلدة تمامًا مع بعض الصفات الأصلية القليلة ، وبقيت فى الوقت ذاته مخلصة للأفكار المصرية القديمة أكثر مما هى موجودة فى مصر ذاتها ، مكونة حاجزاً متينًا أولاً ضد المسيحية ثم - عندما اعتنقت المسيحية - ضد الإسلام .

مملكة مروى (٣٠٠ ق.م - ٣٥٠ ق.م) :

قلنا إنه فى الفترة التى كان فيها ملوك نبته فراعنة مصريين كانت سلطتهم تمتد جنوبياً،وأنهم نصبوا فرعًا للأسرة الملكية الحاكمة فى مروى بالقرب من الشلال السادس - حاكمًا لجزيرة مروى - المنطقة التى يحدها نهر عطبره والنيلين الأزرق والأبيض ، واكتسبت مروى بمرور الزمن نفوذاً أكثر فأكثر،وأصبحت مركزا تجارياً مهمًا ليس فقط نتيجة لطريق الشمال والجنوب على طول النيل لوجود طريق ملاحى نهرى طويل ، ولكن أيضا نتيجة لطريق القوافل غرب - شرق إلى موانئ البحر الأحمر ، وهكذا احتلت المدينة موقعًا ذا أهمية استراتيجية ، وأصبحت أكثر نمواً وتطوراً ، وأفضل موقعًا من نبته لإدارة البلاد والمحافظة على الحدود ، كما أنها كانت على علاقة وثيقه مع الجنوب الخصب المنتج ، زيادة على ذلك فعندما بدأت تنضب مناجم ذهب نبته ، أصبحت تلك المدينة أكثر فأكثر - عاصمة دينية وإدارية إلا أن ادعى فى آخر الأمر - حوالى عام

---

(١) يقول ريزنر SNR,ii,62, أنه كانت هناك علاقات تجارية بين سكان جبل مويا (فى منطقة سنار) ومملكة نبته .

٢٠٠ ق.م – الملك في مروى السلطة العليا ، وأصبحت هناك لفترة مملكتان ، ولكن في عام ٢٢٥ ق.م حقق أرجمني ملك مروى السيادة وكون منذ ذلك الحين (عدا الفترة من سنة ١٠٠إلى سنة ٢٥ ق.م) الحكم الأثيوبى الذى تمركز فى مروى .

وكانت الأيام العظيمة لملكة مروى معاصرة للأسرة البطلمية فى مصر (٣٣٢ – ٣٠م) ، وظهر نفوذ الثقافة الهيلينية والرومانية في مروى العاصمة ذات المدنية الراقية، وكانت نبته مثل طيبة بعد الإمبراطورية مركزا كنسياً وثقافياً للملكة حتى عصر البطالمة عنما تم إحياء ثقافتهم فى مروى ، وكما يكتب ريزنر :

> **بقيت معابد نبته مع هيئاتها من الكهنة والحرفيين الذين برعوا فى معرفة مصر ، المركز الثقافى المملكة ، بينما استمرت مروى مركزاً للثروة المالية والسلطة السياسية ... وبعد جيل أو نحوه من وفاة نستاسن قام حكام مروى بإدخال التعليم والفن المتأثر بالبطلمية ، وجعلوا من عاصمتهم لأول مرة المركز الثقافى الأثيوبى** (١)

وتناقص الاتصال مع الشمال تدريجياً وانطفأ نور المعرفة واستخدام اللغة المصرية ، وظهرت كتابة جديدة بأحرف متصلة هى المروية ، وكان اليونانيون والرومان لا يعرفون المملكة إلا بشكل غامض ، وكانت الطبقة الحاكمة فى مروى تشبه بلا شك الإثيوبيين الشماليين الحاميين ذوى العنصر الزنجي القوى ، إلا أن معظم سكان جزيرة مروى – بسبب الضغط المستمرمن الغرب والجنوب – كان يغلب عليهم العنصر الزنجى ، وكانوا شعبًا بدائيًا نصف مستقر نصف بدوى يعيش على زراعة الدخن والقطن والصيد ،وظهر فى هذه الفترة مصطلح « نوباى » لأول مرة ، وجاء ذكر هذا الشعب لأول مرة فى اراتوسيطين (٢٧٦ – ١٩٦ ق.م) واقتبسها استرابو

> **يقطن فى ليبيا النوبيون (النوباى) على شمال نهر النيل ، بداية من مروى وينتشرون حتى انحناءات النيل ، وهم مستقلون ولا يخضعون للإثيوبيين وينقسمون إلى عدة ممالك** (٢)

ونجد هنا أنه تم تمييز النوباى بوضوح عن الليبين والإثيوبيين ، وأصبح يسكن فى هذا الوقت عنصر مخالف إلى جوار الشعب الأصلى .

وخلال القرن الأول الميلادى بدأ المؤرخون الرومان يتحدثون عن ملكات إثيوبيات يسمون« كنداكة » (٣) ، وأوضح البروفسور جريفث أن هذه الكلمة هى لقب معناه ببساطة « ملكة » ،وأن الكنداكات قد حكمن كأوصياء على العرش أثناء حكم أبنائهن القصر ، وعندما وصل الرومان إلى سين (أسوان) قامت أول كنداكة تاريخية بالهجوم

(١) ريزنر . SNR.ii61

(٢) Strabo,Geography ,BK.xxii

(٣) قارن Actsviii 27,strabo,Geography,BK,xxii

على الحامية الرومانية واستولت عليها (٢٥ م) ، وقام بترونيوس - والى مصر - بالسير إلى داخل النوبة وهاجم ونهب نبته ، وأرسل الآلاف من الرقيق إلى القصر فى روما ، ويفترض أن تكون هذه الكنداكة هى أمون - تادت - شريكة الفرعون نتك - أمون الذى ترك العديد من الآثار فى النوبة حتى منطقة النقعة شمال شرق الخرطوم ، وبقيت مروى مملكة مستقلة ، وفكر نيرون فى غزوها وأرسل فى حوالى عام ٦٥ م حملة استكشافية صغيرة تغلغلت - بمساعدة الحكام المحليين - على طول النيل حتى وصلت إلى منطقة السدود ، وأورد التقرير أن الكنداكة تتولى الحكم فى مروى وأن البلاد فقيرة جدا ولا تستحق الغزو . كما ذكرت الحملة ايضا أن الإقليم شمال مروى يحكم بشكل لا مركزى ، وأن هناك خمسة وأربعين أميرا ثانويا يحكمون أسوان ومروى ، ومن عام ٥٤ م ترك الرومان النوبيون يسيطرون على البلاد من بريمس (أبريم) جنوبا ، ولم يبق هناك دليل ليبين لنا إن كانت هناك أى كنداكة حكمت بعد القرن الأول الميلادى ، ولا تذكر المدونات سوى ملوك مروى فقط ، وتدهورت سلطة مملكة مروى من القرن الأول حتى القرن الرابع ، وكان مرجع ذلك أساسا - كما سنرى - قدوم النوبا من الجنوب الغربى ، وتسببت أحوال مصر غير المستقرة ، واستيلاء الدوديكاشيونات على المنطقة الواقعة جنوب فيلة بواسطة الليبيين [1] إلى ركود التجارة مع مصر ، كما أدى تدهور الاقتصاد الذى تلى إلى إضعاف السلطة المركزية فى مروى التى لم تستطع السيطرة بقوة على المناطق الحدودية للملكة .

وفى حوالى عام ٣٥٠ م - فى الوقت الذى كانت فيه مملكة أكسوم فى أوج مجدها - قام عيزانا أول ملوكها المسيحيين بحملة نهب ضد النوبة فى « جزير مروى » ، وهزمهم وسجل ذلك فى النقش الاثيوبى [2] فى تقازة (عطبره) وأحرق مدنهم تلك المبنية بالطوب وتلك المبنية بالقش ، كما أحرق مخازن الذرة والقطن ، ثم هاجم كاسو (مروى) ، ومن المحتمل أنها كانت كل ما تبقى من المملكة .. وكذلك علوة (بالقرب من الخرطوم الحالية)

---

(١) فى عام ٢٥٣ - ٢٥٤ أقام الأمير البليمى باشمون - ابن ياسى - نقشًا فى فيلة سمى نفسه فيه .. سفير روما العظيم ، (قارن Wolley and Melver,karanag iii,90 . ومنذ ذلك الوقت احتل الليبيون شمال النوبة ، وهاجموا الحدود الرومانية بانتظام ، وهزمهم الإمبراطور بوليوس امليانوس فى عام ٢٦١م ، لكنهم سرعان ما أغاروا على إقليم طيبة وطردهم أورليان مرة أخرى فى عام ٢٧٤م ، ولكنهم قاموا مرة أخرى - بعد عامين بدعم عن نرسيس ، باحتلال طيبة - ودون بروكوبيوس أن دقلديان (٢٨٤ — ٣٠٥م) نصب بعض النبتيين من « مدينة الواحة (الخارجة ؟) حتى النيل » ، واعتقد أنهم بهذه الطريقة لن يتحرشوا بالبلاد الواقعة نحو الواحة ، كما أنه قرر للبليميين مقداراً محدداً من الذهب يمنح لهم سنوياً شريطة ألا ينهبوا أرض الرومان ، واستمروا فى تلقى هذا الذهب حتى زماننا (٥٤٥م) ، ومع ذلك فقد اجتاحوا البلاد (Debello persico, loeb,ed.,p.187)

(٢) Littmann Deutsche Aksum expedition,iv.33 translated by Budge, History of Ethiopia pp.255-8

وكان لهذاالغزو أثر بعيد المدى ، إذ أنهى حكم الأسرة المروية ، وسترتبط البلاد من الآن فصاعداً بالجنوب بدلًا من الشمال ، واختفى الخط المروى وكذلك الفخار المروى الملون وحلت اللغة النوبية محل اللغة المروية لغة للحديث .

ما الذى حدث فى مروى الضبط ؟ يقودنا الدليل اللغوي إلى نتيجة مؤداها أن اسم « نوباى » ينتمى فى الأصل إلى زنوج كردفان وأن نوباى الشمال هم مهاجرون من الجنوب الغربى غيروا من خلال الغزو الجزئى والاستيطان لغة الشعب ، وبعد انتهاء المملكة بقيت المروية لفترة قصيرة لغة كهنوتية ، ولكنها تدهورت كلغة حديث ، وأصبحت لغة المهاجرين النوبيين الجدد النشطين هى اللغة السائدة .

وفى نقش الملك الأكسومى الذى سجل فيه غزوة عام ٣٥٠م يظهر بجلاء التمييز بين النوبا والمرويين برغم أنهم يعيشون بوضوح جنبًا إلى جنب ، ويقول إن مدن النوبا أكواخ من القصب ، وأنهم يملكون أيضا مدنًا مبنية بالطوب ، وقد تم الاستيلاء عليها .

ويبدو إذن أنه قبل عام ٣٥٠م قامت قبائل نوبية من كردفان والجزيرة [١] بغزو مروى ، واستولت على بعض المدن واستوطنت فى البداية كعنصر منفصل متميز عن السكان الموجودين فى المنطقة ، وتبنوا بعض الديانة المروية وتزاوجوا فى الوقت المناسب مع الإثيوبيين المرويين .

وقد يعود سقوط المملكة المروية أساسًا إلى قدوم هؤلاء المهاجرين بالرغم من أنه من المحتمل أن يكون هؤلاء القادمون الجدد - بصرف النظر عن الطبقة الحامية الحاكمة - أقرباء للسكان المرويين ، كما يرجع سبب تدهور التجارة مع مصر إلى الأزمات التى كان يعانيها الاقتصاد المصرى ، كما انتهز البليميون فرصة ضعف كل من الدولتين وكثفوا غاراتهم المستمرة إلى داخل مروى ومصر الرومانية معرضة بذلك طرق التجارة للخطر ، وأخيرا دمر غزو عيزانا الأسرة الحاكمة ووضع نهاية للملكة ، ويذكر عيزانا أن النوبيين الحمر يوجدون فى الشمال :

> **وأرسلت بعد ذلك جيش « هالن » وجيش « لاكن » إلى سيدا (النيل شمال اتصاله بنهرعطبره) ضد مدن النوبا المصنوعة من القصب ووصل شعبى إلى حدود النوبا الحمر وعادوا سالمين وآمنين [٢]**

ويقودنا مصطلح « الحمر » إلى افتراض أنهم الشعب الحالى الأصلى أو جماعات من المهاجرين البليميين (مستعمرات) ، إذ إن نظام السكان النوبيين الأصليين فى الشمال كان مايزال لم يتم إفساده نسبيًا ، فى حين كان يعيش فى مروى شعبان جنبا إلى جنب ، ومن جهة أخرى فقد يكون النوباى هم الذين ذكرهم اراتوسيطنى بأنهم يقطنون النوبة العليا من مروى « حتى إنحناءات النيل » .

---

(١) S.Hillelson,Nubian Origins Zyhlarz , zur stellung des Derfur-Nubischen W.Z.K.M. xxxv. ,SNR.1930,pp.137.48.

(٢) Budge , History of Elhiopia, pp. 255.8

ذكرت النوبه في القرن الخامس بأنها على حدود مصر ، وذلك في الاستغاثة التى أرسلها أبيون أسقف سابن (أسوان) إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٢٥-٤٥٠م) يناشده إصدار أوامره إلى السلطات العسكرية لحماية الكنائس فى فيلة ، والتى يغير عليها البليميون والنوباد ، ويظهر هذا أن النوبا وقد كانوا موجودين في النوبه السفلي جنوب إبريم ، وقد سكن بعض البليميون على طول النيل من إبريم حتى فيله [١] وعبدوا العديدمن الآلهة المصرية .

وتلت مناشدة أبيون حملة الجنرال ماكسيموس فى عام ٤٥٠م ضد التحالف البليمى النوبادى ، وهزمهم وأجبرهم على توقيع معاهدة تنص إحدى موادها على عقد هدنة مدتها مائة عام ، بينما تنص مادة أخرى على أن يسمح للبليميين والنوباديين – طبقا لتقاليدهم القديمة – بدخول جزيرة قليلة لزيارة معبد إيزيس ، وأن يأخذوا تمثالها لإجراء احتفالاتها الدينية لفترة محددة [٢] وحظر جوستنيان الاول (٧٢٥ ــ ٥٦٥ م)

فى حوالى منتصف القرن السادس عبادة الأوثان فى جزيرة فيلة . كما قام سلكو أول ملك نوبادى مسيحى بطرد البليميين من امتداد النيل الذى كانوا قد احتلوه ما بين بريمس وأسوان ، ويقول بروكوبيوس المتوفى حوالى عام ٥٦٥ :

تستغرق الرحلة بالنسبة لمسافر خفيف ثلاثين يوماً من مدينة أكسوميس حتى الحدود المصرية – المقاطعة الرومانية – حيث تقع المدينة المسماة الفنتين ، ويقطن العديد من الشعوب فى تلك المنطقة ومن بينهم البليمون والنوباد وهم أمة كبيرة ، ويقطن البليمون فى القسم الأوسط من البلاد ، بينما يمتلك النوباد الإقليم الواقع على نهر النيل [٣] .... ويعبد كل من هذين الشعبين – البليمون والنوباد – كل الآلهة التى يؤمن بها اليونانيون ، كما يبجلون إيزيس وأوزوريس وليس كل البريوبس ، كما اعتاد البليمون أيضا تقديم التضحية البشرية للشمس ، وقد احتفظ هؤلاء البرابرة بهذه المقدسات فى فيله حتى وقتنا الحاضر، ولكن الامبراطورجوستنيان قرر سحقهم وقام نرسيس بهدم المقدسات طبقا لأمر الامبراطور، ووضع الكهنة تحت الحراسة وأرسل التماثيل إلى بيزنطة [٤]

---

(١) يقول ماكما يكل (Hist,of the Arabs in the Sudan, 1,37) أن اولمبيودورس زار بالفعل بلادهم ما بين عامى ٤٠٧ و٤٢٥م ، وحدد بريمس (إبريم من ٦٠ الى ٨٠ ميلاً أسفل وادى حلفا)بأنها آخر مدنهم على النيل ، وعزز نص سلكو الذى حاربهم فى القرن السادس هذا الأمر .

(٢) Priscus , Fragmenta , in Historic Graeci Minores , edit , L.Dindor fius , Lipsiae , 1810 , 332 .

(٣) Procopius , De Bello persico (Loeb ed. transl . H.B.Dewing), p.185

priopus إله القوة التناسلية عند الذكور فى المعتقد الاغريقى والرومانى (المترجم)

(٣) تم الانتهاء من معبد إيزيس فى منطقة نكتانيوس (٢٦٠ - ٢٤٢ ق.م) بركوبيوس - مصدر سابق ص ١٨٧ - ١٨٩ .

وسجل سلكو انتصاراته على البليميين فى نقش يونانى وضعه فى معبد تلميس (كلابشه)، ويبدأ النقش « انا سلكو رئيس التوباد وكل الأثيوبيين حضرت إلى تلميس وتافيس مرة ومرتين وحاربت البليميين ومنحنى الله الانتصار بعد ثلاث مرات وقهرتهم نهائيًا وجعلت من نفسى سيداً على مدنهم [١]، من المحتمل أن تكون هناك علاقة بين هذين الحدثين ، إذ فى السابق عندما عبد النوباديون الأوثان كان الشعبان متحالفين ويتعبد كلاهما فى معبد فيلة . وبعد انتصار سلكو لم يرد أى ذكر للبليميين على النيل . إما أنه تم امتصاصهم أو انضموا إلى أندادهم فى الصحارى الشرقية ، وامتدت الممالك النوبية على طول النيل شمالاً حتى جنوب فيلة .

كما يسجل الدليل الآثارى على أنه قد ظهر فى النوبة السفلى خلال القرنين الخامس والسادس « قبور ذات شكل جديد وليست مصرية بالمرة ، وهى قبور ذات شكل بدائى ، وقد سمى ريزنر هذا الشعب « بالمجموعة س » ، وكانت ذات ثقافة مروية فى الغالب ، ولكن بعنصر زنجى قوى ، إنهم مهاجرون اندمجوا مع المرويين [٢]

لقد تم البت على أية حال فى مشكلة كيف جاء النوبيون إلى هذه المنطقة . ويرى زهلارز أن نوبا نقش عيزانا (المجموعة ب) انتشروا شمالاً وانضموا إلى أشقائهم – النوبا الحمر (المجموعة أ) عندما تحول الشمال الى المسيحية ، ولكن من المحتمل أن هذه المجموعات تحركت شمالاً قبل ذلك التاريخ . لقد وجدوا أن عملية التحول إلى اللغة النوبية قد تقدمت بالفعل ، وسرعان ما أصبح العنصر النوبى قوياً بما فيه الكفاية

---

(١) من الصعب تبرير الاسم لأن مقرة وعلوة لم تكونا خاضعتين له ، ولكن التمييز الذى وضحه بين النوبا والإثيوبيين يعين أن النوبيين كانوا ما يزالون عنصراً مختلفاً عن بقية السكان .

(٥) Budge, the Egyptian Sudan ii.308 يبدو أن سلكوا كان مسيحياً لأنه يعزو فوزه إلى الله ويشير إلى آلهة البليميين« بالأوثان »

(٢) يكتب فيرث «إن الزيادة المطَّردة للكم المادى للمجموعة س جنوباً وصفتها الأثيوبية هى فى صالح تمثيلهاأفة الأثيوبية التى شقت طريقها إلى داخل المنطقة الرومانية من ذلك الاتجاه ... إن شعب المجموعة (س) سودانيو السمة والثقافة ، وللفخار العديد من التشابه مع الفخار المروى المتأخر(Arch.Surv.Nub,1908 -9,pp.40-1)

وأظهرت تقارير المسح التشريحى أن شعب المجموعة س هم زنوج أجانب أقوياء شقوا طريقهم فجأة نحو الشمال داخل النوبه جالبين معهم شكلاً من اشكال الدفن ونمطاً جديداً للفخار ، وأعلن الدكتور ريزنربشكل واضح على أنه ليس فخاراً مصرياً (Elliot smith and Derry, Arch.surv.Nub,Bull,5,Cairo(1910) ,12)

للانتشار أكثر إلى وادى النيل ، وحكم السكان الحاميين المحليين فى الوقت الذى تم فيه امتصاصهم داخل هؤلاء السكان ، ويمكن تفسير ذلك بالاختلاف الكبير فى الميزات الجسمانية بين نوبا جبال كردفان ونوبيى وادى النيل [١]

---

(١) هناك سمة حامية غالبة بشكل مؤكد بين نوبة النيل بينما نوبا الجبال زنوج ، لذا فإن سلجمان (J.RA.I.xliii,1913,610-25) وضع نظرية تبناها ماكمايكل (Hist,vol.1-1,2) بأن تجار دنقلا تغلغلوا داخل جبال النوبا فى أزمنة قريبة نسبياً وفرضوا لغتهم على الزنوج . وهذه النظرية من الصعب التمسك بها ، ومن الاختلافات بين لغات نوبا الجبال والنوبيين على النيل التى نجد فيها سمات لغوية مستقلة تماما، لذا فلن تعيش أية نظرية تقول بالاقتباس ، وقد يكون انفصالها قد حدث فى أزمنة مبكرة ، كما لا يوجد هناك أى دليل كما يسلم به سلجمان (Loc.sit.,608) من أن نوبا الجبال قد تأثروا ثقافيا بالدناقلة . إن تدفق النوبا داخل السكان الحاميين فى المنطقة الشمالية ليس كافياً ليعدل بشكل كبير سلالاتهم وسماتهم الثقافية . فيما يتعلق بهذه المسألة ينظر Hillelson, " Nuba Origin " SNR ., 1930 , pp. 137 - 48

٢- اعتناق النوبة الدين المسيحي

عندما جاءت المسيحية الي السودان كان شعب الشمال - أى الحاميون - مندمجين مع الزنوج ، وكانت الحامية أكثر فى الشمال ، رغم وجود عنصر زنجى كبير يزداد قوة فى اتجاه الجنوب حتى أصبح سائدا فى جزيرة مروى . وإلى الجنوب من مروى - على النيل الأبيض والسوباط - كانت هناك قبائل الشلك الزنجية ، وفى الصحارى وعلى التلال فى الشرق والشمال الشرقى حتى ساحل البحر الأحمر كان يتجول البجة الحاميون ، وكما أن النوبا المهاجرين الذين كانوا فى زمن غزو أكسوم مازالوا متميزين عن الاثيوبيين المرويين ، قد التحموا الآن مع السكان الأصليين الذين تبنوا اللغة النوبية ، وهكذا وجدنا الشعب الذى يعبد الآلهة المروية القديمة ويمارس الطقوس الإفريقية البدائية ، ومع ذلك فقد كان الشمال لفترة طويلة تحت الحكم الهيليني الذى حكم البلاد بواسطة العديد من الزعماء الثانويين ، البعض منهم قلد الدولة البيزنطية واستخدم اليونانية لغة كتابة فى البلاط وفى التجارة . ولم تستخدم النوبية فى الكتابة حتى العصر المسيحى .

وعندما وصلت أولي البعثات التبشيرية المسيحية إلى السودان وجدت ثلاث ممالك هى نبته ومقرة وعلوة التى كان الزعماء الصغار يقدمون لهم الولاء ، ودخلت المسيحية السودان فى القرن السادس بمحاولة من الكنيسة المصرية ، فكان أول اتصال للمسيحية بالسلالة الزنجية [١]. إن مصدرنا الأساسى لتاريخ هذه الفترة هو « التاريخ الكنسى للكاتب المعاصر يوحنا اميدا (توفى فى عام ٥٨٦ م) أسقف افسس. [٢] انتشرت المسيحية بسرعة فى مصر حيث كان تطورها فذًا ، وتقبلها المصريون واستوعبوا جوهر روحها بطريقة أثرت بشكل قوى في روح حياتهم الدينية، وصاغوها فى ذات الوقت لتناسب العديد من مفاهيمهم الخاصة، لدرجة أصبحت تعبر عن قوميتهم التى كانوا قد حرموا منها فى دنيا السياسة ، وقد ظهر هذا فى عدة طرق : [٣]

---

(١) إن رواية يوزبيوس (Vit.constantantin,108) عن تغلغل المسيحية وسط الأثيوبيين والبليميين فى زمن قسطنطين (٣١٢ - ٣١٧) يشير فى الحقيقة إلى مملكة أكسوم وقبائل البجة البدوية . وتثير مشكلة غموض كلمة أثيوبيا التى اتخذت فى بعض الاحيان فى معناها الواسع وفى بعض الأحيان فى معناها الضيق . لقد دخلت المسيحية أكسوم لأول مرة من مصر بواسطة التجار عن طريق العلاقات التجارية والبحرية التى كانت قائمة بين البلدين ، وتدل كلمة وسط « كل » الاثيوبيين (Comment,MOH.xxiv-9) ضمناً إلى أنه كان هناك تبشير فى مكان ما في المنطقة ، إلا أن حطام سفن فرومنتوس واديسيوس تدل على أنهم هم المؤسسون الحقيقيون لكنيسة أكسوم ولو أننا نعلم أنه قد ساعد هؤلاء التجار اليونانيين المسيحيين فى وقت مبكر . إن الرواية المباشرة للدخول في المسيحية التى تم الحصول عليها من أوديسيوس ذكرها روفينوس (Eccl.Hist.I.9). لقد رسم فرومنتوس القديس اثناسيوس أسقفا فى عام ٣٣٠م ، وكانت أكسوم أثناء حياته قد دخلت المسيحية رسمياً ، وانتشر الدين إلى داخل الأجزاء الأخرى لأثيوبيا . ومع ذلك يبدو أن السودان لم يتأثر كثيراً من أكسوم ، حيث كان الدين ما يزال محلياً بشكل كبير . وبعد غزو عيزانا حوالى عام ٣٥٠م ، وتحطم مملكة مروى وتوسع البجة ، كان السودان فى قلاقل وانقطعت علاقات الصداقة بين أمرائها وأكسوم .

(٢) John of ,Ephesus Ecclesiastical History, part III, transl.R payne smith (1860) pp,250-9,315-27,Mich. Syr,ii 265-7,348 . p,kraus, Die Anfangs des christentums in Nubien,1930,J.Maspero, Hist.des patriarches d'Alexandria,1923, pp.233-6,90,J.Maspero "theèodore de philai," Rev. del'hist. desrel. Lix,299-317.

(٣) قارن Bonet- Maury, L' Islamisme Le Christianisme en Afrique pp.37ff.

أولاً : استخدام لغتهم – القبطية – كأداة لنقل الرسالة المسيحية منذ فترة مبكرة . قارن هذا مع الكنيسة النوميدية فى شمال إفريقيا التى استخدمت اللاتينية وفشلت فى البقاء عند غزو الإسلام ، وتمت ترجمة الكتاب المقدس حتى إلى لهجات مصر العليا ومصر السفلي والواحات الغربية ، وعندما أصبحت الكنيسة المصرية قومية استخدمت القبطية أيضاً فى العبادة .

ثانياً: إن التقويم الكنسى الذى بدأ بعصر الاضطهاد كان غير عادى في تنظيمه وانضباطه ، فالأسقف مثلا تم انتخابه عن طريق المصادقة الشاملة من اعضاء الكنيسة واعتبربيساطة حتى زمن چيروم أنه رئيس الكهنة (Primus inter pares)

ثالثاً: تطور مظهر إيمان الناسك – الراهب والزاهد إلى درجة مرضية .

رابعا : تطورت مدرسة خاصة – التعليم بطريقة السؤال والجواب catechistical فى الاسكندرية وارتبطت بالأسماء العظيمة لكلمنت واثناسيوس وسيرل وبشكل خاص اورجين وكان هدفها التدريس للداخلين حديثًا فى الدين ، والذين تركوا السيبرابيم المشربة بالفلسفة اليونانية ، وكانت هذه أول كلية دينية مسيحية ، وهى لم تدرس فقط حياة وتعاليم المسيح ،انما كشفت عن انسجام تعاليمه مع تلك التى يقول بها الفلاسفة ، والاعتراف بعناصر الحقيقة في الديانات الأخري ، واستخدام طرق المدرسة الأفلاطونية . إنها المدرسة التى بعثت بالإرساليات التى حملت المسيحية إلى القبائل الوثنية فى ليديا وفرجيا وسيناء والجزيرة العربية وطيبة ومصر العليا ، وأخيرا أصبحت مصر مركزاً لرد الفعل المنوفستى ضد النزعات المسيحية الهيلينية التى تركز فى داخلها كل ولع المصريين بالاستقلال الدينى .

وأصبح أغلبية السكان مسيحيين فى عهد قسطنطين . وبمنتصف القرن الخامس اختفت بسرعة كل التأثيرات غير المسيحية ، وبقيت عبادة الأوثان مدة أطول فى جزيرة فيلة على الحدود المصرية – النوبية ، وسمحت السلطات الرومانية ببقائها من وجهة نظر سياسية ، اذ كان للنوبيين والبليميين معابد يعبدون فيها أوثانهم . وكان من المحتمل أن يؤدى إلغاؤها إلى مشاكل مع هذه الشعوب المشاغبة . وتم – كما رأينا – توقيع معاهدة بين الرومان وهذين الشعبين سمح بمقتضاها باستمرار العبادة فى معابد إيزيس . وفى عام ٥٢٥م كان هناك أسقف مقيماً فى الجزيرة جنبًا إلى جنب مع المعابد . ولم يتم الإلغاء النهائى لعبادة الوثنيين هناك إلى أن استطاع الإمبراطور الاعتماد على رد الفعل المؤيد فى النوبه ، ويكتب الملاح المصرى كورمس انديكوبلستس – حوالى عام ٥٢٧ – ٥٤٧م قائلاً : توجد هناك وسط النوبيين والجرمنت كنائس

المسيحيين فى كل مكان ، كما نجد الأساقفة والشهداء والرهبان والنساء أينما ينادى بانجيل المسيح. [١] ومع ذلك فإن مبالغة هذه الرواية ربما تظهر أنه كان هناك مسيحيون وسط النوبيين خلال النصف الأول من القرن السادس ، كما نعلم أيضا أن المسيحيين هربوا من اضطهاد دسيوس وفاليريان ودقلديان والآخرون إلى مصر العليا حيث كسبت القومية القبطية معقلا حصينا لها ، وقد يكون البعض منهم قد دخل النوبة ولم تنقطع أبداًالعلاقات الاقتصادية والثقافية بين مصر والنوبة بالرغم من الغارات المستمرة ،ومن المحتمل أنها لم تستطع منع المسيحيين من دخول النوبة . ولكن يبدو واضحًا من مرسوم ثيودوسيوس الأول الشهير الذى اعتبر النوبيين وثنيين ، وأن كتاباً من أمثال برسكوس وبروكوبياس الذين تحدثوا عنهم كعبدة لإيزيس وأوزوريس أن المسيحية لم تقبلها إلا أعداد قليلة قبل عهد جوستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥م)،ويكتب يوحنا أفسس:

كان من بين رجال الدين الذين حضروا عند البابا ثيودوسيوس [٢] القس المدعو جوليانوس، رجل عجوز ذو منزلة أخلاقية عالية ، وكان جاداً بشكل كبير فى تنصير السكان المتجولين الذين يقطنون علي الحدود الشرقية لطيبة فيما وراء مصر ، ولم يكونوا تابعين لسلطة الإمبراطورية الرومانية،وكانوا يتلقون إعانة مالية على ألا يدخلوا مصر أو ينهبوها ، كما كان القس يوليانوس شديد الحرص على هذا الشعب ، لذا فقد ذهب وتحدث بشأنهم إلى الملكة الراحلة ثيودورا على أمل إيقاظ رغبتها فى تحويلهم إلى المسيحية ، ولأن الملكة متحمسة جداً جداً فقد تلقت الاقتراح بفرح ووعدت بأن تعمل بكل ما فى طاقاتها لتحويل هذه القبائل عن أخطاء الوثنية [٣]

وعبرت الإمبراطورة عن رغبتها فى أن تعهد بمهمة الإرسالية الي جستنيان الذى قرر بصفته حامياً للكنيسة الأرثوذكسية ولأسباب سياسية بأن مهمة الكنيسة التى تأخرت كثيراً يجب تنفيذها فوراً ، ومع ذلك فلم تكن لديه الرغبة فى أن يرى بعثة

---

(١) The Chirtian Topography,ed.,McCrindal,Hakluyt. Society,1897-p.120

كان الجرمنت فى الفترة الكلاسيكية قبيلة بدوية واسعة الإنتشار ، تمتد من فزانيا (فزان) حتي النوبه، ويقول يوحنا بكلاريوم أنهم عقدوا معاهدة سلام مع الإمبراطورية ، وأعتنقوا المسيحية فى العام الثالث لجستين الثانى (٥٦٩م) وهى نفس السنة التى دخل فيها المسيحية سكان مقرة الدولة المتاخمة لهم

Garamantes per Legates Paci Romanac rei Publicae et Fidei Christianae

Sociari desiderantes poscunt,que Statim utrumque imetrant (ed.,Mommsen,xl.212.)

(٢) كان ثيودوسيوس بطريرك الاسكندرية ٥٣٦ - ٥٦٦ منفياً فى القسطنطينية فى هذا الوقت

(٣) يوحنا أفسس . مصدر سابق ص ٢٥٠

ثيودوسيوس تقوم بتحويل النوبيين إلى المونوفستية [1]، ومن ثم قرر أن يكتب إلى الأساقفة الذين يقفون معه في طيبة يأمرهم بالذهاب إلى هناك ، ويؤسسوا بينهم اسم المجمع الكنسي [2] .وأرسل إليهم السفراء ومعهم الهدايا والذهب وكساوى معمودية . وأمر دوق طيبة بحراستهم حتى حدود نبته.

وكانت الامبراطورة منزعجة جداً لتهوره ، وصممت على أن تتفوق عليه بالحيلة والدهاء ، وقامت بإرسال جوليان ومعه تفويض من بلاطها مع خطاب إلى دوق طيبة تقول فيه:

لقد عزم كلانا – صاحب الجلالة وأنا – على إرسال سفارة إلى شعب نبته ، وأبعث إليك رجلاً مباركاً يدعى جوليان ، إن رغبتي هي أن يصل سفيري إلى هناك قبل سفير صاحب الجلالة ، وأحذرك اذا سمحت لسفيره بالوصول قبل سفيرى ، ولم تمنعه بشتى الحجج إلى أن يصل سفيرى إليك والمرور عبر ولايتك والوصول إلى وجهته ، سأرسل فى الحال من يقطع رأسك [3]

ولم يجد الدوق صعوبة فى حجز الوفد الإمبراطورى بشتى المراوغات مثل صعوبة الحصول على الأدلاء أو القافلة الكبيرة الضرورية للسفر إلى داخل الجنوب المتوحش . ومع ذلك فعندما وصل جوليان ورفاقه وجدوا الخيول والأدلاء فى انتظارهم ، وفى اليوم نفسه – بدون إضاعة للوقت وبحجة أنهم يقومون بذلك مجبرين – مهدوا له الطريق ، وكان أول من شرع فى السفر ، [4] وكان الدوق منزعجًا جدا لهذا الحدث وقدم عذره لسفير الإمبراطور .

سيدى عندما قمت بتجهيزاتى وكنت راغباً فى إرسالكم وصل سفراء عن الملكة وأجبرونى وأخذوا دواب الحمل التى كنت قد أعددتها وسافروا . إننى أعى جيدا الخوف من سلطاتها والمخاطرة بمعارضتها، ولكنا ابق معى إلى أن أستطيع القيام بتجهيزات جديدة ، ومن ثم ستذهب أيضا فى سلام [5]

وكان ممثل البابا منزعجا جداً وصب لعناته عليه ، ولكنه لم يع الخدعة فى وقتها ، ووصل جوليان فى الوقت نفسه إلى حدود النوبة فى حوالي عام ٥٤٣م ، وتم إخطار الملك رسمياً بوصول السفارة الإمبراطورية، وأرسل كتيبة لحراستها إلى بخارس

---

(١) من الصعب أن نفهم تاريخ دخول النوبيين المسيحية دون الرجوع الى بعض المراجع المتعلقة بالخلافات داخل الكنيسة ، لقد ساند جوستنيان المجمع الخلقدونى ، ولكن زوجته ثيودورا كانت مونوفستية وكانت فى سلوكها تؤول أو تضيف إلى إجراءات جوستنيان مايؤدي إلى تضارب سياسة الامبراطورية ، وقد طلب جوستنيان من ثيودوسيوس بطريرك مصر بالمشايعة العلنية للصيغة الخلقدونية ولكنه رفض ، ومن ثم قام جستنيان باختيار بطريرك آخر يدعى بول (٥٤١م) ، ولكن المصريين لم يعترفوا به ، ومنذ ذلك الوقت وحتى الفتح العربي (٦٣٩م) كان هناك بطريركان فى مصر المنوفستى والملكانى (أى المؤيد للحكم الإمبراطورى) الذى احتل الكرسي فى الاسكندرية والذى كانت سلطته على الشعب فاترة فيما بعد ، ولم تعترف به سوى بقايا الكنيسة البيزنطية ، أما ثيودوسيوس وخلفاؤه الذين عاشوا فى دير نتريا (وادى النطرون الآن حيث ما زال يعيش فيه مجموعة من الرهبان) وكان دير نتريا هو المكان الذى بدأ منه ثيودوسيوس بعثاته التبشيرية . لذا فكما يكتب المستر بتلر « تحول النضال الدينى فى الشمال إلى حماسة دينية فى الجنوب ». The Church in Egypt,i.p.330

(٢) يوحنا افسس . مصدر سابق . ص ٢٥١ – ٢٥٢

(٣) نفسه . ص ٢٥٢ .

(٤) نفسه . ص ٢٥٣

(٥) نفسه . ص ٢٥٣

(فرص. العاصمة شمال وادى حلفا) ، وعند وصولهم قام السفير بتقديم أوراق اعتماده وهداياه ، وسرعان ما خضعوا بكل سرور وأقسموا بالتخلى عن خطأ أجدادهم واعترفوا بإله المسيحيين قائلين أنه الإله الحق ولاإله سواه [١] ،،

وقام جوليان بتعليم الملك ونبلائه المسيحية وانتهز الفرصة لتحذيره من « أخطاء » حزب الامبراطور ، وعندما وصل السفير الآخر :

قدم للملك الرسائل والهدايا وبدأ فى إخباره وقال له : إن تعليماته كالآتي : ان الملك الرومانى أرسلنا لكم وأنه فى حالة اعتناقكم المسيحية يجب ان تخلصوا للكنيسة ولأولئك الذين يديرونها وألا يضلك أولئك الذين طردوا منها . وعندما سمع ملك نبته وأمراؤه بهذه الأشياء أجابوهم بقولهم " إن الهدية المحترمة التى أرسلها لنا ملك الرومان قد قبلناها، وسنرسل له هدية ولكننا لن نقبل دينه لأننا إذاوافقنا بأن نصبح مسيحيين فإننا سنسير وراء قدوة البابا ثيودوسيس الذى – بسبب عدم رغبته قبول الدين الشرير للملك – طرده وأبعده من كنيسته ،ومن ثم فإننا ما كنا لنتخلى عن عبادة الأوثان لنوافق على الوقوع فى عبادة الدين الشرير الذى يؤمن به الملك [٢] .

وبدأجوليان بعد كل هذه المكائد فى العمل بكل جد ، فقد بدأ فى سرد كيف أنه قضى الأيام جالسا فى كهف مملوء بالماء من الساعة التاسعة صباحا حتى الرابعة ظهراً يعمد الناس الذي احتشدوا للانضمام إلى الدين الجديد ، ويبدو أنه تعب جدا من الحر والإرهاق لذا فقد عاد إلى القسطنطينية بعد عامين ليقدم تقريرا إلى ثيودورا تاركاً خلفه ثيودور أسقف طيبة العجوز ليحافظ على عمله ويعززه [٣] ،وكان على ثيودور أن يسافر فى عام ٥٥١م ليتولى أمر أسقفيته ، وترك النوبيين بلا دليل لثمانى عشرة سنة إلى أن أدرك ثيودوسيس المنفى أن هذا التحول الضخم غيركاف، وأنه يحتفظ بهم فى ذاكرته إلى أن يغادر هذه الدنيا (٥٦٦م) خاصة لأن المبارك جوليان معلمهم قد مات منذ فترة قصيرة وكذلك لأن المرحومة صاحبة الجلالة – الملكة ثيودورا – قد أصدرت أوامرها بتعيين لونچينوس أسقفاً هناك " [٤] . وتم ترسيم لونچينوس أسقفاً بعد وفاة ثيودوسيس مباشرة ، ولكن واجهته عدة مصاعب عند مغادرته القسطنطينية وذلك بسبب معارضة الملكانية ، وألقي القبض عليه وسجن ثلاثة أعوام ، وأخيراً استطاع الهرب ، وعند وصوله إلى النوبة (٥٦٩م) استقبل بحفاوة " وبدأ فى الحال فى تعليمهم وتنويرهم ، وقام ببناء كنيسة ورسم رجال الدين وعلمهم نظام الخدمة المقدسة وكل الطقوس الدينية المسيحية . [٥] ثم اتصل بالملك ليرسل سفيراً ومعه هدايا إلى

---

(١) نفسه ص ٢٥٤ تحمل الصيغة صورة لافتة للنظر للشهادة الاسلامية « لا إله إلا الله» ، ويكتب أبو صالح فى وقت متأخر (١٢٠٨م) عن طريق السماع " يقال أن النوبيين كانوا يعبدون فى السابق النجوم وأن أول من تحول لمعرفة الحقيقة وناموس المسيح كان « بحريًا » ابن أخت الملك وكان عالمًا في معرفة الدنيا وكان حكيمًا وماهراً . وعندما تحول إلى دين المسيح تبعه كل سود النوبة ، وبنى لهم العديد من الكنائس فى جميع أنحاء أرض النوبة والكثير من الأديرة التى ما زالت مزدهرة ، بعضها بعيد من النهر والبعض الآخر على ضفافه

The Churches and Monasteries of Egypt,ed ., Evetts and Butler,pp.265-6.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤– ٢٥٥.

(٣) فيما يتعلق بثيودور ينظر J.Maspero,(La vie de Theodore de philae,) Rev.Hisl.Rel. Lix.303-4.

(٤) يوحنا افسس. مصدر سابق ص ٢٥٦.

(٥) نفسه . ص ٢٥٧.

الإمبراطور جستنيان الثانى ، قد قابل هذا السفير مؤرخنا يوحنا افسس ، وقص عليه كيف أنه أطرى بشدة على لونچينوس قائلاً « رغم أننا مسيحيون اسماً فإننا لم نعرف فى الحقيقة المسيحية إلى أن جاءنا لونجينوس »[١].

ومكث لونجينوس فى النوبة خمس سنوات ، ودعى فى عام ٥٧٥م لزيارة مصر وذلك للمشاركة فى انتخاب البطريرك الجديد، وبذل الملك والأمراء أقصى جهودهم لإقناعه بالبقاء قائلين « سنصبح كما كنا – قبل وصولك – كالأيتام بلا أب »[٢] وأخيرا تركوه يذهب وزودوه بكل وسائل الراحة لسفره إلى فيلة حيث التقى بثيودور البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاما ، وسافر إلى الاسكندرية حيث وجد نفسه وجهاً لوجه أمام المتاعب ، ولم يكن هذا فقط هو ما أنجزه فى هذه المنطقة ، إذ هناك إنجاز آخر عظيم قام به وهو تحويل علوة إلى المسيحية .

كانت توجد فى شمال السودان ثلاث ممالك ، بصرف النظر عن قبائل البجة ، وقد كانت أرض نبته حيث يعمل لونجينوس ، وإلى الجنوب مع عاصمتها فى سوبا بالقرب من الخرطوم كان يوجد « الشعب الذى يسميه اليونانيون الوديا »[٣] بينما يوجد بين نبته و« الوديا » إقليم يسكنه شعب آخر يسمى المقريين .[٤] كان لتجاور نبته هذا مع الجنوب والقبائل الحامية والزنجية فى الغرب أهمية كبيرة لانتشار الإنجيل إلى قلب إفريقيا .

وقد سمع ملك علوة ما كان يحدث فى النوبة ، ورغب فى أن يكون هناك نفس التأثير فى مملكته ، لذا فقد أرسل التماساً إلى أوارفيولا[٥] ملك نبته يطلب منه السماح للونجينوس بالحضور وتنصير علوة ، وكان هذا حوالى عام ٥٧٥م، وكان لونجينوس قد ترك البلاد ، ولكن ملك نبته أرسل السفراء إلى مصر واقنعوه بالموافقة على العودة وزيادة علوة ، ولكن عندما سمع الملكانية بالأمر قام البطيرك بطرس بعزله ، وأرسل صورة من قرار العزل إلى الملك الذى قابل حملة الرسالة بشكل متصلب " لن نقابل أى شخص سوى أبيناالروحى الذى أنجبنا مرة أخرى عن طريق الولادة الروحية[٦] .

---

(١) نفسه . ص ٢٥٧– ٢٥٨ .

(٢) نفسه . ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٣) نفسه ص ٢١٥ والوديا بالقبطية dhwofid وباليونانية Ahwos وقد تم تتبع الكلمة حتى القرن الرابع ق.م فى (Tlit) of the stela of Nastasen(328-308B.C .

كما ذكرت فى نقش عيزانا (٣٥٠ ق.م) بأنها مدينة مبنية من الطوب وبدل المعبد (الذى تحول فيما بعد إلى كنيسة) أنه من تاريخ يرجع إلى الأيام المروية ، وستسمى هذه البلاد الوديا خلال العهد البيزنطى ، وبعد الفتح العربى لمصر بالاسم العربى « علوة » ، ومن المحتمل أن تكون سلطة الوديا قد امتدت من كبوشية حتى سنار .

(٤) نفسه ص ٣١٩ .

(٥) من المحتمل أن يكون هو خلفية سلكو. وقد سمعنا فى عام ٥٥٩ م عن ملك يسمى ايربا نوم (ماسبيرو مصدر سابق ص ٣٠٦) ، قد يكون هو اوارفيولا هذا أو ملكاً آخر فى الوسط .

(٦) يوحنا افسس . مصدر سابق ٣١٧.

وعندما عاد الأسقف إلى النوبا عام ٥٨٠م أرسل ملك علوة سفارة أخرى يطلب فيها لونجينوس ، وعندما سمع الملكانية بهذه الرسالة قاموا بارسال أسقفين وآخرين إلى علوة ومعهم أوامر تقول إنه قد تم خلع لونجينوس ولذلك فإنه لا يستطيع أن يعمد ويرسم الكهنة بشكل قانوني ولذا فإن هذين الأسقفين سيرشدانهم نحو الطريق الصحيح ، ولكن ملك علوة لم يقابلهم قائلا :

> لا نعرفكم ولن نقابلكم ولن نُعَمد على أيديكم ، ولكننا سنقابل الذى عمد النوباتيين ، وهو الذى سيعمدنا ، أما بالنسبة لما تقولونه عنه فلن نعيره اهتمامًا لأننا نعى أنكم تتحدثون عنه هكذا حسدًا . ارحلوا عن بلادنا (١)

وأقنع استقبال علوة للبعثة الثانية لونجينوس « إن تحول تلك المملكة إلى المسيحية كان هدفا نبيلاً ونعمة من نعم الله . إن الله قد حرك روح لونجينوس ليذهب إليهم » وأصيب النوبيون بإحباط عند رحيله بعد عودته ، ولكنهم جهزوا قافلة كبيرة أرسلوها معه ، وكان بينهم النبلاء والرجال الذين يعرفون مسالك الصحراء ، إذ إن رحلته ليست سهلة كماتبدو ، وهناك صعوبات أخرى عليه مواجهتها ، وهو فى طريقه بين شعوب الصحراء المتوحشين ، كما كتب ملك نبته إلى ثيودور بالإسكندرية فيما بعد :

> بسبب المكائد الشريرة التى يدبرها من يسكن بيننا (أى بين نبته وعلوة) ، أقصد ملك مقرة فإننى أرسل أخى الطاهر (لونجينوس) إلى ملك البليميين الذى قد يوجهه إلى هناك بطرق أفضل عبر الأراضى ، ولكن المقريين سمعوا بذلك أيضا ، وأرسلوا الجواسيس فى كل الاتجاهات فى هذه المملكة سواء فى الجبال أو فى السهول وحتى بحر الأعشاب (البحر الأحمر) على أمل إلقاء القبض على أبى ، ووضع حد للعمل الصالح للرب كما كتب لى أبى ليخبرنى (٢)

واستغرقت رحلة لونجينوس هذه إلى النيل الأزرق مائتى يوم ، إذ لم يكن بإمكانه السفر رأساً عبر أقصر الطرق بحذاء النيل ، وذلك بسبب لمعارضة المقريين . وكان على ملك نبته أن يجهز له السفر عبر بلاد البليميين البدو فى طرق صحراوية خطرة وغير مطروقة عبر جبال البحر الأحمر حيث واجه ورفاقه العديد من المصاعب ، وكتب قائلا :

« لم نمرض ونتعرض سلامتنا للخطر فقط ، بل حتى الحيوانات التى كانت معنا ماتت ولم تستطع تحمل الحرارة والعطش فى الجبال وفساد المياه ، لذا فقد فقدنا حوالى سبعة عشر جملا (٣) ومن الطبيعى أن نفترض أن ملك مقرة كان ما يزال وثنيًا ، ولكن يبدو أن رسل الإمبراطور جستنيان الذين خدعتهم ثيودورا تسللوا إلى مقرة بعد فشلهم

---

(١) يوحنا افسس . مصدر سابق ص ٢١٨.

(٢) نفسه . ص ٣٢٥.

(٣) نفسه ص ٣٢٢. أرسل هذاالخطاب ملك النوباتيين الى الاسكندرية حيث من المحتمل أن يكون يوحنا افسس قد نسخه.

مع النوباتيين [١]،إذ إن يوحنا ابوت البكلار يوم (توفى عام ٦١٠م) وهو كاتب كاثوليكى يقول إن المقريين تحولوا إلى المسيحية فى العام الثالث من حكم جوستين الثانى (٥٦٩م وهو نفس العام الذى تحول فيه الجرمنت) وأنهم أرسلوا وفداً إلى القسطنطينية فى عام ٥٧٣م حاملين هدايا مكونة من أفيال وزرافة عنواناً للصداقة [٢]، فإذا كانوا مسيحيين فهذا يفسر السهولة التى مكنت الملكانية من إرسال أسقفين إلى علوة .

وبعد كل المحن التى واجهها لونجينوس ورفاقه التقوا مصادفة بحرس يقوده امير يدعى أيتكيا (او اتيكا) كان قد تم إرساله لمقابلتهم وحراستهم حتى النيل الأزرق ،ويستطرد الأسقف فى رسالته إلى ملك نبته :

" وعند وصولها إلى شاطئ النيل أبحرنا بسفينة ، وابتهج الملك عندما سمع بوصولنا وخرج شخصياً لملاقاتنا وقابلنا بفرحة كبيرة وبنعمة الله علمناه وعمدناه ونبلاءه وكل أسرته ويزداد عمل الرب يوميا " [٣]

ويستمر فى رسالته مما يثبت أن تأثير المسيحية على علوة كان قبل مجئ بعثته : ويقدر ما يوجد أثيوبيون بعينهم قد سقطوا فى داء جوليا نوس [٤] الخيالى القائل إن جسد المسيح منزه من الأوجاع والآلام ، لقد قلنا لهم ما هو الإيمان الصحيح وطلبت منهم تحليل وشرح هذه البدعة كتابة [٥]

وانتهز ملك علوة مناسبة إرسال رسالة لونجينيوس إلى الإسكندرية عن طريق ملك نبته ليكتب للأخير مجيباً إياه أخاً فى الروح منذ أن أصبح مسيحياً شاكراً له مساعدته وطالباً منه معدات للكنيسة :

> **سيدى : نتذكر حبك لأخينا اوالفيولا ، لقد أظهر لى أنك أحد الاقارب ، ليس فقط فى الجسد بل فى الروح أيضا ، لأنكم أرسلتم إلى هنا أبانا المشترك فى الروح والذى هدانى إلى طريق الحق وإلى النور الحقيقى لربنا المسيح ، وقد عمدنى ونبلائى وأسرتى ، وينتشر عمل المسيح فى كل شئ ، ولى رجاء فى الله الكريم**

---

(١) Kraus, Die Anfänge Chirstentums in Nubien,1930 and kirwam Christianity and kura,an, J.Eg,Arch.xx201-3

(٢) إن تحديد يوحنا افسس لموقع مقرة واضح تماما ، والمشكلة هى ما إذا كانت مقرة يوحنا بكلاريوم متطابقة Makkovpal بطليموس (Geog-iv.-2-19) أو هم شعب مختلف أو فرع من نفس القبيلة ، واذا كانوا الآخرين إذا فإن مقرة السودان قد يكونون تأثروا عن طريق تحول الجرمنت ومقرة الصحراء ، إذ إن الطرق الصحراوية تمر عبر كردفان ودنقلا حتى ودان وفزان .

(٣) يوحنا افسس مصدر سابق ص ٣٢٢-٣٢٣

(٤) كان جوليانوس هاليكرنسيس زعيماً منوفستياً ، وهو الذى آمن بالبدعة الخيالية بأن جسد ربنا غير قابل للفساد . وقد سببت هذه البدعة انقساماً فى الكنيسة المصرية إثر موت تيموثى الثالث فى عام ٥٣٦ م – وفى سنة موته قام جستنيان بتبنى هذه البدعة . وهذا يظهر أن المسيحية قد تغلغلت فى علوة قبل وصول لونجينيوس ، كما تؤكد أن الطريق كانت معدة له سلفا ، وتفسر دعوة الملك .

(٥) يوحنا افسس . مصدر سابق ص ٣٢٣

وشقوف أكثر لأفعل كل ما يسرك ويطرد عدوك من أرضك [1] لأنه ليس عدوك فقط بل عدوى أيضا، لأن أرضك هي أرضي وشعبك شعبي . لا تدع شجاعتك تخور بل كن شجاعاً واستجمع شجاعتك إذ إنه من الصعب عليّ ألا أهتم بك وبأرضك خاصة وقد أصبحت الآن مسيحيًا بمعاونة أبى الأب المقدس لونجينوس ، ومع ذلك فكل ما نحتاجه هو أثاث للكنيسة ، رجاء تجهيز بعضها لنا ، لأننى متأكد بأنك سوف ترسل لنا هذه الأشياء بكل الحرص والعناية ، وسأرسل لك الرد ، ولكن فى اليوم الذى أحتفل فيه بأننى لا أريد ان أكتب خشية أن تقصر رسائلى عن المرام ، لا تقلق عندئذ بل تَحَلَّ بالشجاعة وناور خصمك لأن المسيح معنا [2]

ويختتم يوحنا أفسس سرده لتحول علوة بإخبارنا أن هذاالأمر قد حدث فى عام ٥٨٠م. [3] إن المنافسات السياسية المؤسفة داخل الكنيسة المصرية – من خلال انحياز الكتاب الموالين – حجب عنا الكثير من تاريخ تحول السودان إلى المسيحية ، لقد فعل الملكانية كل ما فى استطاعتهم لإعاقة عمل لونجينوس إلا أن ممالك نبته وعلوة بقيت مخلصة للكنيسة المصرية المنوفستية وسترد لها خدمة جليلة فى المستقبل .

وحدث خلال فترة لونجينوس تحويل العديد من المعابد إلى كنائس [4]، كما تم بناء كنائس أخرى ، وبنهاية القرن السادس كان السودانيون فى الممالك الثلاثة قد اتحدوا فى دين واحد ، ولاأملك دليلاً لأى تحولات إجبارية ، ويبدو أن الدين قد قبلته هذه الشعوب بكل إخلاص ، ومن الواضح أن تحول الملوك والنبلاء جعل من الحكمة أن يعتنق الشعب دين الدولة ، وإجمالاً بقيت قبائل البجة البدوية على وثنيتها [5] ولكن مع استثناء أن المسيحية – فى زمن الفتح العربى – كان معترفًا بها فى كل أنحاء شمال شرق افريقيا حتى الحدود الجنوبية لملكة أكسوم .

---

(١) يبدو ان نبته كانت في حالة حرب مع مقرة .

(٢) يوحنا افسس . مصدر – سابق . ص ٣٢٠ –٣٢١

(٣) نفسه . ص ٣٢٦

(٤) أمر البابا جريجورى فى تعليماته إلى ابوت ميليوتوس الذى أرسله إلى بريطانيا بتدمير الأوثان ، ولكن عليه الحفاظ على المعابد لأجل العبادة المسيحية ،، إذ ربما يكون الشعب أكثر استعداداَ للتبرؤ من أخطائهم والرجوع لعبادة الرب الحق فى الأماكن التى اعتادوا عليها.

(٥) كان تأثير المسيحية على قبائل البجة البدوية التى تتجول ما بين النيل والبحر الأحمر ضعيف جداً ، وأثر بشكل أساسى على أولئك الموجودين على شاطئ البحرالأحمر ، ويصف (Eusebiusvit-costant.i.8) تغلغل المسيحية وسط البليميين (فى الساحل) فى عهد قسطنطين ، وفى عام ٧٠٠م تم تعيين الأسقف بارنابا في ميناء عيزاب ليقوم بمهام الكاهن للبحارة والتجار وعاش فى قفط ولكنه كان يرسل من وقت لآخر قسيسا وشماسًا إلى عيزاب (pat.or,iii,499f) ،وكان هناك تحرك كبير لتوسع البجة فى بداية القرن الثامن قضى على مملكة أكسوم ، ومع ذلك فقد عاشت المسيحية فى هضاب التجرى وظهرت مملكة جديدة كان أهم مجال نفوذها فى الجنوب ، ولكنها أثرت على البجة سكان الساحل وأقصى المناطق الجنوبية ، ولن يبدأ المسلمون فى البداية فى إجراء أية معاهدة مع البجة الذين أغاروا على مصر العليا لأنهم وثنيون ، وعندما عقدوا معهم معاهدة كان ذلك بدافع الحيلة ، ويذكر اليعقوبى (History,ed.,Houlsma) خمس ممالك بجاوية فيما بين النيل والبحر الأحمر ،وكان « النقليين » سكان إحدى تلك الممالك تسمى « الله »« الزيجر » ، من المحتمل أن يكون تحريفًا للاسم المسيحى عند الاثيوبيين « عز الابحر » كما يقول فى كتاب =

إننا لا نعرف الكثير عن تاريخ هذه الممالك المسيحية حتى الفتح العربى لمصر عام ٦٣٩م ، وكانت عاصمة النوبة فى بداية الأمر فى بلانه ، ولكن بعد دخول المسيحية انتقلت إلى فرص المجاورة ، وأصبحت النوبية هى لغة البلاد وصارت بتأثير المسيحية لغة مكتوبة ، ومن ثم اللغة الرسمية بالإضافة الى كونها لغة الحديث بالنسبة للنوبيين ، وعندما ظهرتا فى التاريخ مرة أخرى فإن نبته ومقرة كانتا متحدتين فى مملكة واحدة عاصمتها دنقلا ، وكانت تهيمن على طرق التجارة داخل افريقيا.

= البلدان (ed.,de Goeje, 1896, pp. 3360-7) « إن دين الزنافج » يشبه دين الحدارية وليس شريعة سماوية بل يعبدون صنماً يسمونه « هاهخو » . وأدى تواجد المسلمين فى المناجم إلى تزايد تأثير الإسلام ، ويقول المسعودى (٩٢٥م) إن قبيلة الحدارية وحدها هى المسلمة وأن البقية وثنية تعبد الاصنام . (Muruj,ed.Meynard and courteille, 1863-iiii, 34)

ويكتب أبواسحق الأصطخرى (مسالك الممالك – كتب حوالى عام ٩١١م) أن البجة وثنيون ، ويكتب المقدسى فى عام ٩٦٦ م عن قبيلة بجاوية مسيحية تسمي الناصرية ، ويعدلها هارت إلى البشاريين (Le liver de la crèation, edil-and transl.C.Huart,iv,69) ويقول الإدريسى الذى أتم كتابه فى عام ١١٥٤م إن البليون (بلاو) مسيحيون يعاقبه وكذلك كل شعب النوبة والحبشة وأغلبية البجة

Descriqtion de L, Afrique et de L, Espagne ,R.Dozy and M.J.de Geoje, 1766.text p97)

كما يقول ياقوت (١١٧٩ – ١٢٢٩) أن سواكن يسكنها السود من سلالة البجة وهم مسيحيون . geographische wòterbuch, ed,¯wustenfeld,iii,189

ويقول ابن سعد (١٢١٤ – ١٢٨٧)أنه بعد وصول الأحباش إلى البجة أصبح جزء من الشعب مسيحيًا والجزء الأخر مسلمًا ، وهم الذين يسكنون في جزيرة سواكن فى بحر السويس (اقتبسها عنه ابن خلدون Hist,des Berbèrs, transl.de Slane, 1854ii-109. ويعطى ابن بطوطة انطباعًا بأن مدينتى عيزاب وسواكن كانتا فى عام ١٣٢٠ – ١٣٤٠ مدنًا إسلامية ويصف المقريزى (١٣٦٦ – ١٤٤٢م) البجة بأنهم وثنيون باستثناء الحدارية الذين « أسلموا إسلامًا ضعيفًا » (الخطط ج١ ص ٣١٥)

ومن الواضح أن البجة البدو كانوا بشكل عام وثنيين رغم أن القليل من المناطق الساحلية أو تلك التي تجاور الممالك المسيحية كانت تحت التأثير المسيحي ، وبعد ظهور الفونج اندمجوا في اتحاد فضفاض معقد ، وبدأ التحرك الحقيقى نحو الإسلام مع بداية القرن السابع عشر عندما احتلت الجموعية بقيادة الك جماع جزءًا من الإقليم الحالى للهدندوة ، وأثرت على مجموعات البجة التى عاشت وسطها .

٣- تاريخ مقرة

من المستبعد ألا يكون هناك احتكاك مهم بين العرب والنوبة قبل فتحهم لمصر ، وليس هناك شك فى أن العرب قد عبروا البحر الأحمر، ولكنهم سرعان ما كانوا يضيعون فى فضاء السودان الواسع ، ويتم امتصاصهم داخل قبائل البجة البدوية . فى عام ٦٣٩م ، وبعد سبعة أعوام من وفاة الرسول (ص) ، وبعد فتح فلسطين وسوريا قام عمرو بن العاص بفتح مصر ، وتم الفتح بسقوط الإسكندرية فى عام ٦٤١م ، وقبل نهاية ذلك العام كان القطر كله فى يد العرب ، ولم يكن نجاحهم مرجعه القوة العسكرية فى المقام الأول ، وإنما الحزازات التى كانت بين المنوفيست والملكانية ورحبت الأغلبية السكانية القبطية المنوفستية بالفاتحين على اعتبار أنهم محرروهم من سلطة البطريرك الملكانى واضطهاد الامبراطور الرومانى هرقل . ويكتب ميشيل السورى ،، لم تكن هناك فائدة تذكر للتخلص من وحشية الرومان ومن حقدهم ومن غضبهم ومن تعصبهم ضدنا وأن نعيش فى سلام [١]،، ومنحهم عمرو الشروط المعتادة ، وهى كفالة حرية عقيدتهم وحماية أنفسهم وأموالهم شريطة دفع الجزية ، كما أنه استدعى البطريرك بنيامين والأساقفة الآخرين من المنفى وأعاد تعيينهم فى مناصبهم ، واعتبر الخليفة مصر لعدة قرون على أنها بلاد مسيحية يحتلها جيش إسلامى .

أما المعلومات التى يمكن استقاؤها من المؤلفين العرب عن أولى اصطدامات الجيوش الإسلامية مع النوبيين (٢٠/٢١هـ) فهى مشوشه إلى حد ما [٢]،وواضح تماماً مع ذلك أنه تم فى البداية إرسال بعض المغيرين ضد النوبيين ، ومن المحتمل أن ذلك كان دون نيه لغزو محدد ، وقد هزم النوبيون كل هؤلاء المغيرين وأجبروهم على الانسحاب بمشقة بالغة ، وربما تكون رواية ابن عبد الحكم (توفى عام ٨٧١م) أقرب إلى الحقيقة :

> **وبعث عمرو بن العاص نافع بن القيس الفهرى ومعه سرية دخلت بخيولها أرض النوبة فى غارات صيفية متكررة مثل تلك التى كان اليونانيون معتادين عليها ، فلم يزل الأمر على ذلك حتى عزل عمرو عن حكم مصر وخلفه عبد الله بن أبى السرح الذى عقد اتفاقًا مع الأهالى . [٣]**

وتشجع النوبيون بانتصاراتهم، واستمروا فى الإغارة على الحدود مخربين القطاع القريب من مصر العليا ، وقرر عبدالله بن أبى السرح بعد خلافته لعمرو أميراً على

(١) Chronique de Michel Le Syrien. chabot(:905)iii,413

(٢) ينظر : ابن عبد الحكم : فتح مصر

- البلاذرى : فتوح البلدان
- اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى
- المقريزى : الخطط

(٣) ابن عبدالحكم . مصدر سابق صـ ٢٨٤. وكذلك تاريخ اليعقوبى جـ ٢ صـ ١٧٩- ١٨٠ . وطبقًا للمقريزى (الخطط جـ ١ صـ ٣٢٣) فإن « عبد الله بن سعد هو الذى بعثه عمرو إلى النوبة فى عشرين ألفاً ، فمكث بها زمناً فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع » .

مصر عام ٢٥هـ (٦٤٦ - ٦٤٧ م) وضع نهاية لهذا الأمر، وقام في عام ٦٥١- ٦٥٢م بقيادة حملة مجهزة تجهيزاً جيداً إلى داخل النوبة ، واستطاع اختراق البلاد حتي دنقلا ، وحاصر المدينة وطلب الملك قاليدورون هدنة ، وكان عبد الله مسروراً جداً للموافقة لأن قواته كانت قد عانت خسائر كبيرة ، ويتفق المؤرخون العرب على أن النوبيين كانوا رماة سهام بارعين ، إذ أطلقوا عليهم رماة الحدق ؛ لذا فقد توصل عبد الله الى إتفاقية سلام معهم عندما لم يقدر على إخضاعهم ، وقال الشاعر عن هذه المعركة :

لم ترعيني مثل يوم دمقله

والخيل تعدو بالدروع مثقله

وخرج الملك إلى عبد الله الذى «تلقاه ورفعه وقربه ، ثم قرر الصلح معه على « بقط » بثلاثمائة وستين رأساً في كل سنة ، ووعده عبد الله بحبوب يعهد بها إليه لما شكا له من قلة الطعام فى بلده »[١]، وتمضى المعاهدة كما يلى :

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبى السرح لعظيم النوبه ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبه من حد أرض اسوان إلى حد أرض علوة ، إن عبدالله بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة ، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله ورسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم ، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشروط التى بيننا ، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطريقه من مسلم أو معاهد حتي يخرج عنكم ، وعليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه وتمنعوا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه ، وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته.

وعليكم فى كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين ، من أواسط رقيق بلادكم ، غير معيب ويكون فيها ذكران وإناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والى أسوان .

وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان ، فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أوتعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة والستين رأساً ، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

---

(١) المقريزى . الخطط جـ ١ صـ ٣٢٣ استمد المقريزى مادته من كتاب بعنوان « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » كتبه عبد الله بن سليم الأسوانى ، وهذاالكتاب مفقود ، وكان ابن سليم قد بعثه جوهر قائد الخليفة الفاطمى المعز فى عام ٩٦٩م إلى جورج ملك النوبة ليدعوه إلى الدخول فى الإسلام ويذكره بدفع البقط .

علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم ، والله شاهد بيننا وبينكم على ذلك .

كتبه عمرو بن شراحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين هجرية (٦٥٢م) (١).

إن هذه المعاهدة شيقة جداً ، فهى تظهر أولًا أنه ليس للمسلمين اهتمام بالضم ، ووافقوا على دولة جارة غير مسلمة ، برغم فقرة تضع شرطًا لبناء المسجد في دنقلا ، وإن الترتيبات للنشاطات التجارية هى التى وضعت الأساس للتغلغل العربى اللاحق فى البلاد .

ثانيا : بقيت المعاهدة سارية المفعول لمدة ستمائه سنة حتى العهد الفاطمى،وقد يكون السبب أنها معاهدة للتسامح الدينى المشترك واتفاق تجارى أكثر منه إتاوة سيادة ، إذ إن النوبيين لم يهزموا (٢) ، أما كلمة البقط فهى كلمة جديدة تماما (٣) . ويقال أن النوبيين كانوا – عند الدفع – يقدمون بسخاء أكثر من أربعين عبدا إضافيا هدية ، ويحصلون فى المقابل هدية كبيرة مكونة من القمح والشعير والخمر والخيول والمواد الأخرى التى من المؤكد أنها تجاوزت فى الفترة الأخيرة كمية البقط برمتها (٤) .

ثالثا: وضعت المعاهدة أساس تجارة الرقيق التى ستصبح فيما بعد مظهراً للحكم، الأمر المختلف تماما عن الرق المحلى العادى (٥) .

---

(١) المقريزى . الخطط . جـ١صـ ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٢) إن تفسيرات هذه المعاهدة مشوشة ، فمن الواضح أن البقط ليست جزية ، فابن عبد الحكم الذى ترجع روايته إلى ابن أبى حبيب أحد الأرقاء النوبيين يقول " إن الشروط التى وضعها عبد الله معهم هى الآتى : ألا يعتدى عليهم المسلمون ولا يعتدوا هم على المسلمين ، وعلى النوبه أن تدفع للمسلمين كذا وكذا من العبيد فى كل عام وعلى المسلمين أن يدفعوا إلى النوبيين سنويًا كذا وكذا من القمح والعدس ، ويقول ابن أبى حبيب زيادة على ذلك أنهم (النوبيين) ليس لهم أى ميثاق من أى نوع مع المصريين ، وأن هذا الاتفاق هو ببساطة للحماية المتبادلة مع المسلمين .

(٣) يقول س.هـ. بيكر أن كلمة " بقط " مشتقة من بكتوم اللاتينية Puctum (Enc.isit-6) ، ولكن من المحتمل أنها جاءت من الكلمة المصرية القديمة Bak » الجزية العينية » ينظر ,Note in Caetani,Annali dell'ISLam iv.59.

(٤) المقريزى. الخطط جـ١ ص ٣٢٤ . لقد حدث في حوالى عام ٨٤٧م عندما تراخي النوبيون فى الدفع وتوقفت فى المقابل الهدايا ، أن تم إرسال چورچ (قرقى) ابن الملك زكريا بن يانس إلى الخليفة المعتصم فى بغداد ، وقوبل بترحاب ، ولكن البحث أثبت أن الهدايا التى تلقاها النوبيون كانت أكثر من الجزية التى دفعت ،ومن ثم تم تخفيض الهدايا ، ولكن قرقى نجح فى الحصول على حوالة ضخمة على الخزانة المصرية قابلة للدفع عند تلقى الجزية (المقريزى . الخطط جـ١ صـ ٣٢٥) ، وهناك رواية من المصادر المسيحية فى : (Chroniqve de Michel Le Syrien (Trans. Chabot, 1405,iii,pp,90-4) تقول إن المعتصم أرسل مبعوثًا إلى النوبيين يستفسر عن البقط ، ووجد أن زكريا ليس من أصل ملكى ، ولكنه يحكم كوصى على العرش لصغر سن ابنه چورچ الذي كان ملكًا عن طريق السلالة الأمومية ، وتم إرسال چورچ إلى بغداد حيث تأخر بسبب تمرد ملتزم الضرائب فى النوبة الذى أصبح مسلماً.

(٥) لم تكن هذه هى حركة المرور الوحيدة لتجارة الرق ، ويكتب ابن سليم عن تجارة بخارس (أى فرص) عاصمة إقليم مريس « لهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة (أى ملك مقرة) يعرف بصاحب الجبل من أجلَ=

وأصبحت العلاقات بين الدولتين لفترة طويلة مقيدة وسلمية عدا غارات عرضية واحتباس البقط من وقت لآخر، واقتصر اهتمام المسلمين فى البلاد جنوب أسوان على استيراد الرقيق ، ومؤخراً استغلال العديد من المناجم فى أرض البجة ، وكان أهمها العلاقى على الضفة الشرقية بالقرب من قرية كوبان .

وسنهتم بشكل أساسى بالقليل الذى عرف من التاريخ الداخلى وأحوال المملكة ، ونلاحظ من نص المعاهدة التى تشير إلى " عظيم النوبه ولجميع أهل مملكته ... من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة ،، أن مملكتى مقرة ونبتة قد اتحدتا الآن تحت حكم ملك واحد [١] ، ويكتب اليعقوبى فى عام ٨٩١م قائلا:

فصارت النوبة مملكتين : الأولى مملكة يقال لها مقرة ، وهى فى شرق النيل وغربة ومدينة مملكتهم دنقله ، وهم الذين سالموا المسلمين وأدوا لهم البقط ، وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع واتساع المملكة شبيه بشهرين ، والمملكة الثانية من النوبة الذين يقال لهم علوة أعظم خطراً من مقرة ومدينة مملكتهم يقال لها سويه ، ولهم بلاد واسعة شبيهة بثلاثة أشهر والنيل متشعب عندهم فى عدة خلجان [٢]

وكان الجزءالشمالى من مقرة يعرف باسم مريس [٣] ويقول ابن سليم « .. إن النوبة والمقرة جنسان بلسانين على النيل ، فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام ... وكانت النوبة والمقرة على خصومة قبل تحولهم إلى المسيحية » [٤] ، ولكن كما رأينا فإن مقرة استخدم كمصطلح عام للملكة المتحدة من الحدود المصرية حتى حدود علوة .

وإذا كان سكان مقرة الملكانيون قد أصبحوا بالتأكيد منوفيست بعد الفتح العربى لمصر ، ويخبرنا يوتشيوس أن الملكانيين فى مصر بقوا بدون بطريرك لحوالى ٩٧ عاماً

= ولاتهم لقربه من أرض الإسلام ، ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فى معاملته معه فى تجارة أو هدية إليه أو إلى مولاه ، يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق ولا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لالسلم ولا غيره » (المقريزى . الخطط ص ٢٠٧-٢٠٨)، وزاد تصدير الرقيق بعد أن كون ابن طولون فرقاً عسكرية من السود ، كانت السلعة المصدرة الأخرى هى الذهب ، وكانت مصر ترسل فى المقابل المنسوجات ومختلف السلع الأخرى كالخرز والأمشاط والسلع الأخرى الصغيرة.

(١) لا نعرف بالضبط متى تمت الوحدة،إذ لا يوجد دليل يدعم رأى ل.ب.كيرون (J.Eg.Arch.xxi-1-59-69) بأن الوحدة تمت نتيجة للتهديد العربى ؛ لأن التحدى لم يكن خطيراً ، ومع ذلك فقد أدى ذلك التحدى إلى أن يكتب النوبيون لغتهم الخاصة وتقوية مسيحيتهم كقومية ضد الإسلام.

(٢) تاريخ اليعقوبى .

(٣) مريس معناها فى اللغة القبطية الجنوب ، أى مصر العليا ولكنها تسمى عادة nobaaia ، ومنها جاء الاسم العربى نوبا (تو) أما فرص (بالقبطية: maxwpac وبالعربية بخارس) فقد كانت عاصمة مريس. قارن جريفث Pakhoras- Bakharas-Faras; Eg.Arch. xi.259ff.

(٤) المقريزى . مصدر سابق جـ١صـ ٣٠٩ .

من عهد الخليفة عمر بن الخطاب وحتي عهد هشام بن عبدالملك ، وفي هذا الوقت استولت المنوفيستية على كل الكنائس التابعة للملكان وعينت فيها أساقفة من طائفتها ، لذا فعندما « أرسل شعب النوبة إليها يطلب أساقفة أرسلت إليهم أساقفة يعاقبة ، ومن ثم أصبح النوبيون يعاقبة » (١) .

وحكم مريس والٍ عينه ملك النوبة ، وكان هذاالوالى يسمى بصاحب الجبل (٢) ؛ بسبب قرب هذه الولاية من حدود المسلمين (٣) ، وكانت المقاطعة الشمالية لمريس ما بين الشلال الأول والثاني مقاطعة مفتوحة ، ويقول ابن سليم :

وبهذه القرية (٤) مسلحة وباب إلى بلد النوبة ومنها إلى الجنادل الأولى من بلد النوبة (أى وادى حلفا) عشر مراحل ، وهى : الناحية التى يتصرف فيها المسلمون ولهم فيها قرب أملاك ، ويتجرون فى أعلاها ، وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية (٥)

وكانت منطقة جنوب وادى حلفا « منطقة مغلقة » ، وكانت مهمة صاحب الجبل هى مراقبة عدم مرور أى شخص غير مصرح له إلى ما وراء الشلال الثانى، ويبدو أن سياسة العزلة قد تم تطبيقها بحزم :

وأول الجندل من بلد النوبة قرية تعرف " بتقوى " وهى ساحل ، وإليها ينتهى مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ، ولا تتجاوزها المراكب ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود فيها إلا بإذن من صاحب جبلهم (٦) .

ويخبرنا المسعودى أنه عندما كان يكتب كتابه فى الفسطاط فى عام ٣٣٢/٩٤٣م علم أن ملك دنقله كان كويرا بن سرور،وأن علوة المملكة الجنوبية كانت تحت سلطته (٧).

ومن المحتمل أن تكون هذه المعلومات خاطئة ، إذ لا يوجد دليل يدعم روايته ، ويقول الإدريسى إن ملك النوبة حمل اللقب الوراثى لكاسل (أو كامل) (٨) .

---

(١) Pater. Gr.iii.,199-3,CF.Letronne,Annals,ii-386;Wüstenfeld,Macrizi,s Geschichte der Copten,1847.p.22.

(٢) من المحتمل أن يكون صاحب الجبل اختصاراً لجبل الجنادل . ينظر :
Idrisi, Description de L,Afriqoe .... ed. Dozy and Goeje,text,p.20

(٣) المقريزى . مصدر سابق صـ ٣٠٧ - ٣٠٨ . كان صاحب الجبل يقيم فى ابريم فى زمن أبى صالح (صـ ٢٦٦) ، ويكتب ابن سليم « ويوجد فى هذه الناحية « بخارس » عاصمة مريس ، قلعة إبريم وقلعة أخرى » ويقول إن صاحب الجبل يقيم فى هذه الناحية .

(٤) القصر علي بعد ميل (أو خمسة) جنوبى فيلة .

(٥) المصدر السابق صـ ٣٠٧ . قد يكون هؤلاء نوبيين مسلمين .

(٦) المقريزى . مصدر سابق جـ١ صـ ٣٠٨.

(٧) Masuvdi,Les Prairies d,Or (Merynard and Courteille)1863,ii.39

(٨) Description...,ed. Dozy and de Goeje, text, p.19

وكانت البلاد مزدهرة جداً فى هذا الوقت إذا ما حكمنا بناءً على رواية ابن سليم شاهد العيان عما رآه فى عام ٩٦٩م ، وهو يتحدث عن منطقة دنقلا قائلًا :

ما رأيت على النيل ضفافًا أوسع منها ، وقدرت أن سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل ، الجزائر تقطعه والأنهار منه تجرى بينها على أرض منخفضة ، وأخرى متصلة وعمارة حسنة بأبرجة حمام وأنعام ، وأكثر ميرة مدينتهم منها وطيورها النقيط والنوبى والببغاء وغير ذلك من الطيور الحسان ، وأكثر نزهة كبيرهم فى هذه الناحية ، وقال ابن سليم : وكنت معه فى بعض الأوقات ، فكان سيرنا فى ظل من الحافتين فى الخلجان الضيقة ، وقيل إن التمساح لا يضر هناك ، ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة ، ثم سقد بقل وهى ناحية ضيقة شبيهة بأول بلادهم إلا أن فيها جزائر حسان ، وفيها دون المرحلتين ثلاثون قرية بالأبنية الحسان والكنائس والأديار والنخيل الكثير والكروم والبساتين والزرع ، ومروج فيها إبل وجمال وصهب مؤبلة للنتاج ، وكبيرهم يكثر الدخول إليها لأن طرفها القبلى يحاذى دنقلة مدينتهم (١) (عاصمتهم) .

وكانت لمريس ومقرة لغتان مختلفتان ، ومن المحتمل أنهما لهجتان مختلفتان تطورت إحداهما إلى لغة مكتوبة ذات علاقة وثيقة باللهجة الحديثة لمنطقة الفديجة – المحس ، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث بعد الفتح العربى لمصر مباشرة ، وهناك إيحاء بأن هذا التطور كان لتعزيز استقلالهم ، ولكن لأن كل الكتابات التى بقيت كانت تعرض الاستعمال العام للشعب ، فقد تكون عملية طبيعية للنفوذ المسيحى ، ومن المحتمل ألا يكون الكتاب المقدس قد ترجم كله ، وقد تم اكتشاف أجزاء من كتاب الفصول باللغة النوبية (٢) (*)، وتم اتخاذ الحروف الهجائية اليونانية مع إضافات من الحروف القبطية وربما المرويه ، وتتضمن الكتابات النوبية الموجودة اليوم من كتاب الفصول مواعظ دينية و« شرائع نيقيا » (*) (*) . وقصصًا تثقيفية من الواضح أنها ترجمت من اليونانية وليست من القبطية ، ويعود تاريخها إلى ما بين القرنين الثامن والرابع عشر ، وكانت النقوش اليونانية أكثر شيوعًا من النقوش النوبية مما يوحى بأن اللغة اليونانية كانت هى اللغة الرسمية للبلاد .

ويقول أبو صالح إن طقوسهم الدينية وصلواتهم كانت تؤدى باللغة اليونانية أيضا، إذ عندما دخلت المسيحية كانت الطقوس الدينية المصرية لم يكن قد تم ترجمتها بعد

---

(١) المقريزى . مصدر سابق صـ ٢٠٩ .

(٢) قارن جريفث . مصدر سابق صـ ٢٤ – ٤١ .

(*) كتاب الفصول : كتاب يتضمن فصولاً من التوراة للتلاوة فى القداس .. الخ(المترجم) .

(**) نيقيا : منسوب إلى المجمع المسكونى الذى انعقد فى نيقيا بآسيا الصغرى عام ٣٢٥م (المترجم) .

إلى القبطية ، وأن اليونانية خلال الفترة الهيلينية كانت لغة البلاط النوبى [١] ، وتم تداول الكتب القبطية أيضًا فى السودان عندما امتلأت البلاد بالرهبان والقسس الذين حافظوا بالطبع على استقلال الكنيسة عن مصر، وجاء ذكر بعض النوبيين فى مدونات نصوص جمعية حجاج فلسطين ، زاروا القدس فيما بين عامى ١١٨٠و ١٤٨٠م [٢] .

ويصف .ج.و.كروفوت كنيسة نوبية كما يلى :

كنيسة صغيرة بمداخل ، بمماشى من الشمال والجنوب أو سلم الى السقف فى الركن الجنوبى الغربى ، وغرفة صغيرة لا يعرف فى ماذا كانت تستخدم فى الركن الشمالى الشرقى ، ويوجد فى الطرف الشرقى ثلاثة اجزاء ناتئة نصف دائرية داخلية ، في الغالب بممر ضيق خلف الجزء الناتئ الأوسط . كما وجدت فى بعض الكنائس بقايا مقاعد حول الجزء الناتئ الأوسط وحاجز ينسجم مع الحاجز الأيقونى الحديث وكذلك مذبح . هذا هو الطابع الذى وجدت عليه الكنائس فى النوبة السفلى مع بعض الاختلافات الطفيفة فى مقاطعة دنقلا وفى وادى الغزالى وجبل بخيت مثلاً وفى سقدى فى أقصى الجنوب . [٣]

(١) أبو صالح . مصدر سابق . صـ ٢٧٢ .
(٢) جمع كروفوت مختلف المصادر فى : J.W.Crowfoot, (Christian Nubia) J.Eg. Arch. xiii, 148-9
(٣) كروفوت . مصدر سابق ١٣–ص ١٤٤ . أما فيما يتعلق بصور وخرائط الكنائس ينظر: Milenam, Churches in lower Nubia, 1910,and Samers Clarke, Christian Antiquties in Nile Valley, 1912.

٤- التغلغل العربى ونهاية مملكة مقرة

استمرت مملكة مقرة لحوالى سبعمائة عام،وكان لسقوطها أسباب داخلية وخارجية، وسيتم مناقشة ذلك فيما بعد .

وكما رأينا فإن إحدى مهام صاحب الجبل كانت التأكيد علي عدم تسرب أى شخص غير مخول له إلى داخل المنطقة فيما وراء وادى حلفا ، ولم يسمح إلا للتجار بالدخول إلى مقرة على ألا يكونوا عربًا ، وسمح للمسلمين بالدخول وحتى الإقامة فى المنطقة الحدودية ، وأصبحت هذه المنطقة مكانًا لجوء العرب الذين وجدوا الأمور صعبة جدًا بالنسبة لهم فى مصر .

وعندما كانت مصر تحت سيطرة العرب فإن العلاقات بين المسلمين والنوبيين كانت موافقة لمقتضى الحال ، ولم تحدث سوى بعض الاحتكاكات العرضية بسبب الامتناع عن دفع البقط ، إلا أن العلاقات تغيرت بتولى الحكام غير العرب حكم مصر ، وقد أرسل ابن طولون فى عام ٨٦٩م حملات تأديبية مكونة بشكل أساسى من العرب البدو الذين كانوا يعيشون فى مصر العليا ضد النوبيين والبجة [١] ،واستقر هؤلاء العرب الذين كانوا بالدرجة الأولى من ربيعة وجهينة في البلاد، بعضهم وسط النوبيين بالقرب من أسوان والآخرون مع البجة ، وكانت جاذبية أرض البجة بالنسبة للعرب متحررة من القيود المتزايدة للحكم المصرى واستغلال مناجم الذهب فى العلاقى ، وكانت هناك فى البداية احتكاكات إلا أن العرب تزاوجوا تدريجيًا مع النوبيين والبجة وحققوا السيطرة[٢] ، وحافظ كل من النوبيين والبجة على لغتهم ومميزاتهم السلالية وعاداتهم ، وتم امتصاص العرب تماما . إن النوبيين الكنوز الذين يعيشون الآن فى المنطقة الواقعة ما بين أسوان وكورسكو هم نتاج امتصاص قسم من ربيعة التى سكنت بالقرب من اسوان مع نوبيى تلك المنطقة . إن لقب كنز الدولة كان لقبًا وراثيًا منحه الخليفة

(١) سرعان ما أصبح العرب على اتصال مع هذه القبائل القلقة ، وقد رأى عبدالله بن سعد بعض البجة علي ضفة النيل أثناء عودته من حملته على دنقلا ، فسأل عن شأنهم فأخبر أنه ليس لهم أهمية ولا يستحقون عقداً ولا صلحاً . واستمر البجة فى غاراتهم داخل مصر الإسلامية كسابق عهدهم ، ويقال أن عبيد الله ابن الحبجاب (حاكم افريقيا ١١٦- ١٢٢هـ) عقد معاهدة معهم شبيهة بتلك التى مع النوبيين . (ابن عبد الحكم - مصدر سابق ص ٢٠٩ - ٢١٠) وتم فى عام ٨٣١م خلال عهد الخليفة المأمون إرسال حملة ضدهم تم بعدها إعادة التوكيد على المعاهدة مع ملكهم كنون ، ولكنها لم تغير إلا قليلا من عادات البجة (المقريزى . الخطط جـ١ ص ٢١٦)

(٢) يقول ابن سليم - بعد أن يصف هزيمة البجة على يد المسلمين وما تلاه من زيارة أمير البجة إلى المتوكل فى بغداد عام ٢٤١هـ - ،، فلما كثر المسلمون فى المعادن واختلطوا بالبجة قل شرهم وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامع الناس فوفدوا من البلدان ، وقدم عليهم أبو عبيد الرحمن بن عبد الله بن عبدالحميد العمرى بعد محاربته النوبة فى سنة خمس وخمسين ومائتين (٨٦٨ - ٨٦٩م) ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة فى البجة حتي صارت الرواحل التى تحمل الميرة من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيزاب ، ومالت البجة إلى ربيعة وتزوجواإليهم وقيل إن كهان البجة قبل إسلام من أسلم منهم ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معافهم على ذلك ، فلما قتل العمرى واستولت ربيعة على الجزائر (جزائر البجة) والأهم على ذلك البجة فأخرجت من خالفها كف ضررهم عن المسلمين ،، ١١ المقريزى . مصدر سابق جـ١ ص ٢١٧ - ٢١٨

الفاطمى فى سنة ١٠٢٠ إلى أبى المكارم هبة الله شيخ ربيعة وعامر فى أسوان والتى منها عرفوا لدى المؤرخين المسلمين ببنى كنز ، وقد سيطرت هذه القبيلة سيطرة تامة على مصر العليا خلال فترة المماليك ، ولعبت دورا مهماً فى الاحداث التى أدت إلى سقوط المملكة المسيحية ، كما أن مجموعة بجاوية أخرى - العبابدة - كانت قد تأثرت - بشكل عام - بالعرب ، وهى الآن تتحدث اللغة العربية .

وتقبل المصريون بهدوء الحكم الأيوبى الذى حل محل الحكم الفاطمى ، ولكن جنود الفاطميين السود الذين تم نفيهم إلى مصر العليا تمردوا ونهبوا البلاد وهاجموا أسوان ، وقام صلاح الدين بإرسال أخيه شمس الدولة توران شاه لإخماد التمرد فى عام ١١٧٢م، وبعد أن هزمهم هاجم النوبة ، ومن المحتمل أن النوبيين قد ساعدوا أو آووا المتمردين ، ونهب إبريم وسلب الكنيسة التى يعطينا أبو صالح سرداً لها بعد أن تم استردادها :

> تقع إبريم فى أرض النوبة ، وهى مقر صاحب الجبل ، وكل سكانها من إقليم مريس ، ويحيط بها سور وتوجد بها كنيسة جميلة تم تخطيطها على نحو رائع ، وتسمى باسم سيدتنا مريم العذراء ، وتقوم فوقها قبة عالية يرتفع فوقها صليب مرتفع . (١)

وقام شمس الدولة بتأسيس حامية كردية فى إبريم ولم تستطع الاحتفاظ بإبريم إلا بصعوبة ولمدة عامين فقط ، وبقيت مملكة مقرة سليمة لم تمس ، وقاد فى العام التالى كنز الدولة قوة مختلطة نوبية - عربية إلى داخل مصر ولكنه هزم وأسر وأعدم ، وطلب صلاح الدين من شمس الدولة تقريراً حول تفوق النوبيين ليستفيد به عند الانسحاب إذاما تعرض لمشاكل مع سيده نور الدين ، ولكنه لم يتأثر بما شاهده ولا بأى تقرير من أى رسول بعث به إلى دنقلا ورد معارضاً ، وما زال الحكام المصريون ليست لديهم الرغبة فى ضم النوبة (٢)

ولم تتأثرمملكة مقرة نسبياً بهذه الغارات ، وكما رأينا، فإن السياسة النوبية كانت تترك المنطقة الشمالية مفتوحة ، ولكن تمنع بصرامة عبور المسلمين إلى مقرة بشكل خاص فيما عدا للأغراض التجارية ، ويكتب أبو صالح عن الأحوال المزدهرة لدنقلا فى مستهل القرن الثالث عشر :

> **هنا عرش الملك . وهى مدينة كبيرة على ضفاف النيل المقدس وتحتوى على العديد من الكنائس والمنازل الكبيرة والطرقات الواسعة ، ومنزل الملك شامخ وبه العديد من القباب المبنية بالطوب الأحمر ويشبه المبانى فى العراق وقد أدخل هذه البدعة رافائيل الذى كان ملكًا على النوبه فى عام ٣٩٢هـ (١٠٠٢) (٣)**

وجاء القرار بتغيير السياسة المصرية مع صعود الأسرة المملوكية للماليك البحرية فى عام ١٢٥٠م ، وقد حظيت مصر تحت هذا الحكم العسكرى الأوليجاركى بازدهار وتوسع كبيرين ، وشكل البدو مصدر إزعاج لهذا النظام ، لذا فقد تم الترحيب بأى

(١) أبو صالح . مصدر سابق ص ٢٦٦

(٢) AL mari, Masalik al-Absar, tr-Gaudefroy- Demombynes, 1927 pp.47-8

(٣) أبو صالح . مصدر سابق . ص ٢٦٥.

هجرة لهم نحو الجنوب ، وقام السلطان الشهير ركن الدين بيبرس الأول (١٢٦٠ -١٢٧٧م) فى محاولة لضمان أمن مصر بالتدخل بشكل نشط فى شئون مملكة مقرة بحجة نصرة النوبيين المطالبين باسترداد العرش ، وفى عام ١٢٧٢م رفض الملك داود دفع البقط ، وقام بالعديد من الغارات على مصر العليا ، ومن ثم قام بيبرس بإرسال حملات إلى داخل البلاد فى أعوام ١٢٧٥ و١٢٧٦م وعقد معاهدة رسمية مع أحدالمطالبين بعرش النوبة مكافأة له عن الخدمات التى يؤديها مما جعل مريس محمية مصرية فى واقع الأمر [1] .

ويقول المقريزى إن المسلمين اشترطوا أن يدفع النوبيين جزية مقدارها دينار نقداً عن كل ذكر بالغ طالما بقوا مسيحيين [2]، ودمرت الكنائس وأخذ الزعماء رهائن ونهب كل شئ ذى قيمة ، وتم الاستيلاء على سواكن على البحر الاحمر فى عام ١٢٦٦م .

وتلى ذلك سنوات من الاضطرابات الداخلية والفوضى ، وكان للسلطان قلاوون الذى تولى بعد وفاة بيبرس (١٢٧٧م) هدف واضح لاحتلال دنقلا ، وقام بإرسال حملتين (١٢٨٧ - ١٢٨٩م) ، ووضع أحد المطالبين بالعرش وهو ابن أخت الملك ملكا دمية على العرش ، وقامت الجيوش المملوكية بالتخريب المنظم للبلاد ، وذلك بحرق القرى وتدمير السواقى وحمل أسراهم عبيداً إلى مصر ، وبعد أن تكبدت الحملة خسائر فادحة ، وبعد عدة حملات - كانت الحملة الثانية اجتياحاً كاملاً - استطاع الملك شممون طرد الحامية المملوكية والمطالبة بالعرش واسترد عرشه ، وقام فى عام ١٢٩٠م بإرسال سفير إلى قلاوون يعرض عليه زيادةالبقط إذا ما تركه وشأنه،وكان قلاوون مستعداً للقبول لأن

---

(١) المقريزى . مصدر سابق ص ٣٢٦ . وقد حفظ لنا النويرى القسم الذى أداه الملك الذى قال إنه أعظم الملوك مهابة لدى النوبة (قارنQuatremere Histoire des Sultans Mamlouks, ,1837p.129)

ويبدأالقسم ،، أقسم بالله وبالثالوث المقدس والانجيل والعذراء الطاهرة آم النور والمعمودية والأنبياء والمرسلين والحواريين والقديسين والشهداء والأبرار وألا أجحد المسيح كما جحده يودس ، وأقول فيه ما يقول اليهود وأعتقد ما يعتقدونه وألا أكون يودس الذى طعن المسيح بالحربة ، إننى اخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه للسلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس ، وإنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وإنى ما دمت نائبة لا أقطع ما قَرّرّ علىّ فى كل سنة تمضى . وهو ما يفضل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدم من ملوك النوبة ،، وكان عليه أن يسلم الاقليمين الغربيين من أسوان (أى بلاد العلى والجبل) إلى السلطان ، وكذلك جزية سنوية مقدارها من الأفيال ثلاثة ومن الزرافات ثلاث ومن إناث الفهود خمسة إلى جانب أشياء أخرى.

(٢) المقريزى مصدر سابق جـ١ ص ٣٢٦ ، وهذا يوضح أن أغلبية الشعب كان ما يزال مسيحياً . إن مبادئ شن الجهاد هى أن الشعب الذى يتم غزوه يجب أولا دعوته لاعتناق الإسلام ، واذا ما رفض فعليه الخيارين :

١- الخضوع للحكم الإسلامى ، أى يصبحوا ذميين ويدفعون الجزية والخراج .

٢- أو القتال حيث قد يقتلون أو يسترقون ، واذا ما أصبحوا مسلمين فإنهم يصبحون مواطنين كاملين فى الكومنولث ، أما اذا بقوا ذميين فإنهم لا يصبحون مواطنين فى الدولة الإسلامية وتصبح حياتهم وممتلكاتهم ودينهم مضمونة لهم ، ومع ذلك فيجب أن يكون الذمى من أهل الكتاب (أى اليهود أو المسيحيين أو المجوس أو الصائبة) أما فى حالة الوثنيين فإن الاختيار محدد : إما الإسلام أو الموت .

* من المعروف أن المجوس والصائبة ليسوا من أهل الكتاب . { المترجم }

حملاته جلبت الفوضى فى مصر العليا ، وكان يجهز للهجوم على عكه . إن هذه الحملات الشرسة - رغم فشلها فى تحقيق أهدافها المباشرة - تسببت فى فوضى داخلية شاملة فى دنقلا .

كما قام الناصر محمد بن قلاوون بإرسال حملات فى عامى ١٣١٥ و١٣١٦م ، واستطاعت الحملة الثانية أسر الملك كرمبس ووضعت مكانه عبد الله بن سميو ابن أخت الملك داود الذى يبدو أنه كان مسلماً ، وقد قتله كنز الدولة الذى أعلن نفسه ملكاً وبقيت النوبة أثناء حكمه وحكم خلفائه دولة مستقلة فى واقع الأمر . [١]

وتدخلت مصر مرة أخرى فى عام ١٣٦٥ - ١٣٦٦م بدعوى عدم الاستقرار الذى يشجعه فى مصر العليا بنو الكنز وبنو جعد وعكرمة ، وأصبحت الآن دنقلا أنقاضاً وهجرها سكانها ، وقاوم الملك من مقره فى داو ، ومع ذلك فقد كانت كل هذه الغارات محصورة تقريباً فى شمالى النوبة ، ولم تحدث محاولات جادة - بسبب قوة بنو الكنز- لتحويل مقرة إلى دولة تابعة لمصر .

وما زال أغلبية السكان مسيحيين ، وأصبحت الدولة الآن مفتوحة للهجرة العربية التى أصبحت طوفانا ، وتدفقت القبائل جنوبياً نحو الأراضى الغنية فيما وراء الأراضى النوبية الماحلة غير المضيافة التى ما تزال تعمل حتى الآن حاجزاً ، ونادراً ما قامت بهذه الهجرة جماعات منظمة بهدف محدد ، ولكن تمت الهجرة بواسطة قبائل وقطاعات من قبائل بشكل منفصل بهدف غير محددلتعيش حياتها البدوية فى بيئة كانت مناسبة لها بشكل جيد ، وقدم السودان لهم الفرص التى كانت مسدودة فى وجوههم فى مصر بتخومها الضيقة وقلة أمطارها ، وكانت أجزاء كثيرة من البلاد صالحة للحياة الرعوية ، وبسبب عدم وجود تنظيم حكومى صارم - كما هو الحال فى مصر تحت الحكم الاستبدادى لسلاطين المماليك - عاش العرب بحرية بالشكل الذى يريدونه ،وقام العرب الذين لا يعرفون التمييز العرقى بالتزاوج بحرية مع السكان المحليين . زيادة على ذلك فإن خلافة ابن زعيم القبيلة من امرأة نوبية تم ضمانه باستخدام النظام الأمومى الذى كان سائداً وسط النوبيين والبجة [٢]، وهكذا ضعفت بالتدريج سلطة الأمراء النوبيين أو بالأحرى تم امتصاصها ، ويعد أولى الهجمات للحصول على « مجال حيوى » فإن امتزاج الشعوب كان يتقدم برفق ، كما سار مع هذه العملية التحول التدريجى للشعب نحو الإسلام ، ويصف ابن خلدون هذه العملية كما يلى :

---

(١) هذا صحيح برغم من أن ابن فضل الله العمرى يقول « ملك دنقله تابع لحاكم مصر ويدفع جزية سنوية وتتلى الخطبة باسم الخليفة وحاكم مصر » التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٩ .

(٢) لم يكن للعرب التأثير نفسه على البجة البدو كما كان الحال مع النوبيين ، ولا شك فإن النظام الأمومى الذى كان سائداً عندهم يدل عليه بشكل قوى الوضع الاجتماعى الحالى للنساء ، ويتحدث ابن سليم والمسعودى (مروج الذهب جـ٣ ص ٣٣) عن تزوج العرب من بنات شيوخ البجة وتقوية البجة ضد النوبة ، ولكن من المشكوك فيه ما إذا كان هذا وحده قد مكن العرب من الحصول على أى نصيب فى الأرض ، وكتب ابن بطوطة فى عام ١٣٥٠ عن البجة « إن نساءهم لا نصيب لهن فى الميراث » (القاهرة ١٩٣٩ جـ ١ ص ٤٢ -٤٣)، واليوم فإن واحداً من أغرب العادات البجاوية هى عدم تحويل ملكية الأرض :لذا فالنساء لا يمكنهن وراثة الأرض ، ففى هذه الحالة فإن العرب هم الذين امتصتهم القبائل البجاوية التى حافظت على لغتها وعاداتها .

توقف دفع الجزية بدخول النوبيين فى الإسلام ، ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة فى بلادهم واستوطنوها وملوكها وملأوها عبثًا وفساداً ، وذهب ملوك النوبة فى مدافعتهم فعجزوا ، ثم ساروا إلى مصانعتهم بالصهر فافترق ملكهم ، وصار لبعض أبناء جهينة من أمهاتهم على عادة الأعاجم فى تمليك الأخت وابن الأخت فتمزق ملكهم واستولى أعراب جهينة على بلادهم ، وليس فى طريقة شئ من السياسة الملوكية للآفة التى تمنع من انقياد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعًا لهذا العهد ، ولم يبق لبلادهم رسم للملك ، وإنما هم الآن رحالة بادية يتبعون مواقع القطر شأن بوادى الأعراب [1].

وهذا يبين أن العرب لم يقهروا البلاد بالأعداد ولكن بالتسرب ، وبخلع البيوت الملكية عن عروشها وأنهوا بذلك الحياة الثقافية والدينية للملكة ، وانتقل العرب بعد تدمير الحياة السياسية النوبية إلى المنطقة الواسعة التى يتحركون عليها الآن وانتشروا فوقها ، ويقى بنو كنز وعكرمة فى شمال النوبة حيث استقروا تماما ، بينما تدفقت جنوباً القبائل الأخرى خاصة جهينة وفزارة ، ومع ذلك فلم تكن لهم الحرية الكاملة فى التوسع إلى الأراضى الأغنى فى الجنوب ، وذلك بسبب التواجد المستمر لملكة علوة المسيحية .

(١) اقتبست من ماكمايكل . مصدر سابق جـ ١ ص ١٣٩ [انظر تاريخ ابن خلدون . المجلد الخامس . دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٨ ص ٩٢٢ . [المترجم]

٥- مملكة علوة

تمتد علوة من كبو شية إلى ما بعد سنار جنوباً ، ويقول ابن سليم « وأول بلاد علوة قرى فى الشرق على شاطئ النيل تعرف بالأبواب (كبوشية) ، ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح [١] » ، وكان هذا الإقليم مستقلًا عن مملكة مقُرة ومتميزاً عنها ثقافياً ، واستخدمت اللغة اليونانية فقط لغة كنسية وربما لبعض الوقت فى البلاط بعد تحوله ، وتظهر النقوش القليلة التى تم العثور عليها فى سوبا أن لغتهم ذات قرابة باللغة النوبية ولكنها تطورت تطوراً مستقلاً [٢] ويقول المسعودى إن علوة مرتبطة بالثقافة القبطية المصرية عن طريق المسيحية دينها الرسمى ، وهى مرتبطة أكثر بأجناس السودان الجنوبى ، ليس فقط لأن عاصمتها سوبا سوق كبيرة للرقيق ، بل أيضا جنساً وثقافة ، ويوجد فيما وراء علوة قبيلة كبيرة من السود تدعى كونا (؟) وهم عراة مثل الزنج [٣] كما كان لعلوة تأثير ثقافى على الجنوب حيث ينتج الحديد ، ولو أنه ليس فن استخراج الخام ، كما يظهر الفخار فى المواقع المسيحية عدم وجود أثر للتأثير البيزنطى يماثل ذلك الموجود فى شمال السودان اليوم .

وعلوة ملكية وراثية مقرها سوبا بالقرب من الخرطوم ويعطينا ابن سليم سرداً طريفًا لها :

وسوبة مدينة العلوى شرقى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الأبيض والأخضر فى الطرف الشمالى منها عند مجتمعها ، وشرقيها النهر الذى يجف ويسكن بطنه ، وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين[٤] ومتملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة وأعظم جيشًا وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى ، وبلده أخصب، وأوسع والنخيل والكرم عندهم يسير . واكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الأرز منها خبزهم ومزرهم (كسرتهم ومريستهم) ، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة العظيمة السعة ، حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلا فى أيام ، وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ، ودينهم النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة ، وكتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم وهم أقل فهمًا من النوبة ، وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ، ولا ينكرون ذلك عليه ، بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم . وينادون : الملك يعيش ، فليكن أمره ، يتوج بالذهب ، والذهب كثير فى بلده .... وقد رأيت الكثير من الخلق والأجناس تقدم ذكر أكثرهم يعترفون بالبارى سبحانه وتعالى ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب ومنهم من لا يعرف البارى ويعبد الشمس والنار ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة !! [٥]

---

(١) المقريزى . مصدر سابق جـ١ ص ٣١٠

(٢) Griffith, FII., Nubian Texts of Christian Period, p.5.

(٣) المسعودى . مصدر سابق جـ ٢ص ٣٨٣

(٤) يوضح ذلك مجال النشاطات التجارية للمسلمين .ان كتابات اليعقوبى المبكرة (٨٩٠م) تتحدث عن المسلمين المترددين على سوبا

(٥) المقريزى . مصدر سابق جـ١ ص ٣١١ – ٣١٢

ويبدو أن المسيحية التى اعتنقها أولاً الملك والنبلاء أصبحت دين الدولة ، وبالرغم من أنها انتشرت جنوبا حتى جبل سقدى فى منطقة سنار فإنها لم تكن أبداً ديناً حقيقيا للشعب الذى بقى أرواحيا (١) Animistic بالدرجة الأولى .

وكتب أبو صالح مؤخراً فى عام ١٢٠٨م وصفًا لعلوة فى الوقت الذى كانت فيه المملكة فى أوج عظمتها وازدهارها :

توجد هنا قوات ومملكة كبيرة بأقاليم واسعة بها أربعمائة كنيسة ، وتقع المدينة شرقى جزيرة كبيرة بين نهرين ، النيل الأبيض والنيل الأخضر ، وكل سكانها ميسيحيون يعاقبة ، ويوجد حولها الأديرة ، البعض منها على مسافة من النيل والبعض الأخر على ضفافه ، ويوجد فى المدينة كنيسة كبيرة واسعة جداً ومخططة ومبنية بإتقان ، وهى أكبر من كل الكنائس الأخرى فى البلاد ، وتدعى كنيسة منيالى وتعتمد محاصيل هذه البلاد على فيضان النيل وسقوط الأمطار» (٢) .

وسقطت مدينة دنقله فى بداية القرن الرابع عشر، وبدأ الاندفاع العربى الكبير نحو الجنوب ، وبرغم أن النفوذ الأجنبى قاطع مسيرة علوة ، فإنها ما زالت باقية ، وكانت القبائل العربية وحدات منفصلة نادراً ما توحدت ، ولم توجد قبيلة واحدة ذات قوة كافية لتهاجم المملكة ، كما لم تكن حكومة المماليك فى مصر تفكر فى الاستيلاء على دنقلا ، وكانت بعض القبائل تتحرك حول ضواحى المملكة لأن ابن خلدون يتحدث عن شبه قبائل من جهينة «قريبة من الأحباش » (٣) من المحتمل فى جنوب الجزيرة ، وتجزأت المملكة ، واندلعت الحرب الضروس بينها وبين القبائل العربية التى كانت تحرك قطعانها إلى داخل المملكة وقام فى عام ١٤٧٤م شعب يتحدث العربية بتوسيع مدينة أربجى، وتحكم العرب بشكل نهائى فى آخر الأمر على الجزيرة وسيطروا على سكانها .

ويعتقد أن السبب الفعلى لسقوط علوة عام ١٥٠٤م كان مرجعه تحالف قواسمه رفاعة مع قبيلة الفونج الزنجية التى ظهرت فجأة من الجنوب ، ولكن الدليل الوحيد على هذا التحالف مصدره المدونة التاريخية للفونج (٤) والتى تشكك أركل (٥) فى قيمتها كسجل للمئتى سنة الأولى لمملكة الفونج ، وتقول رواية بروس الأقدام من المدونة أنه :

(١) ينظر : Crowfoot, ,,Chirstian Nubia ,, J.Eg. Arch. xiii. 147

أو المذهب الحيوى : وهو الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون روحا ، وهى ديانة وفلسفة الإنسان البدائى . ينظر . برنسلاو مالينوفسكى : السحر والعلم والدين . سلسلة الألف كتاب الثانى . العدد ١٦٧ [المترجم]

(٢) أبو صالح مصدر سابق ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ، ولم يبق الآن سوى القليل من مدينة سوبا بعد أن بنى المصريون الخرطوم من بقاياها .

(٣) Hist. des Berberes., trad. de Slane (1852) i40

(٤) لخص هذا الكتاب هـ . ا. ماكمايكل (Hist. ii,354.434) وتقول الرواية « بدأ الآن عهد عمارة دنقس بجمعه للشعب حوله واستمروا فى التزايد ، وهو يجلس معهم فى جبل مويا الواقع غرب سنار ، وحضر إليه هناك عبد الله جماع من عرب القواسمه وهو والد الشيخ عجيب الكافوتى الجد الأعلى لأولاد عجيب ، وصمم الفونج شن الحرب على ملوك سوبا وقرى ، لذا فقد بدأ عمارة وعبد الله جماع محاربة ملوك سوبة وقرى وهزموهم وقتلوهم ، وعليه اتفق رأيهما بأن يكون عماره هو الملك الأعظم فى مكان ملك سوبه لأنه الكبير والمقدم ويكون عبد الله بعده فى مكان ملك قرى ويلقب شيخا ، فجلس عبد الله فى قرى وذهب عماره فاختط مدينة سنار وجعلها كرسى مملكته ، وقيل كان هناك امرأة تسمى سنار ، فسميت المدينة باسمها ، وكان هذا عام ٩١٠هـ (١٥٠٤م) وكان عماره وعبد الله كالأخوين ، إلا أن مرتبة عمارة أعلى من رتبة عبد الله فكانا إذا حضرا معا يتقدم عمارة على عبد الله ، واذا غاب عمارة قام عبد الله مقامه . المخطوط ص ٢ - ٣

(٥) Fung Origins, SNR., 1932, pp.20 I ff.

سكن فى عام ١٥٠٤ م شعب أسود مجهول حتى الآن الضفة الغربية للبحر الأبيض عند خط العرض ١٣° تقريبا ، وقد جاءوا بأعداد كبيرة فى قوارب و زوارق إلى الاقاليم العربية ، وفى معركة بالقرب من « اربجى » هزموا ود عجيب وأجبروه على عقد اتفاقية استسلام يدفع العرب بموجبها للغزاة – فى البداية – نصف قطعانهم ، وفى السنة التالية نصف المحصول الذى تم فرض الضريبة عليه ، أثناء مرورهم إلى الأراضى الرملية هربًا من الذباب ، وبناءً على هذا الشرط يتمتع العرب بممتلكاتهم السابقة التى لم تمس على أن يكون دائما قصر وكرامة عجيب عرضة للإكراه من قبل الغزاة فى حالة ما إذا رفض الدفع أى من العرب البعيدين ، وهكذا أصبح ود عجيب وكأنه موقف ينوب عنهم ويسمى هذا الجنس الأسود فى بلادهم بالشلك (١) .

وهناك العديد من النظريات التى تم اقتراحها (٢) بناءً على ما قاله بروس من أنهم زمرة من الشلك نزلت النيل الأبيض و« اكتسحت علوة » وساعدت الشعب الأصلى المتحدين معهم فى الجنس والثقافة ضد العرب ، ولكن لمصلحتهم الخاصة ، لذا فقد فرضوا هيمنة سياسية ، ونقرأ فى طبقات ود ضيف الله " عندما غزا الفونج العرب لأول مرة فرضوا على القبائل ضريبة لإعاشة الجند ، وكان على كل قبيلة توفير الكثير من أرطال اللبن وعلى الآخرين تجهيز الخبز(٣)*

اذا كان هناك أى أثر باقٍ من المملكة فإنه بالتأكيد قد اندثر فى هذا الوقت الذى برز فيه الفونج ، والمسيحية التى كانت ما تزال باقية قد خمدت تحت حكم مملكة الفونج ، وبقيت الحبشة هى المملكة المسيحية الوحيدة فى إفريقيا .

(١) كان بروس فى سنار في عام ١٧٧٢م . Bruce, Travels (ed.2) vi,370-1

(٢) ينظر Arkell, Loc, cit., pp.246-7

(٣) طبقات ود ضيف الله – م ٢٢١ ص ٢٣ .

* أما النص بلغة ود ضيف الله فهو« وكان الفونج أول ملكهم فرضوا على قبائل العرب تودات العسكر كل قبيلة عليها عُمّار لبن وناس معلومين يثقفوهم الفطير ،، طبقات ود ضيف الله تحقيق د. يوسف فضل . الطبعه الأولى ١٩٧١ . قسم التأليف والنشر . جامعة الخرطوم ص ٨١ [المترجم]

٦- أسباب اضمحلال وأفول المسيحية في السودان

١- أسباب الانتشار البطئ للإسلام

انتشر الإسلام في السودان بشكل أكثر بطءًا عما كان متوقعًا له ، إذ كان للإسلام في الأيام الأولى سلطة توسع سياسى لا يقاوم ، وكان مرجع ذلك ربما بطء الغزو بسبب عدم جاذبية الأرض حيث استكنت هذه المسيحية البربرية . وتبرهن معاهدة عبد الله بن سعد على أنه لم يفكر في الضم ، ولكنه رغب ببساطة في ضمان الهدوء على الحدود الجنوبية لمصر ، كما يبدو أن العرب اعتبروا أيضا أن الشلال الأول عند أسوان هو الحد الواضح وأن النوبة غير جذابة ، وأنها لا توفر سوى الرقيق الذى تدفعه طبقًا لنصوص البقط وشروط السماح للتجار المسلمين بالعمل في البلاد ، زيادة على ذلك فالصفة الاستقلالية للنوبيين جعلتهم يحافظون على استقلالهم السياسى ولغتهم ودينهم ، كما أنهم لم يضطهدوا كما حدث للأقباط المنوفستيين من قبل الإمبراطور الرومانى [1] ،كما أنهم لم يرغبوا في التخلص من حكامهم ، لذا فقد بقيت المسيحية في عزلة تامة تقريبًا في أدنى المستويات الثقافية في النوبة لمدة سبعمائة سنة ، وكان اختفاؤها مرجعه أسباب خارجية أكثر من كونه أسبابًا داخلية .

٢- الأسباب الضمنية التى أدت إلى اضمحلال المسيحية

برزت الأسباب الرئيسية لمكاسب الإسلام من الضعف في المجتمعات المسيحية نفسها ، لقد بقيت الكنيسة في السودان داخلية دائمًا ، ولم تصبح أبدا أهلية بمعنى ما عليه الإسلام الآن ، لقد جاءت المسيحية كعبادة جديدة مع ثقافة البلاد الانكفائية لما قبل البطلمية بدون أن تحدث ثورة سواء في حياة النبلاء أو العامة ، لقد اتحدت العبادة بشكل حميم مع الغرباء ومع الثقافة الأجنبية ، لقد كان كل الأساقفة والعديد من رجال الدين مصريين ، ولم يكن هناك نظام للتنازل عن السلطة ، كما لم تتطور أى مدارس دينية مستقلة بشكل حقيقى لأن وظائفها كانت تملأ بالقسس الذين يختارهم الرهبان الأقباط ، وبسبب هذا الاعتماد على المنوفستية المصرية توقف أي إمداد جديد لرجال الدين عندما انقطعت – في زمن متأخر – العلاقات مع الإسكندرية لأسباب سياسية، كما انقطعت في زمن الحاكم بأمر الله العلاقات بين دنقلا والإسكندرية عندما رفض السماح بكتابة الخطاب لمدة عامين [2]وعندما فقدت الكنيسة القبطية –في عهد المماليك

---

(١) كان الفتح العربى خلاصًا للأقباط . يقول أبو صالح مصدر سابق ،، كانت هذه هى الفترة التى اضطهد فيها الامبراطور الشعب الأرثوذكسى (أى المنوفستى) ، وطالبهم بالعمل وفق عقيدته التى كانت متناقضة مع الدين ، ومن هذين الرجلين (أى هرقل والمقوقس – سيرس بطريرك مصر) عانى المسيحيون اضطهادًا عظيمًا إذا لم ينكروا إيمانهم ، وفى زمنهم ظهرت الأمة الحنيفية وقهرت الرومان وذبحت العديد منهم واستولت على كل الأرض المصرية ، وهكذا تحرر المسيحيون اليعاقبة من الطغاة (أى الرومان)

(٢) اعتاد البطاركة كتابة خطابين كل عام إلى ملوك الحبشة والنوبة ، وكان زكريا ((١٠٠٤ – ١٠٣٢م) آخر من فعل ؛ ذلك لأن الحاكم منعه من ذلك – ينظر أبو صالح مصدر سابق ص ٢٩٠.

– الكثير من هيبتها ولم تستطع فرض أى نفوذ مؤثر علي الأراضي الجنوبية ، زيادة على ذلك كانت الطقوس الدينية تتم باللغة اليونانية ، ولأن الشعب يمكنه أن يتعبد بصدق وإخلاص عن طريق لغته أصبحت العبادة مجرد شكل ، و كان من الطبيعي أن تدوم المعتقدات الأرواحية . إن حياة وإرادة الشعب لا يمكن التعبير عنهما عن طريق لغة أجنبية وسلطة دينية أجنبية ، ومن ثم تدهورت الحياة الروحية إلي درجة متدنية جداً من الانحطاط ، ولم تظهر أي حركة للإصلاح ، وكان السودان علي اتصال مع منوفستية الإسكندرية فقط ، ولم تهتم أى كنيسة أخرى بهذه الكنائس البربرية (١).

وتركت مملكة علوة بلا دليل أو توجيه ، بعد أن اجتاح العرب دنقلا ، وقد حصلنا علي بصيرة ناقدة ألقت الضوء علي حالة المسيحية في علوة في كتابات الفاريز البرتقالي الذى سافر فى الحبشة فى أعوام ١٥٢٠ – ١٥٢٧م مباشرة بعد نهاية مملكة سوبا

يجاور هؤلاء البلونين (٢) ناحية الشمال شعب يسمى النوبيين ويقال إنهم مسيحيون يحكمون من روما ، وقد سمعت رجلاً سوريًا من طرابلس – بسوريا واسمه يوحنا السورى ... أنه كان فى هذه البلاد وأنه يوجد بها مائة وخمسون كنيسة ما زالت تحتوى على صلبان وصور ستنا وصور أخرى مرسومة على الحوائط وكلها قديمة ، وأن سكان هذه البلاد ليسوا بمسيحيين ولا مسلمين ولا يهود ولكنهم يؤملون أن يظلوا مسيحيين ، وهذه الكنائس كلها فى قلاع قديمة منتشرة فى كل أرجاء البلاد ، وكما أن القلاع كثيرة فكذلك الكنائس ، وبينما نحن فى بلاد برستر جونا قدم ستة رجال من تلك البلاد سفراء لبرستر نفسه يناشدونه أن يرسل لهم قسس ورهبان لتعليمهم ، ولم يرغب فى أن يلبى طلبهم ، ويقال إنه قال لهم أن لديه أبيما (أبونا أى المطران) من بلاد المسلمين أى أنه من بطريرك ، الاسكندرية تحت حكم المسلمين ومن ثم كيف يعطيهم قسس ورهبان حيث أن الآخر يعطيهم ، وقالوا إن الشعب فى الزمن القديم كان يأخذ كل شئ من روما ، وأنه قد مات منذ زمن طويل الأسقف الذى جاءهم من روما وبسبب حروب المسلمين فإنهم لم يحصلوا على غيره ، لذا فقد فقدوا رجال دينهم ومسيحيتهم (١).

مرة أخرى كانت المسيحية منذ البداية دينًا للدولة ، ولم تخلق أبدًا ثورة فى حياة الشعب لأن أى كنيسة تكون حيوية وأساسية فى حياة البلاد يجب أن تعمل وفق حدود استقلالية معقولة لتأمين حريتها الروحية . هذا صحيح تماماً فى المملكة الجنوبية حيث تلقى الملك والنبلاء المسيحية التى ربطتهم بالثقافة الأعلى ، وقبلها الشعب بشكل رسمى

---

(١) بذلت الكنيسة الرومانية محاولات فاشلة للتغلغل إلى داخل السودان فى القرنين الثالث والرابع عشر . ينظر :

du Cailloud, ,,Les Tentatives des Franciscains aumoyen àge pour pènètrer en Haute Ethiopie, Bull. soc. Gèogr; de Paris, 1896, pp.212-32.

(٢) من المحتمل أن يكون هؤلاء هم البلو فى منطقة القلابات.

* Prester John ملك خرافي من العصور الوسطى فى آسيا، ولكن تاريخه تجمعت حوله في الأصل نواة من الحقيقة ، وقبل أن يظهر بوستر علي المسرح مهدت لظهوره خرافة شبيه فى أوروبا حوالي عام ١١٢٢م، وبعد ذلك تجلى برستر جون على المسرح فى شخصية فاتح مسيحى يجمع بين كاهن وملك . (المترجم).

(١) Stanley of Alderley, Narrative of the portugvese Empassy to Abyssinia, by father Francesco Alvdrez, London, 1881, pp.351-j

واحتفظ بأرواحيته ؛ لذا فقد تحدث عنهم ابن سليم كعبدة للرب ، ولكنهم يضمون معه الأشياء الطبيعية ، وهى فى السودان لم تكلف الإنسان أى شئ كى يعتنق المسيحية ، ولم تشيد الكنيسة على دماء الشهداء ، إذ لم يكن هناك أبداً أى خطر للاضطهاد ، لذا فلا يوجد قديسون من الأهالى ليرتبط بهم الشعب فى ممارساته الدينية ، ولا يوجد سبب لافتراض أن الجماهير سكان المناطق الريفية كانوا مسيحيين ، ومن المحتمل أن المسيحية كانت موجودة فقط فى المدن الرئيسية والقرى الكبيرة . لقد كانت الأرواحية هى دين الجماهير وهذا واضح من الاختفاء التام لعناصر المسيحية الخالصة والاحتفاظ بالأرواحية الضمنية فى إسلامهم ، ولم يجد الشعب صعوبة فى تقبل دين كل ما يهمه هو " الشهادة " ويتركهم أحراراً يعيشون كما كانوا من قبل ، ويمارسون عاداتهم القديمة عدا عبادة الاصنام والأشياء الطبيعية .

وأصبحت الكنيسة المنوفستية فى السودان كما كانت فى الإسكندرية حصناً للقومية السودانية ، وتميزت بشكل جاد عن الثقافة البدائية الجامدة للشعب ، لذا فعندما أصبح الحكام مسلمين انهارت البنية كلها ، وكانت الكنيسة كمؤسسة قومية ضيقة فى استشرافها وفقيرة جداً فى سلطاتها الروحية ، زيادة على ذلك وبسبب كونها ببساطة دائرة من دوائر الدولة فمن المحتمل ألا تخلق رأياً عاماً مستقلاً ضد الأفعال الشريرة مثل تجارة الرقيق التى قوضت قوة وحيوية الممالك ، إذ قد يكون الرق المحلى تم التسامح فيه ، أما تجارة الرقيق فلا . لقد تسامحت الكنيسة بالتأكيد بالتجارة ولكن ربما – كما فى الحبشة – قد استفادت منه .

كما فشلت تماماً المسيحية السودانية أيضا فى تحدى تأثير الدين الاسلامى الغنى والنشط على حدودها ، كما تسببت عزلة الإقليم فى أن تنتكس مسيحيته إلى مستوى ما قبل المسيحية .

وأخيرا كانت المسيحية – مثل الإسلام بعده – محكومة بالمناخ الذى يتسبب فى الافتقار إلى الطاقة وضعف المقاومة الأخلاقية ، إن المسيحية النشطة هي فقط التى تطور عبادة محلية حقيقية – تثار باستمرار من الخارج – بإمكانها مقاومة الهجوم الضارى للدين الغريب ذى القابلية للتكيف مع الأفارقة .

هذه هى الأسباب المعقدة والضمنية لاضمحلال المسيحية ، وبينما كانت المسيحية القوة الفعالة وسطهم ، فإن الاستقلال الطبيعى للشعب أدى إلى مقاومته للإسلام . ولكن بمجرد أن أصبح رسمياً فإنهم استسلموا للنفوذ الإسلامى القوى الذى يحيط بهم ، واحتاج النوبيون التعبير عن طموحاتهم الروحية ، وكان من الطبيعى أن يهرعوا نحو الدين المتوهج الذى أقحم نفسه عليهم ، والاتصال مع ما أثرى منطقتهم بتوفير الأساس للوحدة الثقافية .

٢- الأسباب المباشرة

لقد كانت هناك بلا شك بعض الدعاية الإسلامية تعمل فى مقرة وعلوه قبل سقوطهما ، اذ كان يوجد مسجد فى دنقلا ونُزُلْ إسلامى فى سوبا ، كما أن التجار المسلمين كانوا دعاة عاديين ، ولكن لا يوجد دليل على أن تلك الدعاية كانت قوية وأن اندفاع الشعب نحو الاسلام لم يكن سببه الدعاية التبشيرية . قد يكون التجار مهدوا الطريق ولكن المسيحية كانت ما تزال هى دين الدولة . لم يأت الإسلام كتأثير ثقافى أعلى ، وفى الحقيقة فإن أى درجة من الثقافة امتلكها النوبيون اختفت بعد الفتح لأن العرب البدو كانوا عامل تحضر على أية حال ، وكانت الأسباب المباشرة لسقوط الممالك عوامل داخلية وخارجية ، وقد جاءت الانشقاقات والخلافات الداخلية في النوبة حادة خلال فترة المماليك البحرية ، وأعطت بيبرس الفرصة للتدخل ، وكانت المصلحة الشخصية فى هذا الوقت هى الدافع الوحيد للحكام المسيحيين ، وكان الأمن العام ضعيفا ؛ لأن جمع الرقيق لدفع الجزية كان معناه الإغارات المستمرة التى أدت إلى الفوضى الداخلية ، لذا فقد أصبح من المستحيل وجود حكومة جيدة ، كما لم يكن للنوبة حاجز طبيعى حصين كالذى لدى الحبشة الجارة المنوفستية ، برغم أن الصحارى الشمالية وفقر السودان لم تجعلها جذابة جداً سوى للبدو .

وجاء السقوط الفعلى لملكة مقرة عن طريق تسرب وإقامة القبائل العربية التى تصاهرت تدريجياً مع النوبيين ، وأمنت لأبنائها الوراثة عن طريق النظام الأمومى ، كما فوضت السلطة المركزية التى كانت ما تزال موجودة ، وذلك بصعود بنى كنز القبيلة النوبية المصرية التى تختلف عن القادمين الجدد لمطابقتها التامة مع الحياة النوبية ، ومن خلال التخريب الداخلى الموشى بالتدخل المباشر للممالك البحرية فى شئون النوبة، كما جاء سقوط علوة أساساً بهجرة العرب والقبائل النهرية الأخرى ، وتلاه غزو الفونج من الجنوب ، وبعد تمزق المملكة بدأت المسيحية فى الاختفاء سريعًا من خلال امتصاص السكان داخل النظام العربى والهيمنة الثقافية للإسلام ، وكل ما بقى حتى الآن من الممالك التى كانت مزدهرة فى يوم ما هى خرائب العديد من الكنائس [١]

وتلى السقوط الفعلى للممالك الهيمنة السياسية للمسلمين واضطهاد المواطنين من قبل أناس ذوى إيمان مختلف وقوى ، وسيكون هنا التميز الاجتماعى المعتاد ضد المسيحيين والوثنيين معًا مع إمكانية التحرر إذا ما تم اعتناق الإسلام والتزواج مع القبائل العربية . أخيرا والشئ الأكثر أهمية هى جاذبية السلطة المغرية التى مارسها الإسلام على كل شعب إفريقى تخلى عن ديانته التى لا وطن لها ، خاصة من خلا ل قوة استيعابها للممارسات الفطرية ، وكان اختفاء الكنيسة من السودان خسارة فادحة

---

(١) خرائب الكنائس التى كانت مشيدة بالطوب الأحمر فى مملكة علوة موجودة فى سوبا ورودس والتى وكترانج وكاسمبا وبرونكو والحصاحيصا والكاملين وأربجى وسنار على النيل الأزرق ، وفى القطينة على النيل الأبيض .

للمسيحية الإفريقية . لقد أسست الكنيسة نفسها بقوة وأثرت بعمق في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وقدمت استحكاماً قوياً ضد تغلغل الإسلام إلى داخل مناطق أعالى النيل ، وقدم سقوطها مثلًا للمخاطر الرهيبة للكنيسة التى كانت ببساطة المؤسسة الدينية للدولة ، وما زال لاختفائها عواقب وخيمة ، ويكتب السير ريتشارد بالمر عن تأثير سقوط دنقلا على السودان الأوسط :

> **قد يقال إنه حتى نهاية القرن الرابع عشر كان تأثير مملكة دنقلا المسيحية يتفوق على تأثير السودان الشرقى بغض النظر عن الأفكار المستمدة من مصر أو عبادة النار . فمن البحر الأحمر حتى بحيرة تشاد كان انهيار مملكة دنقلا المسيحية متزامنًا مع صعود مملكة كانوم الإسلامية تحت حكم الحاج إبراهيم فى التاريخ نفسه تقريبا وهو الذى وطد المزاج الدينى لهذه المناطق آنفة الذكر حتى الوقت الحاضر (١)**

لقد بررنا فى الدفاع إذن – أن سقوط دنقلا ربما كان هو العامل الوحيد المهم الذى أثر فى الانتشار السريع للإسلام فى إفريقيا ، فمنذ ذلك الحين وحتى العصر الحديث لم يعد للمسلمين منافس فى نشر دينهم فى كل مكان من القارة .

---

(١) The Bomo Sahara and Sudan, 1936,p.4.

-٣-

السودان تحت الحكم الإسلامى

١- توسع القبائل العربية وتعريب السودان

استقرت جنوبى النوبة كل القبائل البدوية التى تدفقت جنوباً بعد سقوط المملكة المسيحية ، فقد تتبعت خط النيل من خلال دنقلا - حيث استقر القليل منهم - ولم تكن البلاد مغرية ولم تحتفظ بأعداد كبيرة من البدو ، كما كان يشغل الصحراء الشرقية قبائل البجة المولعة بالحرب وبعض القبائل العربية التى هاجرت منذ فترة ، لذا فقد تحركوا جنوبياً على طول النيل الأبيض إلى أن وصلوا لمنطقة السهوب ، ثم انتشروا باتجاه الجنوب الغربى إلى داخل كردفان وجنوب شرق حتى نهر عطبرة والنيل الأزرق داخل البطانة وإلى الجزيرة فيما بعد ، وذهبت بعض المجموعات التى تشكل الآن الكبابيش إلى داخل منطقة الصحراء الغربية الهائلة التى لم تكن مأهولة عدا بالتبو البدو ، كما ساروا أكثر إلى داخل كردفان أرض الاستبس - الذى يسكنه النوبا - المرعى المناسبة تماماً لتربية الإبل، وهناك بدأوا بتنمية السلالة العربية - الزنجية التى تقطن فى كردفان- ، ودخلت مع الفونج القبائل العربية التى كانت تحوم حول المنطقة وتركز العبد لاب العرب الحاميون فى قرى ، بينما يبدو أن الخوالدة استقرت حول كبوشية ، والجعليين حول شندى والجموعية على النيل الأبيض ، واجتازت رفاعة الجزيرة وخضعت للفونج ، ودخلت السودان القبائل التى تشكل البقارة الآن عن طريق النيل ودارت من دنقلا غرباً إلى أن اخترقت ما يعرف الآن بالسودان الفرنسى ، والبعض الآخر الذى طرد من هناك - لا تهامهم بقتل ابن سلطان « بُلاَّل :- استقر فى دارفور فى عهد السلطان حسن ، ومنها اتجهت بعض القبائل نحو الشرق .[١]

لقد كانت هذه القبائل مجرد مجموعات صغيرة فقط ، أما القبائل الكبيرة مثل الحمر والكبابيش فقد شكلت نفسها فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر عندما انضمت إليها المجموعات الأخرى المختلفة ، وبلا شك فإن هذه القبائل لاقت بعض المعارضة وعقدت بعض معاهدات مع الغزاة السود الأقوياء من الجنوب ، إلا أن عاداتهم البدوية وقدرتهم على المصاهرة أعطتهم مجالاً حيوياً فى البلاد قليلة السكان وسرعان ما استسلم الكثيرون منهم لحسنات حياة الاستقرار ، وتم امتصاصهم ، وفى الوقت نفسه كان هناك تحرك عام للقبائل النوبية الحامية (أى الجعليين) نحو الجنوب

---

(١) تقول تقاليد سليم أن أبا ثمانية الذى قادهم غربيا تزوج ابنة السلطان الأسود ، كما تروى دار محارب أن زعيمهم عند وصولهم كان « ود السودا » ، وكانت النتيجة الواضحة هى أمة عربية سوداء .

الغربى إلى داخل كردفان ، وقد اعتبر دائما أن هذا التحرك تحرك للقبائل العربية رغم أن عدد العرب الذين دخلوا البلاد كان قليلاً نسبياً[1]

وكان من بين تلك القبائل التى تحركت إلى كردفان : الجوامعة والبديرية والشويهات التى كانت من المحتمل قد تحورت وامتزجت بشكل كبير مع النوبا لدرجة أنها أصبحت زنجية فى صفتها ، ففى القرن الثامن عشر كانت البديرية مثلا ما تزال تتحدث « الرطانه » .أما القبائل الأصلية الأخرى (مثل القبائل المستقرة كالقوديات والبقارة وأولاد حامد) التى تحركت غرباً ندت وكأنها تنتمى إلى مجموعات الفونج - النوبة .

وكانت هناك خلال هذه القرون عملية ثورة ثقافية نتجت من تعريب وأسلمة الشعب ، وهناك عمليتان متوازيتان واضحتان فى تعريب السودان ، الأولى لغوية وثقافية اكتسب بها الشعب اللغة العربية والمفاهيم الثقافية الإسلامية ، وأصبح الشعب مرتبطاً بالنظام القبلى العربى ، أما الثانية فكانت عرقية ، إذ امتص السكان الأصليون العناصر العربية الواردة بدرجات مختلفة، لذا فالدم العربى يجرى اليوم فى عروقهم ، وكان التعريب الثقافى للشعب أكثر عمقاً لأنه كان يعنى أيضاً إسلاميتهم ، أما العملية الأخرى فقد يكون من الأفضل تسميتها بتأصيل العرب ، رغم أن الدم العربى قد حور بلا شك المميزات العرقية للقبائل الحامية والزنجية بدرجات متفاوته [2] .

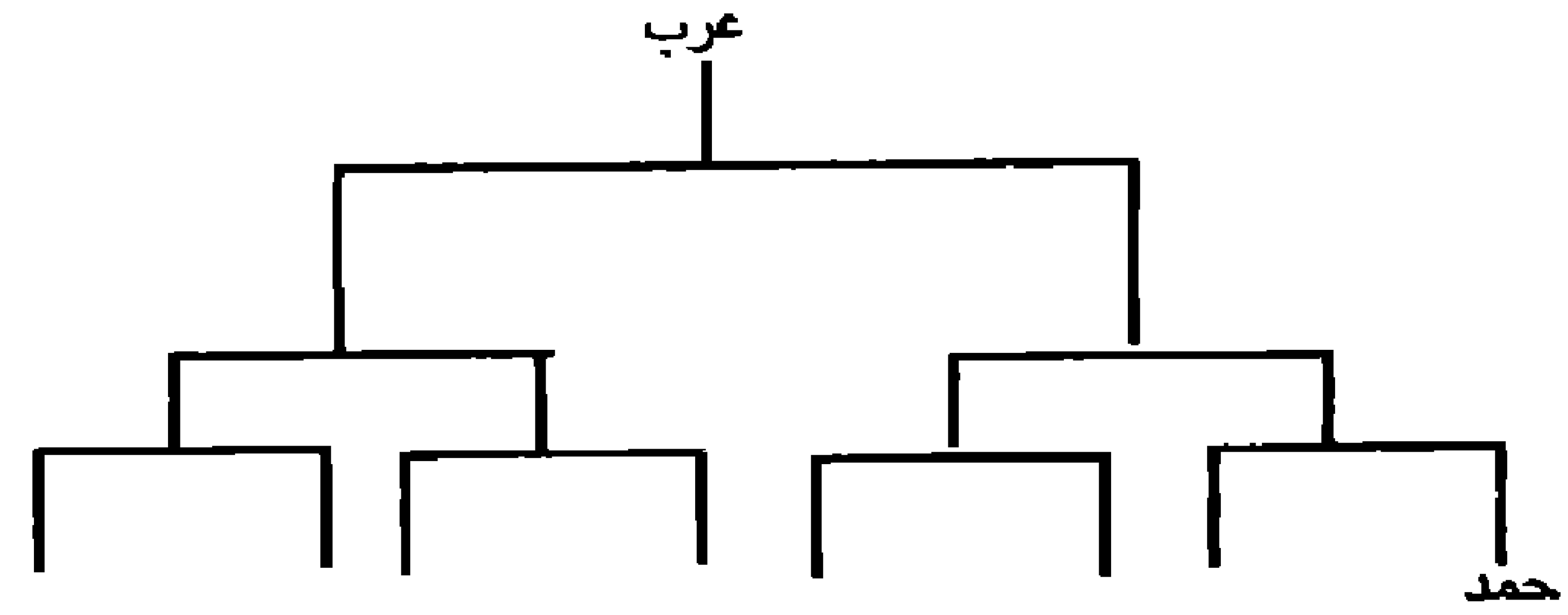

وعندما نقلبها ونتتبع حمد إلى الوراء إلى أجداده الكبار فإن زيف شجرة النسب العربية ظاهر تماماً وقد نحصل على « شريف » بسلسلة نسب كهذه

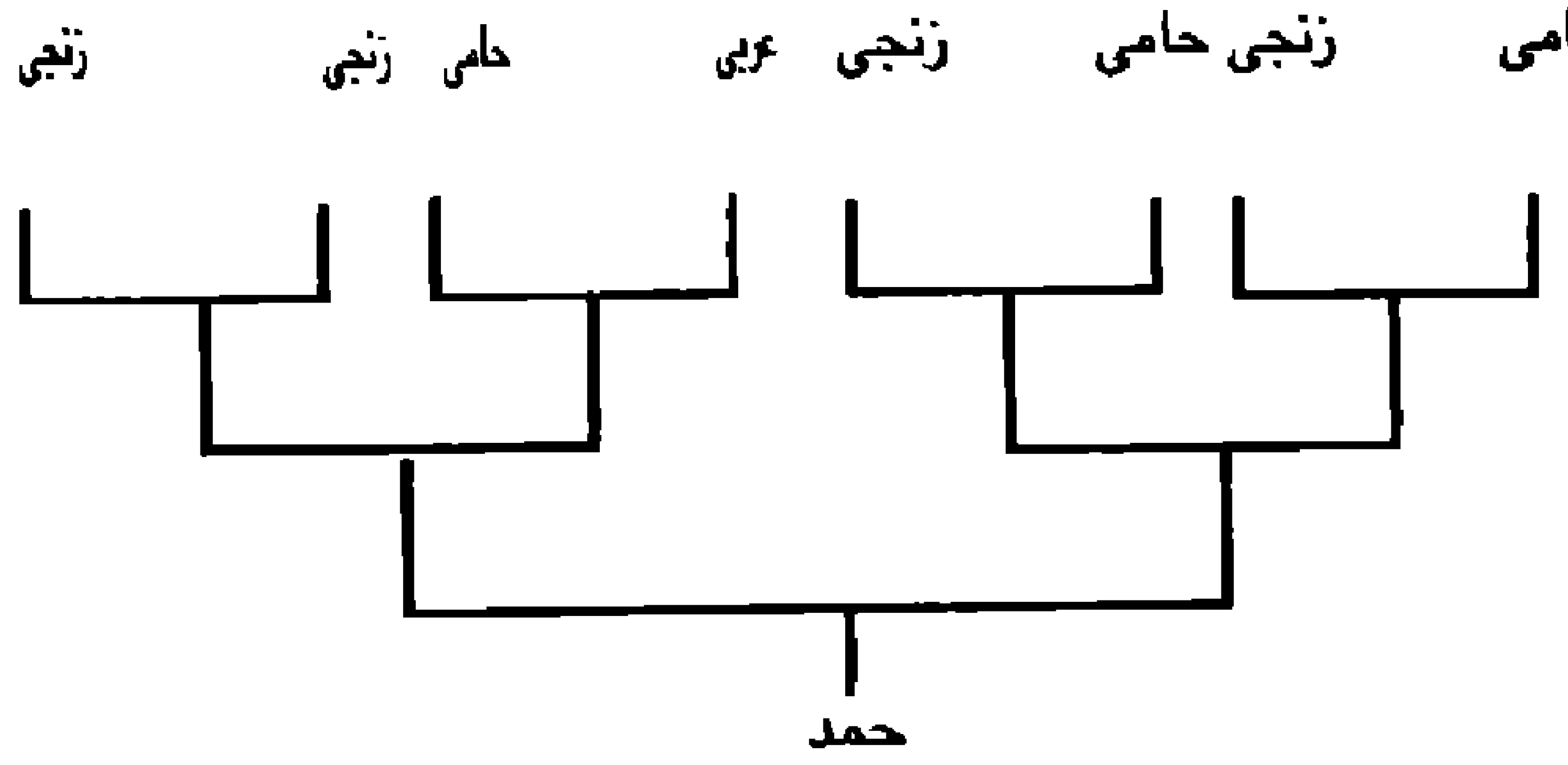

(١) بعض القبائل المصرية مثل ربيعة وجهينة قبائل عربية أصلية ، ولكن الأصل العربى للعديد من القبائل الأخرى مشكوك فيه . ينظر Revue de Monde Musulmane, lvii.87

(٢) شجرة النسب المعتادة هى بهذا الشكل

ويعطى الوصف التالى الذى كتبه ج.و. كروفوت عن نوبا تقلى فكرة عن العملية فى مرحلة مبكرة :

> **أصبح الشعب فى بعض مناطق الجبال الشرقية – تقلى مثلا – مسلمًا لجيل أو جيلين ، يرتدون الملابس ويتحدثون العربية بشكل جيد ، وبعضهم يتظاهر بالنسب العربى وتخلوا عن الاحتفاظ بالخنازير ويتحدثون عن ازدرائهم " للنوبا العراة ". إن مثل هذه الثقافة الإسلامية التى تبنوها مثل شعائر الختان والزواج وممارسة الخفاض ... إلخ جاءت من القبائل النهرية أو من كنانة والكواهلة الذين سكنوا وسطهم وليس غريبًا كما يبدو أنها من قبائل البقارة الذين كانوا معهم على اتصال لزمن طويل ، وقد قبلهم العرب كمسلمين وإخوان ، بينما يتسمون على مزاعمهم، وقد سمعت كاهلى فى كلّوقى يصف سكان الجبال المجاورة " بالنوباوى " الذى أصبح كواهلى، فى حقيقة الأمر فإن نوبا الشرق هؤلاء يبدأون نفس الانسلاخ الذى بدأه معظم أسلاف قبائلنا العربية الإفريقية قبل عدة قرون قليلة ، وأن التحول غير الكامل فى الحالة الأخيرة هذه لم تذهب بعيداً جداً مع النوبا (١)**

أبدى السودانيون مقاومة ضئيلة لعملية التعريب الثقافى هذه ، ولكن برغم قبولهم لها بشكل كبير فإنهم غيروا تركيبتها إلى حد بعيد ، ولم يحافظوا فقط على العنصر السلالى السودانى الأصل ، وإنما على قوميتهم فى عاداتهم ، وفى حالة النوبيين والبجة على لغتهم .

ومن بين العرب المهاجرين حافظت قلة من القبائل البدوية ملاك الإبل على كلمة واحدة السلالى . لقد تحللت بشكل عام المؤسسات القبلية للسكان الأصليين وأجبر الشعب على تبنى النظام القبلى العربى برغم أن النظم الأهلية كانت ما تزال حية فى مملكة الفونج وفى دارفور ، وكان النظام القبلى العربى شاملاً تقريبًا فى زمن الغزو المصرى ، ولم يمارس الفونج الحكم المباشر ، لذا فإن التحالف الأسمى معهم لم يؤثر على السلطة القبلية ، وكان الالتحام بين القبائل متقلبًا لاعتماده على العوامل المتغيرة مثل الأحوال المناخية أو شخصية الشيخ أو ضعف الشيخ الذى يؤدى إلى تحول النقاط الحدودية أو علاقة المعاهدة أو أن تتولى السلطة قبيلة مغيرة مثل الشايقية .

وليس مدهشًا التبنى الشامل للغة العربية عندما نأخذ فى الاعتبار أن الفلاحين الأقباط المحافظين جداً كانوا قد تبنوها ، ولكن المدهش أن يحافظ النوبيون والبجة على لغتهم.

---

(١) J.W Crowfoot, "Further Notes on Pottery SNR. viii, 25.

٢- النوبة ودنقلا

بعد عام ١٣٦٦م عندما نهب بنو كنز أسوان ودفعوا الثمن غالياً ، فإنهم تمردوا مرة أخرى (١٣٨٥م) واستولوا على أسوان ، ولم تتدخل مصر فى شئون النوبة لفترة طويلة، وبقى بنو كنز فى موقف مستقل في أسوان والمنطقة الشمالية والجنوبية لها وكذلك منطقة صحراء عيزاب [١]

وفى عام ١٥١٧م هزم سليم الأول المماليك البرجية فى مصر ، وأصبحت الدولة خاضعة للعثمانيين وبسط جنرالاته حكمه جنوباً إلى الشلال الثالث حتى السكوت والمحس فى عام ١٥٢٠م وأقيمت حاميات فى أسوان وإبريم وصاى من المرتزقة، البوسنيين تحت قيادة مسئولين ذوى أصول تركية أو بوسنية يسمون « الكشاف». إن هؤلاء الشماليين الذين استقر معظمهم وتزواج مع النوبيين والذين يسميهم السودانيون بالغز (أوغز بالتركية) حكموا البلاد لمدة ثلاثمائة سنة ، ويدعى الكثير من النوبيين انحدارهم من هؤلاء الغز . ولم يكن للحكومة المركزية سيطرة فعلية مؤثرة على المناطق الواقعة فيما وراء أسوان عندما استولى مرة أخرى الهوارة البربر على مصر العليا فى القرن الثامن عشر ، وكان الغز، مستقلين تماماً عدا إرسالهم الى القاهرة الجزية المكونة من الرقيق والبلح الذى يجمعونه من النوبيين ، وصد بشدة الكاشف الثانى ابن جنبلان هجوماً للفونج (حوالى عام ١٥٢٠ - ١٥٣٠م) عند حنك لدرجة أنهم لم يغامروا فى النوبة مرة أخرى ، وفى زمن الفتح عام ١٨٢٠م كانت السلطة تحت أيدى ثلاثة كشاف إخوة سماهم بوركهارت « حكام النوبة » [٢]

وتجزأ النوبيون فى دنقلا إلى الجنوب من مجال الكاشف ، تحت حكم العديد من المكوك الصغار تحت سيادة الفونج ، أما فى الشمال فقد كانت السيادة للبربر تحت حكم الجوابرة [٣] الذين طردهم الغز إلى دنقلا ، ثم نجد الى الجنوب منهم مقام مكوك البديرية من تيتى حتى الشايقية التى تمركزت عند مروى .

وأصبح الدناقلة والجعليون هم التجار الرئيسيون وتجار الرقيق فى السودان ، ولم يكن طريق التجارة الرئيسى فى هذا الوقت عن طريق أسوان بل عن طريق شندى سواكن ، وكان يتم جلب الرقيق خاصة صغار السن من دارفرتيت ودار رونجا وشارى الأوسط وبلاد بنده داخل دارفور [٤] إلى أن فرغت هذه البلاد من سكانها بسبب لعبة الحصول السهل على البشر ، وقد تم الاستفادة من هذا المصدر لأن القبائل المقاتلة فى

---

(١) ينظر : القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الإنشا جـ٨ ص ٥-٨ خسربنو كنز اسوان فى عام ١٤١٢م واستولى عليها الهوارة البربر النين كانوا حلفاءهم عندما تم الاستيلاء على المدينة والذين أصبحوا القوة المسيطرة فى مصر العليا إلى أن هزمهم إبراهيم باشا فى عام ١٨١٣م ،

(٢) ينظر : شقير . تاريخ السودان وBurkhardt, Travels in Nubia, p.135.

(٣) أحد فروع الزناتية ، تسكن من الشلال الثالث حتى تيتى ، وكان مركز رئاستهم فى أرقو . ويقولون أن اسمهم جاء من جابر الأنصارى.

(٤) بوركهارت . مصدر سابق ص ٣٢٤

مستنقعات أعالى النيل ودار نوبا قاومت بشدة المغيرين . إن علاقة السودان الأبدية مع مصر عن طريق التجارة والتأثير الثقافى والدينى تضاءلت فى هذه الفترة إلى أن وصل للاشئ تقريباً .

٣- كونفدرالية سنار

أسس مملكة سنار المعروفة فى السودان بالسلطنة الزرقاء بعض المغيرين السود الذين يبدو أنهم تحالفوا مع السكان المحليين فى الجزيرة ، والذين يسميهم الفونج

« الهمج » ضد القبائل العربية ، ثم فازوا بالهيمنة والسطوة على الهمج والقبائل العربية ، ويبدو أن مصطلح الفونج مصطلح سياسى يعنى الأرستقراطية فى سنار والمراكز الأخرى ، ولا يتعلق بالضرورة بأى سلالة أو ثقافة ، وكان احتفاظهم بشكل مستديم بجيش من السود من أهم العوامل التى تثبت أن الفونج كانوا أقلية صغيرة مسيطرة . وقد اعترف عمارة دنقس (١٥٠٤ - ١٥٣٤م) أول ملوك الفونج بعبد الله جماع كأول نائب له على كل القبائل العربية فى وادى النيل ، وكان عبد الله هذا شيخًا على قسم صغير من رفاعة ، ومن المحتمل أنه ساعد بشكل جيد عمارة فى محاولاته الحصول على السيادة ، وقد أسس سلالة حاكمة تدعى العبدلاب حكمت من قرى . وكان الفونج ورعاياهم غير العرب وثنيين ، إلا أن عمارة انضم إلى الإسلام لأسباب سياسية [(١)] . وتقول الرواية إنه بعد أن غزا السلطان التركى سليم مصر فى عام ١٥١٧م أرسل حملة إلى النوبة لمساعدة بربر الغربية (١٥٢٠م)، كما أسس قواعد فى سواكن ومصوع مهدداً بذلك استقلال البجة والحبشة واستشعر عمارة الخطر ، وأن هذا الأمر يشكل تهديداً لملكته ، لذا بعث برسالة يقول فيها إذا كان سليم يفكر فى شن الجهاد ضده ، فإنه سيعلم أنه وشعبه عرب ومؤمنون حقيقيون ، ولإثبات ذلك قام بإرسال كتاب الأنساب الذى جمعه له السمرقندى - المسئول عن معظم أشجار الأنساب الزائفة والخيالية فى السودان - وذلك لإثبات أن الفونج ينتمون إلى بنى امية .

ولكن هذه قصة بعيدة الاحتمال ، إذ بعد أن استولى غُزْ سليم على النوبة مباشرة حتى الشلال الثالث ، فكر الفونج فى منازعة هذا الاستيلاء وأرسلوا حملة ضدها، وقدانهزم الفونج بشكل قاس لدرجة أنهم لم يحاولوا مرة أخرى أبداً مع الغز.

ويقول بروس " عند تأسيس هذا العرش كان الملك وكل شعب الشلك وثنيين ، ولكن سرعان ما تحولوا إلى الإسلام من أجل التجارة مع القاهرة واتخذوا اسم الفونج والتى يترجمونها فى بعض الأحيان إلى السادة أو الفاتحين ، وفى بعض الأحايين بالمواطنين الأحرار . [(٢)]

---

(١) شقير ، مصدر سابق . جـ، ص ٧٣ - ٧٤

(٢) بروس : مصدر سابق ص ٢٧١ - ٢٧٢

ومن الطبيعي بالنسبة لأى قبيلة إفريقية مغيرة أن تنضم للإسلام ، ومن ثم فإن رعاياها سرعان يتبعونها . وقد شجع الفونج رجال الدين من الجانب الآخر للبحر الأحمر لزيارة مملكتهم والإقامة فيها ، وكان هؤلاء الرجال هم المسئولون عن أسلمة القبائل النهرية وقبائل الجزيرة ، وكانت أحوال الجزيرة تحت حكم الفونج خليطًا حقيقيًا للوثنية الإفريقية مع العناصر العربية الإسلامية ، فقد كان هناك كجور النوبا فى بلاط سنار ، وعندما يكتب بروس عن « سيد القوم » . فإنه يقول :

ولد فى قرية فازوغلو وقد بدا لى أنه ما زال وثنيًا ؛ فقد كان يلازمه باستمرار رجال دين نوباويون . وهو مشعوذ وساحر قوى إذا آمنت به . وقد تحدث عن ذلك بحرية كبيرة . وعندما علمت أنهم يفهمون العربية عرفت منهم العديد من الأمور الخاصة بوضع الأجزاء الداخلية من البلاد خاصة مناطق جبال الداير وتقلى التى تقع فى قلب إفريقيا والتى يقولون أنهم أتوا منها فى الزمن القديم (١) .

ومن المحتمل أن الشعب كان يتحدث لغات متنوعة همجية – نوبية ، إذ يقول بروس إن العربية كانت لغة عامة فقط وسط الطبقة العليا ، وقد سيطر الفونج على منطقة واسعة إذ كانت فى زمن ازدهارها العظيم (فى عهد بادى الثانى أبو دقن ١٦٤٢ – ١٦٧٧م) تمتد من الشلال الثالث إلى فازوغلى على النيل الأزرق ، ومن البحر الأحمر حتى كردفان . وكانت هذه المملكة مكونة من شبكة كونفدرالية فضفاضة عن كونها دولة موحدة ، ولم تكن هناك سلطة مركزية ولامؤسسات مشتركة ، وكانت الأرض الواقعة بين النيلين هى فقط التى كانت تحت حكم سنار المباشر ؛ إذ احتفظ الفونج بالحكام الإقليميين كمكوك تابعين ، وسمحت بكل المؤسسات الأهلية بالاستمرار ، ويقول بروس أنهم

يجعلون أمير الإقليم الذى يقومون بغزوه نائبهم فى بلاده فيما بعد . هذا هو الحال بالنسبة لدنقلا التى استمر مكها فى منصبه وكذلك مع ود عجيب أمير العرب الذى هزموه ، كما كان الحال أيضا بالنسبة لفازغلو وودعبود وجبل مويا والدويلات الصغيرة الاخرى التى تم غزوها كلها ولم يغيروا أمراءها . (٢)

كما يخبرنا بروس أيضا أنه عندما غزا عبد القادر الأول مناطق جبال مويا وسقدى (حوالى عام ١٥٣٦م) أخذ الملوك المهزومين وجردهم من ألقابهم ، على أن يباعوا فى ساحة السوق كأرقاء ، ولكنه أعاد تأسيس سلطتهم وألزمهم بدفع جزية خفيفة ، واستمرت حياتهم الوثنية كما كانت من قبل ، وحدث الشئ نفسه عندما ضموا جبال تقلى والداير فى جبال النوبة فى نهاية القرن السابع عشر .

(١) نفسه : ص ٣٧٣ – ٣٧٤

(٢) نفسه : ص ٣٩١

ومارس حاكم سنار المطلق سلطته عن طريق الاحتفاظ بحق اختيار خلفائه التابعين من أسرته وابتزاز الجزيه ، ولكن الرباط كان واهيًا، وكان تابعوه كثيراً ما يرفضون دفع الجزية ، ومع ذلك فقط احتفظ على ملك سنار بشكل دائم بجيش ضخم من رقيق النوبا (١٤،٠٠٠ راجل و ١٨٠٠ حصان وذلك فى زمن بروس) ، وكان باستطاعته فى زمن ازدهار المملكة الاحتفاظ بسيادته العليا ، ففى عام ١٦١٠م مثلا تحرر حاكم العبد لاب ولكنه هزم وقام ملك الفونج بترشيح ابنه العجيل فى مكانه وقد منح الفونج هؤلاء الملوك التابعين لقب مانجل (أومانجلك) ، وبعد وفاة المانجل يأتى المرشحون إلى سنار ويعلنون خضوعهم ، وعندما يتم اختيار أحدهم يقوم الملك بتقليده بالككر أو كرسى الدولة والطاقية أم قرنين والعمة والسيف ، وفى بعض الاحيان سلسلة ذهبية [١] واختار العبدلاب سادة القبائل العربية شمالى أربجى [٢] شيوخهم التابعين وقلدهم الطاقية - ويقول شقير :

إذا مات لهؤلاء مك اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم مكًا عليهم وأتوابه إلى الشيخ عجيب فيحلق الشيخ له رأسه ويلبسه « طاقية » ذات قرنين محشوه قطنًا ويجلسه على كرسى « الككر »، ثم يخاطبه بلقب مك ويقول له « مبارك عليك » فيقبل الملك يده ويدعو له ، بخير فيأمر الشيخ بضرب النحاس إشهاراً لتأييده مكًا على أهله [٣] .

ومع ذلك فقد مارس الفونج سلطة مباشرة فى الجزيرة نفسها على كل القبائل بما فيهم العرب ، وكان هناك وزير وأقارب الملك لهم أيضا سلطات « الأرابيب » (جمع الأرباب) كما كان ساريًا أيام بروس القانون الذى كان ينص على أن الملك قد يعدمه رعاياه أو عبيده بمجلس يعقده كبار الضباط إذا قضوا بأنه ليس من مصلحة الدولة أن يستمر فى حكم الدولة أكثر من ذلك [٤] . وكانت مهمة « سيد القوم » تنفيذ قتل الملك .

وانتهت سيادة الفونج بتولى محمد أبو لكيلك السلطة (توفى عام ١٧٧٦م) ، وكان أبو لكيلك من الهمج ، وبمعنى آخر كان من إحدى المجموعات الأهلية التى هزمها الفونج ، وكان قد ساعد فى هزيمة الأحباش عام ١٧٤٤م وناصر الفونج بعد أن هزمهم

---

(١) ليس هذا رمزا خاصًا بالمانجلات فقط . لأنه غالبًا ما يمنح علامة للشرف . وكان يتم أحياناً تقليد الشيوخ الدينيين بالعمة والككر [الطبقات م ٧٩ - ٨٠، ١٤٣) ، وكانت الطاقية فقط عند تقليد حسن ود حسونه (م ٤٧)

(٢) كان العبد لاب الذين دعموا سلطته بجيش دائم من الفرسان قد فرضوا جزية رآها البدو أنها ثقلبه عليهم ، وكانت إحدى نتائجها هجرة القبائل الشرقية إلى داخل كردفان والأخرى استقرار البدو والذين صاهروا القبائل الحامية أو الحامية الزنجية الذين طوروا السلاله العربية ، ويبدو أن المعنيين « بالعرب » هم كل القبائل المتحدثه بالعربية شمال أربجى وكذلك النوبيون وربما قبائل البجة .

(٣) شقير . مصدر سابق. ص ١٠٠ - ١٠١.

(٤) بروس . مصدر سابق جـ ٥ ص ٣٧٢ - ٣٧٣ . وهى موازية لعادة مروى القديمة .
(Diodorus, BK.III, chap.vi) and Nilotic shilluk and Dinka (Saligman,Pagan Tribes, pp.90-2-197-8)

المسبعات في كردفان ، ومن ثم فقد تحولت تلك الهزيمة إلى نصر وعاد إلى سنار لإسقاط الملك بادى الرابع ، ونصب فى مكانه ملك دميه ، والتاريخ التالى لسيادة أبو لكيلك وتولى الوزراء المنصب بالوراثة هو واحد من الخصومات الداخلية التى أدت إلى الانحدار والحروب الأهلية واستسلامهم دون قتال عندما جاء الغزو التركى فى عام ١٨٢١م.

كان العبد لاب مستقلين تمامًا عن سنار بدءًا من ١٧٧٠م ، وكان مجال سيطرتهم محدودًا جدًا إذأصبح الشايقية مستقلين فى القرن الثامن عشر ، وسيطروا على الشمال حتى قدوم المماليك إلى دنقلا بعد مجزرة عام ١٨١١م ، كما لم يكن الفونج يسيطرون في عام ١٨٢٠م على أى منطقة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض والنيل ، ولم يكن لهم سوى مجرد سلطة اسمية على الضفة الشرقية للنيل - كانوا يسيطرون على الجزيرة حتى الحبشة وجنوبا حتى قرية العيس (الكوة) الشلكاوية على النيل الأبيض والشايقية قبيلة بدوية - من المحتمل ذات اصل بجاوى [(١)] - استوطنت البلاد الواقعة حول النيل من جبل ديقة (جنوب دنقلا) حتى الشلال الرابع - واشتهروا فى نهاية القرن السابع عشر وكانوا خاضعين لسيادة العبد لاب ، وتقول تقاليدهم [(٢)] أنه فى حوالى عام ١٦٩٠م بعد مجاعة « أم لحم » قام شيخ سايقى* يدعى عثمان ود حمد بهزيمة سيده وأخذ منه ضمانًا باستقلال الشايقى ، والواضح أنه فى منتصف القرن الثامن عشر كف الشايقية الذين كانوا يتحكمون فى مكوك النوبة فى الدمار ودنقلا والخندق وأرقى عن دفع الجزية إلى العبدلاب ، وهيمنوا عند نهاية القرن على وادى النيل من أرض الغز حتى الحلفاية بالقرب من مقرن النيلين ، ومن الواضح - رغم أنها قبيلة بدوية ومغيرة ، ورغم أنها اتخذت لنفسها معاقل فى بلادها حيث سكن زعماؤها - فإنهم لم يحكموا ، ولكنهم عاشوا على حساب القبائل النهرية ، وعاش وادى النيل كله فى رعب منهم ، وهم المسئولون عن تشريد آخر للجعليين الدناقلة ، كما عاش الشايقية فى حالة من التوتر المتبادل ، ولكنهم كانوا قادرين على تنمية مشاحناتهم الخاصة جانبًا والاتحاد ضد العدو المشترك . إن هذه القدرة على الوحدة بالإضافة إلى بسالتهم القتالية وضعف الممالك الأخرى مكنتهم من السيطرة على القبائل الأخرى .

---

(١) يقول ابن سليم (المقريزى . الخطط جـ١ ص ٣٠٩) عن امتداد النيل هذا في عام ٩٦٩م وفيها خلق من البجة يعرفون بالزنافج انتقلوا إلى النوبة قديما ، وقطنوا هناك وهم على حدتهم فى الرعى واللغة ولا يخالطون النوبة ولا يسكنون قراهم ، وعليهم وال من قبل النوبة ،،، وتنتهى كل نهايات أسماء قبائل الشايقية باللاصقة البجاوية آب ، ويقال أيضا أنه يجرى فى دماء الشايقية بعض من الدم الشركسى .

(٢) ينظر سيرة العسر بن عبد الرحمن فى الطبقات و Nicholls, The shai kya,pp. lo-14 وما كمايكل . مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ -٣٠٤ - ٣٠٥ يقول ود ضيف الله فى الطبقات إن اسمه « حمد ولد عثمان » الطبقات مصدر سابق [المترجم] .

وتعرضت سلطتهم للتحدى فى الشمال مع بداية القرن التاسع عشر عندما استقر فى دنقلا المماليك الفارون من مجازر محمد على فى عام ١٨١١م ، وقام المماليك بطرد الشايقية خارج مراغة حصنهم وحموا الدناقلة ، وعاش المماليك والشايقية فى حالة من العداء المشترك إلى أن بدأ محمد على غزوه للسودان عام ١٨٢٠م، عندها هرب المماليك جنديا واختفوا من التاريخ . واتحد الشايقية لمقاومة الغازى وحاربوا ببسالة ، ولكنهم لكونهم مسلحين بالرماح والحراب انهزموا أمام المصريين المسلحين تسليحاً جيداً ، وتكبدوا خسائر فادحة ، ولأنهم لم يكونوا قادرين على البقاء كمزارعين ، فإنهم انضموا إلى الجيش جنوداً غير نظاميين وخدموا سادتهم بإخلاص .

٤- دارفور ودخولها الإسلام

تتكون دار فور من هضبة سهوبا واسعة تفصلها تلال مرتفعة فى وسطها جبل مرة ، والعناصر الأثنية الرئيسية عناصر زنجية وحامية ، وفى تاريخ مجهول قبل القرن الثانى عشر جاء الداجو - وهم سلالة من السود - من الشرق وسيطروا على وسط دارفور وأسسوا حكومة ملكية (١)، وفيما بعد فى القرن الرابع عشر بدأت الهجرة إلى هناك بعض البربر أو النوبيون التنجرة (٢) ،فإذا كانوا بربرا فربما حركهم ضغط بنو هلال فى شمال إفريقيا ، وفاز التنجر تدريجياً بالسلطة وسيطروا على السود ، ولكن سرعان ما بدأوا يفقدون شخصيتهم بالتزواج من السود وجاءت النتيجة سلالة بدائية . إن الداجو والتنجر الذين فى دمهم أيضا بعض الدماء العربة يسمون بالفور ويوجد منهم فى الوقت الحاضر القليل مشتتين فى قرى التنجر .

بسط التنجر سيادتهم على وداى فى الغرب ، وشكلوا حاجزا ضد التوسع الإسلامى إلى داخل هذه المناطق ، وكان تاريخ حكم التنجر غامضاً تماما حتى القرن الخامس عشر عندما قام بطرد حاكم التنجر شاو دورشيد أخوه غير الشقيق دالى او دليل بحر الذى كان ذا دماء فوراوية ، وأسس الأسرة الفوراوية الحاكمة المسماه كيرا (٣) ولا يزال هذا الرجل مشهوراً بسبب القانون الذى وضعه للبلاد (كتاب - دالى)الذى أصبح الأساس لقانون البلاد تحت حكم الأسرة الذى استمر حتى عام ١٩١٦م.

---

(١) افترض نسبة للصلاة اللغوية بين الداجو وشعوب جبال كادوقلى بأنهم أتوا من دار نوبا ، نوقشت مشكلة الداجو فى SNR. VIII, 59,VX151FF ، ولم يتم امتصاص كل الداجو ، إذ يقطن فى دارفور عدد منهم .

(٢) يقول ما كما يكل ، مصدر سابق ص٦١ . ١٦٩ أنه يستشف من تقاليدهم أنهم قبيلة نوباوية قديمة لما قبل قدوم العرب ، وبإمكان المرء أن يستدل - من التقاليد الموجودة الآن وسطهم - على أنهم كانوا مسيحيين فى زمن هجرتهم من الغرب ، وتتعلق العادات المشار إليها برسم علامة الصليب فى مختلف المراسم ، ومع ذلك فإن موتيفة الصليب شائعة بشكل كبير خارج المسيحية .

(٣) استمر التنجر فى السلطة فى وادى حتى عام ١٦٣٥م عندما قام عبد الكريم الجامع بإسقاط الملك داود ويعد عبدالكريم مؤسس الأسرة الإسلامية الحاكمة فى البلاد بالتعاون مع الحلفاء العرب .

وبالرغم من أن الإسلام دخل البلاد مع التنجر، فإن أحمد المَقُرْ الذى كان من أوائل الحكام المسلمين لم يكن له أى تأثير بالمرة على حياة البلاد التى عبد شعبها الحجارة والأشجار ، وكان سليمان سولونج (١٥٩٦ - ١٦١٦م) أول حاكم فوراوى يعتنق الاسلام وهو الذى غزا السهول ولحم القبائل معاً فى وحدة سياسية واحدة وأسس الأسرة الحاكمة من التورا [١] التى بسطت سلطتها على كردفان ، وكانت أهم علاقة بارزة فى القرن الثامن عشر هى افتتاح خط الآبار من الفاشر حتى جبال كاجا شرقاً. وسهلت هذه الآبار التجارة مع الشرق بشكل كبير ، وهكذا أصبحت دارفور أكثر اتصالا بالمراكز الإسلامية ، وبذا بدأت عملية الأسلمة ، وجلب سليمان الفقرا من الشرق لتعليم الاسلام [٢]، وتسارعت العملية مع أحمد بكر حفيد سليمان الذى حاول إدخال بعض الإجراءات المدنية إلى البلاد وذلك بجعلها أكثر تكيفًا للدولة الإسلامية . وفى حقيقة الأمر فقد بقيت الدولة بنفس الشكل حتى عام ١٩١٦م ، كما كوّن علاقات مع عناصر من السكان الأجانب من البجيرمى والبورنو ، وشجع التجارة وشيد المساجد والمدارس وأدخل الأسلحة النارية ، ثم بدأ الشعب تدريجيًا فى تبنى الاسلام عندما أصبح على اتصال بالعالم العريض عن طريق التجار والفقرا ، وبينما تبنوا الممارسات الظاهرية للإسلام فإن الجذور الاجتماعية لحياتهم الوثنية بقيت حتى اليوم أرواحية الى حد بعيد .

وكانت الروابط الخارجية لدارفور دائما مع مجموعة وداى - بورنو بدلًا من كونها مع الشرق وسرعان مافقدوا كردفان بعد وفاة سليمان وأصبحت مرة أخرى تحت حكم الفور عندما قام السلطان ود احمد بكر (١٧٦٨ - ١٧٨٧م) بالسيطرة عليها وبقيت تحت سيطرتها حتى الفتح المصرى . لن نقوم هنا بأية محاولة للبحث فى تاريخ مملكة دارفور المكون من مجموعة من المنازعات التنافسية للاستيلاء على العرش وصراعات داخلية ومعارك مع وداى . [٣]

واستمرت دارفور سلطة مسيطرة فى الغرب حتى فتح محمد على وقيام محمد بك الدفتر دار باختراق البلاد فى عام ١٨٢٠م ، وقد لقى مقاومة ضد قواته أجبرته على

(١) تقع التورا بين ماراوسى ، وأصبحت الفاشر العاصمة فى عهد عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٥ - ١٧٩٩م)

(٢) يكتب السير ما كما يكل ،، زرت فى عام ١٩٠٦م التورا فى جبل مرة مقر مملكة الفور القديمة،وكذلك مكان دفن السلاطين منذ عهد سليمان سولونج ، وقد وجدت أنه قد أقيم هنا مستعمرة صغيرة للجوامعة « فقرا » الذين ادعوا انحدارهم منذ أجيال مضت من جدهم الأعلى إدريس الذى كان قد أحضره سليمان سولونج من النهر منذ ستة أجيال مضت ، وذلك من اجل خاطر الدين ، وهم منذ ذلك الحين حراس على المقابر الملكية دائمة المسجد المحلى ،، (Hist. I.189).

(٣) ويعطى التونسى Voyage au Darfour(1845) سرداً قيماً عن عادات سكان دارفور والنظام السياسى تحت السلطنة .

الانسحاب ، وفكر سلاطين دارفور عندئذ فى حماية استقلالهم بالعيش ببلادهم فى عزلة مانعين أى شخص أبيض بالدخول إلى بلادهم ودافعين بعض الجزية إلى القسطنطينية ، ولكن عندما سنحت الفرصة قامت الحكومة المصرية بمتابعة فتحها لكردفان وتغلغل الزبير باشا من بحر الغزال إلى داخل دارفور بأوامر من الحكومة المصرية وبدعم من إسماعيل باشا فى مصر ، وقتل فى عام ١٨٧٤م السلطان إبراهيم فى معركة مع الزبير باشا وتم نهب الفاشر وتولى المصريون الحكم ، حتى استسلم سلاطين إلى المهديين فى عام ١٨٨٣م ، واستمر الموالون للعرش محافظين على أنفسهم فى أجزاء من البلاد لا يمكن الوصول إليهم فيها ، وأصبحت دارفور مرة أخرى - قبل معركة من أم درمان - تحت حكم سلطان وطنى هو على دينار زكريا .

٥- التركية

كان التأثير المصرى على السودان قد اختفى تقريبًا بعد الغزو التركي للنوبة فى عام ١٥١٨م ولكن طموحات محمد على الاستعمارية أحيت ذلك النفوذ مرة أخرى ، تلك الطموحات التى بدلت أقدار الشعوب السودانية .

كان السودان - قبل الفتح المصرى - مقسمًا إلى عدد من المشيخات التى يحكمها المكوك - حكام إمبراطورية الفونج - غنيمة سهلة لأى غازٍ يفكر فى ضمها. لقد كانت الأسباب الرئيسية لفتح محمد على للسودان أسبابًا اقتصادية . لقد فكر بأن السودان يوفر الفائض السكانى اللازم لاصطيادهم رقيقًا وعلى أمل أن تكون غنية بالثروة المعدنية . لقد كان فى حاجة لتجنيد الرقيق فى جيشه والمال لحروبه الكثيرة ، كما كان فى حاجة لمخرج لجيشه الكبير العاطل وتم فى البداية ضم دنقلا (١٨٢٠م) وتم غزو البلاد بجيشين : الأول بقيادة ابنه اسماعيل الذى سار بمحاذاة الضفة الشرقية للنيل حتى سنار محاربًا فى طريقه الشايقية والجعليين ، أما الآخر فبقيادة محمد بك الدفتردار الذى سلك طريقه داخل صحراء بيوضة إلى كردفان حيث هزم المسبعات . لقد كان الاحتلال سهلاً ، ولم تواجههم سوى مقاومة ضئيلة وأريق القليل من الدماء فى قتال فعلى بالرغم من أن الابتزازات والأخذ بالثأر التى نفذتها الجيوش فيما بعد كان مقززًا للنفس بشكل كبير .

وفى التاريخ الذى توفى فيه محمد على (١٨٤٩م) امتدت سلطة مصرجنوبيًا حتى كدوك ، بينما ضمت المناطق الشرقية كل أراضى البجة - منطقتى كسلا وطوكر- على الحدود الحبشية ، ولقد تم تنظيم البلاد بغرض الاستغلال فقط ، ولم يتم وضع إدارة مباشرة وأصبحت الخرطوم العاصمة الجديدة (١٨٣٠م) سوقًا مركزية لتجارة الرقيق الواسعة ، واندفع المغيرون لاصطياد العاج والرقيق إلى ما وراء الإقليم الذى تحتله مصر . وأسسوا مراكز جديدة فى الجنوب ، واستاء السكان ، وقام الخديوى سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) بإصدار مراسيم بالغاء الرق ، وقام موظفوه بإبطال مفعول المراسيم ، وبدءًا من عام ١٨٦٠م تمركز قناصة الرقيق - خاصة من الخرطوميين

وأساساً الدناقلة والجعليين – في سلسلة من المحطات على طول الأنهار،وتزايدت بدرجة أدت إلى خراب الجنوب ، وكتب السير صمويل بيكر فى عام ١٨٧٢م عن الجنوب قائلا :

من المستحيل وصف التغير الذى حدث منذ أول زيارة قمت بها لهذا الإقليم ، لقد كان عند ذاك حديقة غناء ذات كثافة سكانية وتنتج كل ما يرغب فيه الإنسان، وكانت القرى كثيرة وبساتين من النباتات فوق المنحدرات على ضفة النهر ، وكان المواطنون يرتدون ملابس نظيفة . لقد تغير المشهد ! فالاقليم كله قفر ، لقد هرب السكان ولا قرية ترى . هذه هى النتيجة المؤكدة لاستيطان تجار الخرطوم . لقد خطفوا النساء والأطفال لاسترقاقهم ونهبوا ودمروا كل مكان وضعوا فيه أقدامهم (١).

وأصبح تجار الرقيق من أمثال الزبير باشا حكامًا ، كما عين الخديوى حكامًا أوربيين بالاستوائية (بيكر ١٨٧٠ – ١٨٧٣م) ، وغردون (١٨٧٤ – ١٨٧٩م) لاختبار صلابتهم ولمحاولة تطبيق القرارات الرسمية لمنع الرقيق ، وكان التلطيف الفعلى مؤقتاً ، ولكن جاء عمل غردون كميلاد جديد للشعوب المعذبة ، فاتحاً آمالهم لإمكانية رؤية أشياء أفضل رغم عدم معرفتهم كيف يحصلون عليها .

لقد كانت الإدارة المصرية فاسدة حتى النخاع . فعند خلع الخديوى إسماعيل فى عام ١٨٧٩م كانت ممتلكاته فى السودان الواسع فى حالة مذرية تمامًا بسبب سوء الإدارة والاستغلال . لقد أعطى الكثير من الرحالة صورة محبطة للحكم المصرى فى السودان ، صورة عن الشعب الذى حكم بالقوة وشلته الضرائب الثقيلة وبانتشار مناطق الذباب وبدمار المديريات وبتحطيم الجماعات القبلية الوثنية والهجمات المباغتة بشكل مستمر وفرارهم وهجرتهم وتمزيق الروابط الأسرية .

لقد كان السبب الأساسى لهذاالوضع هو أن كل الاقتصاد والرفاهية الاجتماعية للسودان – وبدرجة أكبر بالنسبة لمصر – جاء من الاعتماد على الرق ، لقد كانت البلاد عديمة القيمة لمصر ، على الرغم من طموحات محمد على فيما عدا تجارة الرق ، لذا فقد ارتكز عليها الحكم المصرى . إن مثل هذا النظام القائم على الطمع لم يكن يهتم أبدا برفاهية الشعب . إن الشعوب المعذبة التى تربت على تقاليد الإيمان بالقضاء والقدر تقبلت الأمر الجديد بشكل سلبى . إن الدين وحده قد يمنح الدافع لتركيز كل هذه المشاعر المحجوبة لأن تصبح تعبيراً فعالًا عن المشاعر ، ولكن الوقت متاح الآن حيث وفر الدين أخيراً الحافز الضرورى الذى صمم للرد على هذه الأحوال السياسية والاجتماعية .

---

(١) مقتبسة من : The Life of Gordon by D.C. Boulger, p.142

٦- المهدية

كان هذا هو الوضع في عام ١٨٨١م في ساحة القتال ، إذ بدأ في حقيقة الأمر لبعض الوقت أنه توحيد للسلالات السودانية المتنوعة للقيام بهجوم مضاد لاكتساح ممثلي السلطة المصرية – العثمانية خارج البلاد .

لقد كان الدنقلاوى محمد أحمد (١٨٤٣ – ١٨٨٥م) ابن صانع المراكب رمزًا وقائدًا لهذه الثورة التي ستؤسس السلطة الدينية . لقد كانت لديه خلوة لتعليم الصبية في بربر وكررى ، ثم رحل إلى الخرطوم حيث أخذ الطريقة على الشيخ محمد شريف خليفة السمانية (في عام ١٨٦١م) ، وعلى خليفة الإدريسية في قرى ، وسرعان ما حقق له حماسه وورعه الاعتراف ، وبعد سبع سنوات من الزهد عين شيخًا معلمًا للسمانية وراية خاصة وسلطة في قبول الآخرين في الطريقة ، وسرعان ما اعتزل بعد ذلك (١٨٧١م) في الجزيرة أبا على النيل الأبيض حيث بنى خلوة ، وبدأ في جمع التلاميذ حوله ، وكان من بينهم علي ودحلو الذي سيصبح خليفته الثاني .

وكان ساخطًا من انهماك زعماء الدين – مثل الخليفة شريف – في الأمور الدنيوية وأدت صراحته إلى شجار بينه وبين أستاذه الذي قام بطرده من الطريقة [(١)] ،مما جعله يتصل بمنافسه الشيخ القرشي شيخ الطريقة السمانية بالمسلمية والذي أخذ الطريقة من الشيخ الطيب مؤسس الطريقة ، وعند وفاة الشيخ القرشي خلفه محمد أحمد(١٨٨٠م) .

وكان محمد أحمد – لعلاقته الوثيقة بالشعب ونتيجة لتنقلاته الكثيرة لنشر دعوته – حزينًا لمعاناتهم ، وكان مدركًا أن تعصبهم الديني الكامن ينتظر فقط قدوم المخلص، ومعرضًا نفسه للتقشف الديني ومحولاً العيش خارج العالم في أرض الأحلام الصوفية الخيالي والانجذاب الصوفي ، ولكن عالم الواقع كان يضغط عليه ويزعجه إلى أن جاءه الإلهام فجأة بأنه المهدي المنتظر ، ولقد كان هذا الإلهام مؤسسًا بلا شك علي الخبرة الدينية التي آمن بها بصدق برغم أنه كان عليه أن يكابد مصير معظم المصلحين الدينيين ، وأن تصوراته اختلطت بالأفكار السياسية والاجتماعية ، وكان عليه أن يمارس الخدعة المدروسة ويستخدم الوسائل الحقيرة .

وبدأ وهو مقتنع بدعوته في مارس ١٨٨١م في إدخال الآخرين سرًا في نشاطه التبشيري وتقيدهم بولاءٍ واحد يرتفع فوق كل الروابط القبلية وهو الولاء لله عن طريقه وبالجهاد ضد الترك الكفار، لتطهير العالم من الظلم والفساد، وضم إليه في مرحلة مبكرة بعض زعماء البقارة وذلك بأخذ البيعة منهم ، وكان من بينهم عبد الله التعايشي

(١) قال محمد شريف لنعوم شقير (تاريخ السودان جـ٣ ص ١١٦ – ١١٨) إن الطرد سببه أن محمد احمد أسر إليه دعواه في عام ١٨٧٨م ورغب في أن يكون محمد شريف وزيراً ، وقد رفض محمد شريف إدعاءاته ، وعقد مجلساً في أبا حضره النظار والقضاة في محاولة لإقناعه والرجوع عن خطئه ، ولكنه رفض التخلي عن معتقده ، وقام محمد شريف بطرده من الطريقة ، وينكر أتباع المهدى هذه القصة .

الذى أصبح خليفته [١] ، وأخبر محمد شريف رءوف باشا - الحاكم العام - بما يحدث، ولم يهتم رءوف باشا فى البداية بالأمر ، ولكن عندما أعلن محمد أحمد نفسه علنًا مهديًا (أغسطس ١٨٨١م) تم إرسال حملة صغيرة ضده فى أبا ، وبعد أن هزم هذه الحملة هاجر إلى جبل قدير فى كردفان وجعله مركزًا لنشر دعايته ، ومنه بعث برسله حاملين الرسائل والبيانات التى تعلن قدوم المهدى وبدء طريقة عالمية جديدة ، وقد أسس تصوراته على لقاءاته مع النبى الخضر وجبريل والأقطاب وتدفقت الاستدعاءات « بالهجرة » للانضمام إلى راياته والقسم بالولاء .

ونحن لا نعنى بسرد تفصيلى لنجاحات المهدى وفشل الإجراءات الحكومية ضده بسبب سوء فهمهم للقوة الدافعة للتمرد وطبيعتها التى أصبحت ثورة شاملة بسبب نجاحاته ، وسقطت الأبيض فى عام ١٨٨٣م وأبيد جيش هكس ، وقررت الحكومة البريطانية ، التخلى عن السودان ، وأرسلت الجنرال غردون لتنفيذ المهمة المستحيلة فى شكلها المزدوج : انسحاب الحامية وترك شكل من أشكال الحكومة المنظمة [٢] ، وطلب غردون إرسال الزبير باشا تاجر الرقيق القديم الذى كان منفيًا فى مصر إلى السودان لإعادة تنظيم الحكومة، وعندما رفض طلبه قرر أن ينفذ الأمر بنفسه على أمل أن تقوم الحكومة المصرية بإرسال حملة ، وحاصر المهدى الخرطوم وقتل غردون فى ٢٦ يناير ١٨٨٥م .

وشرع المهدى بعد سقوط الخرطوم فى تنظيم سلطته ، ولكنه لم يعش طويلاً بعد مقتل غردون ؛ إذ توفى فى يونيو من العام نفسه وخلفه عبد الله التعايشى بالبيان الذى أصدره المهدى والذى ينتهى بـ :

... إن الخليفة عبد الله هو قائد المسلمين وخليفتنا النائب عنا فى جميع أمور الدين ، وإياكم والوسوسة فى حقه ، وأطيعوا أوامره وصدقوه فى قوله وأعطوه كل ثقتكم وإيمانكم فى كل شئونكم . كان الله معكم . آمين [٣]

وكان الخليفة رجلًا قوى الشخصية واستعد لتنفيذ البرنامج الدينى - السياسى للمهدى ، ولم يكن باستطاعته تحقيق ذلك ما لم يحافظ على وحدة المهدية بأن يركز فى يده القوات القبلية شديدة اليقظة والبعيدة عن المركز والتى ترجح هذه الوحدة الضرورية للإخلاص والتوجيه ، وعزم على مهاجمة مصر إلا أن التمرد الداخلى فى دارفور وكردفان حال دون ذلك حتى عام ١٨٨٩م عندما انهزمت حملته فى توشكى

---

(١) يقال ان عبد الله ألح على الزبير باشا أن يعلن نفسه مهدياً (سلاطين . السيف والنار ص ١٢٧ - شقير . مصدر سابق ص ٧١ - ٧٢) ويقول كاتب فى المقتطف (xxiv 1905) أنه هو الذى حرض محمد أحمد ليعلن نفسه .

(٢) ينظر الفصول ٦ . ٧ فى B.M.Allen, Gordon and the Sudan بخصوص مناقشة تعليمات غردون

(٣) نعوم شقير . مصدر سابق جـ٣ ص ١٧٢

وأنهت أحلامه فى فتح العالم ، وكان عليه لتعزيز وتقوية حكمه أن يسحق القبائل النهرية – الدناقلة والجعليين وقبائل الجزيرة الذين أصبحوا فيما بعد أتباع المهدى الأساسيين . ولإقناع قبيلته وقبائل البقارة الأخرين قام برشوتهم وإجبارهم على الهجرة إلى أم درمان حيث بدأوا فى دعم أنفسهم – لعدم وجود قطعانهم معهم – بنهب الآخرين . إن هذا الزرع الصناعى للبدو داخل أراضى السكان المستقرين كان عملاً طفيلياً أقلق كل البنية الاجتماعية ، وكانت العلامة البارزة لبداية النهاية للمهدية ، وتم طرد أمراء المهدى عدا عثمان دقنه الذى جمع حوله الولاء الشخصى للعديد من الهدندوة ، وهكذا بدأت سنوات الطغيان والقمع التى تركت أثراً لا يمحى فى عقول السودانيين ، وعانت البلاد كلها بشكل قاس من القهر والحروب المستمرة وتوابعهما الأمراض والمجاعات ، التى أهلكت كل القبائل وأصبح جزءاً كبيراً من البلاد خالياً من المزروعات .

وتبنت الحكومة البريطانية بعد سقوط الخرطوم سياسة مؤقتة بعدم التصادم مع السودان ، ولكن تم التخلى عن هذه السياسة فى عام ١٨٩٦م ، وكانت الأسباب التالية أسباباً مساعدة : (١) المخاوف من خطط فرنسا فى الجنوب . (٢) انتهاء التدريبات البريطانية للجيش المصرى . (٣) تصاعد الروح الاستعمارية (٤) المناشدات من السفير الإيطالى بتخفيف الضغط على القوات الايطالية فى إريتريا . (٥) الرغبة فى إرضاء روح المثالية مكافأة لموت غردون ، وذلك بتخليص البلاد من الطغيان . وبدأ إعادة الفتح فى عام ١٨٩٦م وانتهى فى عام ١٨٩٨م بمعركة أم درمان وموت الخليفة فى السنة التالية ، وتم بالتالى البدء فى وضع سياسى جديد هو السودان الإنجليزى – المصرى.

٧– السودان الإنجليزى – المصرى

لسنا بحاجة لذكر الكثير عن الماضى والتقدم المادى للسودان تحت الحكم البريطانى الذى قد يكون متناسباً مع المرحلة التاريخية التى – برغم تفردها – قد تكون مرحلة انتقالية [(١)] ،وقد لا تسلم بريطانيا السودان بعد الفتح إلى الحكم المصرى بسبب ماضى سجل الحكم المصرى السيئ ، ولن تستولى عليه بنفسها بسبب احتمال التعقيدات الدولية والمصالح المصرية الخاصة فى مياه النيل ، ومن ثم لإرضاء المطالب وضمان حكومة سودانية جديدة تم خلق الحكم الثنائى من بريطانيا ومصر ، وكان هذا أكثر قليلاً من رابطة سياسة ، وأخذت بريطانيا بحق الفتح من الحس السودانى بعدم الثقة فى المصريين بالعبء الإدارى الأكبر ، وشكلت حكومة سودانية ذات حكم ذاتى متحررة من تدخل وزارة الخارجية البريطانية أو الحكومة المصرية ، وما زال هذا الحكم الذاتى قائماً، وقد تقرر بمعاهدة ١٩٣٦م التى تنص « يجب أن يكون الهدف الأساسى

(١) يمكن الرجوع إلى السير هـ.أ ماكمايكل The Anglo-Egyptian Sudan(1934)
والكتيب الفابى The Sudan : The Poad Ahead (1945)

لإدارتهما فى السودان هو خير السودانيين » وسمح لمصر طبقا للمعاهدة بالاحتفاظ بقوة عسكرية فى السودان ، وأصبح الآن دورها الحقيقى فى السودان الحديث – عن طريق علاقتها السياسية – تعزيز الثقافة الإسلامية ، إذ لا يرغب السودانيون فى أن يحكمهم المصريون .

كان الوضع البريطانى القائم بالفعل كحاكم للسودان هو الوصاية على الشعب السودانى الذى لم يكن قادراً على حكم نفسه ، وقدمت بريطانيا بضمير ما اقتنعت أنه فى صالحهم ، وقد تضمن ذلك وحدة المسلمين فى الشمال وتدريب السودانيين على الإسهام التدريجى فى الإدارة وتعزيز تطورهم نحو الاشتراك الفعلى فى الحكم ، وتغيرت البلاد تحت الإدارة البريطانية بشكل كبير ، وتحول العداء إلى الثقة والفقر إلى الكفاية والاضطهاد إلى الحرية . أما بالنسبة للفروق العرقية الواسعة والمؤسسات القبلية فى البلاد فتم الاحتفاظ بأمن داخلى بشكل مدهش، وتم فى الحال منع الغارات لاصطياد الرقيق ، كما خمدت تقريبا الحروب بين القبائل ، وتم ضم دارفور فى عام ١٩١٦م بعد قمع تمرد السلطان على دينار الذى كانت حكومة السودان قد اعترفت به بعد معركة أم درمان سلطاناً مستقلاً وقيامه بدفع جزية سنوية ، ومع ذلك فلم يتم أبداً استيعاب المديرية داخل بنية السودان الشرقى ، وتم تأسيس النظم الإدارية والقضائية والتعليمية واستبدال « الحكم غير المباشر » بـ « الحكم المباشر » بالإداريين السابقين ، كما تم منح البدو عن طريق النظام القبلى مشاركة متزايدة فى إدارة شئونهم ، ومنحت الإدارة المحلية مهام إدارية فى المناطق الريفية والحضرية ، وأصبحت الآن الأغلبية الكبيرة من الموظفين الكتابيين فى الحكومة من السودانيين (٧٩٪ فى نهاية عام ١٩٤٦م)، كما أصبح هناك تطور اقتصادى ومادى يعتمد على الموارد الضئيلة للبلاد ، وبسبب الإجراءات التى تم اتخاذها لتشجيع المزارعين وتجارب المحاصيل ونظم الرى توسعت الرقعة الزاعية بشكل كبير ، وزادت السلع الغذائية واختفى الخوف من المجاعة ، كما ارتفع عدد السكان من حوالى ٢ مليون نسمة عام ١٩٠٠م إلى حوالى ٥ .٦مليون نسمة عام ١٩٤٥م، ونمت المدن وعمرت القرى وأعيد تشكيل القبائل البدوية ، كما تحسنت صحة المواطن عن طريق تعزيز الصحة العامة والبحوث الدوائية .

ونجحت فى المقام الأول سياسة الوصاية بسبب نوعية مجموعة الموظفين البريطانيين الذين أثبتوا روحاً عالية للمسئولية والإخلاص ، واكتسبوا روح الجماعة الذى وضعهم على مستوى أعظم الإنجازات التاريخية فى حكم الطبقة الحاكمة الأجنبية ، وثانيا : خلو السودان من المشاكل السياسية الداخلية المعقدة واستيطان الرجل الأبيض ، كما تضمنت سياسة الوصاية خلال سنوات الحرب الاتجاه نحو سياسة المشاركة والسير نحو الحكم الذاتى النهائى ، كما تم تشكيل المجلس الاستشارى للسودان الشمالى فى عام ١٩٤٤م ، وبينما يقدم الآن اسهاماً بسيطاً للسودانيين فى الإدارة المركزية فإنه قد

وفر الأساس الممتاز للتطور نحو تعاون محكم بين ممثلى الحكم الثنائى والزعماء السودانيين فى الرعاية المشتركة للدولة والشعب. (١)

٨- انتشار الإسلام فى السودان

بعد أن نشر الاندفاع الأول للفتح الإسلامى الجيوش العربية فوق ساحل البحر المتوسط خمدت طاقته وتوقف تقدمه إلى داخل إفريقيا فى الشرق بالمملكة النوبية، وفى الغرب بالإسبان وعصيان البربر وصراعات الأمراء المغاربة ، كما أن القبائل الوثنية القوية مثل القرعان البدو فى تبستى أوقفوا تقدمه ، وأخفق عقبه بن نافع فى غاراته الاستكشافية فى اكتشاف منطقة الساڤانا الغنية فى وسط السودان ، وبدأت المرحلة الثانية للفتح فى إفريقيا فى القرن الحادى عشر مع الازدياد المفاجئ لقبائل بنى هلال وبنى سليم البدوية فى الشرق ودخول البربر فى الاسلام وفتوحات المرابطين فى السنغال مما أدى إلى أن يصبح كل شمال افريقيا والصحراء تحت الحكم الاسلامى، ولجأت القبائل المحاربة إلى الإسلام بسهولة لأنه – مع عقيدة الجهاد – كان وسيلة للهيمنة والسيادة .لقد تحركت هذه القبائل المحاربة جنوباً وغزت وتصاهرت مع الوثنيين ، وأدى هذا إلى ظهور الممالك الإفريقية المولدة القوية فى السودان الغربى مثل سنغى وبورنو ومالى. (٢)

وانتشر الاسلام فى السودان الشرقى كما رأينا فى القرن الرابع عشر عندما سقطت مملكة مقرة المسيحية وتركت معظم مناطقها الشمالية والوسطى مفتوحة أمام تغلغل المسلمين ، لذا فقد التقى التياران – تغلغل التجار من النوبة حتى وصلوا نيجيريا –، بينما انتشرت دعاية البربر والسودان الغربى نحو الشرق ، وارتبطت بورنو وداى بدارفور وكردفان .إن القبائل الغربية فعلت الكثير لنشر الإسلام فى إفريقيا اكثر مما فعلته القبائل الشرقية ، وقد اتصل التيار الشرقى بالغربى ولكنه لم يتعد جنوب سنار . وبعد أن أسلمت ممالك دنقلا وعلوة توقف أى تقدم إضافى نحوالجنوب

(١) تم بعد كتابة هذا الجزء اتخاذ خطوة إضافية نحو الحكم الذاتى . كما أعلن الحاكم العام أمام المجلس الاستشارى وضع خطة مدتها عشرون عاماً لإعداد السودانيين لتولى المناصب الحكومية العليا ، وسيتم تطوير التعليم لتأهيل السودانيين لتولى المناصب العليا فى أقرب فرصة ممكنة (The times, 30-5-1945) وعقد العزم على تشكيل مجلس تنفيذى من ١٢ عضواً ، ستة سودانيين سيتم اختيارهم من أعضاء المجلس التشريعى الذى سيكون به أغلبية الاعضاء المنتخبين .

(٢) كان للنفوذ الشرقى على وسط السودان فى القرن السابع أثر كبير لأن «الإسلام انتشر من مصر إلى كانم – المملكة الواقعة شمال وشمال شرق بحيرة تشاد التى نهضت بعد اعتناق الإسلام بقليل لتصبح دولة ذات أهمية معتبرة وبسطت سيطرتها على قبائل السودان الشرقى حتى حدود مصر والنوبة ، ويقال إن أول ملك مسلم لكانم كان يحكم البلاد عند نهاية القرن الحادى عشر أو بداية القرن الثانى عشر . ,Becker)
Geschichte des östlichen Sudan, pp.169-3)
اقتبسها T.W.Arnold, preaching of Islam, p.320
وتم فى القرن الخامس عشر انتقال عاصمة مملكة كانم إلى بورنو غربى بحيرة تشاد .

الشرقى بسبب رسوخ المسيحية الإثيوبية أو نحو الجنوب بسبب مصاعب اختراق منطقة السدود والمقاومة الحاسمة من قبل القبائل النيلية .

قلنا إن القبائل العربية التي سيطرت على السودان الشرقى لم يحركها الحماس الديني ، ولكن دوافع التجول بحثاً عن المرعى وروح الطمع والرغبة فى الهروب من حكم المماليك . إن القبائل البدوية التى نادراً ما تكون متعصبة ومجردة من الحماس التبشيرى لم تقم بأى محاولة عند دخولها فى الدين الجديد . لقد كان انتشار الإسلام أساساً عن طريق التغلغل والمصاهرة والسياسة الاستراتيجية للزعماء الفائزين وقادة المجموعات (التى تشمل الإجراءات القسرية) والتجارة والاستيلاء على الرقيق ، وكما فى الأيام الأولى للفتوحات الاسلامية فإن اعتناق الاسلام ربط التحول بالنظام القبلى العربى كتابع.

إن حكاية ابن سليم التى أعطتنا صورة عن بعثة إسلامية منهمكة في العمل تثبت أنه كان هناك بعض النشاط التبشيرى المباشر وسط الوثنيين في القرن الخامس عشر، ويروى ابن سليم محادثته في بلاط مقرة مع وثنى من بلاد تبعد عن النيل مسافة ثلاثة أشهر ، وعندما سأله عن دينه أجاب :

ربى وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد . وأنه قال له فأين يكون ، قال فى السماء وحده، وقال إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ودعوا الله فيجابون للوقت وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا، وسأله هل أرسل فيكم رسول ، قال لا ، فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وما أبدوا من المعجزات ، فقال إذا كانوا فعلوا فقد صدقوا. (١)

وللإسلام خاصية الاستمرارية برغم التفاوت الكبير فى الشدة ، ويجب التأكيد على أن الأشخاص الذين نشروا الإسلام في إفريقيا كانوا دائما أفارقة وحاميين فى الأساس ، وكانت معظم الممالك السودانية الإسلامية (وداى وبورنو ودارفور وتقلى) قد أسسها بعض الفقرا الحاميين المتحدثين بالعربية الذين قدموا لنشر التجارة والإسلام . لقد كان إسلاماً إفريقياً فى إفريقيا.

لقد كان إسلام الفونج والعرب البدو إسلاماً اسمياً ، وأعلن الفونج إسلامهم لدواعى سياسية برغم أنهم دعوا « الأولياء » من الخارج ورحبوا بهم ، ولم يكن الدناقلة والقبائل الشمالية تعرف من الإسلام سوى الشهادة ، إلى أن أسس فى القرن الرابع عشر شيخ وكابى يدعى غلام الله بن عايد - كان والده قد جاء من اليمن - مركزاً لتعليم القرآن في دنقلا التى كانت عند قدومه قد غرقت فى الجهل بسبب عدم وجود رجال متعلمين (٢) ،وقد طور المركز أبناء جابر الأربعة الذين أسسوا - فى القرن السادس عشر - الخلاوى فى بلاد الشايقية وحققوا نفوذاً معتبراً .

-(١) المقريزى . مصدر سابق جـ١ ص ٣١٢

* فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر (ينظر الطبقات) المترجم

(٢) Mac Mchael's M.S.D..5(d) History,ii-342

وفي مملكة الفونج ذاتها كان أول مصلح هو محمد العركي الذى قدم من مصر واستقر على النيل الأبيض ، والأمر المثير هو أن معظم الأجانب الذين أثروا بشكل كبير على الحياة الدينية في السودان الشرقي كانوا من الحجاز، كما ذهب إلى الأراضي المقدسة للحج العديد من السودانيين الذين تم تعيينهم عند عودتهم فقرا [(١)] .إن نشاط هؤلاء الفقرا من مراكز زواياهم - رغم جهلهم - أثار النشاط التبشيري الداخلي الذى أدى إلى إحياء الإسلام في النوبة وسنار، وكذلك اعتناق البجة والقبائل الزنجية الوثنية للإسلام تلك القبائل التى كانت متحدة مع الفونج كونفدراليًا ، وسافر بعض الفقرا لمسافة أبعد حتى وصلوا إلى وسط السودان [(٢)] ،ومع ذلك فلم يكن نفوذ هؤلاء المبشرين قويًا للتأثير على الشلك على طول النيل الأبيض ، وعلى الأغلبية من نوبا كردفان والإنقسنا وبورنو والخمة جنوبي الفونج ، وكلها ما تزال وثنية .

كما كان هناك عامل آخر مهم في نشر الإسلام خلال حكم الفونج وهو هجرة مجموعات من المحس واستيطانهم على النيل الأزرق في توتي والحلفاية والعيلفون وكترنج والكاملين وأماكن عديدة أخرى ، وهؤلاء المحس الذين يدعون أنهم عرب أنصار سرعان ما تبنوا اللغة العربية والتدريس التقليدى للتشريع ووراثة الصوفية وأسسوا أسراً من الفقرا تقوم بعمل المعجزات . وقد أثروا بعمق علي الحياة القبلية للسكان في اتحاد الفونج الكونفدرالي ، وكانت أهم نتائج التأثير الحجازي هو إدخال الطرق الدينية القادرية والشاذلية التى كانت تعاليمها الصوفية آنذاك في حالة غير كاملة ولكنها مبسطة . ولم تكن هذه الطرق مركزية عندما تكونت في السودان ، وكانت السلطة الدينية كلها متمركزة في يد مختلف الشيوخ . وهكذا أصبح الإسلام السوداني « سامياً » بالمعنى الحرفي للكلمة بالإضافة إلى المعنى المجازي ، وأصبحت الزاوية نواة الحضارة الاسلامية الجنينية في البيئة الوثنية ، لذا فقد أصبحت عبادة الولي أقوى تأثير ديني في السودان ، وتطورت سيرة الأولياء لدرجة تفوق فيها الأولياء السودانيون علي أعظم الشخصيات المبجلة في الإسلام ، واتحدت الطقوس الوثنية والعادات الاجتماعية مع الحرية المطلقة ، وبقي الشعب أرواحيًا تحت التقاليد الاسلامية لمدة طويلة ، وظلت أسلمة الشعوب التى خارج نفوذ الفونج ساكنة حتى بعد الفتح المصري [(٣)] .

---

(١) شجع بعض ملوك الفونج الفقرا للذهاب إلى الحج، وذلك بدفع نفقات سفرهم (ينظر رواية المضوى في الطبقات م ٢٠ - ٢١)

(٢) من أمثال محمد بن عدلان الذى ذهب إلى بورنو وأرض الهوسا ، وأبى سرور الفضلي شيخ إدريس وأبى زيد اللذين عملا في دارفور والبرقو.

(٣) عندما كان بروس في عام ١٧٧٢م يتحدث عن العرب « كمتعصبين قليلي الاحتمال » قال عن السود في سنار أنهم « لا يهتمون إلا قليلاً بتفاصيل الدين المحمدى الذى يعتنقونه من أجل الحرية الشخصية والأفضليات في التجارة فحسب ، وكانوا وثنيين في قلوبهم وممارستهم ومسلمين في محادثتهم فقط ، أما أبناؤهم فهم وثنيون كآبائهم ما لم يبذل بعض الفقرا والأولياء العرب جهداً عظيماً لتعليمهم وتدريسهم القراءة ، وإلا فإن كل دينهم يتألف من الاعتراف بالدين » بروس مصدر سابق ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

ودائما ما كانت دار فور مرتبطة أكثر مع وسط السودان من ارتباطها مع الشرق، وكانت كما رأينا - منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر - تحت سيطرة التنجر الوثنيين الذين حكموا أيضاً وداى ، وقد دخلت الاسلام تدريجياً وجزئياً تحت الأسرة الحاكمة التى أسسها سليمان سولونج فى عام ١٥٩٦م والتى قام أحد سلاطينها ، وهو السلطان تيراب بفتح كردفان فى القرن الثامن عشر ، وحول إلى الإسلام قبيلة نوباوية تدعى كولداجى . ومع ذلك فلم تتطور أى مدارس تعليمية فى دارفور ، مثل تلك التى كانت موجودة على النيل فى الشرق وفى تمبكتو وكانو وكاتسينا فى الغرب ، وكان دين الشعب لمدة طويلة مجرد أسلمه وثنية اسمية .

ويعود التقدم الكبير للإسلام فى وسط إفريقيا إلى بداية القرن التاسع عشر ، ويرجع ذلك جزئياً لتجديد نشاط الدراويش المناضلين مع عبادتهم للأولياء ، ولكن يعود أساساً إلى الفتح الفعلى وإخضاع الوثنيين مثل هيمنة الفولانى فى نيجيريا ، كما كانت الأسباب الأخرى هى نشاط التجار المسلمين الذين كانوا دائماً عرباً - حاميين أو زنوجاً حاميين يعملون بحرية تامة دون أى تنافس ، كما ساعد فى بعض الأحيان فى ظهور المهدى ، وكانت أهم العوامل هى المميزات الاجتماعية التى تحققت للأفارقة وذلك بالانتماء إلى النظام الاجتماعى الإسلامى ، مع التحرر من أى تحيز لونى وامتياز الأخوة والوعى بالانتماء إلى نظام اجتماعى رفيع .

وكانت اليقظة التبشيرية الفعلية ثمرة أحداث من خارج افريقيا ، نشوء الوهابية ، تجديد يقظة الطرق الصوفية ، كما تعود التأثيرات المباشرة للسودان الشرقى أساساً الى رجل واحد هو ابن إدريس الذى أرسل من مكة فى أوائل القرن التاسع عشر البعثات التبشيرية . وقد أسس هؤلاء المبشرون طرقهم فى السودان ، ولم يؤثر انتشارهم على الحياة الدينية السودانية فحسب ، وإنما على انتشارها إلى بعض المناطق الوثنية . وكان للطرق تأثير كبير جداً على الهداية ، إذ كانوا فى بعض الاحيان مبشرين نشطين خاصة أثناء الفترة المبكرة جدا للفتح ، إلا أن إسهامهم الحقيقى كان فى تسهيل استيعاب الأفارقة للدين الإسلامى .

وقد حدثت هذه اليقظة خلال الحكم المصرى ، وسارت الهداية جنباً إلى جنب مع الفتح وشن الهجوم على البلاد ، وحمل النوبيون بصفة خاصة عبء العمل التبشيرى كملحق لتجارة الرقيق فى كل أنحاء السودان الوثنى ، ويكتب بام الذى تجول فى كردفان عام ١٨٣٧ - ١٨٣٩م :

> **وجدت عدداً كبيراً من الفقرا وسط النناقلة ، المحافظين الأكثر تشدداً للدين المحمدى ، وكان الاستثناء الوحيد هو أنهم مغرمون « بالبراندى » ولا يعملون بالزراعة وهم تجار وسماسرة ... إلخ وأغلبيتهم منافقون ، ومن الأفضل بالطبع تجنبهم تماماً. (١)**

(١) Pallme, travels in Kordofan, 1844,p.186.

وليس كل مسلم مبشراً ، ولكن فى إفريقيا – شريطه ألا يتضمن خطراً شخصياً – يتجه التبشير نحو إدخال الوثنيين فى الإسلام لأن يكون عملاً طبيعياً لأن الإسلام يعزز النشاطات التجارية، أما التأثير الأفضل من تأثير التجارة فهو تأثير الفقرا التابعين للطرق لأن هؤلاء يشكلون مراكز عبادة للمسلمين فى وسط السكان الوثنيين ، يحصلون على الترحيب أولًا ككتبة للأحجبة ومعلمين يربطون الشعب – عن طريق اللغة العربية – بالحياة الجديدة العريضة .

ويشير بالم إلى مبشر فذ هو الشيخ بدوى الذى التقى به فى الأبيض بقوله :

> إنه رجل تقى ومحبوب ويتمتع برأي جيد عن كل الناس ، ويفض المنازعات ويقدم النصائح الودود لكل من يأتى إليه طالبًا النصح ، ولا يعرف التفرقة ويتلقى الهدايا دون طلب ... وهو مسلم متشدد فيما يتعلق بالدين ويدافع عن آرائه وإيمانه بحماس كبير . ولم أسمعه أبدا يتحدث بازدراء عن المسيحية أوأى دين آخر ، كما يفعل الدراويش عادة ... وباختصار إنه مبشر محمدى استطاع هداية الآلاف وسط الزنوج الهمج ، لأنه يتجول معظم السنة فى الجبال مكرسًا نفسه لنشر الإسلام ، كما يدافع عن إيمانه طبقا لرسالة القرآن حتي أنه فقد ابنًا له فى معركة من أجل قضية عادلة ، ويخافه الفقرا ويراعون عدم المزاح بالقرب منه ، وهو يحتقرهم بشكل تام (١)

ويبدى الشيخ بدوى هذا العطف الكبير على السكان المضطهدين تحت الحكم التركى المصرى ، وهو يقول للمصريين « تسمون أنفسكم مسلمين والله وحده يعلم الحقيقة ، أما بالنسبة لى فإنكم المضطهدون لبلادى » ، وحاول محمد على أخذه ولكنه ابتعد عن طريقه فى جبال النوبة .

ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق والتجنيد فى الجيش من أهم العوامل فى نشر الإسلام ،إذ بتدمير مراكز الحياة الوثنية اتجه السكان الوثنيون نحو التراجع، وتم امتصاص العوامل القبلية داخل الاسلام ، وتسبب النخاسون فى الجنوب الغربى لبحر الغزال فى التفسخ القبلى التام ، وأصبحت مختلف جماعات الفرتيت مسلمة. ومن المدهش أن الحركة الوهابية المجاورة لم تؤثر فى السودان فيما يتعلق بتوجيه وإصلاح المعتقدات والجهاد .

وتلقى العمل التبشيرى دفعة جديدة أيام المهدى ، واستمر تحطيم الوحدات الثقافية الزنجية ، ولكن القبائل النيلية قاومت بشدة مناشدات المهدية وبقيت الأعداد الكبيرة من

---

(١) بالم . مصدر سابق ص ١٨٩ – ١٩٠

(٢) Peney, Revve d'Ethnographie, i.492

الشعب جنوب خط العرض ١٠ْ على حالتها الوثنية، ونتيجة لهذا الظلم الذى استمر لثلاثة أرباع القرن ، وبسبب التجارة والمرض والمجاعة والحرب هلك جزء كبير من العديد من القبائل مثل البارى والمتو (١) ،أما القبائل الأخرى التى تسكن فى الداخل مثل الدينكا والنوير فقد كانت فى مأمن بطبيعة أرضهم ، كما كانت ممالك الزاندى قوية جداً ولا يمكن مهاجمتها ، بينما القبائل الأخرى مثل الشلك ، اذ لم يتم قهرهم ابداً تم إخضاعها فى النهاية ، وهم مع النوبا والآخرين مثل النيامنج حافظوا على هويتهم ، إذ لم يتم قهرهم أبداً.

ورغم أن كل الأحوال كانت فى صالحه ، فإن الاسلام لم ينتشر بالسرعة التى كانت متوقعة له خلال الفترات المصرية والمهدية ، وعلى عكس التأثير الذى كان فى صالحه علينا أن نبرز وحشية الفتح المصرى وحكم الخليفة ، والقسوة اللاإنسانية لتجارة الرقيق وغدر النخاسين المسلمين فى نشر الأمراض التناسلية ومصاعب اختراق منطقة السدود والمقاومة الطبيعية للقبائل الزنجية للإسلام ؛ لأن الأرواحية محافظة جداً ، ولعب الإسلام دوراً مخرباً بالمؤسسات الوثنية ، كما كان على الشريعة فى إفريقيا مرة أخرى أن تكون أقل صرامة فى التعامل مع الوثنيين ، ويجب ألا يجبر الناس على الدخول فى الإسلام بالقوة ، لذلك فطبقاً للشريعة الإسلامية لا يمكن أن يباع المسلم عبداً . وبالرغم من أن هذا لن يكون ذا أهمية بالنسبة للمصريين فإنه قد ساعد على إعاقة النشاطات الخاصة بالهداية وسط القبائل التى لم تشن ضدها الغارات ، ولم يتم بالطبع وضع أى اعتبارات لهذا الأمر أثناء المهدية التى حاول قادتها تحقيق رسالة الشريعة حينما كانت قواتهم قوية بما فيه الكفاية . وعندما ضعفت قوات المهدية ارتدت عن الإسلام تلك الشعوب الوثنية التى أجبرت على الدخول فيه.

وأعاقت هذه الأسباب الإسلام بشكل كبير فى السودان الشرقى على عكس الانتشار السريع فى الغرب خلال الفترة ذاتها (٢) ، ولم يفعل الإسلام أى شئ ليؤثر على القبائل النيلية والقبائل الأخرى فى شرق السودان . لقد كان الانتشار بطيئاً بسبب الفتح وتجارة الرقيق ، واستمر تقدم الإسلام بين الوثنيين بطيئاً جداً بسبب الاحتلال البريطانى ؛ لأن الممثلين كانوا تجاراً وفقرا وموظفين وطنيين ، وسيتم مناقشة هذا التقدم بشكل أكثر تفصيلاً فى الفصل التالى.

---

(١) يكتب لورد كرومر (Modern Egypt, p.889) أنه [قبل عام ١٨٨١م كانت المنطقة الواقعة على طول ضفاف نهر الرهد والدندر تحتوى على اكثر من ٨٠٠ قرية ، وعندما زار السيد ريجنالد ونجت هذه المنطقة فى عام ١٩٠٢م لم تكن هناك أى قرية باقية]

(٢) يجب أن نذكر أنه فى السودان الغربى أيضا فإن الحروب واضطهاد الفاتحين من أمثال الحاج عمر وساموري بالإضافة إلى النشاطات التيجانية المولعة بالحرب تسببت فى بغض الإسلام الذى يمثل بالنسبة لهم شكلاً من أشكال الحركة القومية . ينظر ارنولد . مصدر سابق ص ٣٢٣

-٤-

الإسلام القويم

١- تمهيد : خصائص الإسلام السوداني

إن هدفنا هو محاولة فهم دين السوداني المسلم ، فالقادم حديثاً إلى السودان والذى كان قد قرأ بعض الكتب المدرسية عن الإسلام يميل لأن يفترض جدلاً أن دين الشعب هو القرآن والشريعة ، كما أن أبرز شئ يراه الإنسان عادة هو المسجد مما يجعله يفشل فى فهم أن المسجد ليس هو المركز والرمز الوحيد والمهم بالنسبة لهم . إن الرمز الأكثر أهمية للإيمان والذى ينتشر فى أماكن عدة بالسودان وبوفرة كبيرة أكثر من المسجد هى قبة الولى البيضاء ويمكن اعتبار أحدهما رمزاً للنظام ، واعتبار الآخر رمزاً للإيمان الحي ، وبناء عليه فلا نحتاج لنعرف النظام أكثر كما هو ضروري لفهم الإيمان.

وقبل أن نتحول إلى الخصائص الجوهرية للإسلام السودانى هناك بعض الملاحظات المهمة الضرورية. فدراسة الإسلام فى أى منطقة ليست مسألة جدولة معتقداته الأساسية وممارساته وتفكيره ،حيث نجد روح الإسلام فى حياة المسلم، بل على العكس من ذلك أن نفهم ما هو الإسلام الحقيقى فى حياة المسلم ؟ وما هي المتطلبات التى يحددها فى الممارسة فضلاً عن النظرية ، ثم نرى كيف شكل المنهج شخصية الإنسان وعكف على ما يؤلف بالفعل فهمه لله والإنسان ، وتشكل دراسة الإسلام النظرى بالنسبة لنا مرحلة ثانوية لدراسة ما الذى يخلفه الآن فى حياة البشر وخبرتهم.

وتبدو العقيدة الإسلامية بسيطة جداً على السطح لدرجة أن المرء لا يتوقع أن يجد أى انحراف كبير للتطور الإقليمى ، ولكن فى الحقيقة فالإسلام ليس عقيدة بقدر ما هو نظام اجتماعى كائن حي يساوى كل الأعراق وجميع مناحى الحياة التى صاغت وكيفت نفسها فى كل مكان طبقاً للظروف المحلية .

كان النشوء والتطور التاريخى للنظام الإسلامى غامضاً من خلال التلون الاكليركى للتقاليد الإسلامية . والقارئ لكتاب مدرسى تمهيدى يمكن أن يخرج بإنطباع بأن محمداً - نبى بلاد العرب - ترجع إليه كل التقاليد التى تمت صياغتها، وفى الحقيقة فإن العنصر الإقليمى الوحيد فى الاسلام هو النبى محمد نفسه ، الذى ربط نفسه بالتقليد النبوئى لليهودية والمسيحية ، وأعلن نفسه نبى العرب ، وأصبح زعيما سياسياً ناجحاً فى الجزيرة العربية . وليس هذا كل شئ . إن ظهوره والوحدة السياسية التى فرضها هو وخلفاؤه على الجزيرة العربية تطابق مع القوى التى تسببت فى هجرة سامية جديدة فى القرن السابع . إن تلك الهجرة وهى تنشر جماعات البدو البرابرة المحاربين مع عقيدتها الموحدة لصيحة الحرب على مصر وسوريا البيزنطيتين وعلى

الإمبراطورية الساسانية درست - إلى جانب النظم الإدارية والاقتصادية للدول المفتوحة - الكثير من وجهة نظرهم وديانتهم وثقافتهم على الحياة . إن المهاجرين العرب القليلين عدداً والأدنى ثقافة من الدول التى فتحوها أتوا بشئ جديد وحيوى : القوة الدافعة للوحدة التى بدونها ما كان باستطاعة الهجرة الجماعية تلك أن تنجح أبدا . لقد كان هذا هو العامل النبوئى الأصيل لمحمد الذى تجسد فى القرآن وأساس عمله الناجح فى دمج الدين والدولة . إن هذاالعامل الفردى الذى أعطى الإسلام هذه الصفة التى يمكن تمييزها امتصته جماهير المهتدين كعامل حيوى داخل حضارتهم الهيلينية - الشرقية ، وأصبحت بسرعة عامل توحيد بالنسبة لهم ، وقد أعطى هؤلاء المهتدون من جهة أخرى العقيدة النبوية الجديدة - الإسلام - الاستشراف العالمى الذى غرس الدين داخل كل شئ فى الحياة . مفهوم حياة غريبة للعربى البدوى غيرالمبالى دينيًا فى القرن السابع كما هو اليوم [1] ،لذا فقد أصبح الإسلام هو النظام الذى وفق بين المعتقدات الدينية المتعارضة، وأصبح اليوم واضح المعالم مختلفًا عن مفهوم محمد والحضارة الشرقية التى امتصتها. لقد نشأ شئ جديد فى واقع الأمر من تفاعلاتهم وتركيبتهم .

إن دين الشعوب المسلمة فى كل مكان ملئ بالعادات غير الإسلامية والخرافات التى امتصتها ، ولكن هذه العادات أضعفت بالتأكيد تماسكه الدينى - الاجتماعى، وهوكنظام له قوة داخلية غير عادية لاستيعاب العوامل الأجنبية التى أغنت مفاهيمه الأصلية الساذجة ، كما يحتفظ فى الوقت ذاته بإرادته الداخلية للقوة والوحدة العنصرية والاستشراف الكونى .

> **يظهر تطوره العقائدى سمة الأفكار الهيلينية ويكشف تصنيفه القضائى تأثير القانون الرومانى ، كما يظهر تنظيمه السياسى . فى عهد الخلافة العباسية استخدم الأفكار السياسية الفارسية وتصوفه المخصص للأفكار الشائعة البطلمية الجديدة والهندوسية ، ولكن الإسلام يثبت فى كل مجال من هذه المجالات قابليته للاستيعاب العضوى ولإعادة صياغة العوامل الأجنبية التى لا تظهر إلا عند التحليل النقدى . [2]**

يشير هذا الاقتباس إلى استيعاب الإسلام لعناصر النظم ذات التطور الرفيع ، ولكن علينا ان نخطو خطوة أبعد . ماذا عن اتصاله المباشر أولًا مع تلك التطورات الخاصة بالإيمان بالخرافة الذى يشكل أساس كل هذه النظم الشرقية ، وثانيا مع الأرواحية الخالصة فى بلاد العرب وإفريقيا والمناطق الأرواحية الأخرى؟ هذا كله - الدين الحقيقى لناس - شريطة ألا يؤثرفى جوهر تفرد الإسلام . قد تم امتصاصه

---

(١) يجب أن يكون مفهوماً بوضوح أن انتشار الدين الاسلامى يجب ألا يتساوى مع انتشار السيطرة السياسية الإسلامية ، إذ إن ذلك النظام لم يكن موجوداً عندئذ ، وكان الإسلام فى فترة الحكم الأموى ديناً قبلياً تقريبًا للأقليمية الحاكمة ، وبدأ النظام فى التطور تحت الحكم العباسى ، ووصل إلى تطوره الكامل عند سقوطه فى عام ١٢٧٣م

(٢) Goldziher, Le Dogme et Loi d'Islam, pp.2-3

أيضـا ، وكـان العـامل المهم الذى سـاعدنا لفـهم القـوة التى يمارسـهـا الإسـلام على الجماهير . أما بالنسبة للنظام الاسلامى ، بغض النظر عن هذه العوامل التى لا تغنى عنها للمحافظة مع خاصيته الوطنية وأسلوب حياته ، وبينما تتعلم كل الشعوب المسلمة تبجيل الشريعة كقانون إلهى ورمز للنظام ، فإن حياتهم حكمتها عاداتهم النظرية وقانونهم العرفى . إن هذا الاستيعاب المتبادل كان معناه أن الإسلام قد أصبح عمليًا فطريًا فى كل بلد انتشر فيه . إن الآية القرانية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » (البقرة . الآية ١٤٣) تشرح موقع الاسلام فى المجالات الدينية والثقافية والجغرافية .

إن العاملين – تملك التفرد الشخصى البارز وتكافل النظام الإجتماعى الواسع – معًا مع السلطة واستطاعتها فى أن تصبح فطرية باستيعاب أو إعادة تنضيد عناصر الثقافات الأخرى يفسر قوة الإسلام الضخمة وتماسك قبضته على الموالين له . وأهم مفتاح لفهم المسلمين الذين برزوا من هذا هو أن دينهم وحياتهم الاجتماعية تشكلان الفطرة السليمة ، ويؤكد المسلمون بشكل صارم على المظهر الخارجى للإسلام ولايضعون أية أهمية على المطالب الأخلاقية . ولهم قانون دينى – اجتماعى للسلوك يمكن تحقيقه ، وهم لا يعيشون – كما يفعل المسيحيون – فى حالة توتر شعورى بأن حياتهم غير كافية لمستوى دينهم ، لذافهم لا يعانون من أى توتر . إن حياتهم الدينية كلها مسألة سلوك وانسجام . إن العادات الاجتماعية رغم وثنيتها فى الأصل تستخدم كلها العقوبات الدينية والإسلامية ولا أحد يعى تمامًا وبشكل واضح ما هى العناصر الدينية والإسلامية وماهى الاجتماعية والوثنية المتطابقة مع الإسلام دون أى تضمين منطقى ، ونتيجة ذلك هى أن الإسلام نظام معقد بشكل كبير ، ولكنه ثانوى فى قوته الدافعة ضمنيًا.

دعنا نتحول الآن إلى دين السودانيين . لقد كانت عملية الاستيعاب فى السودان متقدمة مع خلوها من عيوب العملية الطبيعية التى كانت من جهة تحولاً للثقافة الإسلامية – التى فيها العوامل الدينية أقل حسمًا من النظام – وكانت من جهة أخرى عملية امتصاص العناصر الدينية الثقافية الأرواحية المحلية وإلباسها الأشكال والصياغات الإسلامية ، وتوجهها نحو الاستشراف العالمى ، لذا فقد حدثت بشكل بطئ عملية استيعاب متبادلة ، إذ كانت العناصر الأرواحية تتشبث بعناد شديد خلال الامتصاص داخل النظام الإسلامى .

وقد ساعدت عوامل عدة على أن تصبح هذه العملية سهلة جداً . لقد بينا أنه قد شارك فى هذا البلد الذى كان فى وقت ما « مسيحيًا » الجهل الإيمانى وإهمال الكهنوت والاعتقادات الأرواحية وعبادة القديسين التى أسهمت كلها – بعد سقوط الدولة – فى جعل البلاد فريسة سهلة للإسلام . لقد جاء الإسلام إلى أرض غير متحضرة حيث لم يسهم أى شئ داخلى فى مساعدة رغبات الشعب للارتقاء لمستويات أعلى .

لقد كان الإسلام نفسه يحمل فى داخله شكلًا من أشكال التأمل اللاعقلانى المملوء بالخرافة وسير الأولياء عندما قام الفقرا بتدريسه لأول مرة فى مملكة الفونج . لقد

تدرب هؤلاء الرجال بشكل لا يمكن تصوره على المذهب المالكى الذى قصد من جهة فى ألا يكون للإسلام القويم تأثير على الحياة ، ومن جهة أخرى تأثر بشكل عميق بالصوفية لطرق الدراويش ، وهكذا فقد كان لهؤلاء الرجال – وسط شعب ليست لديه أى خلفية ثقافية – السلطة الكاملة لقيادته نحو الخرافات التى تؤمن بها الجماهير ودمجها فى شخصيتهم (الفقرا) . إن الاحوال السياسية المضطربة للبلاد وبعدها عن أى اتصال مع المراكز الاسلامية الأخرى عدا الحجاز ، تلك المراكز التى كانت بدورها راكدة فى تلك الفترة لم تؤد إلى تطور مدارس تعليمية /أو ثقافية محلية تضع حداً للتطرف ، وهكذا كان الإسلام الذى تطور بهذه الطريقة قد تشرب بشكل قوى بالنزاعات الإفريقية التى كانت عواملها المميزة عاطفية أو خرافية .

كما وفر السودان أرضاً خصبة لتطور الإيمان بالآخرة الذى كان سائداً فى البلاد الإسلامية ، والذى شكل اتجاها ثوريا خفيا – سيتفجر عندما تتاح له ظروف سياسية واقتصادية معينة – فى حريق هائل للتعصب المهدى آخذين فى الاعتبار كل هذا الاستيعاب ، علينا أن نتذكر أنه بسبب كون النظام الإجتماعى الثيوقراطى يطوق كل الحياة فإننا سنتجنب الخطأ فى تسمية المسلم الأرواحى فى السودان الشمالى بالحيوى ، ولكن مع المظهر الخارجى للإسلام سنفترض أن حياته الداخلية لم تتأثر بالإسلام . هذا أمر حقيقى مع بعض المجموعات القبلية مثل المجموعات الزنجية فى دارفور ودارفونج . إن الحاميين أو زنوج شمال السودان الذين تعربوا هم مسلمون حقيقيون لا شبهة فى ذلك ، وهم فخورون بدينهم ، ومقتنعون بتفوقهم على الآخرين ومتعلقون بدينهم بإخلاص متقد . إن التنافر الذى يبدو فيه السودانى المسلم العادى هووضع ظاهرى وغير حقيقى . إن وجهة نظره عن الحياة وجهة نظر إسلامية حقيقية وليست أرواحية ، إذ إن الإسلام يربى فى الموالين له استشرافا عالميا غريبا على الأرواحية .

وبينما الشريعة لكونها القانون الإلهى تكبح هذه المعتقدات الدينية المتعارضة – وعلى الرغم من الاحترام الظاهرى للقرآن والدفاع عنه – فإن التقاليد والطقوس والواجبات الإجبارية هى التى لها السلطة الفعلية على قلوب الناس وليس الإسلام القويم . إن المفهوم الراشد للعلاقة بين الله والإنسان هى فكرة مجردة للحقائق من مكانها فى الحياة التى يتعامل معها الإنسان وحده، ومن الطبيعى جداً أن تتغلغل الطبقة التحتية للسحر والخرافة داخل النظم العاطفية للتقوى ، وفى عبادة الأولياء لتزويد الشعب بالوسطاء بينهم وبين الله ، وهكذا تمنحهم الدين الحى . إن الصورة الواضحة لحياتهم الدينية – وسنوضح أن تلك الحياة الحافلة التى تم التقيد فيها من خلال الإخلاص المتقد لشخصية دينية تملك البركة – قد تكون شخصية حية أو ميتة ولكنها دائما ما تكون مثالية . إن الإخلاص للأولياء هو موقف سحرى لا يتضمن أبداً تحولاً للقلب ، ولكن مجرد انتقال للسلطة .

لقد أعطينا مؤشراً بالمكان الحقيقى الذى يكون فيه الإيمان عندما نلاحظ إلى من يتحول الناس فى أوقات الضيق والشدة والخطر ، وسنجد أن السودانيين يضعون إيمانهم فى الأولياء والممارسات الخرافية ، ولا يضعونها فى العقيدة التي يعترفون بها .

إن الحياة بالنسبة للسودانيين محدودة وفقيرة بشكل مفرط ، كما أن هذا الاشتياق للاستفادة من وسائل تدبيرها قوية جداً لدرجة أننا لا نعجب فى أن نرى ما لعبادة الأولياء والخرافة والسحر من سيطرة . إن رب الإسلام القويم ممجد جداً ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق الأولياء الذين يعملون كوسطاء إليه . إن النظام - الإسلام - أعاد تكييف المعتقدات الشعبية وصاغها داخل نمط حياته ، وهكذا فقد أكد علي استقرارها واستمرارها ، ومن المحتمل أنه افترض أن الجماهير الزراعية لن تكون متأثرة بشكل قوى بالغرب لدرجة تفقدهم إيمانهم به ، وهناك شئ واحد يجب أن يقال وهو أنه بينما الحياة الدينية للجماهير هى شئ من العبادة لمجهول ، وبينما هي توليفة بدائية مادية وإخلاص متقد له مفاهيم خلاصية حقيقية فى اخلاصهم المثير للشفقة للأولياء وفى انجذابهم الصوفى عند الذكر واشتياقهم المتألق العميق من خلاله وجلب الاستنارة للحياة المقيدة فى الأرض القاسية .

يجب أن نضع فى الاعتبار ونحن نشرح دين السودان ، ليس فقط الاختلافات العرقية ، بل أيضا الحقيقة التى يمكن ملاحظتها ، وهى أن كل مجموعة تطبع بطابعها ما تكتسبه - فى المجال الدينى كما فى أى مجال آخر - بطريقتها الخاصة للإحساس والفهم ، وذلك طبقا لاستعدادها لاستيعابه، وبالطبع يجب أن تكون هناك تنوعات بين الطابع الإسلامى الذى يمارسه سكان مختلف الأقاليم والأعراق والمجموعات الحرفية فى السودان الواسع وغير الموحد . إن انصهار العرب والحاميين فى الشمال والعرب والزنوج فى وسط السودان قد أدى إلى وجود عدد لامتناه من الخرافات المحلية المتنوعة، ويزيد هذا الأمر من صعوبة وصف الدين الحى للأهالى والتجمعات السكانية التالية التى يجب أن نذكرها رغم أننا لن ندرسها طبقًا للإقليم :

١- المستقرون فى المناطق النهرية : (أ) النوبيون المتحدثون بالرطانة

(ب) الجعليون - الدناقلة المتحدثون باللغة العربية .

٢- المستقرون فى المناطق المطرية : الجزيرة وكردفان و....الخ

٣- البدو الرعاة : (أ) العرب : ١- أهل الأبل ٢- البقارة (ب) - البجة

٤- الزنوج (أ) منطقة الفونج (ب) مديرية دارفور .

وسنشير إلى الأنماط الرئيسة للحياة الدينية التى سنجدها فى معظم أجزاء السودان

معا مع قادتهم من طبقة الفقرا ، وهي المجموعة التي تهمنا بالدرجة الأولى . وتتقيد الجماهير بقدر المستطاع بالأركان الخمسة : شهادة أن لا إله إلا الله والصلاه والصوم والزكاه والحج ، ولجهلهم فهذه هي فقط المسائل الدينية التي يعرفونها ، وقد حولوا الصلاة إلى واجب ديني ، وعبروا عن حنينهم الداخلي في ممارسات الذكر لأنهم سلالة من المؤمنين العاطفيين ، ولا يمكن اعتبارهم أبداً من ذوي الإيمان القويم الحقيقي لأن معتقدهم كان دائماً مسألة شعارات مبتذلة ؛ إذ إن السحر يجعلهم يتمايلون أكثر من الدين والنشوة الدينية أكثر من الصلاة الرسمية ، وزعماؤهم هم الفقرا وشيوخ الطرق الدينية ، وقد بنيت أفكارهم الدينية على القصص المستقاة من تعاليم الطرق حول حياة الأنبياء والأولياء . وبالنسبة للعامة « فالبركة » ، وغير المرئي والخارق للطبيعة ومظهرهم هي أمور حقيقية تماما . إن عالم الروح – الخير والشر – حاضر معهم بشكل دائم ، كما كانت عبادة الأولياء الأحياء منهم والأموات – هي دينهم – ، وهم يزورون قبورهم يكشفون عن رغباتهم الداخلية ، ويلتمسون مساعدتهم في وقت الحاجة ، ولعنة حياتهم هي عالم الأرواح الشريرة التي تجلب الأمراض والموت والمحن والكوارث للأفراد والأسر ولكل مجتمع القرية ، وهم يعتمدون على الفكي المتخصص في طرد الأرواح الشريرة . إن حياتهم الاجتماعية والأسرية من الميلاد حتي الوفاة– مع الاحتفالات الخاصة بها –بينما تحكمها في الظاهر القوانين الاسلامية ، فإنها غير منفصلة عن الطبقة التحتية للأرواحية ، وكل الممارسات المتصلة بها ذات أصل وثني تقريباً . ومرة أخرى فإن هذه الأفكار والممارسات تختلف طبقًا للسلالة أو المنطقةلأن الإسلام حقق طريقه بحلول وسطية مع الأشكال الدينية التي لاقاها ، وهذا هو السبب في أن الدين الشعبي للجماهير يعدعقبة أمام التقدم؛ لذا فالمثقفون – بينما يتمسكون بالنظام الإسلامي – ينظرون إلى الدين كمسألة جهل وخرافة وشئ مناسب للحبوبات ، ولكنه ليس قوة داخلية حقيقية في حياة الرجل الذكي . إن دين الجماهير بكل ملامحه المستردة يقف الآن بشكل واسع ليدعم بشكل كبير الأشياء التي تقف عقبة بدلًا من أن تدعم القوى التي ترقى الحياة ، ويجب أن يكون دائمًا رجل الدين أو المبشر عاطفيًا وملائمًا لمزاج الناس إذا ما رغب في أن يفهموه ، ولا يجب أن ينظر إلى مثل هذا الإسلام الشعبي على أنه قوة يستطيع بها التعاون لإقامة حياة جديدة في الإسلام .

طبقة الفقرا : هؤلاء هم القادة الدينيون للجماهير ، وهم يحتلون مكانًا بارزًا وفريداً كأفراد أو كأسر ، وهم الوارثون للسلطة الغامضة (البركة) من بعض الأسلاف المشهورين ، وهم رجال دين بالمعنى الاسلامي ، و هم مرتبطون دائما بطرق الدراويش، برغم أن تصوفهم مجرد خرافة غامضة ليس إلا ، مع عدم وجود ملامح محددة لها . هذا هو الفكر الذي يلجأ إليه السوداني في مشاكله ، والذي يبحث عنده الحماية من المخاطر المجهولة أو الأرواح الشريرة ، ويعارض هذا النفوذ كل من ذي الإيمان القويم والأفندي العصري .

المسلم المحافظ: يعتبر معظم السودانيين أنهم من ذوى الإيمان السديد ، ولكن هناك القليل منهم من يمكن اعتبارهم من ذوى الإيمان السديد بشكل جازم، ومن تشبعوا بالقرآن والتقاليد، وقد ثبت إيمانهم السديد هذا التحول بعيداً عن كل الأفكار العصرية واجدين القناعة فى الصيغ الدينية الشديدة التمسك بالتعاليم والأساليب التقليدية ، ويعتقدون أن هذاهو الشئ الوحيد الصالح الذى يتطابق مع معايير الماضى . إن الإيمان بالنسبة لهم أعمى عنيد يصدّق على النظريات الثابتة ولا علاقة له بالقلب والعقل والإرادة ، وبالمثل فإن الأخلاق بالنسبة لهم هى الأداء الأعمى للواجبات المحددة . كما أن خاصية هذه الطبقة فى كل مكان هى تمسكهم بوجهة النظر الضيقة العنيدة بتقسيم البشر إلى كافرين ومؤمنين ، ومازالت أفكارهم تلبس كل أنوا ع الأوهام القدرية التى هى جزء متمم للإسلام . وهم يجدون مثلا سعادة بالغة فى مناقشة فى أى سماء صعد سيدنا عيسى ، أو ماهى وظائف حراس الجنة التسعة عشر(المدثر:٣٠) . وبسبب كرههم للتصوف الزائف لطرق الدراويش وخاصة تبجيل الجماهير لشيوخها ، فهم لا يتأثرون بالصوفية ، ولكننا سنجد بين أيديهم فى الغالب الصوفية الكلاسيكية قويمة المعتقد . وينتمى مسلمنا المتحمس ذو الإيمان السديد إلى الطبقة الوسطى عادة ، كما أنه قد يتقلد منصباً دينياً أو معلماً فى خلوة أو تاجراً محترماً.

أما الأفندية فهم أولئك الذين تلقوا تعليماً غربياً ويحتلون مناصب كتابية أو فنية ، وهم مسلمون مخلصون فى الأساس ، حتى بالرغم من أن وجهة نظرهم عن الحياة تختلف بشكل كبير عن وجهة نظر المجموعات سالفة الذكر. وهم أوفياء لأن الإسلام هو النظام الذى ولدوا فيه ، وربما يجدون أنفسهم ضائعين خارجه، وفى الوقت ذاته فهم ضد مفاهيم النظام الذى رأوا أنه يعوق ويقيد كل ما يناضلون ضده بلا جدوى. لقد فقدوا الإيمان بالمفاهيم الدينية للإسلام، ولايفكرون فى المسائل الدينية، وهم مشغولون بالمسائل التى يركز عليها نظام التعليم الغربى، وهم عصريون جداً وليست لهم أى صلة جوهرية بالدين الشعبى أو القويم، وهم يشتغلون بعقلنة الإسلام على نطاق ضيق، وقد يزورون الفكي ليرشدهم فى الأزمات ، وهم غامضون جدا فيما يتعلق بأساسيات الحياة الروحية، ولا يستطيع الإنسان أن يقول بكل ثقة فى ماذا يفكرون ويؤمنون. وبالرغم من أنهم يهزأون بخرافات الجماهير، فكلهم يستمرون فى لبس أحجبتهم وينتقدون إيمان آبائهم ويؤدون صلاة الجمعة بانتظام إكراماً للمظاهر،لأنهم يتولون مناصب اجتماعية عليهم المحافظة عليها. وجيرانهم يعرفون أنهم لا يصلون بانتظام ولا يصومون ولكنهم مجبرون على المحافظة على العادات الأسرية والاجتماعية، ويترقبون أخذ مكانهم فى الاحتفالات الدينية ، ويهتمون بشكل كبير بالمشاكل السياسية والاجتماعية ، ولكنهم يفشلون عادة فى فهمها ؛ لأن بيئتهم لا تمكنهم من تصورها فى وضعها الصحيح.

ويجب أن نضع في الاعتبار نفوذ الأفندى فى السودان الحديث، إلا أن ذلك النفوذ عرضة للمبالغة، فهو حريص على مصلحته الشخصية ، ولا يضع اعتباراً لتقدم الجماهير ويفتقر تمرده الإخلاص ، ولا نفوذ له في البيت ؛ لأن الطبقة النسائية جاهلة بشكل ثابت، ومن المضحك مشاهدة إلى أى مدى تافهة معرفته ولا قيمة لها بالنسبة للحبوبة.

٢- الدولة الدينية الإسلامية

من الضرورى أن نلم بعض الشئ بالإسلام القويم ، وذلك لنفهم فى المقام الأول شيئا عن الصفة الشمولية للإسلام ومعنى الدولة الدينية المسلمة والمكانة التى يلعبها ذلك المفهوم فى حياة المسلمين الذين تمسهم الشريعة ، وثانيا النظام القانونى للإسلام الذى يؤثر بشكل خاص - فى التطبيق - على حياة الأسرة والنظام التقليدى للتعليم .

لقد بينا أن أول مرحلة فى الطريق لفهم الإسلام هو التحرر من فكرة أن الإسلام يتضمن موقفًا دينيًا غريبًا عن العقل وأداء ممارسات محددة . لقد طورالإسلام فى الحقيقة بشكل بالغ نظاماً اجتماعياً ذا تعريف دقيق للأسس التنظيمية ، وعلاقة أفراده الذين يربطهم معا موقف محدد بالقوى الخارقة للطبيعة .

ولم يكن لمؤسس الإسلام تصور عن نظام كامل ، لقد قبل بأسلوب الحياة القديمة لما قبل الاسلام كأمر واقع، وكان سبب ابتكاراته التشريعية هى الحاجة النفعية لتنظيم الممارسة عندما تتعارض مع فهمه لنفسه ولرسالته ، وعندما توفى لم يكن قد تم تثبيت الشريعة الاسلامية أو العقيدة ، ومع ذلك فقد كان مفهومه للحكومة الدينية التي نتجت بمرور الزمن - بتطور النظام بتأثير الحضارات الشرقية - بتماثل الدولة كجزء مكمل للثورة المقدسة .

وادعت هذه الدولة الثيوقراطية بأنها القوة الوحيدة المؤهلة لحكم العالم ، وكان هذا الادعاء هو أساس الحكومة الدستورية ، لذا فالعالم مقسم إلى معسكرين : دار الإسلام ودار الحرب ، ويسمى المسلمون أنفسهم بالجماعة أو الأمة وكوحدة دينية واجتماعية وسياسية محكومة بالله بواسطة نبيه والشريعة فقط هى التى تحكم هذه الأمة .

ونظرياً فإن هذا الأمر حقيقى الآن كما كان فى الماضى ، إذ بدونه كان الإسلام سيتحلل ، ولكنه سرعان ما انتشر إلى ما وراء بلاد العرب .

وواجهت الحكومة الإسلامية الحقائق التى اضطرت إلى أخذها فى الاعتبار عن طريق حكمها للسكان المتحضرين غير العرب الذين اعتنق بعضهم الإسلام ، وكخلفية لدراسة الإسلام فى السودان فإننا لن نهتم إلا قليلًا بالسكان الوطنيين غير المسلمين

(الذميين) الذين اعتبروا حراساً للدولة ، وهم مثل الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام وشكلوا أغلبية المسلمين وحافظوا على العادات الاجتماعية الخاصة بهم ، وكفوا فى الوقت المناسب عن أن يصبحوا دولة مسلمة واحدة ، وسرعان ما برز حكام محليون فى كل مكان ، وهكذا ظهر فى التطبيق مجموعتي قوانين : إحداهما الشريعة الأبدية ، القانون الدينى ، وهو القانون الالهى الذى أوحى به فى القرآن والسنة وأكمل بالقياس والإجماع ، أما المجموعة الأخرى فكانت العرف الإقليمى القائم على العادة المحلية التى تتفاوت من بلد لآخر ، والتي تنظمها وتدعمها إرادة الحكام . وبين مجموعتى القوانين هذه أو بالأحرى المجالين القانونيين كانت الحدود دائما هى نفسها . إن الشريعة رغم عالميتها نظرياً قد حكمت فقط حياة المسلم الشخصية والأسرية (الزواج - الطلاق - الاطفال - الميراث) وواجبات محددة لله مثل الصلاة ، أما القانون المحلى والإرادة التحكيمية للحاكم فقد غطت المجالات الأخرى كلها : القوانين المدنية والجنائية والتجارية وقوانين الحرب والضرائب .

كان هذا هو التقسيم الضرورى الذى فرض على كل رجال الإدارة ، ولكن لم يتم قبوله أبداً بشكل كامل من قبل علماء الدين برغم أنه كان على العلماء التسليم بالصعوبة العملية لتطبيق الشريعة فى الظروف القائمة ، وصارت الشريعة رمزاً لتضامن المجموعة الاسلامية ، ودائما ما أصبحت سبباً فى الثورات ضد رجال الإدارة ، ومن هنا - وهذا مهم جداً - لأنه يحدث أثراً ملائماً مع رجال الإدارة الاوربيين بالإضافة إلى المسلمين عدم رغبة الإداريين فى غالب الأمر فى إتخاذ إجراءات تتفق والمنطق ، وتؤدى إلى أن يثور ضدهم رجال الدين والجماهير التى من السهل أن يثيرها رجال الدين .

وهناك ثلاثة عناصر يجب وضعها دائما فى الحسبان فى الدولة الاسلامية : -

١- العلماء الذين هم فوق النقد والشك والقابعون خلف نظام قانونهم المقدس الساكن.

٢- رجال الإدارة (المديرين) ، وهم يعرفون القانون نظرياً وتواجههم المواقف العملية التى يجب أن يشرعوا لها ، ولا يملكون الاستقلال التنفيذى المطلق بسبب الخوف من العلماء .

٣- الجماهير التى تعيش طبقاً لمستوى دينى وقانونى وأخلاقى شخصى تماماً ومختلف عن الشريعة ، ومع ذلك تبجله ، ومن ثم تحركها بسهولة صرخة « الإسلام فى خطر » .

لقد استمدت الشريعة فى المقام الأول من القرآن ، ولكن بسبب كون الوحى فى الإسلام محدداً ومحصوراً فى القرآن ، فقد كان من الضرورى اللجوء إلى أقوال وأعمال الرسول فيما يتعلق بالأمور المستجدة ؛ لذا فقد تم إخضاع كمية ضخمة من المواد التى تم استيعابها من التشريعات ، والممارسات المحلية للدول التى تم فتحهاوتم تبريرها بنسبتها إلى أفعال الرسول، ومؤخراً عندما أصبح من الصعب الحفاظ على

هذه الطريقة ، أصبح من الضرورى التسليم بالقياس ، وفى النهاية بالإجماع ، فى البداية باتفاق الصحابة ثم مؤخرا تم توسيعه ليشمل المؤمنين ، وعمليا الاتفاق بين العلماء.وقد أصبح الإجماع فى حقيقة الأمر السلطة الحاسمة. ويسمى كل النظام القانوني الذى أوحت به الشريعة « بالفقه » ، وهذه المصادرالأربعة هى أصول الفقه ، وقد تطورت المدارس الفقهية - (تسمى المذاهب) ، وأصحاب هذه المدارس الأربعة هم : ابو حنيفة (٧٦٧م) ومالك بن أنس (٧٩٥م) والشافعى (٨٢٠م) وأحمد بن حنبل (٨٥٥م). وكانت نتيجة تأسيس هذه المذاهب أن أصبح التطور مغلقا إلى مدى بعيد ، وأصبح النظام جامداً ولا يسمح لأحد التحقيق فى « المصادر » ولم يصبح للقرآن والحديث من قيمة سوى الأدب التثقيفى ، وأصبحت كتب التفسير الفقهية لهذه المذاهب « كتب قانونية » جديرة بالاعتماد والقبول للمسلم سديد الايمان ، ومن ثم لم يعد العلماء خلاقين أبداً، وتبددت قوة الإسلام القويم .

لذا فقد أصبح الفقه دراسة أكاديمية فى الأساس يهتم بالقانون المثالى الذى يتصل بالدولة المثالية للمجتمع ، وانفصل عن الحياة العملية ، وأصبح للحكام قانونهم الدنيوى ،وصارت عادات الشعب ومعتقداته الشعبية هى الصفة المقدسة التى حافظت دائما على أساس تعليم المسلم .

وأصبح يمثل الإسلام القويم فى السودان ، كما فى أى مكان آخر :

١- النظام التعليمى التقليدى .

٢- المحاكم التى تطبق الشريعة.

٣- المساجد العامة وموظفوها .

٣- نظام التعليم التقليدى فى السودان

كان للقبائل البدوية التى غزت السودان قوانينها القبلية الخاصة بها ، ولم تكن تهتم بالشريعة ، بينما حكم الفونج بشكل استبدادى الشعوب التى شايعت عاداته الفطرية ، ولم تمض فترة طويلة قبل أن يبدأ نوع من النفوذ القويم فى التأثير على حياة سكان المدن والأرياف ، ويستهل ود ضيف الله طبقاته عن الأولياء بقوله :

اعلم أن الفنج ملكت أرض النوبه (٠) وتغلبت عليها فى أول القرن العاشر : سنة عشر بعد التسعماية(٠) (١٥٠٤م) .... ولم يشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ، ويقال ان (٠) الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهارها من غير عدة (١)

---

(١) بينما كان الإسلام يكيف نفسه بشكل كبير كان يصر دائما على إجراء إصلاحات فى الحياة الأسرية للوثنيين . لاحظ الجدل الذى حدث بين القاضى دشين ومحمد الهميم (الطبقات - ص ١٥٠) [يشير المؤلف إلى الرواية التى ذكرها ود ضيف الله فى الطبقات « .... وأنكر عليه القاضى دشين قاضى أربجى وان الشيخ [محمد الهميم] جاء لصلاة الجمعة فى أربجى فلما خرج من الجامع ركب على جواده فمسك القاضى فى عنان الفرس ، فقال له : خمست وسدست وسبعت ، تجمع بين الأختين ، تخالف كتاب الله وسنة رسول الله . فقال الرسول اذن لى ، إلى أخر القصة. ينظر الطبقات . شعبة أبحاث السودان جامعة الخرطوم . الطبعة الأولى ١٩٧١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ المترجم وقد نقلت النصوص فى هذا الموضوع وغيره من كتاب الطبقات لود ضيف الله كما هى ، بأخطائها اللغوية والإسلامية ، وفضلت ألا أتدخل فيها بالتصويب . (المترجم)

حتى قدم الشيخ محمود العركى [1] من مصر وعلم الناس العدة وسكن البحر الأبيض وبنى له قصراً يعرف الآن بقصر محمود . وفى أول النصف الثانى من القرن العاشر ولى السلطان عمارة ابو(.) سكيكين الشيخ عجيب المانجلك . ففى اول(.) ملكه قدم الشيخ ابراهيم(.) البولاد من مصر الى (.) دار الشابقية ودرس فيها العلم : خليل والرسالة [2] وانتشر علم الفقه فى الجزيرة ... ثم قدم التلمسانى المغربى على الشيخ محمد ولد عيسى سوار الدهب وسلكه طريق القوم (طريق الصوفية) وعلمه علم الكلام وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . وانتشر علم التوحيد والتجويد فى الجزيرة .... ثم قدم الشيخ محمد بن قرم بدار بربر وادخل فيها مذهب الشافعى وانتشر مذهبه فى الجزيرة .... ثم قدم الشيخ محمد المصرى دار بربر ودرس فيها علم التوحيد والنحو والرسالة .

وهكذا فقد كان التطور الثقافى الإسلامى مرجعه المهاجرون الذين نشروا نظام التعليم التقليدى فى كل أنحاء مملكة الفونج ، ذلك النظام المتلازم مع نظام التصوف ، وهكذا أتيحت الفرصة لمهنة مدى الحياة بلا استثناء لأولئك الذين اختاروا اتباع ما تقضى هذه الطريقة ، ونجد فى مكان آخر بعض الآثار القليلة للمعارك الضيقة بين العلماء والمتصوفة والتى كانت مظهراً عاماً لحياة المسلم لأن العالم والصوفى فى السودان كان يمثلهم شخص واحد فى أغلب الأحيان [3] ، وقد جاء هذا الخلاف مع الشيوخ الأزهريين خلال الفترة المصرية [4] ، وقد أصبح أكثر حدة اليوم . ومع ذلك فقد يبدو سخيفًا أن يقول الإنسان إن علماء الصوفية يجمعون فى عالمهم المحدود طرق الغزالى الثلاث عندما يصف الفقه بأنه خبز حياة كل المؤمنين ، والتوحيد بأنه الدواء الواقى ضد الزندقة ، والتصوف بأنه المنظم للمجالين السابقين ، وذلك لبناء الحياة الدينية الحقيقية .

نظام التعليم : كان هدف التعليم دراسة الشريعة – المادة الوحيدة الحقيقية للتعلم– لأن ذلك يتكون من الأحكام فى الماضى،فإن المنهج ثابت والطريقة هى الحفظ . إن بداية – وبالنسبة للأغلبية نهاية – التعليم هى تلاوة القرآن [5] ويكتب ابن خلدون فى مقدمته :

(١) كان محمود العركى سودانياً ولد فى النيل الأبيض وذهب إلى مصر لدراسة المذهب المالكى وعند عودته (١٥١٠ – ١٥٢٠م) أسس خمس عشرة خلوة فى النيل الأبيض .

(٢) كتاب الفقه .

(٣) هناك آثار لمثل هذه المعارك ، ولكنها كانت مهذبة جداً . ينظر خلافات القاضى دشين مع الشيخ ادريس حول مسألة التدخين (الطبقات ص ٩ – ١٠) ومع محمد الهميم حول زواجه بأكثر من أربع زوجات (الطبقات ص ١٥٠ – م ١٤٢ – ١٤٣)

(٤) كان فى الأزهر ثلاثة أروقة هى : السنارية (١٨٥٠) والبرابرة ودارفور .

(٥) كان القرآن يتلى فى دنقلا ودارفور طبقاً لرواية ورش وطبقاً لأبى عمرو فى بقية السودان ، أما الآن فهناك رجل واحد فى دنقلا يرتل طبقاً لرواية ورش .

اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما يسبق فيه القلوب من رسوخ الإيمان ، وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث [١] .

ويمكن أن تشاهد فى كل أنحاء السودان - فى حوش أو تحت ظل راكوبة أو تحت شجرة فى السوق - حلقات الاطفال حول الفكى المتكئ على عنقريب ، الكل يرتل فى اطراد رتيب ، ويتمايلون إلى الأمام والخلف يدندنون بالأجزاء حتى يحفظونها ، ويملى الفكى من الذاكرة ، ويتم نسخ الأجزاء على ألواح خشبية بأقلام تغمس فى حبر مكون من السناج والصمغ والماء . والقرآن بالنسبة لمعظم السودانيين كتاب محكم ، ولا يتم تدريسهم معنى اللغة لأن القراءة نفسها عمل جدير بالثناء . وكما يقول ابن خلدون فإن أهل شمال افريقيا « مذهبهم فى تعليم الولدان الاقتصار على تعليم وحفظ القرآن فقط لا يخلطون ذلك بسواه فى شئ من مجالس تعليمهم». [٢] كان الفكى الذى يجمع فى شخصه العديد من الوظائف فى الماضى أكثر أعضاء المجتمع احتراماً ، وما زال هذا هو الأمر السائد حتى الآن بصفة عامة ، رغم أن المتعلمين يحتقرونه لأنه جاهل وغيرمؤهل ، وهو فى الحقيقة كما يقول الجاحظ من الصعب أن تجد « سكيراً أكثر من معلم الكتاب » [٣] ، ولمعظم الفقرا خلوة خاصة لأنها وظيفة اكثر احتراما وطريقة سهلة لكسب العيش ، وبعض الخلاوى ملحقة بالمسجد وتدعم من أموال المسجد .

وما زال هذا النظام هو الشكل الوحيد للتعليم بالنسبة للأغلبية الكبيرة للسودانيين وهناك حوالى ١٥٠٠ خلوة متناثرة فى السودان تحفظ القرآن بالطريقة التقليدية ، وحتى هذا التعليم مقيد بشكل ما لأن العديد من الأطفال عليهم رعى الماشية في سن الرابعة ، وقد حاولت مصلحة التعليم حث الفقرا على الوصول إلى مستوى أعلى ، وذلك بإجراء دورات تعليمية قصيرة ودعم تلك الخلاوى التى تدرس القليل من القراءة والكتابة والحساب ، ولكنها أدركت الآن أنه لا أمل فى التعليم الريفى عن طريق هذا الإطار ، وما زالت سارية كذلك حقيقة أنه لا أحد ممن يتركون الخلوة متعلم ، وقد كان اللورد كرومر محقا عندما كتب أن مثل هذه المدارس « مؤسسات تعليمية لا فائدة منها» [٤].

ويعرف تلميذ الخلوة بالحوار (الجمع حيران) وعندما يكمل الحوار « قسماً » يكتب الفكى الآية الأولى من القسم التالى فى لوحة ، ويأخذه الصبى إلى أسرته التى ترسل إلى الفكى هدية تسمى « حق الشرافة » . ويقوم كل طالب فى يوم أربعاء بأخذ بعض الذرة وطبخه وأكله مع الفكى ، ويأخذ القليل منه إلى المنزل « بركة » ، ويعمل الطلبة خدماً للفكى ، ويتولون واجبات جمع حطب الحريق وكنس الأرض .. الخ .

---

(١) المقدمة . طبعه القاهرة ص ٣٩٧ .

(٢) المقدمة . مصدر سابق ص ٢٢٨

(٣) الجاحظ البيان والتبيين ج١ ص ١٣٩

(٤) Modern Egypt (1911ed) p. 879

وبعد دراسة تستمر حوالى سبعة أعوام يتلو الطفل القرآن ثلاث مرات أمام الفكى ويقوم فكى آخر بامتحانه ، وإذا ما نجح يعلن أنه « حافظ » ، ولكنه إذا لم يصبح هو نفسه فكيًا ، فإنه سرعان ما ينسى معظم ما حفظه من القرآن .

ويعيش التلميذ عادة وسط أسرته ، كما يكون الفكى من سكان القرية ، ولكن فى دارفور يترك معظم أبناء الفور بيوتهم فى سن ٧-٩ سنوات ويذهبون مع رفقائهم إلى الفكى الذى سمعوا عنه ، ويسمون « مهاجرين » ويزرعون للفكى مقابل أجرة . وهكذا تنشأ قرية « المهاجرين » التى تتراوح ما بين ٢٠ و٢٠٠ طفل وشاب ، وكثيراً ما تسبب هذه المجموعات المشاكل فى القرى،وقاموا فى عام ١٩٢٧م بثورة فى دار تابيلا سرعان ما تم قمعها ، ويقرأ الصبى حتى سن السادسة عشر ثم يصبح هو نفسه فكيًا أو يعود إلى قريته ، أو إذا ما فشل فإنه يهاجر شرقا . ويبدأ يوم الخلوة من الساعة الرابعة صباحًا بعصا الفكى التى توقظهم ، ويبدأون القراءة فى مجموعات صغيرة حول النيران إلى أن تشرق الشمس ، ولهم واجبات أخرى خلال النهار : فقد يعملون فى زراعة أرض الفكى أو يطحنون الحبوب ، بينما يقوم الآخرون بجمع الحطب وجلب الماء ، وفى أيام الثلاثاء يذهب الصغار فقط فى مجموعات ليتسولوا الحبوب من أبعد المناطق ويعودوا يوم الجمعة ولا يفعلون شيئًا فى موسم الأمطار سوى زراعة أرض الفكى ، ويدفع المهاجرون الفطرة للفكى ، وإذا حدث وكان هو نفسه إمام القرية فإن « القرويين يعطونه الزكاة والفطرة ، ويعتبر تدريسهم القرآن ممارسة سحرية كما يجلب إنجازه إحساسًا بالقوة» [1]. أما فى الشرق فإن بعض الأطفال فى سن الثانية عشرة يستمرون فى أداء واجباتهم فى الزوايا والمساجد ، ويسمى كتاب الطبقات مثل هؤلاء الطلبة بفقرا العلم فى مقابل فقراء القرآن . ويتكون المنهج هنا من فرعين من فروع العلم : التوحيد طبقا لمذهب الأشعرى والفقه طبقًا لمذهب مالك .

وتتمركز الزاوية حول منزل الشيخ وتجمع وظائف المسجد والمدرسة والكلية ، ولم تكن هناك حتى الحكم المصرى أى مؤسسات تعليمية أخرى ، ويتم التدريس بطريقتين : أن يجلس الطلبة عادة حول الفكى ، بينما يقوم بتلاوة النص والتعليق مضيفا إليه

---

(١) تظهر الرواية التالية من التونسى (Voyage au Darfour, p.293) على أن دارفور تقدمت قليلاً منذ زيارته (١٨٠٢ - ١٨١٣م) ،، إن مستوى التعليم فى دارفور ضعيف ، كما أن تعليم قراءة القرآن ضعيفة أيضا هناك . ومن الأسباب الرئيسية أن التلاميذ لا يتعلمون قراءة القرآن فى المدارس سوى فى المساء بعد حلول الليل ، إذ يكون الصغار (الفتيان فقط حيث أن الفتيات ليس لديهن الفرصة لتعلم القراءة على الإطلاق) مشغولين فى رعى قطعانهم ، وفى المساء بعد عودتهم من الحقول يأخذون ألواحهم الصغيرة ويتوجهون إلى المدرسة ، ويتعين على كل طفل أن يحضر بعض الأخشاب (الحطب) لإشعال النار التى تضئ المكان ، ويتحلق حول نورها الأطفال ويستغرقون فى تعلم القراءة والكتابة والحفظ عن ظهر قلب ؛ لذا فإن ما يعرفه الفوراويون من القرآن ضئيل جدا .

تعليقاته . ويذهب فى بعض الأحيان الطلبة فرادى إلى الفكي ، ويتلو كل منهم النص الذى حفظه ، ويلقي الفكي ببعض التعليقات ويحدد أو يملى قسماً آخر ، ونادراً ما يستخدم الكتب ، ويكتب الأولاد ما يملى عليهم فى ألواحهم . وليس للمصادر – القرآن والحديث – مكان فى دراستهم ، إذ ليست لها قيمة عملية نسبة لأن العقيدة والدين ثابتان ، أما الأسس فهي الفقه والتوحيد . ولكن هنا مرة أخرى لا تتم أية دراسة نقدية لأعمال ابن مالك أو مؤسسى الفقه الآخرين . وهناك « مختصرات » قدمها أفراد مغمورون وتلك الكتب هى التى يحفظها الطلبة عن ظهر قلب . ولا يوجد عالم يجرؤ على التعبير عن رأيه الشخصى على الشريعة أو المذهب ، أو أن يحاول تعيين أهمية القيمة المعرفية لهؤلاء المؤلفين ، وهم مقيدون بكتابة الشروح والحواشى على هذه المختصرات (١).

كان العملان المعياران فى الفقه والمستخدمان فى السودان خلال عصر الفونج هما رسالة ابن أبى زيد القيرواني(توفى عام ٩٩٦م) ومختصر خليل بن اسحق (توفى عام ١٣٦٥م) . كما كانوا يدرسون فى العقائد مقدمة السنوسى (توفى عام ١٤٩٠ م)، وقد حفظ البعض بحوثه الثلاثة فى العقيدة ، كما قال البعض إنهم قرأوا علم الكلام الذى يظهر من شرح محمد بن عدلان (٢) إنها مجرد خلاصة مختصرة لكتاب السنوسى ،، أم البراهين ،،(٣)، كما كانت طرق تجويد القرآن من بين المواد الدراسية المقررة ، كما تم ذكر بعض الأفراد القلائل الذين قرأوا الحديث والتفسير ، ومع ذلك فإن الأغلبية لم تقرأ أو تدرس أكثر من خليل والرسالة . وتعتبر مدرسة الشايقى عبد الرحمن بن إسيد استثناء من هذه القاعدة (توفى عام ١٧١٥م) ، وتستحق مدرسته الاستشهاد بها لأنها تعطينا أيضاً : يوم فى حياة فكى خلوة (٤).

> **يروى تلميذه الفقيه محمد بن الريدة العوضى قال أول ما يفرغ من صلاة الصبح يدخل يقرا الماضى من خليل ، بعد ما يقوم منه يدخل على ناس القرآن يصحح الواح الدرس ، ثم يقرا التقتيحة فى خليل ثم يجوا ناس الخرازى والشاطبية (٥) ثم يجيو ناس العقايد والأخضرى والعشماوى (٦) ثم جاءه المؤذن لصلاة الظهر. فاذا فرغ منه دخل يقراظُهرية خليل ثم صلى العصر ثم جاء أهل التجويد ثم جاء ناس العقايد والعشماوية والأخضرى ثم جاء المؤذن لصلاة المغرب ، ثم جاء لقراءة المغربية على خليل فى راسة المتنه الواحده يقرا فوقها سياقا يساوى مقرا من**

(١) وضع المضوى بن محمد المصرى (توفى عام ١٦٨٤م) أربعة شروح على كتاب السنوسى « أم البراهين » وشروح أخرى على الوسطى والصغرى والحاشية (الطبقات م ٢٠ – ٢١) ص ٣٢ .

(٢) ٩٢ المصدر السابق ك م ١٦٤ – ص ١٧٢ .

(٣) يوجد مختصر لأم البراهين فى كتاب A.J.Wensinck,"the Muslim Creed" pp.275-6

(٤) الطبقات : م ١٢٣ – ١٢٤ ، ص ١٣٠ – ١٣١

(٥) توفى عام ١١٩٤م . كتب قصيدتين من السجع المنظوم عن قراءة القرآن . .

(٦) كتابان فى الفقه . كتب الأخضرى (القرن العاشر الهجرى) المختصر فى العبادات على مذهب مالك بن أنس .

القرآن ثم يجيبوا عنقريب يجلس عليه، يعرض ناس القرآن الدارسين اثنين اثنين ، يقوم لصلاة العشا فيصبر قليلا حتى يتعشوا الفقرا. ثم يمسك سوطه ويجلس لناس القرآن حتى يقرا السُبع [1] الدُّراس ، فاذا فرغ منه قام وبخل خلوته. ويجى واحد من الطلبه شايل حزمة حطب ويوقد النار وهو يقرا ، وهو يجيب محفظته فيها ست عشرة قُباضه [2] وهو يتنفل والفقير يدرس لنفسه ، فإذا فرغ منها شال سوطه وتَورْ الفقرا ناس العلم والقرآن يمحوا ويكتبوا الواحهم ومحفظته فى خشمها سبحه الفيه نقاقه فيشتغل بها حتى يكتبوا الفقرا الواحهم ثم شرع فى صحة الواح الدارس فقط حتى يجيه المؤذن لصلاة الصبح ثم يدخل لقرأة الماضى من خليل. فايام البطالة يفتى ويحكم ويكتب الحجبات، هذا دأبه حتى فارق الحياة[3].

إن نظام التعليم الذى تم إيجازه آنفا هو نظام تقليدى مجرد من كل أنواع المتعة والاكتشاف ، ولا يتبنى احتياجات الريف ، ولا يمكنه أن يكون أساساً لتدريب الشخصية ، كما لم يكن من أجل نفوذ الصوفى . لقد تم تجريد عقل السودانيين بشكل تام من كل أنواع المبادرة والحيوية والنشاط ، وقد أدرك ابن خلدون هذا الأمر عندما كتب أن الإشارة المستمرة للماضى قد « سلبت من عقل المسلم الأصالة والاستقلالية » .

٤- التنظيم الحديث للعلماء

بينما كان القليل من هؤلاء الفقرا شافعيًا فإن الأغلبية كانت مالكية ، وبقى السودانيون مالكيين حتى اليوم ، فقد أدخل الفتح المصرى المذهب الحنفى الذي تدين به الامبراطورية التركية وهو القانون الرسمى فى كل المحاكم ، وباستثناء الفترة الوجيزة التى أبعدت فيها الشريعة خلال المهدية ، فقد استمرت الحنفية هى القانون الرسمى ، وبرغم ذلك فإن السودانيين مخلصون للمذهب المالكى فيما يتعلق بشئون حياتهم الخاصة وواجباتهم الاجتماعية ، ويجب أن نتذكر أن الشريعة تمس فقط جزءًا من الحياة ، وأن تأسيس الحكم البريطانى لا يعنى أن الشريعة لن تكون قانون البلاد ، وهى لم تكن أبداً قانون البلاد وكانت قابلة للتطبيق - طالما كانت إدارتها فى المحاكم معنية - فقط بتصريح من السلطة ذات السيادة . إن بريطانيا - عدا إلغاء الرق - حكمت البلاد بنفس طريقة حكم أى بلد مسلم . إذ إن معظم البلاد قد تبنت القوانين

---

(١) واحد على سبعة من الأسبوع ، وهم يدرسون أقسام صغيرة ويتلونها كلها دفعة واحدة ، ويتم جلد الكسلان .

(٢) ربما تكون حصى تستخدم مثل السبحه أو تباع لاستخدامها فوق المقابر ، وذلك بعد القراءة عليها [يقول د. يوسف فضل لعله يعنى جمع قبضة أى المجموعة الصغيرة من ورقات الكتاب أو الملزمة . ينظر الطبقات . مصدر سابق ص ٢٨٣ هـ ١٣- المترجم]

(٣) هذا برنامج طويل ، ولكن لأحد ملم بفكى خلوة سيحتاج الى أن يسأل متى يذهب الفكى للنوم .

المستمدة من النماذج الأوربية ، وتقع تحت حكم الشريعة المسائل المتعلقة بالأسرة (الزواج – الطلاق – القُصّر – الميراث) ، والمعاملات الدينية والمؤسسات الاجتماعية والأوقاف .

وتوجد المحاكم الشرعية في كل المديريات وعواصم الأقاليم ، والقضاه موظفون تابعون لحكومة السودان وعلى رأسهم كبير القضاة والمفتى[1] ، وعملهم خاضع للجنة استشارية ، ويقرر السكرتير القانوني كل المسائل الخاصة بالنظام والإدارة الخاصة . وللمحاكم الشرعية العليا حق تعديل قرارات القضاة وأحكامهم ، ويتم اختيار القضاة من بين خريجى كلية غردون ، ويتم تدريبهم في المدرسة القانونية الملحقة بالكلية ، وتتضمن مهامهم إلى جانب العمل القانوني إدارة المساجد التي يتم الانفاق عليها من الموارد المالية العامة ، وهناك مجلس للعلماء لإسداء المشورة إلى الحكومة فيما يتعلق بالتشريعات الخاصة التي لها تأثير على المؤسسات الإسلامية والمشاعر الدينية .

وكان يتم تدريب الموظفين من غير القضاة في بيوت العلماء حتى عام ١٩١٢م عندما خلف أبو القاسم أحمد هاشم محمد البدوى شيخًا للعلماء ، وقد أقنع أبو القاسم الحكومة تخصيص قطعة أرض بجوار الجامع العتيق في أم درمان ليكون وقفًا لبناء مسجد جديد ومدرسة دينية تابعة له تسمى « المعهد العلمي » ، وفتح باب الاكتتاب وتم جمع مبلغ ١٦.٠٠٠ جنيه مصرى ، كما خصصت له الحكومة جزءًا من رسوم السوق ، وأدار المعهد مجلسًا من العلماء يعمل تحت سلطة مصلحة القضاء ، وكان التدريس في المعهد مشابه للتدريس في الأزهر ، وتم إجراء أول امتحان في عام ١٩٢٠م ، وكانت هناك ثلاث مراحل تدريبية(١) أربع سنوات أوليه يتم بعدها الحصول على الشهادة الأولية ، ولا يتم هذا التدريب في المعهد .(٢) أربع سنوات وسطى يتم بعدها الحصول على الشهادة الأهلية وعندها يكون الطالب مؤهلًا ليصبح مأذونًا أو فكيًا يعلم خارج المعهد أو كاتبًا قضائيًا . (٣) أربع سنوات عليا يتم بعدها الحصول على الشهادة العالمية أى يصبح عالمًا ، ويصير بعدها مؤهلا ليصبح مساعدًا قضائيًا أو معلمًا في المعهد أو إمامًا لمسجد .

وكان تأثير هذه الطبقة محصورًا في المدن ، وكما بينا فإن المزارعين والرعاة كانوا محكومين بالعادة ، فقد كان على سبيل المثال يتم أخذ قسم السوداني الوقور على قبر شيخه ، بالرغم من أن هذا الأمر طبقًا للشريعة أمر مكروه ، وكان البدو محكومين بالعادة أيضا حتى في المجالات التي تحكم فيها الشريعة بشكل أكثر ، مثل المشاكل الخاصة بالميراث والوصية والزواج ، وقام البقارة بطرد القاضي الشرعي الذى أرسل

---

(١) يعد المفتى مستشار الدولة الذى يفسر القانون ، و يسمى قراره بالفتوى ، والقاضى هو الذى يحسم المنازعات القانونية ، وكان كبير القضاه مصرياً دائماً حتى عام ١٩٤٧م عندما – كجزء من سياسة السودنه – تم تعيين سودانى كبيراً للقضاة .

إليهم . إن حضانة الأطفال بعد الطلاق من حق الأب ولكنه أصبح من حق الأم الاحتفاظ بالفتيات، وهناك نزاع قائم الآن بين عادات زواج الزغاوة والشريعة . وكانت السلطات القانونية الحكومية فى عام ١٩٢١م فى بداية عملية تطبيق اللامركزية (الأمر المحلى الخاص بسلطات شيوخ البدو) قد اعترفت بحكم العادة ، وامتد هذا حتى عام ١٩٢٧م تحت أمر محلى بنفس الاسم مع حذف كلمة « بدو » ؛ لذا فإن القوانين القبلية سارية المفعول بالنسبة لكل القضايا المحلية بدلًا من الشريعة إذا قبل الطرفان المتقاضيان المحاكمة عن طريق المحكمة القبلية (١) .

٥- المساجد : موظفوها وجماعات المصلين

ليس المسجد العادى بالنسبة لأى سودانى هو مجرد مبنى غير جميل من الطوب ، ولكنه مكانه فسيح يمكن للمصلين التجمع والصلاة فيه . إن ميدان الجامع بأم درمان حيث كان المهدى وخليفته يلتقيان بالآلاف من أتباعهم هو المسجد السودانى النموذجى ، وإذا ما ذهبت إلى قرية فى وسط السودان فإنك ستجد المسجد مجرد سياج من الشوك فى أحد جوانبه راكوبة من القش لوقاية المصلين من شمس الظهيرة ، أما فى الشمال فالمسجد يتكون من سور من الطين بداخله إما راكوبة أو حجرة من الطين لحماية المصلين من حر النهار (٢).

ومثل هذا السياج الذى يمكن تخطيطة بقليل من الحجارة يسمى مسجداً ، ويجب أن تخلع نعليك قبل أن تدخل هذه المنطقة. ويرتبط مثل هذا المسجد عادة بالطريقة الصوفية والذكر وهو الغرض الأساسى من وجوده ، ومن ثم يسمى الزاوية . أما إذا كانت هناك حجرة داخل السور لأداء صلاة الجمعة فتسمى تلك الحجرة فى هذه الحالة بالجامع ، وإذا وجدت مدرسة قرآنية فيسمى المكان أيضا خلوة . وقد يحدث اختلاط بسبب أن هذه المصطلحات الأربعة ربما تستخدم للإشارة إلى المكان نفسه ، وقد يكون إمام المسجد الذى يؤم المصلين هو خليفة الطريقة أو فكى الخلوة ، أو أى مسلم محترم من الحاضرين .

والمسجد الكبير فى المدينة هو دائمًا الجامع الذى يؤدى فيه صلاة الجمعة ، وقد بنى هذه المبانى البناءون اليونانيون بأموال الحكومة ، ويشعر السودانى بالغربة فى الجامع والمؤذن ، أما فى الجوامع الكبيرة فالعدد أكبر من ذلك ، و عكس ما يشعر به عندما يكون فى الجو الدينى فى الزاوية أو المسجد . ولا يقل عدد موظفى الجامع عن أربعة : الإمام الذى يؤم المصلين ، وخطيب الجامع وخادم الجامع . لا تتطلب مهمات هؤلاء الموظفين أى جهد كبير ؛ إذ إنهم لا يختلفون عن نظرائهم فى العالم الاسلامى .

---

(١) اذا وجدت فى المراكز الريفية كل من المحكمة القبلية والمحكمة الشرعية فى المدينة نفسها فإن القضايا الشرعية يجب أن تنظر أمام المحاكم الشرعية .

(٢) نذكر بأن أول مسجد فى الكوفة - بنى عام ٦٣٨م - كان مساحة من الأرض محاطة بخندق مغطى بصف من الأشجار تعرش جانباً من أحد جوانبه ، وتوجد فى اليعقوباب فى الجزيرة راكوبة عاليه جداً بها العديد من الأعمدة يقول أركل أنها قد تكون إحياءً لوتيف المعبد المصرى .

ويجب أن نذكر أن الإسلام في جهوده الرامية للمحافظة على وحدة الواجبات يشدد فقط على المظاهر الدينية الخارجية . إن العقيدة أقل أهمية من التقيد بالطقوس لأن الطقس هو الذي يقسم الناس ويحددهم دينياً ، ولا يعد منشقاً عن العقيدة من يحافظ على الواجبات الخارجية التي يفرضها الإسلام . إن الإيمان والإحسان هما من الأمور الخاصة بين الفرد وربه ، والكل يجاري ظاهرياً أحكام الشريعة ، ولكن التقيد بالقاعدة العامة يتباين بالطبع حتى وسط الأسرة الواحدة ، والإكراه ضرروري للحصول على التقيد بالقاعدة العامة كما كان الحال أيام المهدي ، والقليلون هم الذين يحافظون على أداء الصلوات الخمس ، وأولئك الذين يؤدونها لديهم بعض المقاصد ، إما لأنهم ينتمون إلى الطبقة التعليمية أو التجار أو كبار السن الذين لديهم الكثير من وقت الفراغ . أما المزارعون والأشخاص الذين يعملون في المدن فلا يقدرون إلا على صلاتين فقط ، أما الأفندية فإن لبس البنطلون يعوقهم ، والبدو لا يعرفون شيئاً سوى الايماءات الطقسية. والإحساس الروحي في الصلاة غائب عن معظم الرجال رغم أنها قيم إسلامية للانضباط والنظام الصارم للممارسة الدينية ، أما ذوو الإيمان السديد فهم أكثر إثارة بتلاوة القرآن في العيد أو الصوم ، أما الجماهير فتحركها نشوة الذكر . ويحافظ المزارعون على صوم رمضان أكثر من محافظتهم على الصلاة ، أما البدو فلا ، وقد تأثروا هنا بطرق الدراويش وليس بالشريعة لأن الطرق كلها تؤكد على الحاجة للتقشف، حيث إنها تحل محل الصلاة في الأوراد ، وهناك اعتقاد بأن المحافظة على صوم رمضان يكفر عن كل الذنوب التي ارتكبت خلال العام ، ولم أجد إلا دليلاً بسيطا للاعتقاد في هذا العرف ، رغم وجود اعتقاد عام جداً بأن التقيد بالقواعد يحقق مكافآت خاصة في الآخرة . وتأثير رمضان شامل وعام وهو شهر التعطل ، فالكل نعسان وذو مزاج عابس ، وهذا مرجعه فوضى التغذية بالليل مما يؤدي إلى اضطراب نظام الهضم حتى بالنسبة لغير الصائمين من الأطفال .

وليس هناك اعتبار للزكاة الإلزامية وهي ضريبة دخل مقدارها ٢.٥٪ تدفع للفقراء، ولكن معظم الناس يدفعون الصدقة الطوعية ، أما زكاة الفطر رغم كونها سنة طبقا للمالكية فإن سكان المدن يدققون كثيرا في دفعها (إخراجها) ، والحج إلى الأماكن المقدسة مطمح كبير . وبالرغم من قربهم من الحجاز فلا يذهب إلى الحج إلا القليلون [١] والذي يعود تحت الظروف البطولية يتم الاحتفال به ويحترم لأن حجه يجلب لأسرته بركة الأماكن المقدسة ، ويلقب من الآن فصاعداً بالحاج ، ويتم الاحتفال بذكرى هذا الإنجاز بتزيين منزله بالرسوم التوضيحية لرحلته . ويستقبل السودان دائماً عدداً من حجاج غرب إفريقيا الذين يمضون وقتاً لا بأس به في العمل لكسب تكاليف السفر،

(١) من ٨٤٠٤ حاج ركب من سواكن خلال موسم حج عام ١٩٤٦م كان هناك ٥٠٠ حاج فقط من السودان الإنجليزي - المصري ، أما البقية فكانوا من « الغرابة » .

وتتم إجراءات الحج تحت إشراف الحكومة ، ويبحر معظمهم من سواكن حيث يتم الكشف عليهم طبياً . والحج شئ مهم لأن الحجاج العائدين هم الحصون لذوى الإيمان السديد .

وهناك تجاهل دائم فيما يتعلق بتحريم تعاطى المسكرات ، وتشكل « المريسة » بنداً مهماً فى الوجبة العادية ، وهناك العديد من « الإندايات » المصرح بها .

كما لقيت الاحتفالات الكبيرة الاعتراف الرسمى كعطلات عامة ، وهناك العيد الصغير أو عيد الفطر والعيد الكبير من ١٠ إلى ١٢ ذى الحجة (ويسمى أيضا عيد الأضحى أو الفداء) ، وتقوم فيه كل أسرة بذبح خروف من عمر معين فى ذكرى فداء إبراهيم . وتقام فى كلا العيدين صلاة العيد وهى سُنة ، وتقام فى العادة فى الهواء الطلق فى الصحراء أو فى مكان مفتوح ، وتتكون من ركعتين تتلوها خطبة من جزءين . ويتم خلال هذه الاحتفالات لبس الملابس الجديدة وزيارة الأصدقاء لتهنئتهم بالعيد وكذلك زيارة القبور وأضرحة الأولياء .

- ٥ -

معتقدات وممارسات شعبية فى الإسلام

أ- تأليه الأولياء

١- الأولياء فى الإسلام : فكرة المسلم عن الإنسان التقى

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم

ولا هم يحزنون .) [يونس : ٦٢]

يؤمن كل مسلم أنه إلى جانب الأمر المدرك للمؤمنين ، هناك أمر غير مرئى للأولياء الذين – بتوجيه من الله – يديرون له شئون الدنيا ، لذا فالأولياء غير منفصلين عن الحياة الدينية للإسلام فى السودان لدرجة أن التفكير فى الرب دون وسطائه أمر مستحيل .

ويشد الأولياء الانتباه عن طريق قوتهم المزعومة وذلك منذ بداية الإسلام ، ولكن لا توجد نظرية متسقة عنهم ، كما لم تتطور طائفة خاصة حتى ظهور طرق الدراويش فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وعندئذ حصرت كل السلطات فى شيخ الطريقة الذى ادعى أن له قدرة التشفع عند الله وصنع المعجزات . ومن الطبيعى أن يستمر أتباعه – بعد مماته – فى تبجيله على أنه « ولى »الله ، وأنه الذى يحميهم .

وربما يمكن ترجمة كلمة «ولى» فى معناها الدينى «بالقديس» ، ولكن يجب أن نتجنب استخدام مفاهيمها الخاصة على الكلمة . إن فكرة «التقرب» (إلى الله) الكامنة وراءها تحتاج إلى توضيح؛إذ إنها مهمة فى تطور نظرية المسلم عن «القداسة» ولا يوجد فى القرآن معنى محدد لكلمة ولى [١] ، ولكن أصبحت بمرور الوقت تطلق على أولئك الذين شعروا بأن لهم علاقة حميمة مع الله ، وأصبحت من ثم توضع الكلمة للتأكيد ليس على الورع ، بل على العلاقة الحميمة مع الله . إن الأولياء هم أولئك الذين يعيشون فى حضرة الرب .

ونتيجة لتطور هذا الاستخدام لتعبير «ولى» تطورت نظرية ترى أن الله منحهم قوى خاصة بإمكانها جعل بقاء وتوجيه الدنيا متوقفاً عليهم ، ويعلن على الجويرى أن الله قد اختار الأولياء ليبرهن على أعماله :

---

(١) أطلق الولى فى القرآن على الله بأنه « النصير » و« الوصى » (سورة البقرة : ٢٥٧ والجاثية : ١٩) ، كما استخدم بمعنى « الحارس » فى معناه العام (البقرة : ٢٨٢) و« ولياً » أو « حليفاً» لله (يونس : ٦٢) وأصبح المعنى المبسط والشعبى شائعاً خلال القرن التاسع الميلادى .

لقد جعل الله البرهان النبوى يدوم حتى اليوم بجعله الأولياء الوسائل التى تتجلى بها . فإن علامات الصدق والبرهان على صدق محمد دائمة الظهور بجلاء . لقد جعل الأولياء حراسًا على الدنيا . لقد نذروا أنفسهم كلية لشئونه وكفوا عن صفاتهم الجسدية . وتسقط الأمطار من السماء من خلال حلول بركاتهم ، وتنمو من الأرض بطهارة حياتهم ، كما يتحقق النصر للمسلمين على المشركين بقوة أرواحهم [1] .

ولحكومة الدنيا هذه اجتماع ليلى للأولياء - الأحياء منهم والأموات - كتنظيم موجه لها ، ورئيسهم هو القطب الولى الذى يعيش على الأرض فى تجسيدات مختلفة ، وهو المكلف الرسمى من قبل الله فى الدنيا ويشكل الحلقة الهامة الأساسية فى سلسلة الاتحاد بين « الخالق » و«الخلق» .

وأكد العديد من الصوفية - هرطقيًا - أنه بواسطة فضيلة بلوغ الاتحاد مع الله فإن الأولياء أعلى من الأنبياء فى الرتبة ، وهم فى حقيقة الأمر كذلك بالنسبة للجماهير، وبالتأكيد فإن النبى أقل قيمة من الولى بالنسبة للمجتمع ، إذ تجسدت فى الولى تلك الرغبة الشديدة للخلاص المتأصل فى الإنسان ، كما يعتبر تجسيداً للاحتفاظ بالقوة المنفصلة تماماً عن تقواه أوعدم تقواه ، وهذا مرجعه أن فكرة المسلم عن التقى ليس لها ما تفعله أمام فضيلته الشخصية أوبلوغه القداسة من خلال الألم والمعاناة والصلاة والتفكير . إنه مجرد مفهوم ميكانيكى ولا يضم الإرادة الشخصية . وإن الأولياء أناس «شرفهم» الله بتأييد من عنده ، والوسيلة الذى يظهر بها هذا التشريف هو حيازتهم «البركة» التى تتحقق بها الكرامة لأجلهم ، فالكرامة تشريف [2]. إن لطهارة حياة الولى أو العقيدة أهمية ثانوية ، إذااستطاع عمل المعجزات فهو يكفى لأنه ولى ، ومن ثم يجب خشيته كما يجب التماس حمايته. [3] فالولى بدون معجزات ليس وليًا بالمرة ، ولكن يجب ان نذكر أن هداية المذنب [4] والاستبصار والتخاطر والفراسة هى أمور من قبيل الكرامات ، وهذه الأشياء هى الظاهرة العامة بين الإنجذابات الصوفية ، وسنرى أنه ليس صعبًا إحراز الولاية . ومن المنافى للعقل البحث عن علامات الأخلاق ، إذ لو كان وعى التقى قداستغرق فى الله ، فمن الصعب أن يكون جسده مسئولاً عن أعماله،ولا

(١) Kashf al- Mahjub, trans, R.A. Nicholson,p.213

(٢) يشير د. ب. ماكدونالد إلى أن كرامة القديسين ذات صلة وثيقة بـ Xapyata of I Cor.xii.9, من فعل نعمة إلهية وأصبحت المعجزة مترادفة مع الآية ، أى معجزات بالمعنى الاصطلاحى التى اعترف بها المسلم ذو الإيمان السديد فى الرسل فقط ، وهو القضاء والقدر الذى تحقق بواسطة الرسول لإثبات دعوته .

(٣) تم تبنى الموقف نفسه مع أضرحة القديسين المسيحيين فى البلاد الإسلامية ، ويوجد بالطبع العديد منها فى التقويم الإسلامى . وفى السودان الذى لايوجد به قديسون مسيحيون محليون فإن المثال الوحيد هو الاحتفال بمارجرجس (النبى الخضر فى الإسلام الشعبى) فى الكنيسة المكرسة له فى الحلفاية ، ونتيجة لعلاجه المجانين فإن احتفاله (١٦ نوفمبر) أصبح مرتبطاً مع طيف عمله المعجز ، ويقوم فى ذلك اليوم مئات المسلمين والمسيحيين بزيارة الكنيسة وتقديم القرابين والنذور .

(٤) ينظر طبقات ود ضيف الله ، ترجمة حياة عووضه بن عمر وسلمان الطوالى .

يعنى هذا أن طهارة الزاهد لا يتم الإعجاب بها ، ولكنها لا تملك ما تفعله تجاه القداسة. وتعنى البركة فى وعى المسلم بأنها هبة من الله ، والمفهوم جذوره فى المعتقدات التي كانت قبل الاسلام ، فى قوة المعجزات وقد تم إعادة صياغتها فى شكل جديد فى الاسلام ومن ثم بأهداف جديدة وينظر إليها كنعمة من الله، ويملك الأولياء البركة فى أعلى درجاتها ، وقد وهبها الله بشكل تحكمى بصرف النظر عمن يستحقها . وبالرغم من أن المفهوم ليس غائبًا بأن التقوى الاستثنائية والزهد بإمكانها أن تجبرا يد الله وتجعله يهبها . وهناك إيمان عام فى السودان بأن بركة الولى يمكن نقلها أيضا إلى ذريته ، وهذا يفسر حقيقة أن الرجال سيئو السلوك جداً والذين قدموا أسوأ المثل للآخرين قد تم تبجيلهم على اعتبار أنهم ورثوا هذه القوة الخارقة للطبيعة من جدهم الولى . وهكذا نجد فى السودان أن كل سكان قرى الفقرا تعيش بدرجة كبيرة على سذاجة الجماهير، ويمكن ادعاء البركة أيضا بأفعال معينة كتلاوة الفاتحة مثلا التى يصاحبها فعل رمزى برفع اليدين أثناء التلاوة ومس الوجه براحة اليدين [1].

ويجب أن يحترس المسيحى فى الحكم على أولياء الإسلام طبقا لمقاييسه الخاصة والاجتهاد لفهم المتطلبات الإسلامية فى الولى (القديس) . إن الأولياء هم نتاج للبيئة الدينية التى تحتاجهم ، وقد أصبحوا وسائل حقيقية لتزويد الحياة الدينية للجماهير التى كان الإسلام القويم بالنسبة لهم مظهراً خاوياً - قارن موقف المصلين فى مسجد بشعيرته الرسمية الوقور مع موقف أولئك الذين عند مزار الولى - حيث الناس رجالا ونساء وأطفالًا على حد سواءً يعبرون بحرية عن حبهم الشديد لحارس أسلافهم وحاميهم اليوم « والقريب من الله » من وقت لآخر ، والذى يسمع تضرعهم المثير الشفقة ويتشفع لهم عند الله .

٢- غرائب تقديس الولى فى السودان

إن الإيمان فى رجال الدين الأحياء منهم (الشيوخ أو الفقرا) والأموات (الأولياء أو الصالحين) وعبادتهم جاءت كلها جاهزة إلى السودان حيث وجدت أرضاً خصبة لاستقبالها ، لأن السودانيين دخلوا فى العبادة بتعصب دينى لن تثيره أبداً الشعائر الرسمية . واليوم - رغم انتشار التعليم الحديث - لا يوجد أى نقص تقريباً فى تقديس الولى . وفى الحقيقة فقد يسخر منه بعض الأفندية من خريجي كلية غردون وكذلك المتشددون ، ولكن بالنسبة للجماهير فإن الاعتقاد فى الأولياء وفى فعالية بركتهم ، إلى جانب قوى الشفاعة والمعجزة ، تمثل بالنسبة للجميع جوهر حياتهم الدينية ، حتى الأفندى لا يسيطر على الحريم ولا يرفض مطلقًا السماح لابنه لأن يتزين بتعاويذ فكى ورع ، كما لا يتخلص من حجابه الخاص .

(١) قد تمثل البركة - كما سنرى - أشياء طبيعية بالإضافة الى البشر ، كما يعتقد أن المعتوهين المسالمين يملكون البركة نسبة لأن الله قد أخذ شخصيتهم لنفسه ، ولكن يعتقد أن المجانين قد تملكهم الجن .

إن عدد أولياء السودان – رغم إسلام البلاد الحديث نسبياً – كبير جداً ، ومعظمهم من أهل البلاد ، وينطلق اسمهم في الحال من شفاء الناس في أوقات المرض والمحنة والخطر ، ويأتي الحجاج باستمرار إلى أضرحتهم لإظهار التوقير ولتلقى التبرك . وكل الأولياء متصلون بالطرق الدينية ، وسنذكر العديد منهم في الفصل التالى ، وسنجد ذكرا لحياة أولئك الذين اشتهروا خلال حكم الفونج الذى استمر ثلاثة قرون من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٨٠٠ في طبقات ود ضيف الله (توفى عام ١٨٠٩م) (١). ولا يسرد هذا الكتاب ٢٦٠ ترجمة لحياة حشد متنافر مكون من الزهاد والمتصوفة وصانعى المعجزات كاشفاً ليس عن شخصياتهم المتنوعة وأسلوب حياتهم وتجلياتهم ومعجزاتهم فحسب ، وإنما يلقى أيضا ضوءاً كاشفاً نافذاً داخل الحياة الدينية للجماهير السودانية اليوم ، لان هذه التراجم هى المرآة التى عكست الأفكار والحنين والمزاج والشفقة والفطرة السليمة وحماقة الناس الذين يبجلونهم ، وهم يمثلون الشكل " الكاريكا تورى " وأيضا الشكل المثالى للحياة الداخلية للسودانيين .

ويتفاوت هؤلاء الرجال في النمط والاتجاه ، لقد عاش البعض منهم حياة سُكرديني والبعض عاش حياة تتسم بالاعتدال ، وكان البعض زهاداً يعيشون في خلوة وتقشف شديد ، واستمتع أخرون حتى الثماله بأبهة وخيلاء الدنيا ، وقد عم التصوف السودان بشكل كامل لدرجة أن معظم ممثلى الشريعة كانوا أيضا هم ممثلى هذا المظهر المتعمق للحياة الدينية ، لذا فقدا وعى معظم رجال الدين هؤلاء بأنهم يملكون حسن الاطلاع على كل من القانون الرسمى والصوفى من معلمين مجازين ، يذكر ودضيف الله اسماؤهم بشكل مطرد . وخيرمثال على ذلك هو خوجلى بن عبدالرحمن (توفى عام ١٧٤٢م) .

والشيخ خوجلى ولد بالجزيرة توتى وبدأ الكتاب عند الفقيرة عايشة بنت ولد قدال ، واخذ علم الكلام والتصوف وهو ممن جمع بين التصوف والفقه (٢)

ومع ذلك فالبعض لا يعتبر أن جفاف الدراسة القومية أمر ينسجم مع التقدم في طريق الصوفية . فالبعض كان حيًا تماماً . ويرى أن أحد الأولياء قرأ القرآن حتى سورة الزلزلة وبعدها ترك الدراسة . وينسب إلى عبدالرازق أبوقرون (توفى عام ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م) أن :

---

(١) درس الطبقات كل من هـ ٠أ . ما كما بكل (Histii ,ii - 3o6) وس . هلسون S.N.R vi .191-203 وقدم كلاهما اقتباسات وافرة ، كما ترجم ونشر هللسون سيرتين في كتابه :
Sudan Arabic Texts, pp.172-203
وهناك طبقتان من الطبقات إحداهما طبقة منديل * (١٩٣٠م) ، والأخرى طبقة إبراهيم صديق(١٩٣٠م) وسنشير اليهما فيما بعد بـ « م » لنسخة منديل و « ص » لنسخة صديق . إن عربية الكتاب مشوقة جداً لأن أسلوبها العامى متحرر من اللغة الطنانة للمدرسين ، وهو يختلف بشكل جوهرى عما كتب الأولياء الآخرون كالشعرانى ؛ إذ كتبهم مؤلفة أساساً من « أقوال » بينما يشتمل كتاب ود ضيف الله اساساً على التراجم الذاتية .

*أى سليمان داود منديل [المترجم]

(٢) الطبقات . م ٧١ ، ص ٧٤

حوار الشيخ باسبار اسمه علي ولد مُرُج لما رأى إقبال الناس على عبد الرازق للدعاء والتبرك به قال : كيف الناس يتبعون رجلاً أمياً ، تزاحم الناس هذا أحق به باسبار - وقرأ عبد الرازق أفكاره وقال له : الله يريك ما شافت عينك فمسكه ووراه الكعبه عيانا [1] .

ونقرا أن عبد الماجد بن محمد الأغبش (توفى عام ١٧١٠م) كان :

ممن جمع بين العلم والعمل واتباع الكتاب والسنة لا تلخذه في الله لومة لائم وكان من أرباب المكاشفات يخاطب الناس على ما في ضمائرهم ، وقال لتلامذته اولاد الفقيه السميح سعد وحماد لما شاوروه على قراءة « خليل » في القوز . فقال لهما امشوا تزوجوا والدوا لكم جنا يخلفكم لان عمركم سيكون قصير لدراسة « خليل » فكان الأمر كما قال . فاخذوا في « خليل » ثمانية ختمات فتوفاهم الله تعالى [2]

وللسودان نظرياته الغريبة فيما يتعلق بالأولياء . يقول ادريس ابن الأرباب :

درجات الأولياء ثلاثة اقسام : عليا ووسطى وصغرى . فالصغرى أن يطير في الهواء ويمشى على ظهر الماء وينطق بالمغيبات . والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية : اذا قال لشئ كن فيكون ، وهذا مقام دفع الله ولدى . والكبرى وهى الدرجة القطبانية [3]

وغير واضحة بالمرة نظرياتهم بشأن القطب ، وقد سئل الشيخ حسن ود حسونه عن مقام موسى بن يعقوب فقال : « هو فى مقام الفرد . ومقام الفرد عند الصوفية غير القطبانية والأوتاد الأربعة والنجبا السبعة والأربعين البدلا فهم على عدد الذين اشتركوا معركة بدر (أى ٣٠٠) فهؤلاء للقطب بمنزلة العسكر [4]،وهو يشير هنا بوضوح إلى القطب بأنه محور الكون ،، ولكن عندما يطلق على الولى فإنه يعنى أنه وصل إلى هذه الدرجة الثالثة للقدسية ، كما يلقب ود ضيف الله موسى بن يعقوب هذا بأنه القطب الربانى والغوث الصمدانى ، ومرة أخرى فقد لا يعنى أكثر من كونه « خريج » لأننا نقرأ عن دفع الله ود إدريس أنه عد من بلغ من تلامذته درجة القطبانية فى العلم والدين والصلاح لا القطبانية المعلومة عند الصوفية نحو الأربعين ،، [5] ونقرأ فى الإجازة التى منحها عبد الرحمن بن جابر إلى ابراهيم ولد أم رابعة « جعلته قطبًا فى مكانه [6] ».

كيف أصبح السودانى وليًا ؟ عند فحصنا لحياة هؤلاء الأولياء نجد أن العديد من أعضاء أسرة الولى يتجهون لأن يصبحوا أولياء ، وتبدو النزعة كامنة فيهم ، ولكن قد

---

(١) الطبقات . م ٧١، ص ٧٤

(٢) المصدر السابق . م ١٣٥، ص ١٤٢ . يقدر عبد القادر الجيلانى أن الله خلق ٧٠٠٠٠ حجاب من الضوء والظل بين المؤمن والكعبة .

(٣) المصدر السابق . م ١٢١، ص ١٢٩

(٤) المصدر السابق . م ٧٩ - ٨٠ ، ص ٨٦ . وينظر أيضا ترجمة عووضة بن عمر منه بن حمر، الولى المذكور هو دفع الله بن محمد أبى إدريس .

(٥) تطلق كلمة قطب فى الاستخدام الحديث على الشخص ذى المكانة والشهرة فى مهنته ، مثلا هو قطب من أقطاب السياسة .

(٦) الطبقات . م٣٢، ص٣٣

تصبح واضحة من خلال الاصطفاء أو التمرينات الخاصة . إن خليفة الولى العظيم – الذى يكون عادة من أسرته – يرث بشكل آلى بركته إلى جانب المنصب – ويبدو البعض وكأنه حصل على القداسة عن طريق الزهد الصادق – وقد حدد البعض احتراف الحياة الدينية على أنها مهنة ، حيث المهن القليلة الأخرى مفتوحة للتظاهر بالزهد وممارسة السحر، وهناك إشارات للنساء القديسات فى مصادر الطبقات ، ومع ذلك فالمؤلف لم يذكر أى إشارة عنهن فى ترجماته [1].

وهناك عدد من الروايات فى الطبقات عن البادرة الأولى للإشارة الروحية للإنسان الذى تم اختياره ، وسوف نجد أن لا مجال للجدارة الشخصية ولا الاكتساب بالتقدم من مرحلة (مقام) إلى آخر فى بلوغ الفناء فى فلسفات الصوفية . ويمكن إحراز الفناء بدون أى إعداد ، [إن " جذبة " من الله تساوى كل أعمال البشر والجن] والتجليات هى الحجة التى يدعيها هؤلاء الأولياء ، وما زالت التجليات تلعب دوراً مهماً اليوم فى الحياة الدينية للسودانى . والتجلى فى العديد من الروايات هو الطيران خلال العديد من السماوات ومقابلة النبى ، لأن رؤية النبى هى رؤيا حقيقية لأن الشيطان لا يتخذ صورته [2] ولهذه الرؤيا علاقة بالمعراج ، وسوف يتابع المهدى فيما بعد النظرية نفسها ، ولا يوجد شك بشأن حقيقة حدوث هذه الرؤيا والهلوسة ، لأن درويش اليوم الذى يعيش فى حالة تنويمة مستمرة لديه رؤيا مشابهة ، وهناك مثال من القرن التاسع عشر رواه أحمد الهدى مريد محمد بن المختار (توفى عام ١٨٨٢م) الذى أدخل الطريقة التيجانية إلى السودان .

> **لقد وصل إلى حالة « الجذب » النهائية وتجول فى العديد من الأقطار ووصل إلى حالة الفناء . وقد اعتاد الدخول فى حالة الغشية والبقاء هناك والسجود على الأرض لا يأكل ولا يشرب ولا يسترد الوعى لمدة اربعين يوما إلى أن يتحد مع شيخنا الذى أتم تربيه وعندما اعتاد السيد (احمد بن المختار) التحدث حول التنوعات المقدسة لزعيم العلماء فإن الحديث يعلو ويعلو حتى يرقى إلى ما فوق مداركهم . لذا فقد اعتاد أن يقول الآن أنت لا تفهم ما أقوله ، ولكن هذا الشئ الذى لا حياة فيه والذى يجلس هنا يفهم ، ويشير إلى احمد الهدى الذى تملكته الحالة . لذا فالناظر اليه يعتقد أنه لا حياة فيه [3]**

وتبرهن الرؤيا الخاصة عن كيف جاءت الاستنارة لأول مرة إلى شرف الدين وكيف أتاه النداء دون أن يطلبه للسير فى الحياة الدينية ، وقد رواها إلى ود دفع الله والده كما يلى :

---

(١) ينظر تعيين أبو دليق لابنته عائشة – الطبقات م ١٦ ، ص ١٨.

(٢) فى صحيح البخارى عن أنس أنه قال قال رسول الله (ص) من رآنى فى منامه فقد رآنى لان الشيطان لا يتصور بصورتى»

(٣) Ar-Risalat as-Sadisa, p. 20 .

وسبب بداية امره حدثني بها الفقيه حجازى سبط الشيخ ادريس قال حدثني الفقيه عبد الرازق ولد عويضة انه قال : دخلت خلوة عبادة واصابني جنبا (ألما) واتعبني حتى مرقت من الخلوة والشيخ شرف الدين نازل في الحجير فخرجت لزيارته ، فوجدته راقد في راكوبة قدام البيت والناس حالقين عليه وهو مقبِّل القبْله . قعدت وراء الناس قلت يفرغ منه ازوره . فتا غمني بقفاه قال : الزول عبد الرازق ، (قلت نعم) وانت يا عبد الرازق يمرقك من الخلوة جُنُب (ألم) قال لراجل جالس في وجهه يا محفل أنا سبب اخذى الطريق من الشيخ عبدالله الحلنقي خطبت بنت خالي . خرج معاى ولد خالي مسافر الى الصعيد استاجر على القراءة احصل شيئا استعين به على تزويجها . فلما دخلنا ابو حراز الجلابة سبقتنا ولد مدنى . قلنا هل نزور الحاج عبد الله ونلحق الجلابة - فوجدناه راقد في ظل المسجد يعصره فقيراً - ناغمني بقفاه قال الزول شرف الدين ولد برى ، قلت نعم : لى ثلاثة أيام جاني رجل من الصالحين فقال لي ولدى مسافر الى الصعيد احجزه وسلكه وارشده . جابوا لنا طعاما اكلنا قال لى اخواني حصل خير كثير . قلت لهم ما بدور خير فوق بنت خالي ، ثم قال لى قم غسل هدمك واغتسل تعال . قال ففعلت ذلك فوجدت عنده قرعه ملانه لبنا وسلق لى سلقه واعطاني سبحه الفيه وقال لى : ادخل خلوة ثمانية ايام والحى القيوم دبر كل صلاه خمسين الفا . فجاني في الخلوة شخص شايل عصا من حديد فضربني بها ، فما تركت وردى أوردة وانا راقد نهارة الثامنة جاني فقير فقال : الشيخ بناديك . فوجدته توضا لصلاه الظهر فلحرم لها فلما احرمت خلفه رأيت العالم من العرش الى الفرش ، ورايت جميع ما في عقول الناس فحصل لى انقباض عن الناس . فلا منى بعض الفقرا على ذلك فقلت لهم حصل لى كذا وكذا فقالوا : نحن طلبنا هذا ما وجدناه فبمجرد الكلام انقطع منى ذلك المدد . فان الشيخ سألني فقال لى أى شئ رايته في الخلوة فقلت كذا وكذا فانقطع من أول ما اخبرت به الفقرا فقال لى : انا ريك إنت مطموس ماك محل امانه فبكيت بكاء شديد ثم قال لى : أمشي غسل هدمك واتبرد تعال فدخلت الخلوة ثانيا ، من فضل الله الشفتو ما انقطع مني [1]

وقد تعتبر الرواية التالية لتحول المسلم الصغير تحولاً سودانيًا يشابه تحول الغزالي :

وسبب بدء امره بعد ما فرغ من قراءة « خليل » و« الرسالة » سافر الى الشيخ دفع الله العركى بن الشيخ أبو ادريس ودخل في خلوة معلم الصبيان . وقال له أنا جئت من البادية - بداله من الف ب ت ث والصبيان يمشوه في لوحه ويضحكوا عليه وجاء الشيخ ووجده على تلك الحاله . وقال له : تعال يافقير انت ماك عالم ؟ قال : لا ، قال : انا بشوف عليك أثر العلم . اما صدقتنا ما تنتفع مننا ، فقال له : علمى ما نفعنى ، حيث بدور مددكم . فسلكه طريق القوم وذبح له شاه وامره باكلها ودخله خلوه سبعه ايام فخرج منها ينظر في العالم من العرش الى الفرش [2]

(١) الطبقات . م ٩١-٩٢-، ص ٩٨-٩٩ - وقد ترجم هيلسون (SNR. ,VI . 213-17) ٧١ روايات عن مجئ الاستناره إلى حسن ود حسونه وصالح بن بان النقا

(٢) الطبقات = . م ٢٢، ص ٢٤ .

ويوجد بين هؤلاء الرجال أولياء ذهبوا لأبعد مما ذهب إليه الحلاج في تطابقهم مع الله بمزية بلوغهم درجه الفناء . « قال الشيخ بلل الشيب بن الطالب أبوى دفع الله اسم الله الأعظم » وكان إذا كتب حجاباً لم يكن يكتب فيه جميعه سوى « دفع الله ، دفع الله ... » [1]، ويدعى هؤلاء الاولياء ، مثل المتصوفه في أي مكان أنهم لا يخضعون لأحكام الشريعة التي تحكم حياة الناس العاديين ، وهؤلاء الرجال عندما ينتهكون الشريعة بالفعل يسمون « ملامتية » [2] ونقرأ عن محمد الهميم أنه :

> كان من الملامتية : طايفة من الصوفيه تفعل اللوم وتخالف الشرع فتنكر الخلق عليهم بيعضهم . يعطب المنكر عليهم ويعضهم قصدهم انكار « الخلق » عليهم هضما للنفس خوف الشهرة [3]

قيل لنا أن محمد الهميم استولى على محظية شخص آخر، وتزوج الأختين وكانت له سبع زوجات في وقت واحد وكلها أمور تتعارض مع الشريعة ، وفي الاحتفالات بزواجه من حليمة – ابنة مك عطبرة – واحدة من ثمانين امرأة تزوجهن – غنت السراري :

> الشيخ يعبد الله ويلعن إبليس .. ويكون لحليمة طايعا حنيس فقال : هي كدى [4]

وتظهر الكرامة لهؤلاء الرجال بطريقتين ، ويؤمن كل الأولياء بأنهم يحوزون « علم الولي » ، والاتحاد بحرية مع النبي والخضر والقطب والأولياء البارزين الآخرين « رجال الغيب » حيث يتحدثون بصراحة عن الأشياء الخفية ، كذلك عن امتلاكهم قوة عمل المعجزات أو أن الله يقوم بعمل المعجزات لمصلحتهم وهذه تسمى « بخوارق العادات ».

وتتوقف القدرة على صنع المعجزات على قوة بركة الولي ، ويتجه الولاء السوداني دائمًا نحو الأشخاص ، وهم يتحدثون اليوم عن الشفاء بالعزيمة « إن البركة في

---

(١) الطبقات : م ٨٠ ، ص ٨٦ . ترجمة دفع الله بن محمد ابو ادريس . وتسمى أقوال الشخص الذى في حالة التجلي الصوفي بالشطحات
(ينظر As-Saraj ,Kitab al-Lumá Fi,l -Tasawvf,edit,R.A.Nichdson,pp.375-409) وتطلق الشطحات في السودان على أي نوع من الأقوال المتطرفة أو الأشعار التي يتفوه بها اثناء الانجذاب في الذكر . ويورد الطبقات بعض الأمثلة . ونقرا في مجلة التيجانية (العددالرابع ص ٢٢) عن الشيخ محمد الخير أنه عاش في حالة فناء أبدى في مجتمع شيخه محمد بن المختار الذى أدخل الطريقة التيجانية إلى السودان خلال الحكم التركي –المصرى ، ونطق بشطحات – مثل « اليزيد هو أبي والمتصوفه كلهم سكارى . »

(٢) اعتبر الصوفي أنه متحرر من قيود الشريعة لعلاقته الخاصة بالله ، ولأنه واحد مع الله ، فإنه يطيع قوانين الله بالطبع ، وقد وجد البعض أن هذه حجة مفيدة ليحيا حياة فاسقة تحت قناع وذريعة القداسة . ويكتب على الجويرى الذى يهجر القانون ويرتكب فعلاً غير ديني ويقول أنه يتبع حكم « اللوم » هو إنسان مذنب ومرتكب عمل واضح وشرير ويطلق العنان لأهوائه ورغباته وشهواته. Kashf al Mahjub, edit, R.A Nicholson, p.65.

(٣) الطبقات . م ١٤٢ ، ص ١٤٩ أنظر كذلك رواية اسماعيل بن الشيخ مكي الدقلاشي م. ٢٧ ص ٢٩

(٤) المصدر السابق . م ١٤٢ ، ص ٢٩

الكفوف موش فى الحروف » ،ولكن بعض الطرق تؤمن بأن البركة فى«الحروف » (مثلا استنشاق بعض النصوص المحروقة) . إن اجراء العملية مرتين لهو أمر ضرورى ، أى تفاعل بركة الفكى فى الرمز .

إن بركة الأولياء لامتناهية فى تنويعاتها ، وأشهر أولياء الجزيرة هو حسن ود حسونة (توفى عام ١٦٦٤م) الذى قدم جده من أسبانيا ، ويمكن تفسير بعض كراماته نفسياً ،ولكن الكثير منها روايات مشوهة أو مبالغ فيها لأحداث بسيطة أو لتلك الحالات العامة للانجذابات الصوفية أو بشكل أكثر عمومية من اختراعات أتباعه ، وقد يكون مشوقًا أن نورد بعض الأمثلة من كنز الطبقات نظراً لأنها على شفاه الناس بشكل مستمر ، كما أنها تساعدنا لفهمها ، ويمكن ترتيبها تحت المجموعات التالية :

١- الشفاء المألوف بالعزيمة ، ومع ذلك فهناك مثال للشفاء بالوسائل النفسية - عندما تفشل العزيمة - قام بها خوجلى بن عبدالرحمن الذى توفى عام ١٧٤٢م والذى توجد قبته فى الحلفاية ، وقد عد واحداً من أعظم الأولياء :

فاطمة بنت عبيد مرضت مرضا شديدا اشرفت علي الموت ، وجا الفقيه النور (الى الشيخ خوجلى) وقال له : يا سيدى الشيخ حسن احيا الميت دا الحين دايرك تسئل الله لها ان يحييها نانر لك بفرضها قسم الله وانه عزم للفقيه النور فى ماء الركوه وغروها بالماء فمجته لأنها (على عتبة الموت) فان آخر الليل خاطبت النور بصوت هادى وقالت : انا طيبه ، فانى رأيت الشيخ خوجلى واقف عند الصندوق فوكزنى بعصاه وقال لي : قومى ثم ان النور قام فى ليله وركب وسار الى توتى فوجد الفقيه احمد بن الشيخ قدأم المسجد وقال له : البشارة بنت عبيد طيبه . وقال احمد :الفقيه ساد الخلوة عليه الى الآن - وقال (لى) انا غلبان كنا انا وملك الموت نتنازع فى روح بنت عبيد فتركها لى (١)

٢- المكاشفات ، وهى معرفة الأشياءالخفية والأفكار والمستقبل والاستبصار والمواهب التلباثية .. و .. الخ ، وهذا مجال واسع . إليك مثال شائع وهو التنبوء بالمستقبل :

مرض الشيخ بان النقا مرضا شديدا فعاده بعض اخوانه فقالوا له انت مرضان ما عندك ولد دكر ولادتك كلها بنات فقال لهم : زوجتى بنت صالح حامل بتجيب ولد ما يموت حتى يبقى طول السيف ، فكان الأمر كما قال . لان ابنه الشيخ صالح يروى ،، فبعد وفاة ابى مكثت سبع سنين حتى بلغت الحلم (٢) .

---

(١) الطبقات : م ٧٥ ، ص ٧٨ - ٧٩

(٢) نفسه : م ٣٦ ، ص ٣٨

ويروى المسلمى أنه

« خـرج بفـقـراه ونزل عند رجل منفـرد عن النـاس وتـأسف الرجـل وقـال : الما عنده جـمـاعــه ولامــال هـل يبكـى على عــمــره عــمــال – فــالمسلمى كــاشــفــة (قـرأ أفكاره) وقـال له : الجـمـاعـة مـا بتنزل والمال مـا بدوم . الما عندو ذكر الله يموت مغمومًا نحن (راضين) على أنفسنا [1]

٣- تبديل أنفسهم أو الآخرين أو الأشياء ، فنقرأ عن على اللبدى أن :

عبد الحفيظ بن الخطيب ابو عمار طلب يد اخته التى يسمونها لبدية وكلمته امه وقالت له يا مجذوب اختك بتزوجها ابن الخطيب ، اين السمن و العسل ؟ قال لها جيبى زير سقيه واملوها ماء . ثم قال لها : جيبى آخر فملته كذلك . ثم قال لها جيبى ثالثا فقعدت تضحك عليه هي والنساء . قالت له : املا الاثنين . قال لها : جيبى ثالثا فضل المولى كثير . فامتنعت عاداه كلام غيبه – ثم أدخل عكازه فى الزير وسـاطه يمينا وشمـالا وقـال « بسم الله الرحمن الرحيم ا ب ت ث ج ح خ » فانقلب ذلك الماء سمنا اصفر له بريش والثاني عسلا . ثم قالت له بجيب لك الثالث قالها فات ذلك ، ثم زوجوا عبدالحفيظ الى لبديه [2]

وهـم يقولون اليوم عن أى فكى قوى أنه « فكى يروب المويه »

٤- السـيطرة على العناصـر : الطيـران – السـيـر على الماء – السـيطرة على الحيوانات والأشياء الجامدة :

هجا بن عبد اللطيف بن الشيخ حمـد ولد زروق ولد بشمبات . وظهرت له كرامة عظيمة عجيبة بشهادة الشيخ خوجلي – قال : تزوج امرأه فى توتى اسمها زينب بنت بله ، وتوفى العصر ما امكن الناس يمرقوا نعشه لضيق النهار والبحر ملان فى الصيف – (والناس محتارين ماذا يفعلوا) قال ثم ان الشمس انقلبت الي محل الطلوع (من الغرب إلى الشرق) فحينئذ مرقوا جنازته ودفنوه فى الشرق مع اباته – قيل للشيخ خوجلي : شفت بعينك أو سمعت ؟ قال شفت بعينى . انا معاي الجنيات نلعب الضقل الناس قاعدين قدام المسجد فى ظل عشية ، ثم ان ناس البكاء قعدوا فى ظل الضحى ووراء المسجد وشفت النساء تركن البكاء وزغرتن زغاريت الفرح [3]

ونجد هنا قصة طيران متعلقة بمحمد قيلي يرويها موسى ود ريه : قال خرجت من الحلفاية مسافر الى الريف (مصر) ومعهم فقيرا يقولوا له ولد فكّة سافر الحج ونزلنا فى خلوات الشيخ محمد قيلى . قال منتظرين الجلابة نصلى معه الاوقات الخمسة فذات يوم جينا منتظرنه لصلاة الصبح فشفناه جاء طايرا بين السماء والأرض فنزل عند باب خلوته فخطا خطوتان عند نزوله كالصقر ثم دخل خلوته فلم يصل معنا الصبح . فاما ولد فكّة بمجرد رؤيته له طايرا خرج هايما من وقته . وانقطع خبره فلم نعرف هل حيا أو ميتا . فخرج (الشيخ) من الخلوة منقبضا وامرنى بكتم ما رأيته منه [4]

(١) نفسه م ٢٣ – ٢٤ ، ص ٢٥
(٢) الطبقات . م١١٢ ، ص ١١٩
(٣) نفسه : م ١٦٩ ، ص ١٧٨
(٤) نفسه : م ١٥٨ ، ص ٥١ – ٥٢

٥- إحياء الموتى : وهى متصلة بحسن ود حسونه متعدد المواهب :

واحيا عفيشه ولد ابكر غرق فى بحر الخشاب فمكث فى البحر ثلاثة أيام وانقضى نحبه ، وقالوا له صلى علي حوارك فقال انا مان حسن الاول عند سيدى (ربى) انا حوارى غرقان له ثلاث أيام ما أخبره فلما راه قال له قم . فقام فتمالت روحه (انتشرت روحه في جسمه) وتزوج بعد ذلك وولد له ولد اسماه ابكر .... وقد ذكر ان الشيخ دايما راسه كاشف ما بتقنع قالوا قال الشيخ ادريس : الشيخ حسن ان إتقنع الميت ان قال له قوم يقوم . فجاء رجل شايل طيرات ميتات علي رأسه اخذها منه فوضع كم قميصه على راسه فطارت (١)

ولا تستعمل هذه البركة لفعل الخير فقط ، بل قد تستخدم بشكل مهلك لمعاقبة فاعلى الشر ، ويسمى الولى فى هذه الحالة « عطاب للظلمة »

بدوى ولد مرناتي غصب دارا من حوار له اسمه أبرق ابو شعيان ، فارسل اليه الشيخ فيها فملا يده تربا وقال : اديه دى . فلما سمع دعا عليه وقال له : تدخل فى حلقك وتمرق بدبرك فى الوقت والحين ، خرج التراب بدبره فى وقته توفى فركب الشيخ علي فرسه الشقرا ورد البحر وكجروا

(وضعوا) له الفركه للبراد فجاء اخو بدوى وصايحه بالشرق وقال له : يا هذا الزول البكا العلى ناس بدوى شنو ؟ فلم يكلمه - ثم كلمه ثانيا فقال له : بدوى لحيقا له (اذا اراد الله سوف تلحقه) فمات فى الوقت والحين فدفنوهما الاثنين جميعا (٢)

ويبدو أنهم استخدموها ايضاً لأغراضهم الخاصة ضد الشخص الذى يضايقهم ويستخدمونها ضد أولئك الذين لا يؤمنون بهم ويسخرون من مزاعمهم . والسودانى حساس جداً للإيحاء ولعنه مثل ذلك الرجل ، وهو يؤمن بالقضاء والقدر الذى يحفظه عن السؤال عن الأفعال التى نعتبرها لا أخلاقية ، ونقرأ فى ترجمة شرف الدين عن اللعنة القريبة من المعجزة :

ووقعت له كرامات كثيرة منها انه ظهر فيه حلق (مرض الزهرى) كثير فامتلا جلدة منه . وناس نسري قالوا الشيخ حلّق فدعا عليهم قال : اللهم ان كان ما مشيت له فى محله (أى أننى لم ازور مكان الزهرى) ابتليهم به ببركة الشيخ على ولد برى . فجميع من فى نَسري حلّق الآدمى والبهايم والاطفال حتي الشجر كله إملا درادم (٣)

وتستمر عملية التقديس بعد وفاة الولى ، وتتم باستمرار إضافة أولياء جدد إلى القائمة فأم درمان التى تعد مدينة حديثة (٤) وتعتبر اليوم المركز العصبى للحياة الدينية

(١) الطبقات . م ٤٩ ، ص ٥١ - ٥٢

(٢) نفسه : م ١٣٧ ، ص ١٤٥

(٣) نفسه : م ٩٢ ، ٩٩ . ينظر كذلك رواية على ود عشيب م ١٠٧ - ١٠٨ ، ص ١١٤ - ١١٥

(٤) كانت أم درمان قبل المهدية قرية غير مهمة ، وجاء ذكرها لأول مرة فى الطبقات على أنها محل إقامة حمد بن محمد (١٦٤٦ - ١٧٣٠م) ، ويوجد قبره جنوب أم درمان حيث تسمى ود أم مريوم ، ونمت أم درمان خارج المعسكر الذى نصبه المهدى هناك لحصار الخرطوم .

السودانية تضم الآن ثلاث قبب، والعديد من الأضرحة الأخرى وعلى الأقل مائة « بيان »، وإحدى تلك القبب هي قبة قريب الله (توفى عام ١٩٣٠م) خليفة الطريقة السمانية ، ويسمي أتباعه فرع طريقته بالقريبية ، والآخريان هما قبة دفع الله الغرقان (توفى عام ١٩١٧م) شيخ الطريقة القادرية وتلميذ محمد بدر وقبة ود البدوى (توفى عام ١٩١١م) وهو ليس وليًا ولكنه كان شيخ العلماء فى الأيام الأولى للحكم الحالى ، أما فى الجزيرة فهناك خليفة اليعقوبابية الشيخ هجو عبد القادر الماسى (توفى عام ١٩٣٠م) الذى اعترف به وليًا فى حياته [١]

وفتحت فكرة المسلم عن الإنسان التقى مجالاً واسعًا للدجل ، وعاش العديد من الذين اتخذوا هذا الوضع حياة لا أخلاقية ، وهناك دائما البعض الذين يستحقون الاحترام مثل قريب الله الذى عاش حياة تقوى وزهد حقيقية ، ثم هناك مجموعة كبيرة من الفقراء الذين لهم سمعة حيازة البركة والقوى السحرية . وتضم هذه المجموعة رؤساء طرق الدراويش الذين لهم فى السودان ضغط قوى عليهم ، كما أنها مهنة العديد من أسر الفقرا ، وهم يتفاوتون من مكان لآخر . وهم فى الجزيرة صادقون فى حسهم الإسلامى ، أما فى كردفان فهم مشعوذون بشكل عام يعيشون على الشعب بذكائهم ، زيادة على ذلك هناك الدراويش والمعتوهون الذين يمكن تصنيفهم معًا . وقد مات مؤخرا معتوه كان يتجول فى أم درمان وكانت النساء تسميه الولى داود،وتنطبق كلمات « لين » على السودان أيضا عندما كتب أن « معظم المحسوبين أولياء فى مصر إما مجانين أو معتوهون أو دجالون » [٢]، ومن الأفضل قول شئ بشأن الطراز المتميز للولى الحى . فمن النادر إطلاق اسم الولى على إنسان حى ، ويتم حجز الاسم حتي يثبت – بعد وفاته – أحقيته فى اللقب ، وذلك بالممارسة المستمرة للقوة من قبره . إن المصطلح العام هى كلمة الفكى الغامضة [٣] التى اطلقت بلا قيد على العالم والصوفى وبدرجة أدنى على رجل الدين المراوغ الجاهل وعلى البائع المريب للتعاويذ والأحجبة [٤] وما زالت ملاحظات الكونت دسكابراس ديلاتور،جيدة بالنسبة لجزء كبير من السودان :

---

(١) عاش هجو فى جوف شجرة تبلدى أثناء فترة المهدية ، وقد دخل الشجرة عن طريق شق ثم غلقه فيما بعد ، وتم بعد سنوات فتح الشق مرة أخرى . وقد حقق شهرة جعل اليعقوباب يطلبون منه أن يصبح شيخهم .

(٢) Modern Egyptians (Everyman), p.234.

(٣) الفقيه فى الأصل هو القانونى . وقد حرفت الكلمة فى السودان إلى فكى دون معني محدد ، ومع ذلك فيبدو أنها أرجعت جزئيًا إلى المعنى القديم بمعنى الحكيم،ولا تجمع على فقهاء وانما تستخدم بدلاً من ذلك كلمة فقرا (ج . فقير) يقولون مثلا «ودر كل ماله فى الفقرا» وفقير تعنى عادة الدرويش مع ذلك فإنها تطلق أحيانا على الفكى وقد تعنى كلمة فكى فى بعض اللهجات العربية معلم الكتاب وهى إحدى استخداماتها فى السودان .

(٤) S. Hilleson, J.R.A.S., 1931, p.664

نجد فى القرى رجال دين من الدرجة الثانية ، رجال دين مساكين غير معروفين فى أى مكان آخر يسيطرون على السكان بالثقة السائدة فقط ، يعيشون على الصدقات والحرمان ..... ويسمى رجال هذه الفئة بالفقرا ، والعديد منهم حج إلى مكة ، وكلهم يعرفون القراءة وكلهم يقرأون القرآن وبعضهم يحفظه عن ظهر قلب ، ولكل قرية فقيرها وهو الذى يعلم الصبيان القراءه والكتابه ، ويشرف على الزيجات والجنازات ويتولى وظيفة القاضى فى حل المنازعات البسيطة ، ويضيف إلى هذه الوظائف تلك المتعلقة بطرد الأرواح الشريرة . وهو يستحضر بجانب سرير المرضى الشيطان الذى يثيرهم ، ويكتب على قصاصات من الورق سورة الفلق والطلسم الذى يحمى من يحمله من وسوسة أعداء الإنسان ، وحتى - طبقًا للبعض - من الجروح والأمراض التى قد يتعرضون لها ، كما يجنى من بيع هذه الطلاسم بعض المال الذى يمكنه من الحياة . إن هذه الصناعة بريئة تماما ، إذ إن هذه الطلاسم لا تضر أحداً وتحقق دائمًا تأثيراً مرضياً على التخيل ، إلى جانب أن الفكى لا يقصد خداع الآخرين ، وهو يؤمن بحماس بقوة تأثير التعاويذ ، كما لا يقيد نفسه دائما بطرد الأرواح الشريرة عن المرضى أو يجهز لهم قصاصات من الورق أو الماء الذى غسل فيه التعازيم الدينية . إذ دائما ما يضيف إلى هذا الدواء الخادع استخدام عطور النباتات التى درس فعاليتها عن طريق ممارساته وخبرته الطويلة أو تقاليد أجداده (١).

وبينما معظم هذه الأشياء ما زالت صالحة فمن الحكمة إذًا الاستفسار عن صفة الفكى إذا ما قيل للمرء إن الفكى هو كذا وكذا ، إذ للكلمة العديد من المعانى .

١- إذا قدم طباخك سفرجيا جديدا وقال إنه فكى ، فمن المحتمل أن كل ما يعنيه هو أنه « راجل تقى » ، هنا مرة أخرى يجب أن يحاذر المرء من قراءة المعنى الخاطئ لمصطلح « تقى» ، إذ المعني ليس أكثر من أنه دقيق فى الحفاظ على ممارسات الشعائر الدينية ، وليس أنه أمين أو جدير بالثقه . ٢- وقد يكون « مداوياً » وهو فى حد ذاته رجل دين فى المقام الأول مهمته تجهيز التعاويذ الواقعية للشفاء عن طريق الصلاة والتعاويذ والتعازيم ، أو - فى حالة المرض الخطير - بوسائل التعاويذ الأكثر إتقانًا . إن هذا النوع من الولاية وراثي فى العادة ولسلطته الكثير لتقوم به ، ويأتى تعزيزها بالرعاية الروحية ، وإن كان ضرورياً ببعض المظاهر الخارقة للطبيعة . وبالرغم من أن الناس يستخدمون بشكل متزايد المستشفيات فى حالة المرض ، فما زالوا يزورون الفكي لجعل الشفاء مضاعفًا ، كما يؤمنون أيضا أن بإمكانهم اكتشاف اللص وتحديد مكان المسروقات وعلاج تأثير العين الشريرة . ٣- المتقلدون لمناصب معينة مثل رئيس الطريقة الصوفية ، وتظهر هنا مسألة القوة غير العادية ، لأنه يرث بركة سلفة الولى

---

(١) De lautur, le Dèsert et le Soudan, 1853, pp. 446-8

المتوفى وكان مؤسس الإسماعيلية معروفًا دائما فى حياته بالفكى إسماعيل [١]. وقد نجد فى هذه المجموعة نساء من أمثال علوية ومريم الميرغنى ومرة أخرى يطلق اللقب على حارس القبة وهو دائما ما يكون من ذرية المتوفى . ٤- أخيراً يطلق على ناظر الخلوة أو المدرسة القرآنية ، وهو ما زال شخصية مهمة فى مجتمع القرية ، ويحاول بالقليل من المعرفة تدريس القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن كما يعمل إماماً فى صلاة الجماعة. وكانت مهام ١و٤ فى القديم متلازمتين ، أما الآن فهمامتشابكتان بشكل كبير ، ومعظم فقرا الخلاوى يمارسون التداوى إلا أن ممارسة هذه المهام التى يقوم بها هؤلاء الفقرا لا يشجعها أى شخص تلقى تعليماً حكومياً عاماً ، ومع ذلك فإن الانتشار التدريجى للتعليم الحديث قد خفف من نفوذهم وسط قطاعات محدودة من السكان ، وما زال للفقرا سلطة فى البلاد.

٣- الأضرحة والممارسات المرتبطة بها

قد لايكون الناس متأكدين دائمًا من فعالية بركة الفقرا الأحياء ، ولكنهم يثقون ثقة عمياء فى بركة الولى الميت ، ويتحدثون بشكل طبيعى عن «شيخنا» ، ودائمًا كما لو كان حيًا ، ويفترض أنه ينام نومًا خفيفًا ويظهر للناس فى الأحلام أو الأثر ، كما أن قوته المباركة أو التلف تغطى تقريبًا كل صنوف الاحتياجات الإنسانية [٢] ، وقوته مجربة بالمعجزات التى قام بها ليس فقط لمصلحة الأجداد المتفوقين بل للأسرة الحية أيضا ، ومن المستحيل تخيل شئون شخص ما بشكل لائق دون مساعدته سواء أكان شفاء طفل مريض أو الفوز بزوجة أو مباركة الأطفال .

وتوجد مقابر هؤلاء الأتقياء أساساًعلى طول النيل شمالى الخرطوم والنيل الأزرق من الخرطوم حتى سنار ، وهى أقل تكراراً على النيل الأبيض ، وهناك مقابر أخرى موزعة فى معظم المناطق المأهولة ، ودفن فى كردفان الكثير من الفقرا المحليين تحت الأشجار بعلامات من حجرين فقط ، وقليل من الرايات التى ترفرف لتحدد وتعين المكان .

وهناك مختلف أشكال الأضرحة ؛ لأن أى مكان يكون مرتبطًا بشكل ما مع الولى قد يشارك بدرجة ما فى بركته .

١- هناك القبة ، وهى مقبرة مقببة لولى مشهور ، وقد يكون «مبنى جالوصًا مربعًا» لقبة ذات شكل بيضاوى [٣] ، أو «تكل» مرتفعاً ذا شكل مخروطى ، وقد تشيد هذه القبة

---

(١) ديلاتور . مصدر سابق ص ٤٤٨

(٢) بالنظر الى هذا التبجيل الشامل للأولياء من المدهش ان تكتشف ان القول المأثور « أنا قايل فى القبة شيخ » مرادف لـ « ليس كل ما يبرق ذهبًا »

(٣) يظهر طراز هذه القبة السودانية وسط بدو الجزائر سكان الهضبة العليا «ونجد جذور الطراز المحلى للبناء بالطين الموجود فى بلاد البدو بقبب ذات أشكال بيضاوية وميان منخفضة ذات شكل مستدق عادة» (Enc,Is.,suppl.vol.128) ويعطى بوركهارت (Nubia 274) وصفا لمقبرة ذات شكل مخروطى ويقول انه لم ير سوى قبتين خلال زياراته . وتتكون قبةالشيخ إدريس المجذوب فى « كويكا » من مسطبة مدرجة تشبه ما كان موجودا فى الأسرة المصرية الأولى وتشبه القبة العادية الشكل التالى

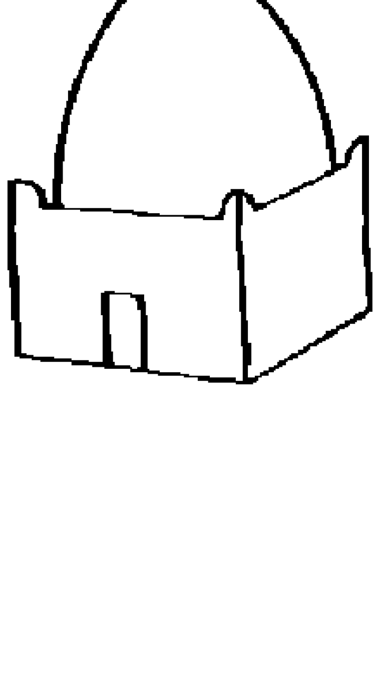

غالبًا فى المكان الذى دفن فيه ، ومن الطبيعى أن تكون بركته أقوى فى المكان الذى عاش وقضى جل وقته فيه ومات فيه ، ومع ذلك فلا ترمز بالضرورة كل قبة إلى مكان قبره ، ولا يوجد فى بعض الأحيان أكثر من ضريح تذكارى أو قد يكون المكان الذى دفنت فيه مشيمة الولى (١). ويوجد واحد من هذه الأماكن فى « الجديد » حيث ولد بكرى ود ادريس وآخر لبكرى بن عبد الله بن حسويه فى سوبا وبكرى الذى دفن في أم لبان على النيل الأبيض . كما نجد فى بارا مكانًا للحسن ابن مؤسس الطريقة الميرغنية المدفون فى كسلا ، وتكون القبة عادة تحت مسئولية فكى من سلالة الولى الميت ، وقد يعين الخليفة فى بعض الأحيان حارسًا يعيش على ما يجود به المجتمع وعلى هدايا الحجاج .

٢- كما توجد مبان مشابهة من الطين ذات سقف مسطح أو « تكل » فى شكل القبة المعتادة (تسمى ضريح) ، والبعض الآخر بلا سقف بالمرة ، بل مجرد تربة مستوية ذات علامة عند الرأس والقدم بحوائط من الطين حولها . وهناك العديد من الأضرحة تسمى « بيان » تحدد وتعلم الأماكن التى يظهر فيها الولى فى الحلم . وأم درمان التي لا يوجد فيها الكثير من أضرحة الأولياء مليئة بهذه « البيانات » ،ويوجد واحد من هذه البيانات خارج منزلى ، وقيل لى إن أحد الناذرين حلم بأنه قابل وليًا يدعى الشيخ مسعود فى هذه البقعة ، وقال له الولى إن بركته ستكون موجودة هناك لمساعدة الناس ولتلقى التكريم ،وقام الرجل من ثم ببناء حائط من الطين ، وتقوم النساء بزيارته ويتركن نذورهن فى شكل قطع نقدية صغيرة أو قهوة أو ... الخ ويقوم فقير أو أطفال بأخذها. ويوجد فى مدنى « بيان » غير عادى للحسن بن محمد عثمان الميرغنى وهذا البيان مبنى بالطوب وله سقف من القصب ، وتوجد تربة فى الداخل - رغم عدم وجود أى شخص بداخلها - مغطاة بعمود أرجوانى فى أحد نهاياته ثقب يحتوى على تراب يؤخذ لتمنح بركته للمريض ، وبيانات سيدى الحسن كثيرة جدًا ، وقد رأيت ثلاثة منها على الأقل فى أم درمان ، ويتم زيارة بعض البيانات لخدمات خاصة ، وهناك واحد فى الخرطوم للشيخ محمود أبو شيبه المدفون فى النوفلاب ويزوره العرسان فى ليلة عرسهم ، وكذلك أضرحة خوجلى وحمد فى الحلفاية .

٣- وهناك أضرحة لا تميزها مبان ولا مقبرة سوى دائرة من الحجارة أو ركام من الأحجار فى بعض الأحيان بعصاة وراية ، وتكون هذه السياجات فى الغالب بيانات أو قد تميز البقعه التى اعتزل فيها الولى أو صنع فيها معجزة .

٤- كما هناك العديد من الأماكن والأشياء المقدسة الأخرى المصاحبة للأولياء أو تكون لها صفات خاصة لبركته أو - فى الأماكن التى ما زالت وثنية - قد تكون الأشياء مثل الأشجار والينابيع والآبار والأحجار التى كانت مرتبطة مع عبادة الوثنى تتجسد أو تتطابق مع الأولياء .

(١) يعتقد سلجمان أنه فى مصر القديمة كان ينتظرإلى المشيمة بشكل مزدوج : جسدى وروحى بالنسبة للوليد الذى قامت بتغذيته (Hamitic problem,p.658) ، ويسود فى أم درمان اعتقاد مشابه وسط بعض القطاعات .

وتعتبر القبة دائماً منطقة محرمة ، وفى بعض الأحيان المنطقة المسورة حولها ، لذا فهى تمثل ملجأً للهاربين من الانتقام أو العدالة . وهناك إحساس عام أيضا بعدم قتل الحيوانات المتوحشة بالقرب من الضريح ، إذ من المحتمل أن يكون لهذا الحيوان علاقة بالولى ، إذ العديد منهم يمنحون حمايتهم لحيوانات بعينها ، وهناك اعتقاد غريب بين البشاريين والعبابدة مفاده أن الحيوانات التى يضحى بهافى الضريح تتحول إلى غزلان أو وعول تتمتع بحماية الولى الذى يعاقب أى شخص يحاول اصطيادها [1] .

كمايحمى الولى أيضًا الأشياء التى تودع عند قبره ، ويقوم المزارعون بترك محاريثهم وأدوات زراعتهم فى حماية الضريح ، ويذكر ماكمايكل أنه رأى أشياء مثل خيمة الشعر والأوعية وأحجار الرحى تركها العرب عند ضريح حسن ود حسونة لحين عودتهم فى نهاية الموسم [2]، وما زال التجار الذاهبون إلى مصر يتركون بضاعتهم الزائدة عند قبر أبو حمد فى الوقت الذى زار فيه كايو المنطقة فى عام ١٨٢١م كما يتم فى الغالب ترك الشعر وقلامات الأظافر والأسنان فى الأضرحة لمنع الآخرين من الحصول عليها لأغراض سحرية ، كما تقى أيضا الأتربة أو الأحجار التى تؤخذ من مقابرهم ، ويتم ربطها عادة بعارضة ساقية غير مستخدمة لحمايتها من السرقة . إن أعظم قَسَم مقدس بالنسبة لمعظم الناس هو ذلك الذى يتم عند قبر الولى (وليهم) ، فى حين لايهتمون بالَقسَم كذباًعلى القرآن .

إن عادة العبادة عند القبور بسيطة جداً فى صفتها ، فهى حرة تماماً وبلا شكل محدد للعبادة ، ومع ذلك نسبة لأن معظمها مرتبط بالطرق ، فهناك أساليب محددة لقراءة الفاتحة وفقرات قرآنية معينة و«مراقبات» [تأملات] ويسمى الذهاب إلى الضريح بالزيارة ، وإذا لم تتم زيارات منتظمة لهم فإن الأولياء يتجهون للظهور فى الأحلام تعبيراً عن اللوم والتهديد ، ويقوم الزائر للضريح بقراءة الفاتحة رافعاً كفيه أمام وجهه ثم يمسحهما بوجهه .

وهناك نوعان من أشكال زيارة الأضرحة : الأول لمصلحة الولى والآخر للزائر . الأول يتم بتأدية مجرد الاحترام للولى بالزيارة وقراءة الفاتحة وتقديم « الزوارة » ، وهى فى العادة عبارة عن طعام أو شمع أو بخور ... الخ . وتقدم الهدايا فى مختلف مراحل العمر مثل حلاقة رأس الطفل والختان والزواج وذلك لتأمين الحماية ، ويؤدى الفشل فى الوفاء بالنذر وقوع الضرر على الطفل . ويؤمن الناس بشدة بأن الولى يستمتع "بالمواد"

---

(١) G.W.Murray, sons of Ishmael, p.154

(٢) Hist.ii, 287

الروحية للطعام الذى يقدم إليه ، ويقول ذو الايمان السديد إن تقديم الطعام يعد عملاً من أعمال التقوى ، وأن " الحسنة " التى يرحب بها مانح الصدقات تتحول بشكل طبيعى إلى الولى . ويجب أن تستهلك «المواد » إما بالحرق على شرفه (الشمع - الزيت - البخور) ، أو أن يأكل الطعام شخص حى ، ويفضل أن يكون الفكى الذى يحرس الضريح أو أى فقير أو طفل . و" النية " هى أهم شئ لتحويل « المادة » أو الحسنة إلى الولى .

أما بالنسبة للمتعبد فإنه يجلس أو يقف فى مواجهة الضريح ويحكى للولى «رغباته» أو مشاكله ، و لتحريك شفاعته بشكل أكثر فاعلية يقوم بعرض نذر مشروط ، فإذا كان الولى كريماً فإنه سيعود ويواصل قراءة القرآن أو يقدم ذبيحة أو يقوم بطلاء قبته باللون الأبيض أو يتصدق على المساكين . ويعتقد أن ليلة ٢٧ رمضان (ليلة القدر) مناسبة جداً لتقديم الالتماسات والمطالب ويحدث عند تقديم النذر أن يذهب الناذر بمفرده وفى بعض الأحيان مع الأصدقاء أو - إذا كانت رغبة خاصة جداً - فى موكب . وقد يؤدى الفشل فى الوفاء بالنذر - بعد تحقق الطلب أو الالتماس - إلى حدوث بلاء وعواقب أليمة كمرض أو وفاة الابن الذى تحقق طلبه . وقصص هذه الكوارث أمر شائع ، وتتم الزيارة لضريح الشيخ عند الزواج والختان والاحتفالات الأخرى ، كما يتم أيضاً إحضار الحيوانات المريضة إلى الضريح لتلف سبع مرات حول الضريح ، ويعتقد أن الاتصال بالضريح مفيد ، لذا فلتذكير الولى بالطلب ، يتم ترك شئ له علاقة بالشخص المعني ، عادة ما تكون قطعة من قماش تعلق بالباب أو على عصى تغرز فى الحوائط لذاك الغرض .

كما يؤمنون بأن الولى يحتفظ بعد وفاته بالخصائص التي كان يمتلكها فى حياته ، فإذا كانت له معجزة مشهورة فى حياته فإنه يستمر فى ممارسة تلك المعجزة وهو ميت ، وهكذا فإن قبة خوجلى فى الحلفاية صالحة لنمو أسنان الأطفال ، وقبة عبد المعروف فى بربر حيث يصبح معظم الناس سعداء جداً للقسم زيفًا على قبره ، كما أن الطين المأخوذ من ضريح أحمد ود الطريفى بالقرب من مدنى يصلح لعضة الكلب ؛ لذا فهو يسمى احمد دابى السعار . وإذا ما دعكت مسمار غرز فى الأرض أمام بيان؛الشيخ جنزير بالخرطوم فسيؤدى لأن يزورك الشيخ فى المنام ويدلك أو يخبرك عن اللص . كما أن قبة الشيخ أحمد طريفى الطلحتين وقبب العركى الثمانى عشرة فى أبو حراز خاصة قبه شريف يوسف أبوشرا مشهورة فيما يتعلق بالخصوبة . ويجب أن تقضى النساء سبعة من ليالى الخميس داخل أو خارج القبة يرافقهن فى الغالب أزواجهن والأقارب الآخرون ، ويتم قضاء الليل فى الشراب والغناء ، ويعطيهم الخليفة بعد الليلة السابعة ورقة مكتوب عليها آيات قرآنية ، واذا ما حملت المرأة بنجاح تحضر الطفل إلى الخليفة عند بلوغه الشهر الرابع ويقوم الخليفة بحلق رأس الطفل وتعطيه الأم أوقية ذهب إذا كان المولود ولداً ونصف أوقية إذا كانت بنتا ، وهذه الزيارات مشهورة جدا . وتصل الشاحنات المحملة بالنساء من ود مدنى والقرى المحيطة إلى القبة فى ليالى الخميس .

ويعتبر الأولياء الذين كانوا بلهاء في حياتهم بلهاء في مماتهم . وللبشارين واحد في وادى السريراب. « فلكي يحصلوا على رضاه يكفى أخذ شاة إلى هناك ووضع كومة صغيرة من الحجارة والتظاهر بتغطية الدم لإشعار الولى بأن الشاة قد ذبحت له ثم تؤخذ الشاة مرة أخرى بعيدة ..» (١).

كما نطق بعض الأولياء من قبورهم . ونقرأ في رواية مدنى الناطق بن عبد الرحمن

> وسبب تسميته بالناطق أنه لما توفى اختلفوا الناس فيمن يخلفوا بعده بعضهم قال : الخليفة مالك لانه ماهر فى العلم وبعضهم مسك الفقيه اللعسر لشدة ورعه وزهده . وطال الخلاف بينهم . فإن فقيرا غريبا وبا جلس عند قبره ، قال له : الناس اختلفوا فيمن يخلفوه بعدك فناطقه فقال له : الخليفة شيخ (وكان الخليفة شيخ شقيقه) فجاء فلخبر الناس بقول مدنى فانكره فقير شرقاوى . فقال له : انت كذاب فجاءت الناس طالبه قبته فانضب خشم القبة على المنكر فخاف على نفسه العطب . فحينئذ خلفوا الفقيه شيخ (٢)

ويعد مولد أو حولية الولى من أهم احتفالات القرية . ففى كل عام فى الذكرى السنوية لميلاد أو وفاة الولي – اليوم العظيم لاستقباله في السماء – يمكن رؤية العديد من السكان وهم يتوافدون علي الضريح حاملين نذورهم . وإذا كان الولي مشهوراً فسيأتون من كل أنحاء المنطقة ، وهو في الوقت ذاته البيعة للولي ، وعند قدومهم يؤدون الشعائر التقليدية : الطواف حول القبة وإنشاد الموالد والذكر ، وهو وقت الابتهاج العام ولقاء الأصدقاء ، بالإضافة إلي الطقوس الدينية ، إذ الحياة الدينية والاجتماعية متلازمتان معًا وغير منفصلتين . وهناك البائعون الجائلون ، وتعقد بعض الأسواق بمناسبة هذه الموالد .

وأهم الاحتفالات الدينية هو الاحتفال بمولد النبى ، اذ يتم الاحتفال به فى كل أنحاء السودان من أصغر قرية حتي أكبر مدينة ، ورغم أنه ليس من الاحتفالات الرسمية إذ جاء الى السودان مؤخرا مع العهد المصري،فإنه قوبل في حقيقة الأمر باستقبال شعبي عام رغم فكرته الفاطمية (٣) ، وكان يتم الاحتفال به فى زمن المهدية بإقامة استعراض ضخم يستمر أربع ساعات يحضره الخليفة . وقد اعترفت به رسمياً الحكومة الحالية .

---

(١) G.W.Murray, Sons of Ishmael, p.152.

(٢) الطبقات : م ١٥٩، ص ١٦٧ . وتكررت كذلك في ترجمة الشيخ اللعسر . م. ٩، ص ٩٧ . وينظر أيضًا قصة مشابهة لبان النقا م ٣٦ ، ص ٣٨ – والرواية التالية من Arabia Deserta (ii,160) "أخبرني رجل عن معجزة سنوية فى كهف بدر حنين حيث الموقع الذي دفن فيه الشهداء الذين سقطوا فى معركة النبى الأولى مع كفار مكة « ففى يوم محدد عندما يذهب الناس إلى هناك للحج يسمعون كما لو كان هناك همهمة سارة خلال أصوات الشهداء ، وربما يدخلها من حفظ حياته من ارتكاب جرائم خطيرة ولكن الفاسدين والخطاه ... لا يمكنهم المرور لأن الممر ضيق أمامهم ويتم الامساك بهم وتثبيتهم فى وسط الممر بإحكام .»

(٣) يعد هذا الاحتفال تطوراً متأخراً في الإسلام . ويصف المقريزي (الجزء ٢ ص ٢٩٢)الاحتفال في عام ١١٢٢ خلال العهد الفاطميى ، ولكن هذا الأمر لم يصبح شعبيا حتى زمن السلاجقة عندما – كجزء من رد الفعل الدينى للفترة – أصبح مرتبطًا بالصوفية الشائعة بين عامة الناس .

وبالرغم من أن مولد الرسول هو ١٢ ربيع الأول الا أن الاحتفال به يبدأ فى واقع الأمر عشية يوم المولد ، ويشغل الاحتفال بذكرى المولد الأسبوع السابق له كله ، وتبدأ الزفة في غرة ربيع الأول في كل المدن الهامة من المراكز الحكومية الرئيسية في المدينة وتشق كل الشوارع المهمة وتنتهى فى ميدان المولد ، وتسير على رأس الزفة الفرقة الموسيقية يليها المأمور والضباط والشرطة الراكبة ، ثم تأتي مجموعات الطرق على الأقدام حاملة الرايات والطبول ثم العامة على صهوات الجياد أو الحمير أو على الأقدام وتكتمل الزفة بعربات النقل الصغيرة التي تجرها الحيوانات وهي تحمل الأطفال الذين يتصايحون بفرح وحيوية ونشاط .

وخصص في أم درمان الميدان الكبير الذي كان جزءًا من جامع المهدي لحوالي عشرين أو أكثر من مجموعات الطرق [1] التي تقوم بنصب خيام كبيرة وصغيرة (صيوانات) حسب إمكانيتهم المادية ، أما فيما يتعلق بالعرض فهناك تنافس سنوى بين الميرغنية والمهدية . وللحكومة وعمدة المدينة صيوانات أيضًا ، وتضئ المشاعل جنبات الميدان وهي علامة من علامات الاحتفال ، أما حول الميدان فهناك الأكشاك ووسائل التسلية التي لا تنفصل عن أى احتفال ، كما تقام موالد خاصة في المنازل تبلغ ذروتها فى العيد .

ويستمر طوال الاسبوع تلاوة الموالد [2]، وهى مدائح أو نثر مسجوع حول حياة النبي ، هذا إلي جانب الذكر في حالة الطرق الصوفية ، وتنشد الطائفة المهدية الأناشيد ليس عن النبي فقط وإنما عن المهدى خاصة عن ابنه الزعيم الحالى للطائفة ، ولا يقتصر تلاوة الموالد على هذا الاسبوع ، ولكنه الميزة البارزة الآن للتجمعات النظامية للعديد من الطرق الصوفية .

ب- العوامل الإيمانية بالبعث والحساب

١- الاعتقاد فى المهدى

لعبت العوامل الخاصة بالمخلص في تفكير المسلم دورًا هامًا في تاريخ السودان . ومن الضروري ذكر بعض الملاحظات العامة اذا ما أردنا أن نفهم خاصية المظهر السودانى . إن أسطورة « القدوم الثانى » للشخصية الأسطورية منذ أيام اليهودية والمسيحية تبنتها الشعوب والمجموعات التى كانت فى حالة يأس وإحباط ، وجاء المفهوم

---

(١) قد يكون مفيداً تسجيل المجموعات التى كانت موجودة في عام ١٩٣٩م : الختمية (١) الأحمدية (٢) البيومية (١) الرفاعية (١) السمانية (٤) الإسماعيلية (١) القادرية (٩) العزمية (١) الخلوتية

(٢) الموالد التي وجدتها في السودان هي : البرزنجى (القادرية والسمانية) والدابيعي (٢) العزب (اليمنيين فى السودان) يوسف الهندى (السمانية) محمد بن المختار الشنقيطى (التيجانية) محمد عثمان (الميرغنية) إسماعيل الولي (الإسماعيلية) ، ويوجد وصف لمثل هذه المدائح فى الصفحات ٢١٥ - ٢١٧ من بردة البوصيرى ، وهى مدحة فى الرسول تنشد فى المنازل وتجمعات المساجد.

إلى البلاد الإسلامية فى المقام الأول عن طريق الذين دخلوا في الإسلام ، وأصلت الفكرة نفسها بسرعة فى الإيمان الشعبى ، وأصبح المسلمون بمرور الوقت مستائين من السلوك الدنيوى لحكامهم ، وتحول البعض إلى الزهد كمهرب ، بينما تشبثت الجماهير بفكرة الخلاص المستقبلى الذي سيرد الإسلام إلى طهارته النقية قبل « النهاية » . وقد بدأت التعاليم الخاصة بالبعث والحساب فى الانتشار مبكراً ، وتعلن هذه التعاليم أن اليوم الأخير علامته فترة تشوش واضطهاد ينهيه ظهور المهدي ، وسيدمر الدجال المملكة الألفية للمهدى ، ولكن النبى عيسى سيعود ويقتل الدجال ويملأ الأرض عدلاً وذلك بالحكم طبقًا للشريعة الاسلامية . وتشكل هذه العقيدة الخاصة بالمهدى أساس الاختلاف بين السنة والشيعة ، ولكننا لا نهتم هنا بالعقيدة الشيعية لأنها غير مؤثرة فى السودان .

وحاولت السنة التقليدية كالعادة دمج إيمان الجماهير ، ولكن العديد منهم لم يذهب إلى الحد الذي يقدم عاملاً جديداً لظهور المهدى . حقيقة إن الايمان التقليدى يعلن أنه سيكون هناك تجديد نهائى للإيمان فى الأيام الاخيرة ،وسيكون هو النبي عيسي (المسيح المهتدى) ، وقد ارتكز هذا الايمان علي سورة الزخرف الآية « ٦١ » «وإنه لعلم للساعة» . ولا يهتم الحنفية الذهاب لأبعد من ذلك،رغم أن المذاهب الأخري تقر بالإيمان بالمهدى فى شكل معدل ، ولم يذكر المهدى كلٌ من البخارى ومسلم – أعظم من جمع الحديث – ولا كبار علماء التصنيف ، ويقدم البيضاوى ما يعتبره مقبولاً كما يلى: [١]

> سيصعد المسيح على جبل مقدس يقال له أفق وسيمسك بيده رمحا سيقتل به الدجال . ومن ثم يدخل القدس فى وقت صلاة الفجر وسيفسح له الإمام الطريق ولكنه سيرفض ويؤدى الصلاة خلف الإمام ، متبعًا شعائر شريعة محمد وسيقتل فى التو الخنزير ويكسر الصليب ويدمر الكنائس ويقتل المسيحيين عدا أولئك الذين يؤمنون به .

ولكن للجماهير إيمانا متقداً فى شخص مخلص مستقبلى يدعى المهدى ، ويذكر ابن خلدون هذا الإيمان الشعبى فى مقدمته : [٢]

> اعلم أن فى المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدى . ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة فى الصحيح على أثره وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتم بالمهدى فى صلاته .

---

*تتمة الآية « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم » [المترجم]

(١) تعليقه على سورة الزخرف الاية ٦١.

(٢) ابن خلدون . مصدر سابق . القاهرة . ص ٢١٨

وقد بنى حول هذا الاعتقاد كل أشكال العلامات التى ستشير بقدوم المهدى وإثبات رسالته ، وإحدى هذه العلامات أنه سيحمل نفس اسم النبى محمد ابن عبد الله - طبقاً للحديث « اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى » وسيشبه النبى فى الخُلُق وليس فى «الخَلْق » .

وكانت عقيدة المخلص الإسلامية سياسية ودينية فى وقت واحد ، وعامل مهم جداً يجب أخذه فى الاعتبار فى عرف مسلمى إفريقيا ، وقد غاص هذا المفهوم بشكل عميق فى العقل الشعبى فى شكله المعتدل (غير الشيعى) ، وبينما اضطهد الشعب من قبل حكامه اتجه المهديون للظهور استجابة لشوق الناس للمخلص . ولأن الإسلام لا يفرق بين الدين والدولة فقد أصبحت النتيجة هى أن أى دين إصلاحى يجب أن يستخدم الوسائل السياسية بشكل حتمى ويعلن الجهاد ليس فقط ضد المشركين بل ضد المسلمين الآخرين . وإذا كان الجهاد ناجحاً فإنه يقوم بتشكيل دولة - وفى افريقيا - حيث تشكل الشعوب العربية - الزنجية والعربية- الحامية الأساس المادى سريع التأثر بالإيحاء الجماعى مع طبيعتهم الفطرية المحافظة على ما قد يكون المهدى العمل المجد لكسب الأنصار. وقد ظهر المهديون بشكل متكرر ، وكانوا دائماً إصلاحيين ومخلصين وشكلوا الدولة عندما نجحوا ، وكان أحدهم هو الداعية الشيعى محمد عبيد الله مؤسس الأسرة الفاطمية الحاكمة الذى أظهر نفسه فى عام ٩٠٨م فى جبل ماسا - شمالى المغرب - وطرد أسرة الأغالبة من تونس ، والذى حكمت أسرته مصر وسوريافى عام ٩٦٩ - ٩٧٠م ، أما الآخرون فهم محمد بن عبد الله بن تومرت الذى أدخل - فى بداية القرن الثانى عشر - المذهب الإسماعيلى الهرطقى فى المغرب وأعلن نفسه المهدى الشيعى ، ومحمد المهدى - السنوسى الثانى - الذى استخدم اسمه لتعزيز ادعائه .أما فى السودان الإنجليزى - المصرى فإن الإشارة الوحيدة للسودانى الذى أعلن نفسه مهدياً قبل محمد أحمد نجدها فى ترجمة حمد النحلان (توفى عام ١٧٠٤م) المشهور بود الترابى الذى ادعى - أثناء الحج فى مكة - أنه المهدى [١] ،وقد عومل هناك باستخفاف ، وقام بإرسال رسول إلى السودان ليعلن رسالته ، وقام الملك بادى بقتله . ولا يوجد وصف لأية عوامل شخصية للمهدى فى أفعاله وعند عودته ، وكان ملامتيا وقد اعتبر ادعاؤه بالمهدية واحداً من تجاوزاته .

٢- المهدية فى السودان

لقد ذكرنا تخطيطاً تاريخياً عن المهدية [٢]؛لأن هذه الفترة من التاريخ ستكون مألوفة لكل المهتمين بالسودان ، ونحن نحتاج الآن لمعالجة هذه الأحداث من وجهة النظر

---

(١) الطبقات : م ٩ ، ص ٥٩ و٦١ Hillelson, Sudan Arabic Texts, p.181

(٢) ينظر القسم الثالث من الفصل السادس

الدينية الاجتماعية لمحاولة تقدير تأثيرها الدينى ، وسنعالج أفكار النظرية والتطبيق ، ولنرى كيف تم تنظيم هذه الدولة الدينية .

لم يكن محمد أحمد الدنقلاوى دجالاً ولا مجرداً من المبادئ الأخلاقية ، وإلا لكانت الملحمة السودانية هذه مجرد نتيجة بلا سبب . لقد بعث محمد أحمد من خلال أزمة روحية عميقة ، وكانت المهدية محاولة ليجدد فى محيطه التغير المهم والأساسى الذى حققه فى نفسه ، ولم يكن النجاح الحقيقى لحركته مرجعها قوة حركته ولكن ضعف أعدائه . لقد انضم إليه أناس ماتوا من أجل الحركة لأنهم كانوا فى حالة يأس ، ولكن يجب أن نذكر أن الفترة الطويلة للطغيان لم تكن قادرة على توحيد المجموعات السودانية . لقد كان الدين هو الذى وفر الحافز ، ولو أن الأحوال الاقتصادية هى التى حددت شكل الاستجابة ، وكانت النتيجة هى – لأن محمد أحمد عاش ولأنه حرك السودان للإيمان بطريقته الدينية – لم يعد السودان كما كان أبداً . لقد جلبت المهدية عوامل جديدة لتلعب داخل سيكولوجية السودانيين التى يجب أن يضعها فى الإعتبار كل من يرغب فى إدارة السودان وليس لديه الكثير ليفعله مع توقعات المخلص التى كانت هناك من قبل وما زالت تشكل حياتهم .

وكان سر نجاح محمد أحمد هو قوة شخصيته وقوة نفوذه على السودانيين سريعى التأثر بالإيحاء ، لقد كان هو القائد الذى جاد به الزمن لإبراز القومية السودانية فريدة الطابع ، وقبل كل ذلك كان مؤمناً بشكل ثابت وحقيقى فى دعوته الدينية ، وقام بتنفيذه بشكل إجبارى على الآخرين . إن تأكده التام بأنه مهدى الله منحه السلطة التى لا استئناف ضدها ، وهو كصوفى بسيط آمن بأنه لن يحقق شيئاً اذا ما احتج ضد الاضطهاد الموجود حوله ، ولكن عندما اقتنع بأنه المهدى أعلن الزعيم المعين إلهياً العصر الألفى السعيد ، وأطاعت الجماهير دعوته واكتسحت الأرض منتصرة .

وقام أولاً عندما اقتنع بدعوته – لتوفير الخلفية الخرافية – بانتقاء العوامل التى تنطبق عليه من التقاليد المهدية الضخمة الغامضة غير المصنفة مثل اسمه وسلسلة نسبه والخال على خده الأيمن (ختم النبوة) ، كما قام بتعديل العوامل الأخرى مثل موقع جبل ماسا [(١)] ، وهو يشير إلى العديد من هذه العلامات فى رسائله ومنشوراته لدعم دعواه ، وقد تبع طريق الصوفية السودانية التقليدية وذلك بالدخول فى الطرق السمانية والإدريسية ، وكان عليه فى بداية الأمر أن يقاوم بعنف السخرية المهنية الجاهزة بأنه مجذوب آخر جرفه الانجذاب ، ومن ثم لا يستحق التصديق. ويكتب فى منشوره إلى شعب الخرطوم :

---

(١) قام بالهجرة إلى جبل قدير في جبال النوبا حيث أعاد تسميته بجبل ماسا ، طبقا للاعتقاد الذي يقول أن المهدي سيأتى من جبل بنفس الاسم حيث سيقسم الناس بالولاء له (ينظر القرطبى) ، ويقع جبل ماسا طبقًا للتقاليد المهدية فى المغرب .

وجميع ما أخبرتكم به من خلافتى على المهدية قد أخبرنى به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بيقظة فى حال الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لابنوم ولا جنب ولا سكر ولاجنون ، بل متصف بصفات العقل ، أقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فيما أمر وأنهى عما نهى عنه [١] .

و بالرغم من دفاعه فإن خلفيته الصوفية واضحة في رسائله (قال لى صلى الله عليه وسلم إنك مخلوق من نور عنان قلبى) [٢]. وفى اعتماده على الرؤيا يتبع أيضا الأسلوب التقليدى للرجل السوداني التقي، ويذكر فى كل رسائله رؤى النبى والأولياء كبرهان أساسى على مهمته :

كما أرادالله فى أزله وقضائه تفضل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله، وأخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأنى المهدى المنتظر وخلفنى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام . وأيدنى الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن أدم إلى زماننا هذا وكذلك المؤمنون من الجن ، وفى ساعة يحضر أمام جيشى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأعطانى سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد ولو كان الثقلين الإنس والجن . ثم أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لك على المهدية علامة وهي الخال علي خدي الأيمن . وكذلك جعل لى علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى [٣] .

نظام الدولة المهدية

كانت المهدية دولة دنيوية جديدة – حكم الله على الأرض – ،وكانت ثورية في صفتها ، وكان هناك ولاء واحد ممكن ، إن رباط الايمان وحده هو الذي يسود فوق الروابط القبلية والحزازات ، لذا فيجب اتخاذ إجراء محدد ، ومن ثم فقد أعطوا اسماً عالمياً وهو الدراويش بسبب الجبة المرقعة (علامة أخرى للمساواة) التي يرتديها أتباعه ، وقد تغير هذا الاسم فيما بعد إلى اسم أكثر احتراماً وهو الأنصار – على اعتبار أنهم مساوون لأنصار النبى – ، ولم يكن المهدي راغباً فى أن يعتقد أن حركته مجرد طريقة جديدة، لقد كان مؤسساً لطريقة عالمية جديدة.

---

(١) شقير : تاريخ السودان . جـ٣ ص ١٢٢ وقد نقلت النصوص منه كما هى بأخطائها الإملائية واللغوية (المترجم)

(٢) شقير : المصدر السابق ص ١٢٢

(٣) شقير : مصدر سابق ص ١٢٢

لقد بدد بالطبع الإخلاص للمهدى كل الولاءات القبلية والدينية ، وأبطلت كل الطرق الصوفية ؛ لأن الولاء للشيخ يتعارض مع الولاء لها ، كما لم يعد للمذاهب الأربعة مغزى إضافى وقد تم تبني شعيرة شاملة واحدة .

إن أولئك الذين أنكروا ادعاءات المهدى ليسوا مسلمين ، وقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله (١) ، وطلب البيعة من أتباعه ، وكانت هذه البيعة على وجهين : الأولى باليد فى حالة الموالى المهم وذلك بوضع إبهامه على إبهام المهدى ثم قراءة صورة المبايعة يعيدها المبايع خلفه جملة جملة ، أما الطريقة العادية فهى ترديد المبايعة من قبل كل المجموعة دون مصافحة وتقول المبايعة بعد البسملة :

> **أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك به أحداً ولا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان ولا نعصيك فى معروف ، بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة على ألا نفر من الجهاد (٢) .**

وكان أكثر المتأثرين بدعوة المهدية هم المزارعون الأكثر اضطهاداً والذين كانوا في شوق عظيم للمخلص ، ويليهم الدناقلة والسود الذين لا قبائل لهم ومختلف القبائل العربية خاصة البقارة المتعصبين . والبقارة لكونهم ملاك إبل أثرياء فقد كانوا فاترى الشعور فى البداية ، وهاجموا مؤخرة جيش هكس ، ولكنهم لم ينضموا للزحف على الخرطوم ، وعندما أصبحوا مشايعين للمهدى شكلوا العمود الفقرى لجيشه، وقد عارضت القبائل البدوية الأخرى بعنف النظام الذى ألغى مؤسساتهم القبلية الموروثة ، كما أن مزارعى الجزيرة الذين لم يقعوا تحت الاضطهاد الشديد وبسبب ولائهم لشيوخهم الدينيين لم يستجيبوا للرسل الذين بعثهم عندما كان فى كردفان ، ولكنهم انضموا فى النهاية مثلهم مثل بقية السودان من قبيل المنفعة والمصلحة .

وبقيت البجة لا مبالية ؛ لأنها لم تتأثر بالحكم المصرى إلا بشكل ضئيل حتى قدوم عثمان دقنه بعد سقوط الأبيض . وعندما قام المهدى بإرسال عثمان دقنه إليهم رافقه أتباع طريقة المجاذيب وأسوأ العناصر القبلية ، وبقيت الأغلبية دائمًا بلا حماس وانضمت إليه فقط عند ما تم إصدار الاستدعاء العام ، وتفرقوا بعده مرة أخرى وحتى ذلك الأمر كان قد تم بعد رشوة الزعماء .

---

(١) نفسه . ص ١٢٣

(٢) نفسه . ص ١٢٩

ومهما كانت دوافعهم للانضمام للمهدية فقد كانت لهم فى البداية أثر وحدوى وتم إلغاء الولاء القبلى ، وحارب البقارة والعبيد السود تحت راية واحدة وأصبح بإمكان العبد الارتقاء لأعلى مناصب الدولة ، وكانت هناك مساواة بين الغنى والفقير ، ومع ذلك كانت هناك شيوعية مفروضة بالقوة ، وتم الحفاظ عليها بالسلب والنهب ، وبعد موت المهدى تحولت السيطرة من أيدى القبائل النهرية إلى البقارة والوحشيين أتباع الخليفة عبد الله الذى اتسم حكمه بالأوتوقراطية العسكرية فى أسوأ حالاتها.

ويصف ونستون تشرشل تحول خلق المتعصبين بقوله :

ميز التعصب كل عمليات الشعوب المحمدية المولعة بالحرب ، ولكن بهذا التحفظ العام يمكن القول إن العرب الذين دمروا يوسف واعتدوا على الأبيض وأبادوا هكس حاربوا باعتزاز دينى حماسي . لقد حارب العرب الذين عارضوا جراهام وايرل وستيوارت دفاعًا عن الأرض كما حارب العرب الذين غزاهم كتشنر اعتزازاً بالجيش . لقد ملأ التعصب كل المقاتلين فى شيكان والوطنيين فى أبو كيلا والمحاربين فى أم درمان [١] .

لقد كان تنظيم دولة المهدية شبيهًا بدولة الرسول ، وذات طبيعة عسكرية للأسباب ذاتها ، وقد اختار المهدى أربعة خلفاء : عبد الله التعايشى الذى خلفه وعلي ود حلو والشيخ محمد السنوسى من الكُفْرة ومحمد شريف ابن عمه ، وقد رفض السنوسى هذه الدعوة [٢] ، وكانت سياسة الخليفة هى التقسيم ، وبذلك أضعف القبائل ، وأعطى لكل تقسيم أميره المستقل . فالجزيرة كانت تحت إمرة الشيخ الدنقلاوى محمد عثمان أبو قرجة ، كما منحت كل راية حصتها لتجهيز الجيش ، وكان على جزء كبير من السكان التواجد فى أم درمان أثناء فصلى الشتاء والصيف .

وكانوا يعودون إلى زراعتهم خلال موسم الأمطار ، ويتم جمع الضرائب قبل عودتهم إلى أم درمان .

وكان بيت المال هو أهم المؤسسات ، كما كان هناك قانون يتم بموجبه إحضار كل غنائم الحرب إلى بيت المال الذي يقوم بتمويل الجهاد ، وكان على الأنصار تشكيل نوع من الفرق العسكرية إلا أن هذا الأمر أثبت فشله عمليًا ، ومن ثم سمح للأنصار بالعودة إلى زراعتهم بصفة دورية . وقام الخليفة ببناء جيش دائم وأصبح بيت المال – عندما انتهت الغزوات – مكانًا للأموال التى تجمع من الضرائب والمصادرات .

وارتكزت الضرائب على الزكاة بمختلف أشكالها [٣]، وكان الابتكار أن هذه ليست ضريبة ، ولكنها شئ يقدم لفقير تبرعًا. وقامت المهدية بفرض ضرائب مباشرة وتم

(١) The River war, p.36

(٢) استنسخ شقير رسالة المهدى الثانية . ويقول ونجت (مصدر سابق ص ٣٩) إن المهدى قام بتعيين آدم ود العويسر لتولى منصب الخليفة الثالث ، ولكننى لم استطع التأكد من ذلك .

(٣) يبدو أن الأشكال الأربعة للضرائب كانت : ١- عُشر المحاصيل والبهائم وتدفع عينًا . ٢- الفطرة ، وهى فى الأصل طوعية ولكن الخليفة حددها كضريبة رؤوس وهي قرش واحد عن كل رأس ٣- الهوامل ، الحيوانات والرقيق السايب . ٤- التبرع ، وهو شكل من أشكال الضريبة الإضافية لتنظيم السنة التى يكون بها شدة.

تعيين عامل على كل قسم وهو المسئول عن جمع الضرائب ومراقبة اتباع الأوامر الدينية ، وقسم القسم إلى مناطق تسمى شونات ، كما تم جمع العمال عن طريق شيوخ القبائل أو المناطق التى عرفت [بالملتزمين أو ضريبة مزارعين] . وقد شمل النظام عمليًا كل أنواع الاضطهاد ، و أدى التجنيد إلى الاستياء الشديد ضد النظام الجديد ، وكانت تعاليم وأوامر المهدى مبنية على تصور الإسلام الأصلى الذى أبلغ إليه بالوحى المباشر . إن ترتيبه الصارم للحياة يتماثل مع القاعدة الوهابية ، ومع ذلك فلا يوجد دليل لأى تأثير وهابى مباشر ، وبالتأكيد فإن أسس محمد أحمد وابن عبد الوهاب مختلفة تماماً كل منها عن الأخرى . إنه التمرد ضد النظام الأجنبى الجديد الذى ولد المعاناة المرة لتأسيس نظام مثالى .

وكانت النقطة المركزية للتعاليم التى كان عليها تنظيم الدولة المهدية هى الإيمان بالآخرة ، حكم الله علي الأرض عن طريق خليفته المهدى، وكانت الدعوة للخدمة العسكرية هى النداء الغالب ، وسيتلو إخضاع السودان إخضاع مصر وسوريا والعراق وبلاد العرب . وقال له الرسول فى رؤيا عام ١٨٨٣م «كما صليت فى مسجد الأبيض ستصلى أيضًا فى مسجد الخرطوم ثم فى مسجد بربر ثم فى مسجد مكة ثم فى مسجد القدس ثم فى العراق ثم في الكوفة » ، وتضمن الولاء له – كممثل وحيد لله – ابتكارات فى الممارسة الاسلامية ، وتغيرت أركان الاسلام :

١- أصبحت هناك إضافة للشهادة وهى « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن محمد أحمد بن عبد الله هو مهدى الله وخليفة رسوله » ، وكان الشك في مهديته يعد ارتداداً عن الدين عقوبته الإعدام . ٢- حل الجهاد وهو الضرورى لتأسيس حكم الله محل الحج الذى أصبح لا لزوم له وتم منعه [١]، ولم تقر السنة أبداً الجهاد كركن من أركان الإيمان . -٣- الصلاه جماعة . أعطى هذا الأسلوب العملى للتدريب الاجتماعى تأكيداً كبيراً كرمز للوحدة . ٤- طاعة أوامر الله كمادَرَسها المهدى الذى ادعى أنها مبنية على سنة النبى التى أبلغت له بالوحى المباشر ، وكان يعد لتأسيس سنته الخاصة فى عمل يسمى « المجالس » ولكنه توفى قبل أن يتمه . ٥- تلاوة القرآن وراتب المهدى ، وكانا هما الكتابان الوحيدان اللذان سمح بهما فى المهدية ، واختفت التعاليم الدينية ومنعت كل أنواع الدراسة وأحرقت كل كتب السنة والتفسير . إن حرق الكتب ظاهرة شائعة في الشرائع الجديدة ، والراتب مجموعة أوراد للمصلين – آيات ونصائح من القرآن والحديث – لا يظهر بها أى ذكر له ولدعاواه ، وهو يتلى مرتين يوميا بعد صلاة الصبح وصلاة العصر ، ويستغرق تلاوته حوالى ثلاثة أرباع الساعة .

وقد هيأ المهدى نفسه للعمل بنشاط لإصلاح السلوك الأخلاقى وتثوير عادات السودانيين بالدعوة للتخلى عن كل التفاهات الدنيوية ، ومنع السكر وشرب الدخان

---

(١) ينظر شقير . مصدر سابق ص ٣٦٥ .

والأحجبة والسحر والموسيقى والمواكب واحتفالات الختان والزواج [1] « والبكا » وزيارة قبور الأولياء ، وهي كلها من أهم مظاهر حياة السودانى الاجتماعية ، وبقيت كلها سرية وعادت بالكامل بعد المهدية . ويجب أن تكون حياة أتباعه حياة الرجال الذين يعيشون الأيام الاخيرة « لقد دمرت هذه الدنيا وبنيت العالم الآتى [2]» ،وكمثال لمنشوراته للزهد نقتبس الآتى :

صلى [3] دائمـا سواء كنت تسير أو تركب أو مع أصدقائك . امتنع عن كل المسرات . إذ عن طريق الصلوات فقط يمكن الحفاظ على هذا العالم فى سلام . امتنع أيضا عن مسرات الموسيقى ولا تضرب الطبول الكبيرة أو الصغيرة .... ضع جانبًا كل شئ له أدنى صورة بمظاهر وعادات الأتراك والكفار ... كل ملابسهم وكذلك طبولهم وأبواقهم ، كما يجب وضع أشيائهم الأخرى جانبًا . تقيد فقط بعادات الصحابة . هذا هو الوقت الذى تأتى فيه إلى الله وتعقد معه عهداً [4].

وتم وضع تأكيد قوى على الجهاد . ويقول المهدى حقيقة إن الله باستطاعته أن يدمر الكفار ، ولكن لتشريف شعبه فإنه أراد تنفيذ خطته بكم ، ويقال إن الأتراك يمكن إصلاحهم بالمواعظ ولكن لا يمكن إصلاحهم أبداً إلا بالسيف . والجهاد مرتبط باللقاء بالله – الرؤيا المبهجة التى تمنح الثقة العظمى لأتباعه ، وفى رؤيا قال النبى للمهدى «إن المحاربين الذين ماتوا فى سبيل دين الله سيرحب الله بهم في الآخرة وسيدخلون الجنة حيث القصور العالية والزوجات الطاهرات والسعادة والازدهار،، [5]وبعد وفاة المهدى كان هناك انخفاض طبيعى فى عدد المؤمنين به وببرامجه ، ولكن الخليفة عمل بحماس للحفاظ على إيمان أتباعه ، وقام بتعزيز حكمه ودفع بالحماس الدينى بإعلانه بالرؤيا التى تلقاها من سيده ، وعزز بحزم الجانب الدينى الظاهر لإلهامات المهدى ، وكان قادراً على الحفاظ على التعصب الشديد للعديد من فروع أتباعه حتى معركة أم درمان .

٣- استمرار الاعتقاد بالمهدى والمهدية

بدأت الأساطير تنمو عن المهدية قبل وفاته بفترة طويلة ، وقد شجع المهدى القاضى إسماعيل بن عبد القادر – ابن مؤسس الطريقة الإسماعيلية وأحد أتباعه المتحمسين–

---

(١) تم تنظيم احتفال الزواج وخفض مهر العروس إلى قرشين للبكر وقرش للثيب . ويعاقب كل من يطالب بمهر أكثر .

(٢) Salatin, Fire and Sward (1895) p.230

(٣) الصواب «صلِّ» وقد نقلتها كما هي بخطئها (المترجم)

(٤) ونجت . مصدر سابق ص ٥٩

(٥) ونجت . مصدر سابق ص ٤٨

بأن يؤرخ أحداث عهده ، وبعد موت المهدى أمر الخليفة بأن يستمر إسماعيل بن عبد القادر [١]، كما كان للمهدى أيضا شعراؤه الخاصين من أمثال محمد التويم وأبو شريعة [٢] الذى مدحه ومدح الخليفة ، وقد أدى هذا إلى وضع الأساس لتطور طريقة المهدى . إن وفاة المهدى قبل إتمام رسالته قد شوهت بلا شك سمعته في عيون أتباعه ، وكان الخليفة حريصاً على تبرير أفعاله وإثارة حماس أتباعه بإدعائه رؤية المهدى ؛ لذا فإن المهديين المتعصبيين أكثر – خاصة وسط أتباعه المقربين – استمروا رغم تناقص القوة حتى معركة أم درمان . وقد نَفّر حكمه الاستبدادى ولاء أكثر الأتباع إخلاصا للمهدى ، وبعد سقوطه قبل معظم الناس النظام الجديد بشكل سلبى ، رفضوا تماماً المهدية التى انضموا إليها من قبيل الحماسة الدينية أو المنفعة أو الجبر ، وعادوا إلى ولاءهم القبلى والدينى القديم ، وأعيد تنظيم القبائل البدوية ، وجدد مزارعو النهر والجزيرة ولاءهم لشيوخهم الدينيين القبليين ، واستعاد رؤساء الطرق مثل الميرغنية أتباعهم وارتدت القبائل الوثنية إلى وثنيتها .

ومن جهة أخرى استاء البقارة وحنوا للعودة إلى الأيام الخوالى لسفك الدماء والسلب ، بينما حافظت على ولائها للمهدية مختلف المجموعات العربية والمزارعون ، الأنصار القدامى وخاصة الأفارقة من غرب افريقيا ، وآمن هؤلاء بعناد أن محمد أحمد هو مهدي حقيقى [٣] ، وآمنوا أن النبوءات المهدوية الأخري قد تحققت أو ستتحقق . وقد تم منح اللورد كتشنر دور الدجال ، واعتقد البعض أن عبد الرحمن ابن المهدي هو النبى عيسى ، ومع ذلك فما زالت الأغلبية تنتظر قدومه ، وبدأت فى الانتشار نبوءات كاذبة مثل تلك المنسوبة إلى فرح ود تكتوك« فى آخر الزمان سيأتى الإنجليز وجنودهم يسمون البوليس وسيقيسون الأرض حتى حواف أوراق البردى ، ولن يكون هناك خلاص منهم إلا قدوم عيسى» [٤] .

(١) كان عنوان الكتاب : كتاب المستهدى بسيرة الإمام المهدى . ينظر شقير . مصدر سابق . ٥٥٩ – ٥٦٠ . وسلاطين ، مصدر سابق ص ٥١٥ . والسيرة تغطى الأعوام ١٢٩٨ – ١٣٠٦ (١٨٨٠ – ١٨٨٨م) وغضب الخليفة من إسماعيل ونفاه وصدر الأمر بإحراق كل نسخ هذا الكتاب . ويقول شقير إنه استطاع أن يجد نسخة من الكتاب ، وإن كانت ما تزال موجودة فإنها لم تنشر .

(٢) تم نشر مجلد أشعار أبو شريعة (الخرطوم ١٩٣٠م) ولا يحتوى المجلد سوي أشعاره التى فى مدح الرسول ، ويقال أنه أحرق الباقى عند قدوم الاحتلال ، وقد سمعت عن المجموعة الشعرية إذ من المؤكد أنها حفظت عن طريق المنشدين .

(٣) قام كتشنر الذى عاش مخاطر عبادة المهدية بتدمير جثة وقبر المهدى ، وقد التقيت مصادفة بمن يؤمن بأن جثة المهدى ما زالت ترقد تحت الأنقاض ، ولكنه ليس اعتقاداً عاماً ، اذ بينما سنجد فى الغالب النساء يصلين أمام البوابات المغلقة فإن عددهن قليل مقارنة بجموع زوار أضرحة الأولياء الآخرين ، وقد يكون ذلك مرجعه حقيقه أن أمامهم رمزاً حياً منه فى شخص ابنه (وقد سمحت السلطات للسيد عبد الرحمن بإعادة بناء قبر أبيه كما كان تماما فى الماضى ، وتم إعادة افتتاح المقبرة فى ١٥ يونيو ١٩٤٧م ، ومنذ ذلك الحين هناك زيادة ملحوظة في عدد الزوار .)

(٤) عاش فرح ود تكتوك في القرن السابع عشر ، والنص مقتبس من Hilleson, Sudan Arabic, Texts, p.159

* ويورد الطيب محمد الطيب النص كما يلى :

أخر الزمن يجو الانقليسا   عيونهم مثل الكديسة

يقيسوا الأرض قيسا قيسا   خفيرن يسمى البوليسا

ما يزيل حكمهم إلا نبى الله عيسى .الطيب محمد الطيب . فرح وتكتوك حلال المشبوك . دار الطابع العربى الخرطوم . د. ت. ص ٦٧ [المترجم]

ولأن قدوم النبي عيسى أمر متوقع ، فإن عيسي (وفي بعض الأحيان المهدي) ظهر بإصرار مضطرد [1] خاصة اثناء الأيام الأولى للاحتلال . وقد ظهر من هؤلاء الفقرا عشرون أو أكثر ، ومع ذلك فلم ينتشر أى منهم أبداً ، وكانوا فى أغلب الحالات متمركزين في منطقة واحدة ، ودائما ما ظهروا وسط المجموعات الجاهلة التى تؤمن بالخرافات ، وفى العديد من أجزاء السودان خاصة في وسط وغرب السودان ، وكان عدد كبير منهم من الفلاتة لأنهم اعتادوا أن يؤمن بهم جماعات المغتربين في النيل الأزرق علي اعتقاد أن المهدي سيعيدهم مرة أخرى إلي نيجيريا ، وقد قمعتهم السلطات بسرعة ، وكان أخطرها ثورة ١٩٠٨م عندما قام أحد قدماء المهدية وهو الفكي عبد القادر فكي الكاملين بالتبشير بالجهاد وقتل موظفًا بريطانيًا ، وكان لهذا الاضطراب نتائج مهمة إذ أظهرت للحكومة مدي العلاقة بين الظروف الاقتصادية والاجتماعية وبين ثورات التعصب ، وقد أسهم ذلك فى تطوير الجزيرة ، كما كان لثورة نيالا في جنوبى دارفور فى عام ١٩٢١م حيث قتل فيها موظفان – دوافع اقتصادية دينية معًا ، كما كان هناك سخط في ديار المساليت والفلاتة حول مؤسسات النظام الضريبى، ولكن عندما أعلن فكى عن الجهاد كشف كل الناس عن الدوافع الدينية، وكانت الثورة عند تطورها معادية للمسيحية وآمن أتباعه بأنهم يطردون الدجال ، أى الحكومة المسيحية ، وكان الفكى عبد الله السهيني ، ولم يُسّم نفسه النبي عيسى ، ولكن خليفة الله فى الأرض ، وبعد القاء القبض عليه قال ما يلى فى سرد دعوته :

> **جاءنى فى إحدى الليالى ستة من الملائكة يسمون زرلبون وكالا ومسرى وزياردى وقويائيل وعزرائيل وأخبروني أن هذا هو عام ١٣٤٠م وأنه تم تعيينى لجمع الناس وتزعم الجهاد ضد الترك لإبادتهم ، وبعد هذا سأحكم أنا وشعبي الأرض لمدة عشرة أعوام ثم يتم تعيين قائد آخر لمواصلة الحرب . وفي عام ١٣٧٠م ستشرق الشمس من الغرب وتغرب في الشرق ، وفي ١٣٨٠هـ ستأتى نهاية العالم ويظهر النبى عيسى [2].**

وكانت آخر هذه الثورات فى دارفور عام ١٩٢٧م عندما قام شخص من داجوالفور بتسمية نفسه الفكى المهاجر ، وتزعم ثورة محلية تم قمعها بسرعة [3] .

وشهدت الأيام تطورين آخرين في المهدية السودانية : تشكيل دعاية عبادة المهدية واستمرارها سراً وتنظيم الموالين فى جمعية دينية يشار إليها دائمًا بالمهدية الجديدة . وكعبادة فالمهدية طائفة ألفية تعتبر محمد أحمد مهديًا حقيقيًا،وأن ابنه عبد الرحمن هو النبى عيسى ، وتسمى بعده فى بعض الأحيان بالرحمانية ، ومع ذلك فلم يظهر نفسه،

---

(١) ظهر عيسى حتى فى زمن الخليفة بعد موت المهدى – قارن رواية سلاطين فى السيف والنار ص ٤٢٣ – ٤٢٤ ، وشقير . مصدر سابق ص ٤٧٠ – ٤٧٣ عن ظهور التكرورى آدم محمد البرقاوى على أنه النبى عيسى فى القلابات

(٢) و(٣) يذكر ماكمايكل قائمة بهذه الثورات فى Anglo-Egyptian Sudan,pp.98-9,176-9

وما زال أتباعه ينتظرون يوم الظهور عندما يطرد الإنجليز ويبشر باقتراب الألفية ، يؤمن بهذا المغتربون « الغرباوية » [1]، وبصفة خاصة القاطنون في الجزيرة أبا ومستعمرته الزراعية علي طول النيل الأبيض في الجزيرة وكردفان وبقارة غربي كردفان ودارفور [2]، وهم وثنيون في الجملة عدا الاسم قبل قدوم وكلاء المهدي . لقد شقت العبادة قنوات في التفكير الإسلامي والإحساس داخل التيار الهرطقي ، لذا فإن الاعتقاد بأن عبدالرحمن هو النبي عيسي الذي « زمنه » قريب هو اعتقاد عام تقريباً . إن الاعتقاد بأن الاكتساح سيكون عن طريق دارفور المرتبطة أكثر مع الغرب بدلاً من الشرق قد انتشر داخل السودان الفرنسي ونيجيريا خاصة برنو ووداى ، وهناك مركز قوي في « دمبلوا » في بورنو وفي باجيرمي حيث يتأثر الغرباوية ، وهم فى طريقهم إلى مكة .

ويعود الانتشار السريع للمهدية في الغرب إلي الدعاية المنظمة للوكلاء بين الجماهير التي تترقب بشوق كبير ظهور المسيح الذي سيطرد المسيحيين الأمر الذي قيل إنه الصفة المميزة للإسلام في غرب افريقيا ، ويقوم الكثير من هؤلاء الأتباع بزيارة عبد الرحمن في الجزيرة أبا علي اعتبار أنه البديل للحج [3] ، وهو يعرف بالصديق ويؤدى الكثيرون ركعتين إضافيتين علي شرفه ، ويقولون رضي الله عنه عند ذكر اسمه . وهناك دليل لمخاطر تطور المهدية هذه وانتشارها السريع في عام ١٩١٧م إلى ما وراء أتباع المهدى الأصليين إلى زنوج غربي السودان ووداى ، لأن هؤلاء الموالين الجهلاء أكثر استعداداً للتعصب عن طريق الوكلاء ، عما هو عليه فى الأراضى التى توجد بها المؤسسات الدينية القويمة ، ولكن الحكومة يقظة تماماً للمخاطر ومنعت وكلاء المهدية فى كردفان ودارفور .

وهناك تطور للمهدية الجديدة في شرق السودان . ويوجد فى الشرق نوع من العبادة ولكن ليس لها نفس الخطر والشكل الألفي ، وأصبحت المهدية وراثية ليس فى علي الابن الاكبر ولكن في عبدالرحمن الابن الذي ولد بعد وفاة أبيه من امرأه من دارفور. إن أعظم أتباعه إخلاصاً فى الشرق هم الانصار الأحياء وأطفالهم الأقل ثقافة.

(١) يشمل هذا المصطلح القبائل الزنجية فى دارفور بالإضافة إلى الفلاته ، ومعظم أتباعه المتعصبون هم من الفلاته خاصة أولئك الذين فى جزيرة أبا ، والفلاتة البدو ملاكو الماشية وأكبر أمراء فلاته ماى برنو هما التيجاني وماى أحمد أمير مساو السابق مع أتباعهما ، وهناك رسالة مزورة كانت منتشرة فى عام ١٩٢٣م بأن الفا هاشم خليفة التيجانية قد أعترف بأن المهدى حقيقى ولكن الفا هاشم بذل جهداً لدحض الرسالة وقام بزيارة أتباعه فى السودان .

(٢) التعايشة هم الاستثناء الوحيد من بين البقارة .

(٣) وصلت رحلات الحجاج إلى نسب كبيرة فى أعوام ١٩٢٣ - ١٩٢٥م مما جعل عبد الرحمن يذهب بنفسه إلى الحج فى مكة ووافق على عدم تشجيع الحج إلى أبا . وقلت أعداد الزوار الغربيين أساساً بسبب جهود الحكومة فى اعتراض ذلك الحج ، كما عارضه الكثير من الزعماء القبليين ، لأن المهدية تضعف من سلطتهم ، وما زال مستمراً ، إذ إن للتحرك شرقاً دوافع اقتصادية ودينية .

وبالنسبة لهم فالإنجليز ما زالوا أتراكاً ونصارى ، وقالوا لي نحن نعتبره جزءاً من أبيه ، لقد حلت بركته فى السيد ؛ لذا فهو بالنسبة لهم المهدي ليس بشخصة ، ولكن كحامل لبركة أبيه ، ولا يعتبره الشرقيون النبى عيسى لأنهم إلى حد ما أكثر تعليماً ورقياً لاتصالهم بالتيارات الخارجية وعدم تأثرهم بالمظاهر المهدوية المتطرفة ، ولا يتبع معظم سوداني الشرق المهدية ، ولكنهم يتبعون الطرق الصوفية ، ومن جهة أخرى لا يوجد في دارفور مثل هذا النفوذ المسبق ، ولا تزدهر الطرق هناك سوى وسط « الأجانب » [أى الغرابة] في الفاشر نفسها .

وهناك العديد من السودانيين - خاصة الأفندية - من يشير إلى المهدى على أنه مصلح دينى عظيم وقائد قومى ، وينسبون سوء حكم المهدية إلى الخليفة ، وقد أدي ذلك إلي الإخلاص المختلف للسيد عبد الرحمن المهدى باشا للدولة ، وفى طموحاته الدنيوية أكثر من كونها طموحات دينية ، وهو يفضل هذا لزيادة نفوذه . ويستخدم الهيبة عامة التى ورثها كابن للمهدى ، وعلى استعداد لدعم الأشكال الأخرى للإيمان فى نفسه ؛ لأن جماهير الأتباع المتعصبين مفيدون كسلاح سياسى . ومع ذلك فهو يقول :

إنه مؤسس حركة جديدة تتبع نظام الحكومة الجيدة وحكم العدالة والسلم بشكل عام بلا أى طموحات سياسية ، ولكن لديه مجموعة أتباع من الأفندية ذوى دوافع سياسية مؤكدة .

وأصبح للمهدية - نتيجة لهذا التطور - وضع اجتماعى ودينى وسياسى فى الإسلام، وهى تدعى أنها ليست طائفة جديدة ، ولكنها دينية قويمة فقط ، وبالرغم من أن ذلك مستحيل لأنها ترفض المذاهب الأربعة وتقر بمذهب المهدى [1] ،وليست هناك إدعاءات علنية ضد المهدى فى حد ذاته ولا ضد ابنه ولا تعارض الحكومة الحالية ، كما أن المهدية ليست بطريقة صوفية ، إذ ليست لها ذكر أو تعاليم سرية مقصورة على فئة قليلة ، ويتلو أتباع المهدى « الراتب » بعد صلوات محددة ، وينتشدون فى تجمعاتهم المدائح عنه وعن ولده ، ويؤمن الكثيرون أن المهدية حركة إصلاحية ويلتزمون بالممنوعات التى فرضها المهدى مثل منع التدخين ، على أساس أنها لا تتعارض مع العادات السودانية الأصلية [2] ، وتمت محاولات لإحياء تنظيمات المهدي الأخرى مثل حملة المهر التى قدرها بجنيهين (الكورة) ، ولكن الحملة لم تلق إلا نجاحاً ضئيلاً خارج جماعات

---

(١) خصوم المهدية يسمونهم « الخمسية » أى أتباع المذهب الخامس وتضميناً غير المسلمين .

(٢) كتب المهدى فى أحد منشوراته « تذكر أيضاً أن جريمة أولئك الذين يشربون الدخان أكبر من شرب الخمر إن الذي يشرب الخمر يعاقب بثمانين جلدة ، وأما الذى يشرب الدخان فإن عقوبته مائة جلدة » Wingate, Mahdism,p.62

*أما شقير فيقول وحرم شرب الدخان ومضغه ، وشرب الحشيش والخمرة وقضى على من خالف أمره هذا بالجلد ثمانين سوطاً . شقير . طبعه دار الجيل . بيروت ١٩٨١م ص ٦١١. [المترجم]

المهاجرين ، كما أن « يوم الزواج السنوى (٢٧ رجب) الذى ابتدعه المهدى عام ١٨٨٢م قد حافظ عليه ابنه لسنوات عدة .

إن التعصب هو نتاج الديانات العالمية مثل الإسلام ، وتقوم السيكلوجية السودانية الغربية وبعض سودانيى الشرق بثورات بأشكال معينة بقدر الإمكان ، وربما أقلها فى علاقتهم بهذه المجموعة المهدية الجديدة عما هى بالنسبة لظهور مهدى جديد ؛ لأن الحالة النفسية للتوقع جاهزة سلفاً ، ولكن هناك خطراً حقيقياً بسيطاً ، اذ بينما تحافظ الحكومة على يقظتها واستمرار الازدهار النسبى الحالى ، فإن السخط المتفجر بسبب الفقر هو الشئ الوحيد الذى قد يتسبب فى انتشار مثل هذه الثورة ، ومن غير الحكمة أن تتراخى هذه اليقظة لأن جذوة المهدية الكامنة ستكون المادة الجاهزة للاستخدام فى الثورة السياسية فى وادى النيل .

جـ - التأثيرات الأرواحية في الإسلام السوداني

١- الإسلام والأرواحية

،، قل أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد . ،، [سورة الفلق]

كان استيعاب عناصر الديانات البدائية متأصلاً في الاسلام منذ البداية ، فالنبي لولادته في بيئة مشبعة بعمق بالأرواحية كان عليه أن يحسب حساب ويدمج العديد من مثل هذه العناصر ، لقد حافظ مثلا علي قوة الديانة البدائية لتتحد مع الشعيرة الدينية الخاصة بالحجر الأسود في مكة وسخرها في خدمة النظام الخاص به . لقد أجبر علي أن يحسب حساب السحر والعرافة لأنه هو نفسه كان يؤمن بأن ،، الشياطين تعلم الناس السحر،،، ونزل الوحي بمنع السحر والكهانة ، ولكن بقيت التقاليد موجودة فيما حرمه في استخدام الرقى « لا عيب في استخدام الرقي طالما لا تربط أي شئ بالله ،، (١) الحاجة التي أحسها المسلمون لتبرير غلبة السحر وسطهم ولإيجاد إجازه دينية لها .

إذن فمنذ البداية كانت هناك رابطة داخلية وطيدة بين الأرواحية والإسلام مكنته من أن يستوعب بسهولة شعوب إفريقيا وآسيا وجذب العوامل الحنونة لنظمهم ، وأمكنه استيعابهم بحركته التوفيقية المتأصلة ، حتى ولو بدت مختلفة تماما مع شريعته . إن المعتقدات في القوى العجيبة في الجن والأرواح التي لا حصر لها لا يجب اعتبارها مجرد زوائد ، إذ بالرغم من أنها قد لا تكون منسجمة مع الشريعة الإسلامية فإنها متأصلة في النظام الإسلامي . إن الابتعاد الكبير عن مفهوم الإسلام للإله حتم الابقاء في نظامه علي توسط الكائنات الرورحية التي وفرت للمسلم الموحد بالله الاتصال الداخلي مع الشرك ، وتماما كما استوعبت في البداية الكنيسة المسيحية في نظامها العديد من العادات الوثنية والاحتفالات الموسمية ، كذلك امتص الإسلام كل المعتقدات والعادات الخاصة بأتباعه الجدد والتي لا يمكن استئصالها . وقد وجد المسلمون أنه من الصعب مداومة التفكير في استمرارية الأشياء المحظورة التي لا يملكون سلطة استئصالها ؛ لذا فقد اتحدوا وأباحوا تزويدها بتفاسير الأساطير والصيغ والتفاسير المسلمة . ويقول سنوك هورجرونج :

> **ليس من الضروري أن تكون العادة أو الفكرة مستنكرة طبقًا لمعيار المسلم ، وقد لا تكون في عقولنا أي ظلال من الشك بشأن أصلها الوثني . فإذا كانت - مثلاً - التعاليم المحمدية قادرة على اعتبار بعض العادات الشعبية كسحر مسموح به ضد الشيطان أو ضد الجن عدو البشر أو كتعويذة للطب النبوي أو الولي مع الله فلا يهم إذًا أن يكون وجود هذه الأرواح الوثنية معروفًا في واقع الأمر فقط من المصادر الوثنية . ولا يتردد أي شخص في أن يستفسر عما إذا كان الولي محل التساؤل قد حل محل الإله الوثني في لباس جديد ، أو من كان اسمه متخيلاً قد وضع منافعه ليجعل شرعيًا وجود عبادة بعض الأشياء الشعبية الموقرة (٢) .**

---

(١) ينظر : Hughes's ويتعامل البخاري مع السحر المحظور والمجاز، فالرقية يمكن استخدامها لعلاج الأمراض شريطة استخدام القرآن . فالسورتان ١١٣ و ١١٤ (المعوذتان) ذات قيمة عظيمة كتعويذة ، والرقية مفيدة ضد عين الشيطان والسم . أما الأشياء الحقيقية التي يقول بها الكهان في بعض الأحيان فهي مسروقة من الجن ، وكذلك طب السحر ممنوع . قارن مسلم الجزء ٢ ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٢) Snouch Hurgronje, the Achenese, trans. A.W.S. O, Sullivan

إذن فقد يعطى الطابع الإسلامي المميز الاستيعاب للمعتقدات والممارسات الأرواحية وذلك بتقديم اسم الله الذي يعتبر تأكيداً لفعالية التعاويذ والممارسات ، ويصبح الإيمان بقوة المعجزات « بركة » يمنحها الله لبعض البشر ، والتي يمكن نقلها عن طريق الاتحاد مع الآثار المقدسة والأحجار والأشجار . لذا فقد أستمر الاعتقاد في تجسيد القيم الروحية . وهكذااتجه عملياً مفهوم وحدة الله ليضيع في المجال المحير لهبة الله «البركة»؛ لأنها توزعت من خلال الأشخاص والأشياء التى قد ينظر إليها كقوة في حد ذاتها .

وكان تأثير قدوم الإسلام وسط الوثنيين كما يقول ماكما يكل « قد انتزع العادة القديمة من محيطها الأصلي وأعاد وضعها في شكل معدل وسط الشعائر المقبولة للمؤمنين الحقيقيين المحليين ، ولن يفشل الآخرون أبداً فى على الروح الخفية المعروفة لاجدادهم ،، (١)

وفى مواجهة هذه الحركة التوفيقية فإن واحداً من التعابير الإسلامية الأساسية هى أن « الإسلام يلقى كل ما قبله » ، وبقى إيقا ع الحياة بالنسبة للمسلمين الأفارقة كما كان عليه من قبل ، وهذا هو السبب الأساسى فى نجاح الإسلام فى احتفاظه وإبقائه بقوة على الموالين له فى إفريقيا .

وعندما جاء الإسلام إلى السودان بعد قرون من التطور والتشبع بكل أنواع العناصر الأرواحية والسحرية استوعبت الشعوب السودانية عناصر معينة من الدين الجديد دون اضطراب أو تشويش ، ولم تهزم فكرة الإله الأعلى معتقداتهم السابقة ولكنها ارتبطت بها (٢) ،وأصبحت الشجرة أو الحجر الذى كان متحداً مع المعتقدات الوثنية السابقة متحدة مع الولى ومشربة بفكرة بركته ، وتبقى عبادة الأرواح سواء كانت استرضائية أم تطهيرية – رغم ارتباطها بالصبغة الإسلامية – هى نفسها تقريباً كما كانت قبل قدوم الإسلام. فكل عاداتها القديمة باقية كما هى ، فالحياة الأسرية مثلا تحكمها الشريعة الاسلامية بشكل مؤكد ، ومع ذلك فإن أى ممارسة مرتبطة بها ممارسة فطرية ، فحتى عقد الزواج يحتاج الى تاريخ وساعة ملائمة يحددها الفكى المسلم الذى حل محل الكجور الوثنى .

و مع كل هذه الممارسات المتسامح بها ، هناك الممارسة الشاملة للسحر وكل أنواع الممارسات الوثنية الإقليمية مثل عبادة حجر سوبا فى دارفونج وعبادات دارفور. وبتقدم التعليم فقد العديد من الأشياء مظهره المخيف . وهناك القليل من السودانيين – إن وجدوا – الذين يؤمنون بأن تأثير السحر والأرواح على الناس ليست أشياء يخشى أو يحاذر منها . ويعيش المسلم السودانى فى جو فوق طبيعى حيث تنتابه المخاوف من الأشياء التى تنطلق من الأشياء ومن الأرواح ، ولكن لا يجب أن يعتقد المرء أن السودانى يطارده دوما هذا العالم غير المرئي، وعندما تسير الحياة لينة فإنه يشبه

(١) Hist . 1.73-4

(٢) للشعوب الأرواحية مفهوم باق للإله الأعلى الذى لا يلعب أى دور فى شئون الناس ، ولا يحبون ولا يكرهون الإله الذى حدد الإسلام الاتصال به ، وبينما استوعب العالم الروحى للأرواحى فإنه طور هذا الإيمان الذى تلاشى فى الإله الأعلى إلى واحد من الآلهه ذوى القدرة الكلية .

(٣) ينظر خاصة الفصل الرابع فى Les Rilts de passage (1909)

تماماً طفلاً خلواً من الهموم . إن غير المرئى ليس بعيداً أبداً ، فالأزمات بشكل خاص هى العامل المتكرر فى حياته ، فأمور مثل الميلاد والختان والزواج والموت هى أزمات لأنها تعنى الدخول فى تجربة حياتية جديدة وغير مجربة ، وكذلك المرض واعتلال الصحة والكوارث هى أزمات . إن هذه الأشياء هى التى ما زالت تتعلق بها الخرافات القديمة التى كانت موجودة فيما قبل الإسلام ؛ لأن وظيفة الدين عند الوثنى هى ما يمنحه الإيمان - ليس فقط فى الاتصال العادى للحياة اليومية - بل قبل كل شئ فى أزمات الحياة . لقد سمى فان جنب الشعائر المرتبطة بالأزمات بـ « شعائر الانتقال من حالة لأخرى » ، (أو طقوس التخرج) ، حيث بها يتجدد الإيمان . فالأزمات إذاً هى الحالات التى يجب أن تمنح عندها حماية خاصة ، وهذا هو الوضع الذى ساعد فيه الإسلام الوثنى الذى فقد الإيمان فى حراسه ، وقبل كل شئ ذلك الإنسان الذى فقد الروابط القبلية وبفقده الروح - الواعز التقليدى - تم إعادة تكيفه مع الإسلام ، ويوضح هذا جاذبية الإسلام لهم، ولم يحرره الإسلام من المخاوف ، بل بضم هذا المجتمع العظيم حمى نفسه ضد مخاطر المجهول ، وذلك بالاتحاد الوثيق للإسلام مع الوظائف البدائية لحياته إلى درجة أقل ، وذلك باستخدام شعائره المعيارية . ويمكنه أن يجلب معه الآن كل أعرافه التى أعيد تثبيتها فى الإسلام ، وهكذا استنشق النصوص القرآنية المحترقة كترياق ضد التأثيرات الشريرة المخالفة للتعاليم القرآنية ، ولم تتعطل عاداته القديمة ، ولكن أعيد تكاملها وأصبحت بإمكانها أن تظل مؤدية لوظيفتها الحيوية ، وأصبح يقف الآن بينه وبين المجهول ما هو أكثر من عرفه القديم .

٢- الخرافات غير الإسلامية والممارسات الوثنية

إن محصلة كل هذا التفاعل المتبادل هى أن الإسلام اليوم فى السودان ارتبط مع أساس المعتقدات والممارسات الأرواحية التى تتراوح ما بين امتزاج السلالة والقبلية والمنطقة ، ومن المستحيل التعامل مع هذا على نحو كاف قبل إجراء دراسة أكثر تفصيلاً للإسلام المحلى ، ولكن برغم أن خرافات الناس تختلف بشكل كبير فى التفاصيل فإنها غالباً متطابقة فى النوع ، وقد يعطى « الاسكتش » التالى بعض الفهم للاتجاهات العامه .

تبدو العديد من هذه المعتقدات والعادات شائعة لكل الشعوب الإسلامية ، وهذا بسبب (بصرف النظر عن التماثل العالمى العام للخرافة) أن الإسلام كان دائماً ما يلزم القيام ببعض التوضيح والتعديل والتبديل فى دمجه لهذه المعتقدات ، فمثلا انتشر الاسم القرآنى للجن ليندمج مع مختلف الأرواح الخاصة بالشعوب الفطرية ، فـ (جن) كردفان يماثل على أى حال (جن) دنقلا ، دعك من جن البلاد الإسلامية الأخرى .

أسباب الأمراض والحظ السيئ وأساليب الوقاية والشفاء

لكى نفهم السودانيين ، فمن الضرورى أن نميز منذ البداية بشكل واضح مابين أفكارنا عن الأسباب والنتائج المبنية على الثواب والعقاب فوق الطبيعى للقوى الضارة الخارجية ، أو الأخطاء فى السلوك أو العادة التى تؤثر فى الصحة البدنية والعقلية . ويعتقد مثلا أن الإجهاض سببه إما سماع الحامل لصوت البوم (أى الروح المتجسدة فيه) أو غيرة قرينها أو مكر وخبث « أم الصبيان ».

ويسبب الحاجة إلى الحماية والتعويذة أصبحت هناك ممارسة السحر . وفى السودان كما فى أى مكان آخر ، فإن إجازه السحر « الأبيض » أدى الى الإبقاء على الفقراء أصحاب المهنة الذين يزدهرون على حساب سذاجة الجماهير ومعتقداتهم الخرافية ، وبدلاً من الذهاب إلى المستشفيات والعيادات للعلاج ستظل الأغلبية تزور الفقرا، وسيواصل هؤلاء الرجال أيضًا استمرار ازدهار تجارة العلاج الوقائى فى شكل تعاويذ لدفع أذى عين الشيطان ، ولضمان الحماية ضد الأرواح الشريرة .

ويسمى ممارسة السحر المجاز أحيانًا « بالدعوة » ، والدعوة أو كما يقولون – طلب من الله – تغطى كل الممارسات التى يقرها الإسلام ، ولكنها تطلق بشكل اكثر تخصيصا على نظام التعويذة [1] ، والشكل الشائع للسحر الأبيض هو : ١- العزيمة : التمتمة بتعاويذ قرآنية و« أوراد » والتفل بعد كل آية وذلك لنقل البركة . وإذا كان الفكى غير قادر على زيارة المريض ، فإن بصاقه يمزج بالماء ويؤخذ إلى المريض . والطفل المصاب بحمى تشنجية مثلا يعالج برسم صليب أسود على جبهته وتلاوة تعويذة خاصة تحول بالتفل ثلاث مرات على المريض . ٢- البخرة : التى تشمل ثنى ورقة إلى (مثلاً) إثنى عشر مربعاً وفصلها ، ثم كتابة كلمات وجمل ورموز (مثل خاتم سليمان أو نجمة خماسية) على كل قطعة مربعة ، ويطلب من المريض حرق ورقتين فى الصباح وورقتين فى المساء مع البخور أو العنبر والسماح للدخان بالدوران حول جسمه . ٣- المحاية : هنا يكتب الفكى نصوصًا ورموزًا على لوح خشبى أو جلدى ، ويمحوه بالماء ويضعه فى زجاجة ويعطيه أو يرسله إلى المريض ، وتكون الكتابة فى بعض الأحيان على جذور طبية تغلى ويشرب المريض ماءها ، أو تحرق ويستنشقها المريض .

وتطلق كلمة الساحر على :

١- الفكى الذى يمارس السحر الأسود .

٢- أى شخص يعتقد أنه يملك العين الشريرة .

٣- التحول إلى حيوانات ،وهناك أيضا عرافات وكاهنات ، وينسب غالبًا الموت الفجائى أو الشلل إلى الساحر .

وتسمى العملية التى تؤدى إلى الضرر « بالعمل » ، وهو ينتج عن طريق عمل السحر بشئ ما مثل الشعر أو قلامة ظفر أو رداء أفرز فيه عرقًا،أو أى شئ له علاقة بجسد الشخص المراد إلحاق الضرر به . وقد يتم إجراؤه عن طريق استخدام صورة على ورقة أو على جلود الحيوانات والطيور خاصة الحرباء،أو صورة من الطين وتدميرها، وأبسط طريقة هى أن يكتب الفكى رقية ضارة على « ورقة » ، وتلف داخل الورقة عظمة

(١) يمكن استخدام نظام الدعوة هذا فى جلب الشر على شخص . والدعوة فى هذه الحالة من كلمة دعا على : التوسل لإنزال البلاء ، وليست دعا إلى الله ، أو للتوسل إلى شخص ما ، وهكذا يصبح التوسل سحراً والأشخاص سيئو الحظ فى الحياة يسمون « مدعى » ، ويفترض أنهم ملعونون .

أو صدفة ثم تحرق فى الرمل أو التربة أو تلقى فى النهر بتعويذة تعلن كيفية تدمير أو إيقاع الضرر بالشخص المراد إلحاق الضرر به . ويأخذ هذا السحر فى الغالب شكل التوسل بأن يلقى الشخص نفس مصير الورقة أو قطعة الخشب إما بتدميرها عن طريق النمل الأبيض أو الحرق أو الغرق أو ... الخ ، وإذا ما وجدت الرقية فإن السحر يبطل . وهناك قصة من عهد الفونج عن حجازى ابن أبو زيد الذى وضع رقية ضد عدلان الثانى ، وذلك بأن أخذ طينا ليناً وشكله فى صورة الملك وأحرقه حتى تكسر . وتؤخذ فى بعض الأحيان الطيور أو السحالى وتخاط أجنحتها أو أرجلها بحيث لا تتحرك وتترك لتموت على عتبة المنزل ، أو أى مكان آخر يخص الشخص المراد إلحاق الأذى به ، أما إذا تم إطلاق سراح الحيوان أو الطائر فإن المريض يشفى . والسحر شكل من « أشكال » الاقتناع بالإيحاء الذاتى المرتبط باتحاد الأفكار المتشابهة ، ويرجع تأثيره إلى هذا السبب ، بالإضافة إلى استخدام التعاويذ ومعاونة الجن ، ويتم بطريقة ما إقناع الضحية بأنه تعرض إلى شئ ملعون ، وهو سبب مرضه وهزاله وأنه سيشفى إذا ما وثق فى استردادها بطريقة مضادة .

وطرق الوقاية هى استخدام الأحجبة بشكل أساسى ، وستجد أن كل سودانى يلبس على الأقل حجاباً ضد العين الشريرة وآخر ضد الأرواح الشريرة ، وربما نوعين من أنواع الرقى . ويلبس الرجال أحجبتهم المغلفة بالجلد على شكل أسطوانى أو كيس على الذراع فوق الكوع ، أما الأفندية الذين يرتدون الملابس الأوربية فإنهم يلبسونها معلقة بخيط حول الرقبة على الجانب الأيسر تحت الملابس ، وتلبس النساء مجموعات من كل الأشكال والأحجام معلقة أسفل خصورهن ، وفى بعض الاحيان فى شعورهن . كما تعلق الأحجبة أيضاً حول أعناق الحيوانات الأليفة ، وتتكون التعويذة المسماة بالحجاب من ورقة مربعة يكتبها الفكى وتحتوى على آيات قرآنية (١) وعلامات سرية معدة داخل مربعات تسمى « أختام » . والحرز أكثر تنوعاً ، وقد يتكون من أوراق مطبوعة أو خرز أو عظام حيوانات أو أسماك أو رؤوس حرباء مجففة أو جلد ورل أو سحلية أو آثار مصرية مسحوقة أو ودع أو شعر أو أظافر أو قطعة من ملابس ولى أو تراب من ضريحه . وهناك أنواع تسمى « عروق السحر » قد تكون مكونة من مسحوق قلب شجرة أو قطع من أخشاب خاصة مثل « فكى غانا » ، وعادة ما يوجد الحجاب والحرز معا ، فمثلا تتكون تعويذة كردفان لسفرة طويلة من أنياب خنزير مع أحجبة تعلق على الجانبين ، ومع ذلك يقال أن فعالية هذه الأحجبة تكمن فى بركة الفكى الذى عملها ، أما الثمن فينسجم مع سمعة الفكى ، ومرة أخرى فلهذه الأحجبة قيمتها فقط للشخص الذى عملت الوصفة له . وتلبس التعاويذ فقط إن كانت وقائية أو علاجية ولكنها تدمر أو توضع فى مكان خاص إن كانت لاستعمال السحر، ويقوم الفكى

---

(١) أشهرها آية الكرسى (البقرة – الاية ٢٥٦)*والسور ١و١١٣و١١٤ ، ويضاف إليها أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون وأسماء الملائكة والجن .

* الصحيح أنها الآية ٢٥٥ . أما السور فهى الفاتحة والفلق والناس [المترجم]

باختيار الطريقة المؤثرة وذلك طبقًا « لطبيعة » من سيتم سحره . وقد تكون استخدامات الحجاب : لمنع المرض والسقم أو للوقاية ضد الأرواح الشريرة أو العين الشريرة أو للغيرة أو غضب شخص ما ، أو لتحقيق النجاح فى التجارة أو الزواج أو الحصول على مركز أو لتحويل قلب رجل أو امرأة اشتهت ما لغيرها أو لكسب حب شخص أو لإنجاب الأطفال .

أما التميمة فهى خيوط من الخرز وشُرّابات مربوطة فى شعر الطفل لإبعاد عين الشيطان ، كما أن الفقرا المتجولين يلبسونها أيضا ، ويمكن رؤيتهم فى السوق وهم يمدحون النبى ، ثم يرقصون ويجلجل الخرز الذى يلبسونه ، وتقوم النساء بلمسهم للحصول على البركة .

وتتكون « العقدة » من سبع « عقد » يقوم الفكى فى النفخ فيها مع التعويذ فوق كل عقدة ، ويتم الحصول عليها بشكل خاص للنساء الحوامل وللوقاية والشفاء من الحمى عند الأطفال ، ويتم فى بعض الأحيان تمرير خيط خلال الجلد ثم يعقد ، وهناك عقدة سيدى الحسن لفعالية « عُقَدُه » .

وهناك أشكال أخرى لعقدة السحر الأسود ، ويكتب شقير عن فرع من فروع قبيلة بشاريبى عطبره أنهم : اذا أرادوا « ربط » شخص ، فإنهم يقومون بصنع تعويذة له تجعله لا يستطيع ترك المكان ، إلى أن يفكوا العقدة ، وإذا وضعوا أمامه طعامًا فلا يمكنه أن يمد يده للطعام .

وشكل العقدة التى سمعت عنها هى عقدة شائعة ومؤثرة ، وهى خاصة بربط شخص ليصبح ذا قوة جنسية . وقد تكون العقدة من أى مادة ويجب أن تكون خفيفة بشكل ما ، إما بإلقائها فى بئر أو نهر أو تحرق أو تدفن ، ويتم الحصول على الشفاء بأن يكتب الفكى حجابًا يلبس على الجانب الأيمن ، ثم تكتب رسائل معينة على جرة تملأ بالعسل أو زيت الزيتون وتمحى الكتابة بالماء ويشربهاالشخص المصاب . أما عين الشيطان « العين الحارة » فهى تثير الخوف الشديد ، وقد يتفق السودانيون على أن « الشخص الذى يملك قوة عين الشطان يبث سمًا قاتلاً كسم الأفعى الخبيثة » ، أو أن من تكون له سمعة الساحر غالبًا ما يعيش حياة غير سعيدة ؛ لأنه يطارد من مكان لآخر ، ويخشى منه بشكل كبير لأن لمحة من عينه قد تشل عضواً حيوياً وتؤدى إلى موت الضحية بعد عذاب . ويصف سلاطين باشا « عين » الخليفة عبد الله المفزعة ، وقد حدث أن سورياً بعين واحدة شخص ببصره نحو الخليفة فلاحظ الخليفة أن عين السورى ترمقه ، فأمر السورى بألا ينظر إليه مرة أخرى ، وقال لسلاطين «لا شئ يقاوم العين البشرية . إن المرض وسوء الطالع تسببها فى الغالب الشريرة [٢]»ويقال

(١) شقير . مصدر سابق جـ ١ ص ٢٣٧ كما نجد فى SNR., 53-5 مثال لعقدة عملها متمرد ضد الحكومة لربط عقول الحكام .

(٢)سلاطين . مصدر سابق . ص ٥١٩

إن الأطفال يتعرضون فى الغالب « لشر حاسد إذا حسد » ، ويتم حمايتهم دائما «بالحجبات » . إن الحاسد فى أبسط أشكاله هو من يطلق العين الشريرة . لذافيجب ألا يعلق الإنسان على صحة أو جمال الطفل ، إلا باستخدام تعبيرات مثل ما شاء الله . واذا اشتكى طفل من آلام مفاجئة فإنهم يقولون فى الحال « أصابته عين » ، ويتضمن الشفاء اكتشاف الساحر أولاً ، وذلك بإلقاء قطعة شب مع ملح وقرض وكمون فى «مبخر» وتبخير الضحية ، ثم يشكل المكون فى كتلة ، ومن شكل هذه الكتلة يدعون أنه بإمكانهم الإخبار بمن تسبب في الضرر . وهناك طرق عدة للتخلص من العلة ، فقد يغسلون عين الساحر وهو نائم إذا كان هو أحد الذين يعتقدون أنه يملكها ببراءة ، أما فى الحالات الحاقدة فتستخدم طريقة نقل الشر كأخذ قليل من التراب من أثر الساحر، وإن أمكن الشعر أو شئ آخر مماثل ، ثم يحرق مع الشب والأعشاب فى « مبخر » ويبخر بها الطفل ، وبعد أن تكون الكتلة قد امتصت الشر يتم تدميرها بالذهاب إلى الطريق أو الصحراء ورميها خلف ظهورهم أو فى النهر ، مع مراعاة عدم رؤية إلى أين ذهبت .

ووجد فى الجزيرة رجل له قوة الشفاء من الرقبة التى سببت لشخص صعوبة فى التنفس والموت ، والتى قيل إن سببها قطعة من « كرشة » حشرت فى حلقه ، وكان علاجه رسم وصفة النموذج الهندسى المعتاد مع قطعة من الورق ولفها ووضعها فى فتحة أنف المريض وإشعالها ، ويصرخ من سحر بصوت الموجوع « أخرجنى » ، ويتحقق الشفاء بالانفجار الذى ينشأ بإخراج الروح .

ومرة أخرى هناك دنيا الأرواح الشريرة التى تسبب المعاناة وسوء الطالع والموت . إن عائلة الجن مع العديد من تقسيماتها من عفاريت وشياطين وريح ... إلخ يخاف منها المزارعون بشكل خاص ، أما الموقف بالنسبة للعرب أو البجة فهو ما قاله الشيخ سالم فرج إلى ج.و. موراى « يكثر الجن فى جبالنا ، ولا أحد سوى الفلاح يخاف منهم . إن الخطر الحقيقى هى الذئاب». (١)

يمكن تقسيم المعتقدات المرتبطة بالجن – مثلها مثل المعتقدات الأرواحية الأخرى – إلى ثلاث فئات : تلك التى من الوثنية العربية القديمة ، وتلك التى قبلها الإسلام من مصادر عدة بما فيها السودانيون من الغرب (٢) ، من خلال تطورها عبر العصور(كل من تلك التى فقدت خاصيتها الإقليمية عن طريق التوفيقية ، وتلك التى كانت جزءاً من التراث الإسلامى للسودان) ، وأخير تلك التى استعيرت من معتقدات الشعوب الفطرية

(١) Sons of Ishmael, p.156

(٢) Westermarch, Ritual and Belief in Maroco, i.379

السودانية ، ومع ذلك فقد تم جمع المادة الناقصة لغرض التحليل . وقد يكون للأرواح نفوذ خارجى ، أو قد تدخل فى الشخص أى تتلبسه ، ويعتقدأن الشخص الذى ارتكب خطأ يكشف نفسه لمثل هذا التلبس ، أو قد تدخل فى أوقات الأزمات (المشاهرة). إن الجن هم عالم قوى ما فوق الطبيعة فى مرتبة بين الملائكة والبشر ، وكما فى أى مكان يعتقد أنهم ماكرون وشياطين مؤذون مشكلون من النار والبخار.

ويسكنون فى المقابر والأماكن المهجورة ، وعلى العموم فهم الصفات المجسدة لمخاوف الصحراء ، وهم أجسام خفيفة ، ولكنهم قد يأخذون شكل الثعابين أو السحالى أو الأشياء الكريهة الأخرى ، والبعض منهم مسلمون والآخرون كفار ، وكلهم تحت سيطرة النبى سليمان ، وكلهم قادرون على فعل الخير أو فعل الشر ويجب أن تسترضى لكى يتم تجنب نفوذها الشرير ، أو تطرد بالرقى والتعاويذ . وبعد الشفاء من المرض يتم فى الغالب تغيير اسم الطفل لتضليل الأرواح ، ويدعى العديد من الفقرا أن لديهم « خُدّام » ، وأحيانا يتزوج الجن من البشر ، وينسب الفلاتة والهدندوة – فى الخرافة الشعبية – أصلهم إلى اتحاد الجن مع فتيات إثيوبيات ، وكان لصديق لى حمل لا عيب فيه وعندما رأت الحمل عجوز لم تتزوج أبداً ، أبدت رغبتها فى شرائه بإصرار والحاح ، وعندما سأل عن السبب أجابت على مضض أنها متزوجة من جن ، وأن الفكى قال لها إن مثل هذا الحمل ضرورى تقديمه قربانا لمنع عودته إليها . ورغم الخوف الحقيقى من الجن هناك خرافات مرتبطة بهم ، وهى مجرد خرافات ، فمثلا يقال إن «غبار الشيطان» يمثل الجن وهو يمتطى حصاناً ، وأن الشهب يلقيها الملائكة على الجن ، ولا يتم حفر بئر أو بناء منزل ما لم يتم تقديم « كرامة » استرضاء للجن « صاحب المحل » الذى قد تقلق راحته .

وبالرغم من أن الجن صنف يفتقر بشكل عام الشخصية الفردية ، فهناك جن له اسم فردى ومميزات خاصة وأكبر لعنة للنساء هى روح تسمى « أم الصبيان » أو « الغزالة » وتصور كامرأة عجوز نحيفة كريهة المنظر ذات قوة تدميرية جبارة، ولا يستطيع إلا فكى قوى أن يكتب أحجبة لإبطال عملها أو استرضائها . إنها لعنة الأمهات الحوامل ، وهى تسبب الإجهاض والعقم وشلل الأطفال ، وأى شخص يصاب بالصرع (الغزالة) يكون سببها أم الصبيان ، ومن ثم فإن السودانيين ينفرون من لمس أى شخص فى نوبة مرض خوفا من التلبس ، وهناك القرين أو القرينة ، وفى أم درمان روح تتلبس الانسان ، وغير معروف فى السودان المفهوم المصرى الخاص بأن القرين يولد مع كل فرد [1]، وهناك أشخاص بعينهم يتلبسهم الجن ، ومثل هؤلاء الاشخاص لا يتزوجون وإلا فإن القرين سوف يؤذيهم ، ويبدو أنه لا يتطابق بالمرة مع

(١) فيما يتعلق بمفهوم المصريين ينظر Zwemer, studies in popular Islam,ch.v . أما الاستخدام السودانى كزوج الروح أو زوجة الروح فإنه يشابه استخدامه فى القرآن « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » [النساء الآية ٣٨]

بنت إبليس التى لها علاقات مع غير المتزوجين أثناء النوم ، والتي قد تسبب لهم الضعف الجسماني ، وهي ليست سبباً للمرض العقلي أو البلاهة كما فى مصر ، والذي مرجعه استبدال الشياطين لأحد أطفالهم المعتوهين بطفل آدمى سليم ، لذا فعندما يسبون معتوهًا يقولون له « المبدل » . وللوقاية ضد هذا الاستبدال يجب عدم ترك الأطفال وحدهم أبداً فى الأربعين يومًا الأولى بعد الولادة (أيام الأربعين) ، والتي تكون الأم خلالها حبيسة البيت . ويصنف الجن المتملك عادة بأنه إما جن هادئ أو جن حاسد وهو الذي يسبب المس . وتستخدم كلمة الجنون بشكل محدد لتعني المجاذيب، وهؤلاء يعالجهم أسر فقرا معينون ورثوا بركة استثنائية ، ويتمثل العلاج في الحبس في حجرة مظلمة والصوم علي قطعة « كسرة » وماء يتلوه ضرب مبرح بعصي كتبت عليها آيات قرآنية وتعاويذ مع البصق المعتاد على المريض لنقل البركة وتلاوة القرآن ، ويؤدى هذا العلاج في غالب الأمر إلى وفاة المريض . وتتضمن الطريقة الأخرى المرجحة من القدمين والكتفين ببطء فوق نار حامية مع التعويذات . أما الأشخاص الممسوسون بشكل معتدل فيسمون « مشوطن » ، ويجب ملاحظة أنه قد تمارس « الدعوة » في مختلف أنوا ع علاج الجنون ، إما مع الأداة المهدئة للأروا ح أوالتعويذة الفعلية .

وهم يخافون بشكل حقيقى من أم الصبيان والأرواح الأخرى التى تتلبس الإنسان ، ولكن هناك أيضا العديد من الأرواح الأخرى التى تستخدم "بعبعا" لإخافة الأطفال ، ويصور الغول كجن بسبعة رؤوس وعرف ضخم ، وهو ينام عاماً ويصحو عاماً وهو يغرى الرجال ويسحبهم بعيداً إلى أماكن منعزلة ليفتك بهم ، وتعرف الأنثى بالسلعوة [1] والنوع الآخر هى « الشكلوته » ، وهى مخلوق بعين واحدة ورجل واحدة ويد واحدة وبدون أنف ولها أظافر طويلة تهاجم بها وجوه من تقابلهم من الناس . ويبدو « أن «الدودو» وأم بعلو يمثلان البعبع المصرى ، ويقال أن الكابوس يسببه « أبو الكباس » وهو شيطان يضع يده فوق فم الشخص لخنقه ، ولكن لا ينجح لوجود ثقب فى راحة يده يتنفس الإنسان من خلاله بصعوبة .

وهناك اعتقاد قوى بتناسخ الاشخاص الذين ماتوا وفشلوا في دخول الجنة ، وعادوا ليعيشوا حياة بشرية عادية في بعض الأقاليم أو البلاد وتزور أشباحهم (يسمون بعاتى) عادة أقاربهم مباشرة بعد الموت ، وتحكى القصص غالبًا عن مقابلتهم بعد سنوات مع أشخاص يعرفونهم في حياتهم السابقة [2] ،وتعتقد الشعوب النهرية أن

---

(١) الغول اسم مؤنث من جزر معناه (ليهلك) ، ولكنه يعتبر في السودان شيطانًا مذكراً ، وقد تكون السلعوة من السعلاة الشيطان العربى ما قبل الإسلام . انظر المسعودى . مروج الذهب جـ٣ ص ٢١٨ .

(٢) قد يكون هذا الاعتقاد مستمداً من عبيد الفور لأن ماكمايكل يقول فى Hist,i.103 «مازال الاعتقاد الشعبى فى كل دارفور ينسب لكل الفور قوة الانسلاخ ، وأن كلمة « نباتى » تعبير عام أسيئ استخدامه ليضمن الشخص المخاطب هو فى حياته الثانية ، وأنه مات ، أى أنه بدلاً من أن يسكن فى الجنة عاد ليعيش حياة ثانية على الأرض .

النيل مسكون ببعض أنواع عن عرائس وعروسات البحر يسمون « أولاد الحور وبنات الحور » ويفترضون أن الالبينو *Albino الذين يولدون أحياناً من أبوين أسودين «مبدلين»، ويسمي مثل هؤلاء الأطفال « بالحورى » ، كما يعتقدون أيضا في سكان آخرين في النيل يسمون ملكات البحر. (١)

إن جماجم وقرون الماشية وجلد التمساح والأبريق الأسود والزجاجات والاطباق التى تري فوق أبواب الحيشان تمثل في بعض الأحيان نوعًا من أنواع الفتيشية* للوقاية ضد دخول الأرواح الشريرة ، أو يقال أنها هناك لجذب العين الشريرة ، ومن ثم لن تضر أى شخص في الحوش ، كما أن جماجم الحيوانات التى تشاهد معلقة على أعمدة في وسط الحقول هي أيضا لجذب « العين » .

والزار شكل من اشكال استرضاء روح الزار الحارسة أو « الروح الأحمر » بوسائل الموسيقى والرقص . الزار بالتأكيد ليس متأصلاً عند سكان السودان الشمالي إذ لا يمارس في القرى ، كما لا يمارس أيضًا في مناطق الجزيرة والفونج والنيل الأزرق ، ويبدو أنه جاء من مصر في القرن التاسع عشر عن طريق العبيد السود من السودان الوثنى . والاحتمال الأكيد أنه جاء من الحبشة (٢)، والزار الذي دخل السودان الشمالي من مصر، يمارس الآن بشكل أساسى فى سواكن وبربر وأم درمان ، ويوحى انتشاره فى سواكن بأنه دخل من الحجاز الذى ربما جاءها من الحبشة .

وقد تربت نساء أم درمان في جو الخوف من الزار ، وعندما تصاب المرأة بالهستريا والهزال يقولون ان السبب هو مس الزار ، وهذا يظهر عندما تلقى المريضة بنفسهاعلي الأرض في اضطرابات عنيفة قد تستمر لعدة ساعات ، وتصبح خلالها المريضة في بعض الأحيان متوحشة جداً وفي غضب شديد ، ويتلوه عيون مثبته ومتوترة ومفتوحة عن آخرها . إن النظرية التي وراء الزار بسيطة جدا : فعندما يسمح لروح أخرى بتملك جسم آخر فإن النوايا والأغراض هى نوايا وأغراض شخص آخر .

---

*Albino : شخص لبَنّى البشرة أبيض الشعرقرنفلى العينين . (المورد) [المترجم]

(١) ينظر : Crowfoot, SNR, ii.183ff

*الفتيشية : أشياء كانت الشعوب البدائية تعتبر أن لها قدرة سحرية على حماية صاحبها أو مساعدته [المترجم]

(٢) الزار كلمة أمهرية دخيلة، من المعتقد أنها جاءت عن دين الأقاو Agao القديم للكوشيين الوثنيين الذين كانوا يسمون إله السماء جار Jar وقد تدهورت الكلمة فى استخدامها من قبل الأحباش (الاقاو الذين تنصروا) فيما يتعلق بالروح الشريرة . ينظر
Paul kahle, Zar-Beschworungen in Agypten Der-Islam,iii.1-41 Travels in Abyssinia,pp.259-60و في كتابة plowden كما سرد Cerulle,Ethiopia Occidentale (1933)
وقد استمدها السودانيون من كلمة زار ، يزور ، وتشير النساء المسوسات دائما إلى الزار بكلمة « الجماعة» ويجب ملاحظة أن Lane فى كتابه Modern Egyptians لم يذكر أبداً الزار ؛ لذا يفترض أنه لم يكن قد تم استيراده بعد ، كما أنه انتشر إلى الحجاز ينظر : Snouck Hurgronje, Mekka,ii.124 ff

ويقول بعض السودانيين إن كل شخص يتلبسه زار يكون مختفياً فى العادة ، ولكن أحوال بعينها كالصدمة العقلية قد تجعله نشطاً . والشخص المتلبس يسمى «مزيور» ، وهناك أشكال عديدة « للزائرين » ، منهم الحبشى والباشا والمصرى والفلاتى والقس والقبطى ومجموعة راهبات ودراويش بعينهم (مثل عبد القادر الجيلانى وأحمد البدوى)، وتلبس النساء اللاتى مسهن الزار خاتماً منقوشاً عليه اسم – لنقل – عبد القادر ، وتقوم امرأة بإلقاء الخبز فى أركان البيت له ولأى جن آخر .

كما يسمى حفل الاسترضاء بالزار أيضاً . ويتم تهدئة الزار بوسائل الرقص والهدايا والقرابين . والأمر كله وثنى ويبعيد جداً عن الإسلام ، اذ لا توجد أية محاولة لأسلمته [1]، وعادة ما تكون صاحبة المهنة أو كاهنة الزار امرأة ، ولو أنه ليس بالضرورة أن تكون امرأة زنجية ، وتسمى الشيخة أو الكوديا ، واذا كان شخص ما مريضاً مرضاً عقلياً أو جسدياً ، ويعتقد أن مس الزار هو السبب ، يتم إحضار الكوديا الى المنزل لإجراء مراسم تسمى « فتح الصندوق » ، ويحتوى الصندوق على بخور تقوم الكوديا أثناء حرقه بتقرير ما إذا كان الشخص فى حاجة إلى حفلة زار أم لا ، وقد تقول بالطبع ما إذا كان المريض سيكون سريع التأثر لهذه السلطة أو من المحتمل أن تسوء حالته أو يموت من العلاج . وإذا كان الأمر كذلك فإنهم يتجنبون إجراء الزار ويقترحون العلاج بفكى ، هذا لأن سمعتهم (على عكس سمعة الفكى) تتأثر إذا ما أصبح المريض مجنوناً أو مات . وهناك حالات عديدة للانتحار والجنون فى أم درمان بسبب الزار ، ويفترض أن ممارسة الزار ممنوعة ، ولم يتم إلا القليل لإيقافه برغم أن الزار لا يمكن إخفاؤه بسبب الأصوات الشيطانية التى يحدثها قرع الطبول التى تجعل كل الجيران فى حالة توتر .

والمهمة الأولى «للكوديا» هى اكتشاف أى زار أو « ريح » تتفاعل معه ، وما هى النغمة الصحيحة التى بها تطرده أو تطردها (الأرواح الشريرة) أو تكون المريضة فى بعض الاحيان يتلبسها أكثر من روح شريرة ، وتتم محاولة نغمة وراء أخرى يصحبها القرع والرقص المناسب حتى تصبح المريضة (وفى بعض الأحيان الكوديا) فى حالة انجذاب وتدخل فى غيبوبة ، ويدل ذلك على أن الزار الصحيح قد تم التوصل إليه ويتم غناء ذلك اللحن ودق الطبول بشكل مطول جداً ، ويتطلب كل لحن ارتداء ملابس أطفال أو نساء أو مخنثين وذلك طبقاً لجنس الزار . وللزار دائما رغبات محددة ، ومهمة

---

(١) لقد أوضحت آنفاً أن اندماج المفاهيم البدائية فى الإسلام يتوقف على انسجامها مع تصورأن الله هو الحاكم الأعلى . إن الوصفة الأساسية « للحجاب » مثلا يجب أن تكون كلمة الله ، ومن الخطأ توحيد شياطين ما قبل الإسلام مع الله على الورق كما يحدث دائماً ، ومن الخطأ استخدامه لفعل الشر (العمل) على الآخرين أى انتهاك قداسة الكلمة القرآنية ، وبالمثل فإن الزار كممثل لشيطان ما قبل الإسلام لا يمكن أن يكون رفيقاً مثل الولى ليصبح « صديقاً » لله ومن المحزن أن سحر الدين اليوم غير مؤثر فى السيطرة على « الزائرين » ، وأن الشعائر البدائية هى التى تم الإبقاء عليها .

الكوديا هي اكتشافها قبل أن تهدأ . وقد يتم التعبير عن ذلك في بعض الأحيان باللغة العربية وفي أحيان أخرى بلغة الزار ، وذلك إلى الكوديا عن طريق ضحاياهم ، ولو أن الكوديا قد تكون الوسيط في بعض الأحيان ، وتتجه هذه الرغبات لتأخذ شكل الملابس والمجوهرات والأشياء الأخرى المملوكة للغير .

وتستمر حفلات الزار عادة لمدة سبعة ليال ، وتقام وليمة كبرى في الليلة السادسة وتبقى الكوديا والمسوسات الأخريات اللواتي تمت معالجتهن في السابق بالكوديا ذاتها [١] طوال الليل وصباح اليوم التالي ، ويقمن بذبح خروف قرباناً ، ويتم أول ترتيب للموكب ، يجر الخروف سبع مرات حول الحجرة ، وفي بعض الأحيان مع ركوب النساء عليه وغناء تعويذة خاصة ، ثم يذبح الخروف وتقوم المريضة والآخريات بتلطيخ أنفسهن بالدماء ، ثم تقوم المريضة والكوديا والمسوسات الأخريات بشرب بعض الدماء وأكل اللحم النيء[٢]. وهناك طبقتان عرضة لخرافة الزار المريض الذي جرب الفقرا والأطباء ولم يتم شفاؤه ، والنساء غير المستقرات عقلياً ، أو النساء اللواتي يرغبن في الحصول على مصوغات ذهبية من أزواجهن كسياسة لضمان عدم تطليقهن . وهناك معارضة قوية من جانب الرجال ضد الزار ، ولكنها معارضة غير مؤثرة ليس على أساس أن الزار طقس وثني ، ولكن على اعتبار أنه حيلة من النساء ومحاولة لشفاء آخر غالي الثمن من مرض عضال . وتأخذ الكوديا جنيه يومياً لمدة سبعة أيام ، وقد يكون صعباً بالنسبة لمعظم الناس تقديم مثل هذا المبلغ ، ولكن لأن الطبول تغري اللواتي يتلبسهن الزار من الجيران فإنهن يسهمن في دفع التكاليف .

ويسود اعتقاد في كل السودان بإمكانية تحول بعض الأشخاص إلى حيوانات ، ويعزى لسحرة معينين (يسمون في هذه الحالة بالسحارين) القدرة على تحويل أنفسهم بالليل إلى تماسيح أو أفراس نهر في المناطق النهرية ،أو إلى ضباع في دارفونج ووسط المساليت أو إلى أسود في دارفور ، وتتجول هذه الوحوش الآدمية المسوخة بحثاً عما تدمره ، ويعتقد أنهم يقيمون ولائم لأكل لحوم البشر ، ويفترض في دارفور أن كل قرى الفور تتحول بالليل إلى بعثات صيد [٣].ومما يبرهن على أن هذا

---

(١) يجب أن تذكر أن الزار يُهَدّئ فقط ولا يتم التخلص منه ، وتقول النساء ان فقرا بعينهم كانوا في الماضي لهم قوة التخلص من الزار ، ولكن تلك المهارة فقدت خلال حكم المهدية .

(٢) يؤدي الزنوج الذين تأسلموا في أم درمان طقساً مشابهاً في ليالي الخميس ، ويسمى الكاهن القائم بالطقس : شيخ الطمبورة « والطمبورة عبارة عن طبلة كبيرة تستخدم مع الربابة » ويرتدي الشيخ جلداً مملوءاً بالحوافر المشقوقة وعصا طويلة ، ويزين نفسه بريش النعام ويربط الحوافر حول وسطه وينحني فوق عصاه ويهز الجزء الأسفل من جسمه ليجعل الحوافر تخشخش ، ويتم أيضاً دعوة الآخرين الذين يعانون من «جماعة الطمبورة » كما يسمونهم ، ويتم إخراج الأرواح بالضرب المستمر للطبول والغناء والبخور والعزف على الربابة والتصفيق الذي له تأثير منوم على المريض الذي يذهب في غيبوبة ، ويستغرق هذا الطقس ليلة واحدة فقط ، ويقول الأم درمانيون أن هذا الطقس هو الذي دخل السودان الشمالي ومصر – وحظر أثناء المهدية – ثم عاد مرة أخرى من مصر مع الزوائد الجديدة خاصة طريقة المصروفات . وينظر أيضاً سرد Bangala في الكنغو العليا J.H.Weeks, J.A.I.xl.425

(٣) ينظر : رواية التونسي Voyage au Darfour, p.358

الاعتقاد ليس مجرد خرافة هى تجربة المدير السابق لسكك حديد السودان الذى قال لى إنه كان عليه ذات مرة أن يرفع قارباً غرق فى مصب نهر عطبره ، وأنه وجد صعوبة فى الحصول على عمالة من القرية المجاورة ، وعرف فى آخر الأمر أن الفلاحين يخافون دخول الماء لاعتقادهم بأن رجلاً من القرية يعتقد أنه يملك القدرة على تحويل نفسه الى تمساح ، مما جعل الفلاحين يخافون دخول الماء ، كما أصدر كتشنر بعد إعادة الفتح أمراً بعدم إطلاق النار على التماسيح فى بطن الحجر لاعتقاد السكان فى مسخ الكائنات . ويفرض « رجال الأسد » المعروفون فى كردفان « بأهل العوايد » رسوماً على القرويين ، وهناك احترام فى كل أنحاء السودان لمقدسات مثل الأشجار والآبار والحجارة ، وقد أعطيت اليوم بالطبع تلويناً إسلامياً . وقد يشاهد المرء فى الأسواق ممارسات « ضرب الرمل » و« ضرب الودع » و« فتح الكتاب » وكلها تسير فى خطى الأشكال الإسلامية المبنية على المصادر الأدبية ، أما ممارسة الاستخارة فهى عامة ، ويستخدم عادة كتاب ابن سيرين فى تفسير الأحلام . أما كتاب « الديربى » فهو شائع بين الفقرا ، أما فتح المندل فهو طريقة للتوصل إلى معرفة الأشياء المخبأة عن طريق وسيط روحى ، ويمارس الفلاتة فتح المندل فى كل أنحاء السودان ، وتأخذ الطريقة الشكل التقليدى الذى تم وصفه دائماً [1]، وهو أن يقوم الساحر بإستخدام طفل وسيط ، بتتبع خاتم سليمان المرسوم على الأرض بأن يكتب كلمة فى الوسط ويقوم الطفل بالتحديق فى الرمل إلى أن يدخل فى غيبوبة وينادى الساحر على « ملك الشياطين » الذى يجيب على الأسئلة عن طريق الطفل الوسيط ، ويستخدم فى بعض الأحيان كوباً أو مرآة أونقطة حبر .

وتوجد الممارسات الوثنية الفعلية وسط الزنوج المسلمين اسمياً فى دارفونج ودارنوبا ودارفور ، ويعتبر الجديات وسط جبل كردفان وبحيرة الرهد أنهم يمتلكون قوى سحرية، وتوجد العرافات وصانعو المطر والأحجار المقدسة وسط الفور والزغاوة والميدوب . ويكتب ا. لا مبن عن الميدوب :

> يبدو أن ديانتهم الجديدة والتى مازالت مترددة قد تركزت على ثلاث نقاط: التضحية والتعبد أمام الأحجار والأشجار المقدسة ، والاحتفال الكبير للحصاد واللجوء إلى امرأة حكيمة للسؤال عن أمر من أمور الغيب . وهناك شجرة عظيمة بالقرب من الملحا حولها سياج صغير كنت أعتقد دائماً أنها شجرة مقدسة ، ولكن لا توجد عندى معلومات مؤكدة عنها أو عن غيرها . إن الأحجار المقدسة أكثر شيوعًا . وقد علمت أن هناك واحداً فى فوهة بركان الملحا . كما شاهدت آخر فى الممر الضيق لوادى جلدونت ، وكان مغطى بأحجار صغيرة بأماكن المارين عليه طلبًا للحظ السعيد . وهناك العديد من مثل هذه الأحجار .... وما تزالُ تُوجد النساء المقدسات أو النُّدى اللواتى اعتدن التنبوء بضرب الودع ولا شك أنه مازالت

---

(١) Lane, Modem Egyptians, i,348 ff

إستشارتهن سارية . وكل الميدوب يخجلون من التحدث عن إيمانهم القديم ويخجلون من تخلفهم فى ممارسة الشريعة المحمدية . ولكن لا شك أن الأغلبية العظمى للقبيلة ما زالت أرواحية فى دخيلتها . (١)

ويكتب س.هالسون عن الداجو قائلا :

رغم أن التأثير العربى قد تخللهم بشدة ورغم أنهم يتظاهرون بالإسلام اسميًا وبلا مبالاة ، فإن الداجو يحافظون على شعائر ذات طبيعة وثنية صرفة يتحد معها الكجور بشكل خاص . وتوجد تحت مسئولية التوجونى (أو الكوجور) مزارات تعود إلى كالح الإله الأعلى للداجو والذى يماثلونه بالله . (٢)

وهناك عبادة حجر سوبا وسط همج جبال قولى ، وهم يدعون أن جدتهم العليا ملكة تدعى سوبا وأن الحجر هو عرشها ، وما زال كرسى الملكة يلعب دوراً فى المراسم عندما يتولى المنجل السلطة بالاحتفال بغسل قدميه على الحجر، ويلعب هذا الحجر وأحجار سوبا الأخرى دوراً فى شعائرهم مثل الرقص احتراماً للمرة الأولى التى تقوم فيه الوالدة بترك منزلها ، كما توضع القرابين على الحجر عند أول جنى للحصول ، كما يتم التوسل لسوبا للشفاء من المرض .

كما يحتفظ معظم البجا الذين تأسلموا بشكل ناقص بالعديد من الممارسات الوثنية . ويكتب ج.و.موراى « ما زال للبشاريين صخور ومنحدرات صخرية مقدسة تؤدى لها زيارات احتفالية ، وتقدم لها الخراف أضاحى ، ومن هذه الأماكن كنجر أويب « حجر الهروب » فى وادى كجوج أحد روافد وادى أريب (٣).

٣- التأثيرات الوثنية على الحياة الاجتماعية والاسرية

أ- آثار النظام الأمومى

لقد أوضحنا فى السابق أن النوبيين والبجة – ومن المحتمل معظم القبائل السودانية الأخرى – هم شعوب ذات أصل أمومى مثل العرب حتى زمن النبى ، ويقول المقريزى عن البجة « وأنساب البجة من جهة النساء ، وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب » (٤)، وهذا هو النظام الذى احتال عليه العرب المهاجرون ليصبحوا شيوخا للقبائل ، وقد ظهر ذلك أيضاً بحقيقة أن تقاليد العديد من القبائل – مثل الهدندوة وبطن المناصير – تعود إلى الجدات العليا. (٥)

---

(١) SNR.xi .60-1

(٢) نفسه viii. 63.4

(٣) G.W.Murray, p.157

(٤) الخطط جـ ١ ص ١٩٤

(٥) تنسب العديد من الأحجبة الرجل الى أمة (فلان ابن فلانه) ، ومع ذلك فقد قيل إن هذا راجع إلى ضرورة الإشارة إلى الشخص الصحيح ، وإلا فإن الحجاب قد لا يكون له تأثير ويفسد بدلاً من أن يفيد ، وليس هناك أى شك أو تساؤل عن أم الشخص .

ولا يوجد اليوم مثل هذا النظام فى الشريعة ، إذ إن الانحدار يأتى من النظام الأبوى ، ولكنه موجود فى عادات الناس ، حيث يذهب الزوج ليعيش مع زوجته فى حوش أسرتها ، ويبقى هناك تحت حكم أم العروس إلى أن يولد الطفل الأول وفى الغالب مدة أطول من ذلك ، وحتى بعدما تراخت العادة فإن المرأة تعود إلى أسرتها لتضع مولودها . ومن الغريب أن المرأة مستقلة عن زوجها - الذى ليست له فى العديد من مجالات الحياة والسيطرة فيما يتعلق بالجانب الداخلى للمنزل - حتى بعد أن تنتقل إلى منزله ، وتقاوم النساء عادة وبنجاح أى رغبة للزوج فى التحرك حتى ولو إلى جزء آخر من أم درمان رغم معرفتهن أن هذا يعني فى الغالب أن له زوجة أخرى محلية ، كما كان التصاق الأبناء يكون أقوى مع أسرة الأم خاصة عندما يكون للزوج أكثر من زوجة . وعمليًا ورغم عدم وجوده فى الشريعة فإن أسرة الزوجة - خاصة الخال - تمارس سلطة أكبر على الأطفال ، وتعود المرأة البقارية المطلقة إلى خالها وليس إلى أبويها ، ومن الأمور الشائعة جداً وسط العرب والبجة والنوبة والزنوج على حد سواء أن يخجل الرجل من حماته والمرأه من حماها، [1]؛ ولذا يتجنب الرجل مقابلة الحماة ولا يتحدث إليها أو يأكل فى حضرتها أبداً . ويمكن للرجل أن يتحدث مع حماه ، ولكنه يتجنب الأكل من نفس الطبق ، ويذهب الرجل وسط الهدندوة إلى قرية المرأة التى سيتزوجها ويبقي هناك من عام إلى ثلاثة أعوام ، ومعظم معدات كوخ الزوجية يوفرها أقارب العروس ، كما يتجول أيضا مع قطعان حماه وعلاقتهما هى علاقة الابن والأب .

كما يوجد النظام الأمومى الخاص بالميراث والخلافة وسط الميدوب المسلمين اسمياً فى شمال شرق دارفور ، إذ يخلف الملك ابن أخته ويقولون « إن العظم من الأم واللحم من الأب » [2].

ب- الاحتفالات والعادات الأسرية

قلنا إنه بينما تحكم الشريعة الاسلامية الأسرة والحياة الاجتماعية فإنها ترتبط بشكل أساسى بالشعائر الفطرية الخاصة بالانتقال من مرحلة لأخرى (شعائر التخرج)، وتوفر هذه الشعائر الحماية للفرد أثناء فترة مخاطر الانتقال من مرحلة حياتية لأخرى. «فالمشاهرة» [3] هو ذلك الاسم الذى يطلق على « الخطر المجهول » الذى يؤدى إلى المرض أو الكارثة المرتبطة بهذه الأزمات ، ويعتقد أن ذلك مرتبط مع القمر (الشهر)، والنكبة التى يسببها بعض الخلل فى أداء هذه الشعائر الوقائية (السبر) [4] كعدم

---

(١) ماكمايكل . مصدر سابق جـ١ ص ١٠٦

(٢) نفسه ص ٥٩ وما بعدها. ويذكر أيضا آثار هذا النظام وسط سكان الحرازة فى كردفان (Tribes, p.91) ووسط الكبابيش منذ ثمانية أجيال مضت.

(٣) من الشهر أى القمر .

(٤) من المهم جداً التمييز بين « السبر » و« العادة » . فالسبر يدل على تلك الممارسات الاحتفالية العرفية ، أما العادة أو السوالف (كلمة عربية) ، ولكن البجة تستخدمها ، فهى العرف فى معناه الواسع .

إكمال لوازم الجيرتق أو زيارة النهر . ولإبطال المشاهرة يتم ارتداء الحلى والزينة [1] الخاصة بالجيرتق عند الزواج والختان ومنذ الشهر السابع للحمل حتى انتهاء الأربعين ، وفى الماضى عند تنصيب الملك .

العادات المرتبطة بالميلاد : ففى وسط الشعوب النهرية - أى الدناقلة وما يسمون بالقبائل العربية مثل الجعليين والرباطاب - عندما تكون المرأة فى الشهر السابع من الحمل يحضرون من الفكى « عقاد » تربطه الحامل حول وسطها، وتلبس الزينة الخاصة بالجيرتق ، ويتم الوعد بتقديم الهبات وتحقق لها كل نزواتها الغريبة ، ويجب وضع دولار ماريا تريزا تحت وسادة المرأة ، كل هذا لحماية الأم والطفل ، ويتم بعد ثلاثة أيام من ميلاد الطفل ذبح خروف يوزع لحمه نيئًا على الفقراء ويسمون ذلك « الحُرارة » ، أما اليوم السابع فهو « السماية » التى تشمل حفلة كبيرة ، ومن المحتمل إقامة « الذكر » ويتم قص شعر رأس الوليد فى ذلك اليوم ويذبح خروف (يسمى عقيقة)، وفى أم درمان رغم أنهم يذبحون خروفًا فى السماية فإنه نادراً ما يرتبط بفكرة « العقيقة » ، ويتم حلاقة عقيقة « الجاهل » بعد سبعة أشهر ، مع ترك بعض الخصلات . وبدأت تختفى من المدن عادة ترك الخصلات ، حيث لا يوجد نذر للعقيقة كما لا يوجد احتفال أيضا ، وفى اليوم الأربعين تذهب الأم بعد غروب الشمس مع صديقاتها وقريباتها إلى النهر لأداء مراسم التطهير ، وتقوم الأم فى البداية بإلقاء قليل من « البلبلة » فى النهر ثم تغسل يديها وقدميها ووجه الطفل [2]، كما يتم أيضا تفريغ براز الطفل الذى تم تجميعه خلال الأربعين ، كما تلتمس أن تمحو المياه آثار كل الشرور التى قد تكون علقت بها أو بطفلها ، وبعد أن تنتهى تقوم بقية الرفيقات بالاغتسال وأكل بقية «البلبلة»، ويرسمن أثناء الأربعين بالكحل صليبًا على جبهة الطفل كحماية له ضد العين الشريرة ، وكما تبقى البجة النار مشتعلة بصفة مستمرة خلال هذه المدة .

الختان : ويسمى فى السودان « الطهور » وهو بالطبع شعيرة فطرية كانت تمارس قبل قدوم العرب إلى السودان ، وقد تم أسلمته على أساس أنه مقبول فى المجتمع الإسلامى ، ولكن هناك علاقة واضحة - فى الشعائرالإضافية المصاحبة له - مع المراسم الشعائرية ، ويرتدى الفتى مثل الفتاة ويلبس الجيرتق والحلى الذهبية لطرد الجن (كذلك سيف الرجل لحمايته ضد الجن) ، ويركب من حوله الرجال لحمايته من السقوط ، ويحرق الفحم واللبان والقرض والملح ، بالإضافة إلى الأذكار وتلاوة الأوراد وذبح الذبائح ، وتتم فى بعض الأحيان زيارة أحد الأضرحة ، وخلال الأسبوعين يمكنه أن يطلب الهدايا من أقاربه وأصدقائه ، كل ذلك لتجنب مخاطر « المشاهرة » وعين

---

(١) انظر عادات الزواج .

(٢) تقضى الكنيسة القبطية والأثيوبية بوجوب تعميد الأطفال الذكور فى اليوم الأربعين بعد الولادة .

الشيطان والأرواح الشريرة ، وتسمى المراسم في بعض الأحيان « بالعرس » ، وهناك مثل يقول « العربى ملك يوم طهورته ويوم عرسه » ، ويعيش الاطفال - عند البجة - معًا مع « الطهار » فى عشة خاصة تشيد لهم ، ويظهر هذا مدى علاقته مع مراسم الشعائر البدائية .

ويتم ختان الأطفال فى مراحل عمرية مختلفة طبقًا للعرف القبلى أو حالة الأسرة المادية ، ويتم ختان الأغلبية ما بين سن ٨ و١٠ سنوات ، وبعض البجة يجرونها بعد الولادة مباشرة على أن يجرى الاحتفال بعد سنوات .

وليس لختان الفتيات شعيرة من هذا النوع ، وتغطى بالطقوس السرية برغم وجود مراسم لبس الجيرتق . وهو يأخذ شكل الشعيرة القاسية (الطهارة الفرعونية)، وهى شعيرة حامية بشكل مميز تبناها العرب المهاجرون [١]، وقد قاومها لفترة طويلة البقارة الذين يمارسون ختان السنة . ولم تكن عامة فى دارفور [٢] فى زمن التونسى وبراون، وكانت المسيرية الشرقيون أول من تبناها ، وهى شائعة الآن تقريبًا وسط البقارة ولا يتجشم الشماليون عناء تبرير هذه الممارسة . إنها عادة ، إلا أن القبائل مثل البقارة الذين تبنوها مؤخرًا يبررون الممارسة بقولهم يفترض أنها تحمى ضد الحمل المبكر (إذ للمرأة البقارية حرية كبيرة جداً) ، هذابالإضافة إلى اعتبارها أداة لتقديم الضحية بشكل أكثر جاذبية للرجل ، وهى ليست من المعتقد القويم ، كما يتم فى بعض الأحيان بذل جهود فاترة لشجبها واستبدالها بالشكل القانونى المعتدل (الطهارة الشرعية) ، وقد فشلت هذه الجهود بسبب عدم مبالاة الرجال والمعارضة الشديدة من الحبوبات [٣].

---

(١) ذكرها هيرودوت (ii.104) واسترابون (xiv.4,9) كما ذكر ابن سليم ممارستها وسط البجة .

(٢) ينظر ماكمايكل . مصدر سابق جـ١ ص ١٠٧

(٣) موقف الإسلام التقليدى هو شجب الشكل المتطرف لبتر عضو من الأعضاء ، ولكن المدارس تتفاوت فى حكمها على الشكل القانوني المعتدل ، فهو واجب عند الشافعي ومستحب طبقا لمالك ومعظم المدارس الأخرى . وفيما يلى فتوى من مفتي السودان حول ختان المرأة : لقد كتب الدكتور السيد عبد الهادى عرضًا كاملاً فى صحيفة النيل ١٩٣٩/٧/٢٥ حول شرورختان المرأة فى السودان شارحاً مضارها الاجتماعية والباثولوجية وآثارها الضارة على النساء فى كل مراحل حياتهن ، وقد لام - بحق - الطبقة المتعلمة وذوى المراكز الذين يجيزون استمرارية هذه الممارسة البربرية لختان المرأة الذى لا أصل له ، والذى لم يعرف أبداً فى العالم الإسلامى أو أى قطر آخر ، وفي هذا العرض الذى لا يحتاج لأى إضافة اقترح علىّ أن أوضح تمامًا حكم الشريعة فى هذه المسألة وإجابتى هى : إن ختان المرأة مستحب فقط أى ليس إجباريا وهو يتألف من قطع جزء من البظر وأكثر من ذلك ممنوع طبقًا لرواية أم عطية ؟ يجب ألا يغلو الختان لأن هذا أفضل للمظهر ويعطى الزوج متعة أكبر .» هذا هو ختان المرأة المرغوب فى الإسلام ، أما الأشكال الأخرى مثل تلك المعروفة بيننا بالفرعونية فهو بتر والبتر ممنوع منعا باتا .» (النيل ١٩٣٩/٧/٢١) وقد تم مؤخرا إصدار تشريع ، ولكن من الطبيعي أن لاتأثير له على العادة المتأصلة بقوة، ويجب أن يسمح للسودانيين بأن يجدوا طريقة يتخلصون بها بشكل تدريجي وسلمي من الختان الفرعوني .

عادات الزواج :

نمط جيرتق الزواج [١] شائع فى معظم السودان الشمالى وسط القبائل النهرية (المحس والدناقلة والجعليين والشايقية) ، وفى شمال وسط كردفان والنيلين الأزرق والأبيض والبنى عامر ، كما تبنته معظم قبائل البدو ملاك الإبل باستثناء الشكرية والبقارة والبجة المتحدثين بالبداوية، وكذلك النوبيين الكنوز والسكوت فى النوبة المصرية

إن مراسم الجيرتق هى واحد من العديد من المراسم المعقدة المرتبطة بالزواج ، وتتجه القبائل العربية نحو البساطة مقارنة بالقرويين وسكان المدن . والجيرتق الذى يلبس فى كل فترات الخطر مهم جداً ، ويلبس الجيرتق عند الزواج الأول فقط سواء بالنسبة للفتى أو الفتاة ، ويتكون الجيرتق الصحيح من الحرير الأحمر مشبوكاً فيه بخيط خرزة خضراء أو زرقاء وفقارة من فقارات ظهر السمك وشراشيب مدلاة من سوار ، ويتم هذا فى مراسم خاصة ، وتتضمن هذه المراسم لبس الرجل الجيرتق بالإضافة إلى كل الزينات النسوية الوقائية الأخرى ، ويكون التشديد فى الزواج على الأداء الصحيح للشعائر الوقائية ، وهناك شعائر أخرى لتعزيز الخصوبة ، ولا توجد ذروة لإتمام الدخول بالمرأه ، ومن المحتمل أن يكون مرجع ذلك ختان المرأة ، على عكس التأكيد على الدخلة فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وليس للدخلة وقت محدد ، وتؤخرها فى الغالب المطالب الحيوية للنقود ، وكثيرا ما تضمن إعداداً زائفاً من قبل قابلة .

ويحل « السنكاب » محل الجيرتق عند البجة ، نظراً لأنه يستخدم فقط عند الزواج الأول :

وهو مصنوع من الأوراق الغضة من قلب الدوم مربوط بصوف أسود وأبيض وبنى فى شكل « المنشة » إلى حد ما ، وملحق به صورة مصغرة من رسن الجمل وصنادل الأطفال ، وهذا السنكاب تجهزه النساء ويوضع فوق مدخل البيت ويبقى لمدة عامين أو أكثر إلى أن يبلى تماما. [٢]

أما اليوم فإن العديد من عرائس وعرسان البجة يلبسون فقارة من ظهر سمكة على الرسغ عند الزواج الأول .

عادات الموت والحداد: تشبه هذه العادات نفس عادات البلاد الإسلامية الأخرى ومع ذلك فهى مليئة بشعائرهم الخاصة مع خضوعها للعقائد المهمة للإسلام التقليدى،

(١) ينظر مقالات: J.W.Crowfoot, " Wedding customs of the Nurthern Sudan" SNR .V.I ff .
و S.Zenkovsky," Marriage Customs in Omdurman" SNR.xxvI.241.55
فيما يتعلق البدو الأبالة . كذلك انظر : The Sudanfrom within,pp.120 - 4

(٢) (W.T.Clark, " Mannars,customs and Beliets of Northern Beja" SNR. xxi.II

وتُسكلْ [1] النساء عند وفاة إنسان ، ويتم غسل الجسد فى الحال [2] ، وتولول النساء ويحثون على رؤوسهن الرماد ويقمن بضرب المناحة [3]، وعند موت شخص ذى مكانة أو امرأة متزوجة صغيرة السن يتم وضع ملابس المتوفى فى كومة على العنقريب وترقص النساء حوله ، ثم يرتدين تلك الملابس (أو يرتديها الرقيق فى حالة شيخ القبيلة) ، ثم توهب هذه الملابس إلى الفقراء ، وقبل أخذ الجثمان إلى الدفن مباشرة (يتم الدفن خلال ساعات قليلة من الوفاة) هناك غسيل ثانٍ (شرعى) ، ويكفن ويعطر الجثمان ويغطى بغطاء نفيس ، ولا تصحب النساء العنقريبَ إلى المقابر حيث تؤدى عليه صلاة الجنازة .

وتسمى الفترة التى تعقب الدفن : أيام الفراش (أو أيام البكا) ؛ لأن أقارب المتوفى يقضون ما بين ثلاثة وسبعة أيام وليالٍ (أربعون يومًا بين البدو فى بعض الأحيان) جالسين على البروش لتلقى العزاء من الأصدقاء والجيران ولا يتركون الحجرة أو الخيمة إلا للضرورة القصوى . وتعد إهانة عدم تقديم العزاء ، وتعانق المعزيات قريبات المتوفى ويبكين ، ويقرأ الرجال الفاتحة عند قدومهم وينتظرون إلى أن يسمح لهم بالمغادرة ، وواجب على الجيران والأصدقاء خدمة البيت وتقديم الطعام ، وتقام الصدقة فى آخر أيام الفراش ، وهو ذبح خروف أو أكثر طبقًا لمواردهم المالية ، ويقولون إن هذا «يزيل التراب من فم المدفون » ، ويتم فى هذا اليوم قراءة القران كله ، ويعمل فى يوم الأربعين كرامة للفقراء فقط ، ويسمح للنساء بزيارة القبر ، ويوضع حجر أو جريد نخل عند رأس وقدم القبر الذى يحاط عادة بدائرة من الحجارة .

وليس للبجة فراش ولا يهتمون إلا قليلاً فيما يتعلق بطقوس الوفاة برغم أن الأصدقاء يأتون فى بعض الأيام لتقديم التعازى ، ويستمر الحداد بالنسبة للنساء عامًا كاملاً لا يستخدمن خلاله الحنة أو العطور أو يمشطن شعورهن ، ويذبح العرب البدو خروفًا كل يوم ويعود ذلك إلى ضرورة تقديم الطعام للمعزين ، وتزور النساء المقابر فى أمسيات الجمعه ، ويتم فى يوم الجمعة الأخيرة فى رمضان عمل« الرحمتات » للميتين ، ويقوم الأطفال بالطواف على البيوت وأكله ويسمى « عشا الميتين » .

ج – عادات اجتماعيةقطرية أخرى

أوضحنا فى الفصل السابق عدم فعالية الشريعة فى مجال العادات القبلية (العادة والعرف) التى يبنى عليها الشيوخ والمحاكم القبلية قراراتهم ، فوسط البجه مثلاً فإن

---

(١) السكَلى يشبه الزغاريد التى تطلق فقط فى المناسبات السعيدة .

(٢) يسمى « خروج الروح » .

(٣) تستخدم المناحة للجنازات فقط ، ويتم ذلك بوضع « قرع » مقلوب فى «طشت » مملوء بالماء ، ويضرب «بشباشب » قديمة .

عقوبة الزنا هى دفع غرامة قدرها ثمانية جنيهات للزوج ، والإثبات المطلوب هو « دخول البيت » فقط ، وهو المصطلح المستخدم للزنا .

ولا تختلف مثل هذه العادات كثيراً وسط مختلف المجموعات العربية ، وتلك العادات التى تبنى عليها قرارت الشيوخ ، وهى تلك التى جلبها العرب فى الأساس ، ومن الطبيعى أن يقترب البعض من أحكام الشريعة لأن التشريع الملائم الذى وصفه النبى غالبًا ما يتكون من عقوبات أو تغييرات طفيفه فقط فى الأحكام العرفية لبلاد العرب الوثنية .

وتختلف تلك التى عند البجه بشكل أكبر ، وبرغم أنهم بدو فهناك شبه نسب بين عاداتهم وعادات العرب ، ومع ذلك فقرارات المحاكم القبلية تقترب أكثر فأكثر من تلك التى عند العرب ، فعرفهم الخاص بالميراث مختلف تماماً ، ومن غير المحتمل أن تعدل الشريعة هذا العرف لأنه مبنى على إيمان البجه فى عدم قابلية تحويل ملكية الأرض المملوكة للقبيلة .

وقد حافظت النساء على المراسم الاجتماعية الأخرى بما فيها استعمالات التقويم فى الشمال وشعيرة اللبن وسط البجه واستهلال موسم الحصاد بالزعماء فى دار فونج ودار فور وشعائر صنع المطر فى وسط وغرب السودان .

وتحتفظ البجة والقبائل الحامية الأخرى مثل « الجالا» بشعيرة اللبن ، وللبن طهارة معينة لا تضيع فقط إذا ما أغفلت الشعيرة ، بل وقد تسبب الضرر للشخص الذى يشربها ، والحكم الأساسى هو : يجب أن يحلب اللبن الرجال فقط ، ولا يجب أن يشرب اللبن الرجل الذى حلبه حتى يقوم شخص آخر بالشرب منه ، ويجب حلب اللبن فى قرعة أو أوعية من السلال ، ويجب ألا يتم غليه ، وقد يطهى فقط بطريقة معينة وقد لا يباع ، وقد يرش الشيخ ايضاً باللبن عند تنصيبه ، ويبدو أن شعيرة اللبن هذه نتاج شئ ما مقدس أو محرم السماح به للاستهلاك البشرى .

وسرد ا.س. بيتون وصفاً لعبادات المطر عند الفور [١] ، فوظيفة صناعة المطر وراثية وتتضمن الصلاة للمطر موجهة لأرواح الأسلاف التى اتحدت مع الثعابين المقدسة والحراب والأشجار فى موضع مقدس ، كما ألمح إلى شعيرة عبادة القضيب الرمزية من الجزء الذى يلعب به الاطفال فى شعيرته التى بقيت من العبادة القديمة للخصوبة . فالشعيرة هنا تعبير عن روح القبيلة ، وإلى أن تصبح هذه الشعيرة منفصلة فإن مثل هذه القبيلة من الصعب أن تسمى مسلمة ، ويبين المثال التالى الطريقة التى تأسلمت بها الشعائر الوثنية لطقوس المطر . يقول بيتون عند إشارته (لحالة جا Ja) : يحضر الناس طقوس المطر الوثنية ، حيث يتسلق الفكى شجرة ، ويقرأ فصولاً من القرآن

(١) SNR,xxii186 و ا.س بيتون فى ملف مديرية دارفور . أما فيما يتعلق بالروايات الأخرى لعادات الفور الوثنية ينظر : MacMichael, Hist.i.100-8

ويترك أوراق الكتاب تسقط واحدة تلو الأخرى كلما قرأ ، ويقوم بالتقاط الأوراق بعض القرويين الواقفين تحت الشجرة ، بينما يجلس بقية القرويين وهم يسبحون بسبحهم ومرة أخرى فى حالة الكالو Kaalu ، فالإمام هو المسئول عن شعيرة المطر ، فبعد التسبيح وقرأة القرآن لعدة أيام يقوم الناس بجمع كومة كبيرة من الأحجار. وبينما يقوم الإمام بقراءة الصلوات للمطر يقومون جميعاً بنقل الأحجار حجراً حجراً، إلى أن يختفى الكوم ويتم شراء خروف بالمساهمة العامة ويذبح ويؤكل .

ولن نحتاج سوى لمجرد الإشارة الى القبائل السوداء المسلمة بالاسم فى المنطقة الواقعة ما بين خطى ١٢° - ١٠° ، أى مختلف مجتمعات نوبا الفونج وقبائل دارفور . إن كل حياتهم تحكمها العادات الوثنية ، تلك الدراسة التى تنتمى بدقة إلى المجتمعات الوثنية [1] .

(١) عالجها سلجمان فى كتابه Pagan Tribes of Nilotic Sudan

-٦-

الطرق الدينية

١- تطور الصوفية فى الإسلام

سنحاول فى هذا الفصل عرض المكانة التى تمثلها الصوفية بالشكل الذى انتقلت به فى طرق الدراويش ، فى حياة المسلم فى السودان . لقد تم بحث الصوفية بتفاصيل كافية ؛ لذا فإن هذا القسم مجرد « اسكتش » للقارئ الذى لم يلم بهذه القصة .

احتوى الإسلام منذ أيامه الأولى على إدراك الاعتماد الكلى على الله والخضوع لإرادته ، لذا فبالنسبة للعديد من أرواح المخلصين، فإن إخضاع النفس لحياة الزهد يقدم الجهاد البديل لإخضاع الدنيا ، وليس للإسلام علاقة قوية مع التصوف على الرغم من المحاولات التى بذلت لقراءته داخل الإشارات الخفيفة فى القرآن . (١) ولكن انتشار الإسلام إلى مصر وسوريا والعراق وإيران جلب إلى حظيرة الإسلام أعداداً سكانية مسيحية ضخمة ، جلبوا معهم بالطبع مواقفهم الدينية للحياة وعبروا عنها فى الأشكال الإسلامية ، وأثروا بشدة على نساك الإسلام من الداخل. وقد أخبرنا أن أحد صحابة الرسول - تميم الدارى الذى كان مسيحياً ، قضى الليل بطوله فى تدريبات دينية مكرراً آية واحدة من القرآن (سورة غافر الآية ٢٠) (٢) ومن جهة أخرى تركت سياسة الإسلام للذميين الحرية الكاملة فيما يتعلق بالعبادة . لذا فقد كان من الصعب على المسلمين ألا يكونوا حسنى الإطلاع على الممارسة المسيحية .

قد نشأت الصوفية من الزهد فى القرن الأول الهجرى . وقد سمى الزهاد المتجولون لأول مرة بالصوفية لأن عادتهم - مثل زهاد المسيحية - كان لبس « الصوف » ، ومن ثم جاءت الكلمة لتعنى أولاً الزاهد ثم الصوفى (٣)، والكلمة العادية للباطنية هى التصوف . وبين ابن خلدون أن الصوفية كانت الزهد والتقشف خلال القرن الأول ، ويكتب :

---

(١) هذه الإشارات مثل « كل من عليها فان - ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (الرحمن . الآيات ٢٦ - ٢٧) و« كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون » (القصص. الآية ٨٨) ، وقد لعبت هذه العبارات دورا حيوياً فى الصوفية المتأخر، ولم تفعل الكثير مع يقظة العامل الباطنى فى الإسلام .

(٢) الشعرانى . لواحظ الأنوار . القاهرة . د.ت ص ٢١

(٣) طبقًا للقشيرى . الرسالة (القاهرة ١٣٠٩ هـ ص ٧-٨) أصبح للكلمة الاستخدام العام خلال التحول من الزهد إلى الصوفية عند نهاية القرن الثانى للهجرة . وكان الجاحظ (توفى عام ٨٦٩ م) من أوائل الكتاب العرب الذين استخدموا المصطلح عندما تحدث عن « الصوفى بين النساك » ، وأصبح الصوف زيًا فى القرن الحادى عشر الميلادى .

إن طريقة هؤلاء القوم (الصوفية) لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عامًا فى الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية. (١)

وخلال القرن الثانى كان هناك التطور من الزهد إلى الرضا ، وساند تطور ظروف العصر الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وكانت الدوغمائية العقيمة والجمود معًا مع الطائفية المجدبة للفقهاء قد فشلت فى ملء قلوب الجماهير الذين كانوا يحنون إلى توافق ليس من هذه الدنيا ، وكان العديد من تلك الجموع قد دخلت فى الإسلام من المسيحية الشرقية . إن الحروب المدمرة والحكام الطغاة فى العصر الأموى والعصر العباسى الذى تلاه بدنيويته المتألقة مع تياراته الشكوكية والعقلية أدت إلى أن يتحول العديد من المخلصين بعيداً عن الأشياء المادية إلى حياة الزهد والتصوف ، وقد اتصف هؤلاء الأشخاص بالوعى الشديد لملكة الله والخضوع لإرادته معا مع الإفراط الدينى الشديد الذى يقودهم إلى إدراك الحقائق السرمدية،ولم تتطور حياة جماعية منظمة فى هذه الفترة ، كما لم تكن هناك أية محاولة نحو النظرية حتى الفترة الانتقالية عند نهاية القرن عندما بدأت نزعات جديدة فى الظهور . إن معروف الكرخى (توفى عام ٨١٥م) ورابعة العدوية (٧١٧ - ٨٠١م) والحارث بن سعد المحاسبى (٧٨١ - ٨٥٧ م) أتوا بالتطور الجديد للانجذاب الصوفى الذى ميز المرحلة التالية ، لقد فكروا - من خلال طريقة الطهارة - أن يجعلوا كل تفكيرهم وأفعالهم فى انسجام مع الإرادة الإلهية ، وأن ذلك سيؤدى إلى التحرر من الارتباطات الدنيوية وتولد عقيدة الاستنارة والحب الإلهى . ومعروف الكرخى هو أول من سجل تعريف الصوفية « إدراك الحقائق والزهدعما فى أيدى مخلوقات الله » ، التعريف الذى يتعارض فى بساطته مع التعريفات الأخيرة. وكان الزاهد - الصوفى الآخر لهذه الفترة هو ذو النون المصرى (٧٩٦ - ٨٥٧م)الذى كان نوبيا (٢)، وهو الذى أعطى النزعة الثيوصوفية للعقائد الصوفية ، وشكلت تعاليمه حول المعارف الصوفية تطوراً جديداً ، ودخلت الصوفية خلال القرن الثالث هذا التطور الجديد . إن الروح التصوفية التى ميزتها حتى الآن

(١) المقدمة (القاهرة) ص ٤٦٧

(٢) القشيرى . الرسالة ص ٨

اكتسحتها النزعات التأملية والمذاهب القائلة بوحدة الوجود ، وتطور الزاهد إلى العارف ، وهذه نزعة الناشئة من خلال قوى متعددة الأشكال معًا تولدت من التأملات الأفلاطونية الجديدة التى انتقلت أساسًا عن طريق المسيحيين المتحدثين بالسريانية أو النسطوريين أو اليعاقبة أو المنوفستيين ؛ لأن التصوف كان قد وصل إلى مرحلة متطورة جدا فى الكنائس الشرقية [(١)] ،وقد جاءت أولا عن طريق الاتصالات الشخصية ، وفيما بعد من خلال المصادر المكتوبة عندما تمت الترجمات من اليونانية لكتب مثل علم الكلام الأرسطى [(٢)] (ترجم عام ٨٤٠م)، وقام بهذه الترجمات مسيحيون من أمثال حنين بن اسحق وابنه ، وكان ابن مسرة القرطبى (٨٣٣ - ٩٣١م) هو البشير لمدرسة (الإشراقى) هذه .

لقد توصل الصوفية بلا شك بشكل مستقل إلى نتيجة مؤداها أن الله هو الواحد المطلق ، وقد تأثرت بقوة تطور ومنهجية تجاربهم بالتأثيرات الخارجية من خلال الاحتكاك مع الحركة التوفيقية الشرقية ، لذا فقد أصبح التوحيد [(٣)] هو العقيدة المركزية فى الإسلام ، وأصبح الله المتعال يظهر فى كل المخلوقات ، وأصبح بالنسبة للصوفى ليس فقط أن لا إله إلا الله ، بل لا شئ سوى الله ، ووجد الصوفى نفسه الحقه بفقدان وعيه الفردى فى الانجذاب الصوفى ونكران الذات فى الوحدة الآلهية .

وكانت المرحلة التالية فى تطور الصوفية هى المرحلة التى كسبت فيها الاعتراف الرسمى . وبسبب العامل التأملى اعتبر المتصوفة شكاكين وحتى زنادقة ، ولكن عن طريق النفوذ غير العادى لرجل واحد تطهرت الصوفية من هذه النزعات وكسبت موقفًا ثابتًا ومؤكدًا فى النظام الدينى الإسلامى بإجماع المؤمنين ، ذلكم الرجل هو الغزالى

---

(١) كما لا ينكر أيضا نفوذ الأفلاطونية الجديدة اليهودية ، ولكن ليست المانوية كما كانت تعلن دائمًا . حقيقة إن الصوفية كانت على اتصال بها ، ولكن لا يبدو أنه كان للمانوية تأثير يذكر عليها . إن مصطلح زنديق ، رغم أنه مشتق من « زاديق » السرياني والذى أطلق علي تلاميذمانى بمعنى الهرطقى ، وذلك من قبل الفرس فى العصر الساساني ، وقد استخدمه المسلمون أيضًا دائمًا بالمعنى السيئ ليعنى « المانوي » « الملحد » وقد لا تكون الصوفية قد تأثرت « بالملاحدة » ونسبة لأن المصطلحات يفترض أنها تمت استعادتها من المانوية (المستمعون - المختار - القويم) ، ولكنها مستعارة فى حقيقة الأمر من فئة المختار Oiekhektol بين المسيحيين النسطوريين ؛ لذا فقد أصبحت الصوفية متأثرة بشكل كبير بالمسيحية الفارسية ، كما تأثرت بالسريانية الغربية أو اليعقوبية ، وهذا حقيقى بشكل خاص بالنسبة للقسم العربى التقى للصوفية ، ذاك القسم غير المهم جدًا عدديًا .

(٢) إن ما يسمى بعلم الكلام الأرسطى هو ترجمة إلى العربية لتعليق Prophyryعلى تساعيات بلوتينوس En- neads of plotinus - ٤و٥و٦ .

(٣) التوحيد هو الاعتراف بالوحدة الإلهية وإنكار كل علل غير الواحد .

(توفى عام ١١١١م) [1] الذى حث لقبول موقف الصوفى من خلال تجربته الشخصية بدمجه فى الإيمان القويم وإعطائه منزلة مؤكدة للمسلم التقى الساخط من الشكلية - الذى تبع طريقتها - معطياً معنى جديداً للإسلام نفسه .

وفى الحقيقة من الصعب اعتبار الغزالى صوفياً نموذجياً ، لقد بقى مسلماً تقليدياً فيما يتعلق برأيه فى طبيعة الله وفى احترامه للشريعة ، وأعلن أنه غير وارد فى الإسلام كل وحدة الوجود الصوفية « كالحلول » [2]، وإلغاء الشخصية الفردية بنتيجة يصبح معها هذا النوع من التفكير غير قويم ، وكان تأثير عمل الغزالى قد أحدث هدنة عن كونه توفيقا بين العلماء والصوفية ، ولم يعق الصوفية خاصة فى إيران عن الوصول إلى أكثر الأشكال صرامة لوحدة الوجود المفرطة التى جاءت بالفعل بأفراد مثل الحلاج ليقعوا تحت إدانة الإسلام التقليدى ، وهكذا أصبح هناك تطور إضافى .

كان ابن العربى (١١٦٥ - ١٢٤٠م) أحد شخصياته المركزية الذى تسبب فى تمزق واضح بين الصوفية الحقيقية والتصوف الباطنى الذى تكون فيه الأرواح الورعة فى حاجة إلى منحها ديناً حياً داخل النظام الشكلى . وهكذا - يقول د.ب.ماكدونالد - « أدت الحياة الورعة داخل النظام الإسلامى إلى نظرية وحدة الوجود التامة أكثر مما فعله الطغيان المسيحى،، [3] . وأصبحت الصوفية بابن العربى علماً خفياً لا يفشى سره إلا إلى دائرة المطلعين على الأسرارأو - كما يسميهم ماسينيون « أوكار الافيونيين فوق الطبيعيين » - وهم متسترون خلف هذه المعرفة المقصورة على فئة قليلة تظاهروا بالامتثال للقرآن ، ولكنهم فسروا كل شئ بشكل مجازى [4]وكانوا شموليين يؤمنون بأن الله موجود فى الدين كله ، ونسبة لأن كل الأشياء مظهر من مظاهره ؛ لذا فيمكن عبادته فى نجم أو وثن ، وأدى تحررهم لأن يرقب الإسلام التقليدى بحذر عقائد الطرق الصوفية التى بدأت الآن فى دمج نفسها كأداة لبث هذه العقائد السرية .

لذا فالصوفية سواء فى شكلها التأملى والعاطفى أو المتجلى قد أوضحت استقلالية العقيدة الدينية للإسلام ، فهى مكبلة كما كانت فى قيود الشكلية وتركيز السلطة ، وقد كانت الصوفية ارتفاعاً مفاجئاً فى الاسلام الذى كانت روحه تصر على الحاجة للحياة الداخلية التى عاشت مع الله . إنها التربة التى ازدهر فيها الإسلام ولولاه لكان قد ذبل واضمحل .

---

(١) كان الطريق قد مهده أبو القاسم القشيرى الذى حاول فى رسالته (١٠٤٥م) التوفيق بين العقيدة الصوفية والشريعة الإسلامية .

(٢) يستخدم الغزالى الحلول بمعنى نزول الله إلى الانسان فى كلمته القرآنية ، ويوجد أكثر النماذج الثيوصوفية فى كتبه الأخيرة التى تسبق نظام ابن العربى الخاص بوحدة الوجود .

(٣) The Religious Attitude and life in Islam, p.39

(٤) ينظر . تفسير ابن العربى .

٢- نشأة الطرق الدينية

ذكرنا لمحة موجزة عن أصل وتطور الصوفية ، ولكن هذا الشكل هو مظهر واحد من مظاهر دراسته . وللتجلى الصوفى الخالص تأثير فلسفى فقط ، ولكن الصوفية فى الممارسة - التى هى التصوف العاطفى - لا هى نظام فلسفى ولا هى فرقة ولكنها طريقة حياة - طريقة تطهير . ونحن الآن فى حاجة لدراسة هذا المظهر العملى أى الطريقة التى انتشر بها المذهب فى كل العالم الإسلامى عن طريق تطور الطرق الدينية التى كانت العامل الحقيقى لانتشار الإسلام المتحول ، ونجد فى هذا التطور الاختلاف الحقيقى للاتجاه ، وهناك مظهر آخر ، خلق سلطة جديدة - سلطة الأولياء - تلك السلطة التى عالجناها فى الفصل السابق . لقد كان الصوفى عادة ما يتجول وحيداً ، ولكن الخبرة لا يمكن أن تكون ابداً هى العزلة التامة ، إنها قد تكون خارجية المنشأ أيضًا ؛ لذا فالصوفية فى الممارسة ستكون من الإحساس أكثر من كونها معرفة ، وهناك سلسلة متوالية بالطبع تضم القدوة والتدريب ، زيادة على ذلك فقد تأصل فى المتصوفة الشعور بأنهم فى مخاطر من خلال تطور التجلى الصوفى الهرطقى ، وشعروا أنهم فى حاجة لهداية وتدريب ؛ لذا فقد طمحوا تدريجيًا نحو طريقة صوفية يضعون فيهاأنفسهم تحت هداية رجال الطريقة ، ولم تعلن الطريقة فى البداية أكثر من منهج مرحلى للصوفية التأملية ، تلاها بعد ذلك شخص له دعوة صوفية ، وتجمعت حلقات التلاميذ حول بعض الشيوخ المبجلين من أمثال الجنيد (توفى عام ٩٠٩م) والسرى السقطى (توفى عام ٨٦٦م) ، ثم تكونت الجماعةوكانت دائما الجماعة متحركة ، ويتجول أعضاؤها فى الوطن تدعمهم الصدقات ، وغالبا ما كان يوجد مأوى (الخلوة أو الخانقاه أو الرباط) كمركز ، ولقد سمعنا عن مثل هذا المأوى فى دمشق فى حوالى عام ١٥٠ هـ (٧٦٧م) وفى خراسان حوالى عام ٢٠٠هـ (٨١٥م) [١]. وقد تطورت هذه المآوى إلى رُبُط وأصبحت كثيرة جداً فى الشرق الأوسط خلال القرن الحادى عشر الميلادى . ويعود تطور الأديرة الحصينة (الربط الحصينة) التى لعبت دوراً مهماً فى الصوفية فى المغرب إلى تأسيس رباط المنستير فى عام ٧٩٦م .

ومع ذلك فقد كانت هذه المدارس تمثل تعاليم الشيخ فقط ، وكان لها تأثير فلسفى محدود ، ولكنه شديد الرهافة، لذا فلعدة قرون كانت هذه المجموعات تتفرق عند موت الشيخ ولم تكن كتلك الطرق المحددة التى نراها الآن ، ولكنها كانت مجرد مجموعات من التلاميذ تجتمع حول أستاذ محبوب ومحترم وتتفرق بعد موته . لقد كان رباط الولاء شخصياً ، فقد تجمعت حول الغزالى مثلاً مدرسة لم تعش بعد وفاته ، ولم تظهر حتى أوائل القرن الثالث عشر واحدة من هذه المدارس ، بينما تطورت القادرية - بعد

---

(١) D.B-MacDonald,Muslim Theology,Jurisprodence and Constitvtional Theary,p.177.

خمسين عاما من وفاة عبد القادر الجيلاني في عام ١١٦٦م- إلى طريقة لتخليد النفس صممت ليس فقط لمواصلة التدريس بل اسم ودستور الشيخ عبد القادر .

وقد ينسب [1] مريدون بارزون إلى زعيمهم ويدخلون الآخرين في الطريقة وكأنها من الشيخ المتوفى ، ويكف الشيخ عن تدريب مريديه مباشرة ، ومن ثم تتطور عبادة جديدة حول شخصه ، وهذا مظهر واحد من مظاهر التحول . أما المظهر الآخر فهو في قوام هيكل الموالين ، ويكرس الدراويش المريدين أنفسهم للزهد وواجبات الطريقة، وتوسعت العضوية الآن لإعداد المريدين الذين أخذوا الطريقة من الشيخ أو خلفائه مع السماح لهم بمواصلة واجبات الحياة العادية ، وأصبحت الطريقة بهذا التوسع في العضوية نوعاً من الطائفة الدينية الخيِّرة .

وأصبحت مثل هذه الطائفة تسمى بالطريقة ، وهي الكلمة التي صارت تعني فيما بعد النظام المحدد للتدريب الروحي المنسوب لمؤسس الطريقة ، ويفترض أن تكون كل طريقة قد انحدرت عن طريق سلسلة متصلة ، وبإمكان المريدين تقديم إسناد أو تابع روحي من النبي خلال علي أو أبي بكر إلى الشيخ الحالي للطريقة ؛ لذا فالشخ يعتبر أنه الوريث الروحي للمؤسس الأصلي ، ويستمد سلطته من جده المباشر ، ولا تقصد هذه الطرق أن تحل محل المنظمة الدينية الإسلامية التي يعتبرها المتصوفة بأنها رخصة ضرورية للضعف الإنساني ، كما أنها ليست طوائف لأنها تعتبر تقليدية وتختلف فقط في التنظيم والأسلوب والتدريب والشعيرة ، وليست في المذهب ، ولكنها مراكز للتطور الشديد للحياة الروحية تحت إرشاد شخص حظي بمواهب خاصة . وهم - مع ذلك - ألفوا جماعة سرية داخل الإسلام ، وأدخلوا نظاماً لتسلسل هرمي غريب عن الإسلام الفطري . إن السمة المميزة للدراويش هي الفقر الإرادي ، وتمضي حياة العزلة في الصلاة والتقشف ، غالبا في الحماسة التبشيرية ، ولكن ليست في كبح النفس عن الشهوات أو الطهارة ، وقد سار موازياً لهذا تطور عبادة الأولياء كدين للجماهير ، بينما استمالت الصوفية الخالصة المثقفين ، ومع ذلك لا يمكن رسم خط فاصل بين الاثنين . لقد قدمت الصوفية حياة فلسفية قامت الطرق بتبنيها لتناسب حياة الجماهير، وتم تدريسهم بأن الله منح كل نفس إمكانية الاتحاد معه ، ولكن لأن ذلك لن يتحقق طبيعياً بغير هداية شخص أضيئ بنور المعرفة ، ويجب أن يلحق المريد نفسه بمثل هذا الشخص مرشداً أو شيخًا ، ويبدأ كتاب التيجانية « السر الأبحر » بـ : سبحان الله الذي أعطى كل شئ مقصداً ، وجعل الشيخ وسيلة التوسط للاتحاد مع الله » .

---

(١) انتسب أو إنْتَمَ أو تَسَمّ.

وحتى القرن الثالث عشر لم تكن تلك المؤسسات قد ربطت نفسها مع الغرض المحدد لحمل اسم ونظام حياة المعلم ، ولكنها عندما بدأت قامت بتطوير حياة نشطة وتضاعفت بسرعة كبيرة (١) . وبرغم أن كل الطرق تدعي في الوقت الحاضر أنه قد أسسها المتصوفة الأوائل المشهورون من أمثال ابراهيم بن أدهم (توفى عام ١٦١هـ) وأبو زيد البسطامى (توفى عام ٢٦١هـ) وقدألغيت هذه الأنساب فيما بعد ، أما الطرق المبكرة المؤكدة التى ما زالت باقية فهى القادرية المنسوبة إلى عبدالقادر الجيلانى (١٠٧٧ - ١١٦٦م) والرفاعية التى بدأت فى البصرة بزعامة أحمد الرفاعى (توفى عام ١١٨٢م) والسهروردية المنسوبة إلى ضياء الدين نجيب السهروردى (توفى عام ١١٦٧م) وقد أسسها ابن أخيه شهاب الدين (توفى عام ١٢٣٤/ ١٢٣٥م) ،والبدوية لأحمد البدوى (توفى عام ١٢٧٦م) الذى يوجد مزاره فى طنطا ، وهو واحد من أكثر الأولياء شعبية فى مصر ، ونقشبندية تركستان التى أسسها محمد بهاء الدين النقشبندى (توفى عام ١٣٧٩م) والشاذلية المنسوبة إلى أبو الحسن الشاذلى (توفى عام ١٢٥٨م) والمولاوية « الدراويش الدوارين » التى أسسها الشاعر الفارسى الشهير جلال الدين الرومى (توفى عام ١٢٧٣م) ، وقد انتشرت من آسيا الى افريقيا ، وتتغير أهدافها بشكل كبير على مر الأيام لتتلاءم مع احتياجات البربر والإسلام الافريقى .

كما ميز هذه الفترة النمو الكبير للمراكز الصوفية غير المتخصصة . ويذكر المقريزى قائمة طويلة للزاويا والربط والخوانق فى مصر فى زمن صلاح الدين الذى أسقط الإمبراطورية الفاطمية وخلفاءها وهى فترة تأثيرها الكبير ، وكان أول خانقاه فى مصر هى دار سعيد السعادى (٢) الذى عين له وقفًا فى عام ١١٧٤/٧٣م ، وقصدمنه أن يكون بيتًا لإقامة المتصوفة المغتربين ، ولكنه سرعان ما فقد صفته وتطور إلى مركز رئيسى للصوفية المصرية ، وكان رئيسه يحمل لقب شيخ الشيوخ ، ذلك الاسم الذى سرعان ماتوسع ليطلق على رؤساء الخوانق . وقد وصف ابن بطوطة العديد من هذه الخوانق ونظمها فى وقت زيارته لمصر فى عام ١٣٢٦م (٣) ، وقال إن الفقهاء فيها إيرانيون فى المقام الأول ، ولم تكن الخوانق قد خصصت حتى الآن لطرق بعينها وبقيت مستقلة حتى ظهور الشيخ البكرى فى عام ١٥٥٠م كرئيس لكل الطرق .

(١) إن التكوين المحدد للطرق هو مثال للطريقة التى تأسس بها الإسلام (أى السنى) الذى استوعب العوامل الأخرى ، وهكذا تفادى الانقسام، وتطورت الطرق الصوفية نتيجة لفشل الحركات الشيعية الاجتماعية مثل البويهيين فى فارس فى عام ١٠٥٥ م والفاطميين فى مصر عام ١١٧١م ، وامتصاص هذه الطرق لأية نظريات شيعية .

(٢) الخطط (طبعة ١٣٢٤هـ) جـ ٤ ص ٢٧٣ - ٣٠٦ .

(٣) رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٣٩م) جـ ١ ص ٢٧ - ٣٨ هناك أيضًا مراجع أخرى عديدة عن خوانق الصوفية فى دمشق ، والزوايا فى خسروان وكاورستان وظفر الحمود التى خصصت لشيوخ بعينهم .

ولن تبرز الآن ابداًعلى نحو محدد أية طريقة جديدة ، وسيتشاجر فى الغالب أبناء أو خلفاء الولى بشأن الخلافة ويستقلون بأنفسهم ، ومن ثم تضعف الطريقة الأم وتصبح لامركزية ، وقد يبرز فى بعض الاحيان ولى ذو مواهب بارزة من داخل الطريقة ويؤسس طريقة خاصة به بموافقة ومباركة شيخه القديم ، ثم يقوم بإرجاع نسبه إلى المؤسس الأصلى للطريقة ، وكما يقول أبو الفضل « إن أية روح مصطفاة - كانت فى حالة تقشف روحي وكبح للشهوات ومتعبدة - قامت بإدخال محرك جديد للسلوك وقام أبناؤهاالروحيون على التعاقب بالمحافظة على مصباح العقيدة مضاءً يتم الاعتراف بها كمؤسسة لخط جديد،، [1]، ثم يصبح فرعه منظمة جديدة مستقلة ذات صلة روحية حميمة مع الطريقة الأم .

و تعاليم الطرق ليست مهمة جداً. إن أهم شئ هوالرباط بين الشيخ(أو المرشد) وبين المريد . بالنسبة للشيخ لا يوجد هناك ما يمنعه اذا ما أراد أن يأمر المريد بالكف عن الإيمان بالله . وتتشابه جداً تنظيمات الطرق ولكنها تختلف فى التفاصيل الثانوية مثل المراتب والابتهالات والطقوس ، وفي بعض الأحيان فى الإشراف والمسعى . ويوجد فى القمة الشيخ ذو الكرامة الوراثية ، ويأتى بعده مباشرة الخليفة أو النائب ، ثم هناك فى بعض الأحيان النقيب أو رئيس الذكر . ويوجد تحت كل خليفة إقليمى قادة محليون (مقدم فى شمال إفريقيا ومرشد فى إيران وشيخ فى مصر) ، وهم الذين يسجلون ويدخلون الأعضاء الجدد وينهمكون فى الدعاية والإدارة والذى يخضع لهم الدراويش [2] والإخوان الذين فى طور الإعداد . إن الدراويش أو الإخوان المبتدئين غالبا ما يسمون فى السودان بالفقرا والتلاميذ ، ويشكل هذا قسماً صغيراً فقط من عضوية الطريقة ، وتتفاوت مصطلحات وظائف المسئولين بين مختلف الطرق ، ويمكن تسجيل كل طبقات العامة كإخوان فى طور الإعداد أو كأعضاء منتسبين ، ويواصل هؤلاء حياتهم العادية وأسلوب حياتهم ، ولكن كلهم خاضعون لإرشاد الشيخ والخليفة ويتلقون تعليماتهم ويشاركون فى الذكر . وبعض الطرق كانت تقبل النساء فى عضويتها ولكنهن اليوم عضوات منتسبات فقط ، وتؤلف طبقات معينة أو نقابات أو إقليم أو قبائل طرق مستقلة ، وكان فى السودان ميل لتشكيل مجموعات قبيلة .

٣- دخول الطرق السودان

لم يتأثر إسلام السودان خلال فترة الفونج من مصر فقط بل ومن الحجاز أيضا، مما أعطاه اتجاهاً مختلفًا استمر حتى اليوم . لقد كان من السهل الوصول إلى الأماكن المقدسة ، ولعب الحج دوراً بارزاً فى عملية جذب السودانيين ليكونوا على اتصال مع مركز الإسلام ، وتم بعض العلماء ورجال دين من مكة بالهجرة إلى مملكة الفونج ، كما درس العديد من السودانيين فى مكة والمدينة ، وقدم هؤلاء الرجال

(١) Abu,l fadl Àllami, A,in-i-Akbari, tr.H.S.Jarret,iii,357

(٢) يعتقد أن كلمة درويش (دراويش) جاءت من الفارسية بمعنى : يبحث عن الأبواب ،،

للسودانيين المسلمين اسماً نوعاً من الإسلام يستطيعون فهمه واستيعابه ، كما جلبوا إلى الشعب البربرى درجة مقبولة من الثقافة .

وكانت أهم نتيجة لهذا الاتصال مع الأماكن المقدسة أنه قدم للسودانيين ديناً حيًا ذا مظهرين لعملية واحدة : تأليه الولى والطرق الدينية . ولم تنظم هذه الطرق بالمعنى الذى نعرفها به الآن ، إذ قدم الى السودان أفراد من رجال الدين قاموا بتأسيس خلايا إسلامية وأصبحوا موضع احترام وسلكوا أتباعهم فى الطريقة الصوفية التى يتبعونها ، ولكن نسبة لأن صوفية ذلك الزمان كانت فى أدنى درجات انحدارها ، لم تكن فى أفضل أشكالها بل أكثر أشكالها انحطاطاً - فقد تجسدت فى شكل عبادة قوى غامضة تأسلمت الآن فى شكل « البركة » ؛ لذا فقد كان إخلاص الشخص والتبجيل المذل للشيخ أهم شئ .

ورغم أن حشد الخرافة يأتى بنوع منحط من الصوفية فإنه أتى بتوهج وورع وحيوية أنجبت اتصالاً طويلاً للمريد مع الزعماء الروحيين فى العراق والحجاز. وتساعدنا التراجم الغزيرة فى الطبقات على فهمهم ، كيف أن تدريسهم ونفوذهم قد أثر على البلاد ، لقد وجدت تربة خصبة وسط القبائل المستقرة فى السودان واكتسبت بسهولة قلوب الجماهير المتخلفة فكرياً بتعبدهم المتحمس والاتجار بالمعجزة ، بينما أصبح العديد من خلفائهم - سودانيين الآن - مرشدين ذوى نفوذ عند ملوك وأمراء الفونج ، ليس فقط فى المسائل الروحية بل وفى الشئون السياسية أيضا . وطلب فى الوقت ذاته عامة الناس شفاعتهم ليس فقط عند الله ، بل وعند حكامهم أيضا ؛ لأنهم الوسائل التى بها تعبر الجماهير عن رأيها . وهم يتمتعون أثناء حياتهم بالعطف الملكى وتوقير الناس ويصبحون بعد موتهم شفعاء عند الله ، ومقابرهم أماكن يحج إليها الناس .

كانت هناك مرحلتان رئيستان لإدخال الطرق ، وتقول التقاليد المبكرة التى وصلتنا إن الشاذلية جاءت إلى السودان قبل سقوط مملكة علوة عن طريق صهر الجزولى المسمى شريف حمد أبو دنانه الذى استقر بضاحية بربر فى عام ٨٤٩هـ (١٤٤٥م)، واستمر خلفاؤه فى ممارسة الخلافة حتى اليوم .

ويقال إن تاج الدين البهارى هو أول من أدخل القادرية (حوالى عام ١٥٥٠م) من مركز الطريقة فى بغداد وعاش فى وادى شعير فى الجزيرة لمدة سبعة أعوام ، وقد عين عدداً من الخلفاء ، من بينهم محمد الأمين بن عبد الصادق مؤسس فرع صادقاب السوكى وبان النقا الضرير مؤسس اليعقوباب [1] ، والشيخ عجيب عبدالله جماع نائب الملك فى قرى وعبد الله دفع الله العركى مؤسس العركيين (الذين تحولوا فيما بعد إلى السمانية حوالى عام ١٨٠٠م) ، وكان هؤلاء الرجال زعماء دنيويين وروحيين لأسر ، واستمر خلفاؤهم يشغلون الوظيفتين فى الجزيرة حتى اليوم . وهكذا ولد الأعضاء فى

(١) يأخذون اسمهم من إبنه الأكبر يعقوب .

الطريقة ولم يتلقوا أى شعائر أو طقوس لدخولهم فى الطريقة ، وقد اعتبر أول شيخ فى المجموعة الولى الحامى لهم والذى انحدرت بركته إلى خلفائه .

كما أعلن المحسى إدريس بن الارباب (١٥٠٧ - ١٦٥١م) أنه أول خليفة للقادرية فى السودان ، ومن المحتمل أن تكون الفوضى قد جاءت من حقيقة أن عمل الطريقة لم يتمركز فى ذاك الوقت كما لم يتمركز الآن . وإدريس بن الأرباب هذا هو واحد من أشهرالأولياء فى السودان ، وتوجد قبته فى العيلفون وهو مكان مهم للزيارة ، كما قدم فى عهد بادى بن رباط (١٦٥١ - ١٦٨٩م) التلمسانى المغربى إلى الشيخ محمد ابن سوار الدهب وأدخله فى طريق الصوفية .[١]

وحققت الشاذلية بعض النفوذ خلال عهد الفونج عن طريق خوجلى عبد الرحمن (توفى عام ١٧٤٣م) ، وهو محسى ولد بتوتى ، وكان فى بادئ الأمر قادرياً ، ولكنه انضم للشاذلية عندما ما كان فى مكة . ونقرأ فى الطبقات « أما أصل طريقته فالأساس قادرى والأوراد شاذلية ؛ لأن شيخه كان تلميذ الشيخ محمد الناصر شاذلياً» (٢) ..,

وبدأت فى الشمال الطريقة المجذوبية (منشقة عن الشاذلية) فى أوائل القرن الثامن عشر بمحمد بن المجذوب (١٦٩٣ - ١٧٧٦م) الذى انضم إلى الشاذلية فى مكة ، وقد أصبحت أسرته قوية جديرة بالاعتبار فى منطقة الدامر .

ولم تكن هذه الطرق متماسكة - عدا المجذوبية - ، إذ كان القصد منها أنها مدارس دينية فقط ، وهذا ما نشاهده من روايات الطبقات . وكان التنظيم الدينى الاسلامى فى السودان فى هذا الوقت « مسامياً » ، وكانت زاوية الفكى نوعاً من الخلية الرهبانية ترعى الثقافة الإسلامية الجديدة فى بيئة وثنية ، وتم تدريس «الطريقة» بشكل مستقل بفقرا كثفوا عملهم فى الزاوية حيث أسرهم وعبيدهم وخدمهم وتلاميذهم ، وحيث يجد المسافر والحاج فى تلك الزاوية الراحة والضيافة ، وامتدت بعيداً جداً فى بعض الأحيان قداسة مؤسس الزاوية ، واحتشد الحجاج لتلقى بركته . وقد أدى هذا الارتباط برجال الدين إلى تجمع الموالين فى القرى[٣] أو المناطق تحت خليفة أصبحت وظيفته وراثية ، رغم أنه ليس من الضرورى أن يكون منحدراً من الابن الاكبر.

وقد ذهبت فى بعض الأحيان السلطة الدنيوية إلى واحد من الأبناء ، والسلطة الروحية إلى ابن آخر . ويقوم فى الغالب زعيم الطريقة بتعيين الوريث قبل وفاته ،

---

(١) الطبقات . م٤ ، ص ٥

(٢) نفسه . م ٧٤ ، ص ٧٧

(٣) جذبت تقوى إدريس بن الأرباب المحس من دنقلا إلى منزله فى العليفون التى أصبحت الآن من أكبر القرى فى مديرية النيل الأزرق .

ويؤدى في الغالب الفشل في ذلك إلى منازعات بين الورثة وانشقاق في الطريقة ، وتعطينا ترجمة على النيل سرداً لمثل هذا العزل الوصائي:

> ولما دنت الوفاة قيل له : من الخليفة بعدك ؟ قال : راعي البقر . يعني الشيخ الجنيد ، وهو أمي لم يخط ولم يقرأ ، بلا رعاية البقر ما عنده شئ . ولده شرف الدين حاضر وهو حافظ وعالم وأخوانه وأولاد محمد الشيخ الصافي ومصطفى حُفظا وعُلما قالوا : الشيخ على أعلمنا وأعرفنا بالله ، ان كان ما رأى فيه صلاح ما ولاه . وقال لهم : الولي يرشد مدبر من الدنيا ومقبلا جابوه له عصره على صدره وبطنه وقال : يقعد فوق سجادتي ويمسك سبحتي العندى عنده ». (١)

وكان الشيوخ أقوياء في الجزيرة في عهد الفونج ، وتم احترامهم بشكل كبير ودعمهم ملوك الفونج ، والتمسوا الشفاعة منهم ومؤاخذتهم مع الإفلات من العقاب ، ونقرأ عن الشيخ ابن بان النقا (١٦٨١ - ١٧٧٣م) الذى أُخْبرنا أنه « ثالث الخلفا الاوقدوا نار الشيخ عبد القادر الجيلاني في بر الفونج » أي « شاطرته السلطة في ديار البحر والمطر » ، وأنه «قسمها على الناس مثل الوليمة » ، وكذلك سلطة الشفاعة عند الملوك ، فنقرأ عن حمد بن المجذوب (توفى عام ١٧٧٦م) أنه « أعطاه الله القبول التام مع الخاص والعام كان كثير الشفاعة عند الملوك والسلاطين ، وجعل لا ترد له شفاعة ومن رده يُنْكب سريعا .»(٢)

كما منح بعض هؤلاء الشيوخ سلطة رموز الفونج ، ونقرأ عن دفع الله بن الشيخ محمد أبو ادريس :

> فجاء الشيخ محمد ولد داوود الأغر من ود عجيب وجاب اليه الككاره (٣) والرايات وجبه حبيب الله العجمي (٤) وكوفيته وحربه عبد الله العركي ام كريشه التي فيها الاسماء وقال له : هذه الآله وضعوها عندى ابواتك ، وقالوا لي : اذا كبر دفع الله اعطيه اياهن . ذا الحين خذ أمانتك. (٥)

وكانت المرحلة الثانية نتيجة لأحداث خارج السودان ، فالفترة الراكدة التي كان يمر بهاالعالم الإسلامي قد بدأت في التغير ، وبدأت حياة جديدة مع مستهل القرن التاسع عشر ، وكانت هذه المرحلة أساساً رد فعل للتوسع السريع للدول الأوربية داخل

---

(١) الطبقات . م ١٣٤، ص ١٤٢ . قارن أيضا قصة مدني الناطق بن عبد الرحمن وهو يتحدث من القبر ص ١٤١ أعلاه

(٢) الطبقات . م. ٧، ص ٧٥

(٣) جمع ككر .

(٤) كان حبيب الله ابنا لتاج الدين البهاري

(٥) الطبقات . م.٨ ، ص ٨٧

الأراضي الإسلامية ، وكانت الوهابية فى الحجاز قد بدأت تشتد ، ومن خلال طهارتها وحركة العودة إلى الاسلام الأصلى قد كشفت الخلافات الدينية داخل الإسلام وعدم تحمل التدخل الخارجي . وهاجمت الوهابية تأليه الأولياء والخرافات وأدت إلى تأكيد الخلافات بين الطرق الدينية ، وبرزت إلى الوجود طرق جديدة مليئة بتجديد الحماس التبشيرى ، بينما فقدت الطرق القديمة - التى كان العديد منها قائماً فقط باسم المدارس الصوفية - قدرتها على الاحتمال وقدرتها على الإصلاح المعتاد ، وتحولت القادرية إلى قوة تبشيرية وفعالة فى كل أنحاء افريقيا ، ومع ذلك لم تحقق أبدا أى تماسك ، وأدخل الطريقة السمانية السودان عام ١٨٠٠م أحمد الطيب البشير الجموعى الذى كان يدرس فى المدينة عند محمد بن عبد الكريم السمانى ، وكسب فى وقت قصير مجموعة من الأتباع وسط الجموعية والكواهلة والحلاوين فى الجزيرة .

أما الرجل الذى أثر فى السودان أكثر من أى شخص آخر رغم عدم دخوله السودان أبداً فهو السيد أحمد بن إدريس المعروف بالفاسى (توفى عام ١٨٣٦م) ، وهو صوفى فذ ومصلح دينى [1] تأثر بالإصلاحات الوهابية ، وكانت النتيجة أن نشاطات أتباعه كانت ذات صفة تبشيرية وسط كل من السكان المسلمين والوثنيين . ورغم أنه أسس الطريقة الإدريسية التى ما زالت نشطة فى السودان فإنه أثر عليها أساساً لكونه معلم الرجال الآخرين الذين أسسوا أو أدخلوا الطرق إلى السودان ، وكان أهم هؤلاء الرجال :

١- محمد المجذوب الصغير (١٧٩٦ - ١٨٣٢م) الحفيد العظيم لمؤسس المجذوبية ، وقد درس على أحمد بن إدريس عندما كان فى المنفى فى مكة ، وعند عودته الى السودان أعاد إحياء طريقته ووسعها فى الشرق وسط البجة .

٢- الشيخ إبراهيم الرشيدى (توفى عام ١٨٧٤م) وهو شايقى من أسرة مؤسس الطريقة الرشيدية الجزائرية ، وحمل تقاليد استاذه الداعية أحمد بن إدريس وأسس الطريقة الإدريسية فى السودان من بين أماكن أخرى.

٣- محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ - ١٨٥٣م) الذى قام بعدة رحلات تبشيرية فى السودان وأسس طريقته - الميرغنية أو الختمية - فى الشمال والشرق حيث انتشرت بسرعة عن طريق الأسرة الكبيرة لمؤسس الطريقة .

---

(١) يقول كاتب سيرته « لم يكن اهتمامه محصوراً فى الأوراد والذكر ، وفى حث الناس على إغلاق أنفسهم وعزلها عن الناس ، قد تكون مثل هذه الممارسات في صالح التطور الشخصى للفرد ، ولكنها غير مناسبة بالنسبة للهدف الأسمى الذى يهدف اليه ، أى وحدة العالم الإسلامى وتوحيده في رباط الإسلام . لقد صدم عندما رأى كيف : أنهم مختلفون فى آرائهم ، وكيف انفصمت عرى وحدتهم واضطربت شئونهم المشتركة . لقد أرسله الله مجدداً لهذا الدين الحنيف سالكًا طريق الحديث الشريف الذى رواه أبوداوود فى سننه والإمام احمد فى مسنده « يقوم على رأس كل مائة من يجدد لهذه الأمة دينها . »

كما كانت الطريقة الأخرى التى دخلت من مصر إلى بربر قبل المهدية بوقت قصير هى التيجانية التى جاء بها محمد بن المختار (توفى عام ١٨٨٢م) المعروف بود العلية ، وقام فيما بعد أشخاص من غرب إفريقيا مثل عمر جانبو من الهوسا بنشر الطريقة فى دارفور وكردفان .

وذكر شاتليه إن الطريقة السعادية [١] المصرية - السورية (فرع من الرفاعية) والرحمانية (فرع من الدرغاوية) وبدوية أحمد البدوى بطنطا والبرهامية أو دسوقية إبراهيم الدسوقى دخلت السودان خلال هذه الفترة ، وقام مؤسس الرحمانية محمد بن سعود بن عبد الرحمن (توفى عام ١٨٧٥ م) ببناء زاوية فى مكة ١٨٥٧م ، ثم قام فيما بعد بالتبشير على طول الساحل الجنوبى الغربى للبحر الاحمر من سواكن حتى مصوع حيث استقل خليفته أحمد الهجونى الغفرونى ، وأنشأ (الغفرونية) . وقد اختفت من السودان بعض هذه الطرق المصرية التى كانت مكونة من مجموعات صغيرة من الأتباع المصريين ساكنى المدن .

وكانت الطريقة الأخرى المولودة فى السودان - عدا المجذوبية - هى الطريقة الإسماعيلية التى أسسها إسماعيل بن عبد الله (١٧٩٣ - ١٨٦٣م) فى الأبيض بتصريح من شيخه محمد عثمان الميرغنى ، وقد انتشرت بشكل أساسى فى كردفان .

وقد كانت روح كل هذه الطرق متباينة ، وكانت الطقوس مجرد فعل أعمى للخضوع للشيخ ، وكان الهدف الأكبر هو زيادة سلطة الطرق بزيارة أعضائها وحركية التنظيم، وكان ذروة روح الرجعية فى السودان هى انفجار المهدية .

وقد شجع محمد على هذه الطرق خاصة المصرية منها بعد الغزو التركى - المصرى، وتم الاعتراف بوجودها القانونى [٢]، وتم فى مصر وضع كل الطرق تحت إدارة شيخ الطرق برئاسة الشيخ البكرى ، ومن ثم تم وضعها تحت سيطرة مركزية ، وقد امتدت سلطة هذا الشيخ إلى السودان التى لم يكن لها شيخ طرق خاص بها ، كما هى الحال فى بقية أجزاء الإمبراطورية التركية ، بل كان له نفوذ ضئيل على المجموعات التى تأسست ، التى كان كل همها منصباً على الولاء الشخصى لشيخ الطريقة . وعلى العكس من ذلك لم يكن شيخ الطريقة يعمل فى مصر فقط كوسيط بين السلطات والطرق فيما يتعلق بأمور مثل الأوقاف والمشاركة فى الإحتفالات القومية والعامة، واستخدام المساجد ، ولكنه أصبح بالتدريج يدعى لنفسه السلطة العامة [٣] .

(١) Chatelier, l'Islamau xixe s,ecle, p.90-1
قد تكون المهدية أزالت الطريقة من السودان ؛ لأنني لم أسمع أبداً عن أى عضو من أعضائها

(٢) يسرد على مبارك (الخطط الجديدة جـ ٣ ص ١٢٩) قائمة طويلة بالطرق التي كانت نشطة فى مصر فى عام ١٨٨٨م .

(٣) خلف السيد البكرى والده فى عام ١٩٤٠م، وهو خريج كمبردج ، وله وجهة نظر غربية وكان والده من أنصار المدرسة القديمة .

وأدى اعتراف الحكومة الجديدة بهؤلاء الشيوخ لأن يصبحوا أثرياء وأعضاء محترمين فى المجتمع وقادة ملائمين للشعب تحت الحكم الأجنبى ، ومن ثم فعندما رفع المهدى رايته فى الجزيرة أبا قاموا كلهم - عدا المجذوبية - بمناصبته العداء فى دعاواه التى أدركوا أنها تهاجم سلطتهم بعنف .

ولم يكن الناس فى المناطق التى كانت فيها الطرق قوية على استعداد لقبول نوع من الإيمان يلغى إيمانهم الراسخ فى الأولياء ، يستبدل به الإيمان بالله والمهدية فقط ، ولكن بمجرد أن تأكدت مهديته بنجاحاته العسكرية حولوا عن طيب خاطر إخلاصهم إليه . وكان أول تأثير لسيطرة المهدى هو أن كل الطرق الغيت لأن الزعماء أنكروا ادعاءاته ، فالشيوخ إما انضموا إلى المهدى أو عارضوه أو فروا من البلاد ، وكان المهدى نفسه فى البداية شيخًا للسمانية ، ونفى كل ما اعتقد أنه يؤسس طريقة ، وذلك بتغيير اسم أتباعه ، ويستهل إدارته الجديدة بقوله «إن أنصاره مساوون للأولياء» ، ويكتب فى رسالة إلى شيخ الإسلام « أبلغنى النبى أن أصحابك كأصحابى ، وأن العامى التابع لى كرتبة عبد القادر الجيلانى ». [١]

وبعد إعادة الفتح عاد شيوخ الطرق إلى السودان مع الاعتراف الرسمى ، وسرعان ما استعادوا ولاء الناس الذين كانوا على اتصال بهم عن طريق الولاء الشخصى ، عدا فى أجزاء محددة فى مديريتى النيل الأبيض والأزرق ، حيث تشبث العديد بالمعتقدات الخرافية فى ابن المهدى .

وبرغم أن بعض الطرق مثل السمانية وبعض فروع التيجانية معادية للأوربيين فإن أكثر الطرق السودانية قوة كانت حتى وقت قريب محابية للحكومة الحالية . وهناك تنافس ومعارك كبيرة داخلية بين الطرق ، فزعماء الميرغنية يعارضون المهدى وساندوا بريطانيا بشكل كبير فى إعادة الفتح ، وحتى الآن فالعداء بين الميرغنية والمهدية ما زال شديدًا ، وهى لأسباب سياسية صرف وليست لأسباب دينية ، وتعتمد مواقف الطرق بشكل كلى على موقف الشيخ ، وبالطبع فإن الموقف المضمون لا يشجع على التعصب ، ورغم أن هذا الموقف يلهبه مصالحهم الخاصة ، وليست بسبب أى عطف على بريطانيا ، فقد كان ذا قيمة كبيرة لتطور استقرار الحكم فى السودان .

وللطرق معقل قوى وسط الناس ، ومع ذلك فمن المحتمل أن يتناقص بدلاً من أن يزداد فى الأهمية فى المستقبل ؛ لأن التصورات الجديدة للإسلام إما لامبالية أو معادية لها ، ففى الدول التى كانت تحت النفوذ الغربى لمدة طويلة تناقصت هذه الطرق بشكل

---

(١) Wingate, Mahdism, p.48

كبير . والعلماء التقليديون ليسوا أقل عداء لهذه الطرق من الأشخاص ذوى الآراء العصرية ، وليس من الحكمة أن تقلل من شأن قوتها لأنها - وليس الإسلام الرسمى - هو النصير المنظم للحياة الدينية السودانية .

٤- منهج التنظيم

هناك اختلافات بينة فى تنظيم مختلف الطرق ، إذ إن المصطلحات الفنية والنفوذ وسلطة الموظفين تتباين بشكل كبير ، ولكن يمكن الإشارة إلى بعض الخطوط العامة ، فعلى رأس كل طريقة شيخ هو الوريث الروحى لمؤسس الطريقة ، وهو الذى انتقل إليه الوحى شخصيًا وبشكل وراثى ، ويسمى شيخ السجادة ؛ لأنه يرث سجادة صلاة (فروة فى غالب الأمر) مؤسس الطريقة كرمز لسلطته ، وعادة ما يعيش حيث يوجد قبر مؤسس الطريقة . وهكذا فإن رئيس الطريقة القادرية واسعة الانتشار يعيش فى بغداد حارسًا على قبر عبد القادر ، وقد تجزأت القادرية فى الوقت الحاضر إلى عدد كبير من الفروع ، وهم عمليًا يؤدون له ولاءً إسميًا . والشيخ بالنسبة لأى قادرى فى السودان هو الرئيس المحلى (عمليًا الخليفة أو النائب) الذى يدعى الولاء المطلق له وليس لشخص منائى فى بغداد . وليست كل الطرق لا مركزية مثل القادرية ، ومن هذه الطرق هناك طرق سودانية خالصة ، فرئيس الطريقة الإسماعيلية يقيم فى الأبيض حيث دفن جده اسماعيل بن عبد الله ، كذلك البشير أحمد جلال الدين شيخ المجذوبية يقيم فى الدامر حيث قبر حمد بن محمد المجذوب ، كما يعيش دائمًا واحد من الميرغنية فى الختمية إحدى ضواحى كسلا التى أسسها الحسن بن محمد عثمان ، والتى اكتسبت هيبة كبيرة من الأعمال المعجزة لقبر الحسن .

وبما أن الخلافة هى خلافة روحية ، فقد أصبح من غير الضرورى أن يكون الشيخ من أسرة مؤسس الطريقة ، ولكن عمليًا فإن المبدأ الوراثى شئ ثابت ، فالمؤسس عادة ما يسمى من يخلفه من بين أبنائه ، رغم أنه ليس من الضرورى أن يختار الابن الأكبر، وفى الميرغنية فكل رئيس إقليمى يعترف به شيخًا للسجادة ؛ لأن البركة تسكن فى كل منهم . إن مبدأ الوراثة سيئ فيما يتعلق بالتوجيه الروحى ، وغالبًا مايؤدى إلى عدم الكفاءة فى التنظيم ، إذ تحيط به بطانة من المتملقين المتزلفين الذين لا يهمهم سوى ما يحصلون عليه ، ولكنه يؤدى مع ذلك لتماسك الطريقة . وفى السودان أدت هيبة بعض الشيوخ لأن يصبحوا نوعًا من الشخصيات الملكية ، وأصبح تبجيل الناس الذى لا يرقى اليه الشك مبنياً على الادعاءات الضخمة التى صنعوها لأنفسهم بأنهم ورثة بركة (قداسة) مؤسس الطريقة . وهذه البركة التى انحدرت اليهم من النبى - كما رأينا - أكبر وأعظم من المباركة ، وهى تضم كل القوة الإعجازية والشفاعية للولى . ويحصل

العضو على نصيب فى البركة عن طريق أخذ ورد[١] الشيخ أو خليفته الذى يطلب فى المقابل الولاء التام . ويلى الشيخ عدد من الخلفاء الذين قام بتعيينهم مباشرة لتولى المناطق الإقليمية التى منحها « الإجازة » [٢] التى تمنح فى بعض الطرق مع سلطات محددة ، ويمكن منح الوِرد بتفويض من الشيخ . ولخلفاء القادرية فى السودان مزية مبدأ الوراثة ، أى أن تكون السلطة متأصلة فيهم سواء تلقوها من الشيخ الفعلى أم لا ، ومن جهة أخرى لا يستطيع خلفاء الميرغنية منح الأوراد ، ومهمتهم تنحصر فى إعداد الأعضاء المسئولين عن ترتيب المجموعة الصغيرة أو «الخلوة» ، وعلى كل عشرة أو نحو ذلك خليفة الخلفاء ، وأهم موظف فى الطرق المركزية الكبيرة هو الرأس المنظمة – وكيل شيخ السجادة – الذى يدير أملاك الطريقة وينظم المهام الكبيرة ويرسل « فرق الجمع » التى تجمع الرسوم من الأتباع . وقد سببت هذه الفرق الكثير من المشاكل بسبب عدد من الطفيليات التى تربط نفسها بالطريقة للحصول على الضيافة المجانية .

ويتكون أعضاء الطريقة من مجموعتين : الأولى أقلية يفترض فيها أن تكون قد نذرت نفسها كلية للحياة الدينية ولاتباع « الطريق » تحت توجيه الشيخ ، وهؤلاء هم الدراويش المحترفون أو الحيران « فى يده مسبحه وفى عيونه علامات الثمل »،[٣] وبعضهم رجال أخذوا الطريقة من الشيخ ودرسوا أوراده وتدربوا على رعايته الروحية وعاشوا فى زاويته وصاحبوه فى أسفاره وساعدوا فى تنشيط الذكر .

---

(١) إن أخذ ورد الشيخ فلان هى أخذ طريقته أى حكمه . والورد (مفرد أوراد) هو اصطلاح استخدم لصلوات يومية أو موسمية يقوم المريد الجديد بتكرارها ، والطريقة المعتادة بالإشارة إلى الشعائر أو الطقوس التى يتم بها إدخال الشخص هى « أخذ الطريقة » ، وإدخال الشخص هو « سلك الطريقة » والتلقين هو تعليم الأوراد.

(٢) هناك نوعان من « الإجازة » تمنح الأولى « للدرويش » وتسمح له بالممارسة باسم أستاذه ، والأخرى للخليفه أو « المقدم » وتعطيه سلطة منح الورد أى منح الآخرين حق الدخول فى الطريقة ، وتأخذ الإجازة عادة هذا الشكل ؛ " نشهد أن محمد أحمد بن (سلسلة النسب كاملة) الذى أخذ الطريقة من الخليفة مصطفى (ثم يتلوه سلسلة الخلفاء حتى مؤسس الطريقة) قد وجد (طه بن ... مع سلسلة النسب) أن مهارته تؤهله لأن يكون مريداً للطريقة ؛ لذا فقد أعطى سلطة التصرف طبقًا لأحكام الطريقة وقد كشفت له كل أسرارها ،، ويضع الخليفة ختمه على الوثيقة . ويسرد السير رتشارد بيرتن PilgrimigApplll ترجمة كاملة لإجازة المرشد كما تقدم الطبقات (ص ٣١ – ٣٢ ، م٣٢) جزءاً من إجازة منحها ابن جابر فى عام ١٥٧٤م إلى واحد من تلاميذه كما يلى " الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين ، أما بعد إن الأخ الفقيه الشيخ المحترم المتأدب المتواضع الشيخ ابراهيم بن أم رابعه استحق السيادة والإمامة عندى فجعلته قطبًا فى مكانه ولسانًا فى عصره وترجمانًا فى أوانه مربيًا للمريدين وقدوة للمسترشدين وملجأ للفقرا والمساكين ، مظهر شمس العارف بعد غروبها فأذنته فى كل ما حققه ونقله وسمعه منى أن يفشيه ويعلمه الناس . وقد أذنت له بإشهار ما فيها وتشجيع ما أشرنا إليه ، ومن اطلع على ما فيها أو يلفه شئ من ذلك فليحذر كل الحذر من خراب الباطن » .

(٣) الحريرى . المقامة الدمشقية .

أما الدراويش الآخرون فلا يدينون بالولاء لطريقة بعينها أولشيخ حي . إن شيخهم ولي ميت كشف نفسه لهم في رؤيا ، وضريحه متكرر الوجود . ومثل هذا الدرويش لا يسمي نفسه أبداً درويشاً بل تلميذ الشيخ الفلاني ، أو يقول « إن أبي هو الشيخ فلان » ، لذا فالناس يسمونه ببساطة « ود الشيخ » . وقال لي تلميذ للشيخ خوجلي إنه رأى طيف الشيخ خارج قبته ، حيث قدم له الشيخ بعض « الكسرة » وإن قبوله أكلها جعله تلميذه، ويكثر مثل هؤلاء الرجال من التردد بجوار ضريح وليهم ، ويحملون الرمال من قبره ويضعونها في يد المؤمنين الذين يأملون الحصول منهم على مكافأة ، كما تطلق كلمة درويش أيضا بشكل عام على أي شخص أبله أو ساذج ، وعندما تحادثت في إحدى المرات مع طفل ضعيف العقل وصفته أمه بقولها « إدْروش» ، ولا يعرف أي من هؤلاء الدراويش المعينين ذاتيًا أي شئ عن الصوفية ، وهم عادة بلهاء ، وهم وراء نطاق أي مستوى للإدراك ، ويعزى عدم اكتراثهم بالشرائع المألوفة للمسلم العادي والضعف الأخلاقي والفعلي لاستغراقهم في الله ، وأن أجسادهم غير مسئولة عن أفعالهم . وهناك عدد قليل نسبيًا من الدراويش في السودان لأن الفقرا هم رجال الدين السودانيون المعتادون ، وبينما يحترمهم بعض الجهلاء فهم موضع سخرية ممن تلقوا تعليماً بسيطاً . وليس لبعض الطرق - كالميرغنية - أي دراويش محترفين على الإطلاق .

أما المجموعة الثانية وهي الأكثرية ، فهم جماهير الشعب الذين يحتفظون بأعمالهم العادية وأسلوب حياتهم ، وهم في الوقت ذاته مخلصون لشيوخهم ويعترفون بزعامتهم ويشبعون رغباتهم الدينية في الذكر، ويطلق على هؤلاء الأعضاء العاديين « أولاد الطريقة » - والخدام (في الجزيرة) ، و الحيران في المعنى التخصصي « أصحاب - انصار » ، ومن غير المألوف بالنسبة لهم أن يتحدثوا عن أنفسهم كما نتحدث عن أنفسنا بأننا أعضاء في المجتمع ، وبشكل مخالف للدول الأخرى ، حيث هناك مجموعات محددة فقط أو طبقة من السكان يتبعون طريقة ، فإن كل المسلمين في السودان لهم ارتباط بشخص أو بآخر . ومن المحتمل أن يكون مرجع ذلك مستوى المعيشة في السودان وضعف الدين القويم ، وهناك مناطق أو قبائل معينة تفضل طرقاً بعينها . وتعود أهمية الطرق في السودان إلى هذه العضوية العريضة وتنافس كل منها في توسيع نفوذها ، ولا تدرس أي منها الطريقة الصوفية ، فالأعضاء يدرسون « ورد » أو « حزب » طريقتهم كشرط لقبولهم ، ويفترض تلاوته في فترات محددة في اليوم ويشتركون في الذكر الجماعي . ولكل طريقة عدد من « التكايا » ، وليست هذه بالتنظيمات الكبيرة المرتبطة بهذه الكلمة في الدول الأخرى ، ولكنها ببساطة مكان لتأمين راحة الدراويش والمسافرين ، وكلها تملك زوايا تمارس فيها الأذكار . ويعرف الرئيسي منها بأم الزوايا حيث يتصدرها شيخ الطريقة ، ويمثل هذا للإخوان نوعاً من المركز أوالنادي الديني للأعضاء العاديين . إن وصفها بالنسبة لهم أنها أكثر ذاتية عن المساجد المعتادة التي يدخلونها - إن دخلوها - لأداء صلاة الجمعة ، ويجب ذكر الخلوة أيضا فيما يتعلق باستخدام الدرويش لها ، إذ إنها مساوية لتصبح « مأوى »، ولكن أي مكان يكون فيه المرء وحده يسمى خلوة .

أخذ الطريقة : تختلف أساليب دخول الأعضاء في التفاصيل فقط ، ويسمى الدخول فى الطريقة بـ « أخذ الطريقة » ويسمى فى بعض الأحيان « عهد » ، وفى معظمها ليست أكثر من مجرد البيعة والوعد بأن يكون مسلماً صالحاً وأن يؤدى الصلوات اليومية المفروضة (الأوراد) . إن محور الطقوس هو البيعة التى تعطى بالمصافحة من تحت كم الشيخ ، وهذا الدخول مهم لكل من يتولى منصباً ، ولكن عملياً فإن رباط إدخال الأعضاء ضعيف جداً فى الغالب . ومن النادر أخذ الطريقة ، فعندما يأخذ الأب الشاب طفله إلى الذكر فإن ذلك الطفل يشب فى الطريقة وهو لا يعتبر نفسه طفلا روحيا لمؤسس الطريقة تماماً بنفس قدر إحساس أولئك الذين تلقوا الطريقة ، ولا هو ملزماً بالإسهام مادياً ، ولكنه يشعر بأنه ينتمى لتلك الطريقة ، وله الحق فى السؤال عن شفاعة أوليائها وتلقى البركة منهم . (١)

وقد يكون إدخال الدرويش فى الطريقة أكثر تعقيداً ، ويجب أن يقوم المريد نفسه إلى شيخه الذى يباشر اختيار الحالة الروحية بهدف اختبار ما إذا كان المريد أبله بما فيه الكفاية ليكون مطواعاً فى يده ، ثم يعطيه مبدئيا تعليمات أساسية : كن مع شيخك مثل الجثمان بين يدى مغسله يقلبه عندما يغسله وهو ممتثل له تماماً » (٢). وعند إدخاله يقسم بتسليم جسده وروحه للشيخ بمصافحة ملزمة ويرش الماء أو اللبن ويلبس خرقة أو « دلق » ، ويعطى كتاب الأوراد الذى يعد بتلاوته كما صرح له به الشيخ ، ثم يلحق بزاوية ليحيا طبقا للقاعدة وليصلى ويصوم ويلزم الصمت ... إلخ وهذه هى بداية ونهاية تدريبه .

لا شك أن السبب الرئيسى الذى يدعو الرجل العادى لأن ينضم إلى الطريقة هى أنهاء جزء من إرثه الدينى ، وما يبقيه هناك هو الحياة الاجتماعية للإخاء والمظهر والقناعة التى تجلب لحياته بهذه الطريقة العاطفية – الذاتية طريقة العبادة فى المجتمع، والأخوة حاجة ضرورية وسط شعب مجرد من الثقافة الفكرية والنقد الأساسى لطريقة العبادة ، أى بينما هى مشبعة ، فإنها ليست مجددة ، ولا تؤدى إلى تحول وتغير فى الحياة .

وتتظاهر أقلية يسيرة من ذوى التعليم الغربى بالاستخفاف بالطرق رغم أن أفرادها يتجنبون بصعوبة شديدة حضور حضرة تقام فى حوشهم .

٥– المذاهب

إن هدفنا هو فهم الإسلام الحى ؛ لذا فلن نحاول التعامل مع المذاهب الصوفية سوى بالقدر الذى تؤكد فيه على الإسلام السودانى المجود الآن . إن المذهب الصوفى

---

(١) قيل لى إن العديدين لا « يأخذون البركة » ، لأنهم يخافون أن تقع عليهم اللعنه اذا ما فشلوا فى تنفيذ القواعد .

(٢) من مجموعة نصوص الختمية « منحة الأصحاب » ص ٧٥. وقد استخدم الغزالى هذا التشبيه لأول مرة وتبنته كل الطرق .

وراء الطرق ، وإلافإن وجوده سيكون نتيجة لا سبباً ، وهي الوسيلة التي بها تم تخصيص مظاهر حياة الصوفي لاحتياجات الرجل العادي . ومن الصعب استخلاص مبدأ (عقيدة) العديد من الطرق ، إذ لم يتم صياغتها في صورة متماسكة من الأفكار والمبادئ ، وتتعامل « حقيقة الطريق » مع الاحكام الخاصة بالعلاقة ما بين الشيخ والأتباع ، والأتباع مع الأتباع وإدارة الزاوية والقواعد لتلاوة الذكر والأوراد ؛ لذا فالمبدأ يجب استخلاصه من هذه القواعد والأوراد والقصائد .

فأولاً : تدعي كل الطرق أنها قويمة ، ونظراً لأن علماء الدين التقليديين ينظرون إلى الصوفية بعين الشك ، فإن المقصد الأول لمؤسس الطريقة هو إثبات معتقده القويم وإلا فسيعتبر منشقًا ، ومع ذلك فهذا الأمر في غاية البساطة ، ويمكن إبرازه على نحو زائف. فيكفي لتجنب الاتهام بالبدعة المساوية للزندقة اتباع طريق صوفي مشهور ، وعندئذ سيرجع كل تعاليمه إلى سلطة أستاذه ، وعلى أولئك الذين نقلوها له من النبي (ص) نفسه ، وهذا هو تسلسل المبدأ (العقيدة) والمستند الذي يسمى « بالسلسلة » ، زيادة على ذلك يدعون الشريعة كنقطة انطلاق للطريق الصوفي وكأساس للارتقاء بالحياة المستقيمة ، ويعبر عن ذلك في الاقتباس التالي من كتيب الميرغنية الذي قد يماثل كل الطرق التقليدية :

> **تمسك ياأخي جيداً بالشريعة لأنك لن تقترب من الطريق سوى عن طريق الشريعة ولن إلى مشاهدة الربوبية سوى بواسطة الطريقة . الشريعة هي الجذر تصل والطريقةهي الثمرة ولن تتوقع أن تجد الثمرة إلا بوجود الجذر والفرع ، ولن يوجد الفرع سوى بوجود الجذر . من يخلص للشريعة لا يتبع طريق الفاسد ومن يتبع الطريق ولا يخلص للشريعة فهو زنديق .** (١)

إن الصوفية – كما رأينا – جمعت خلال تاريخها فلسفة غريبة تماماً عن الإسلام . إن عقيدتها عن الله ومحمد والأولياء وعلاقة الانسان بهم لا يمكن توفيقها مع الإسلام القويم . إن الصوفي المعترف به هو عاشق الله ، لذا فإن علاقته بالله علاقة غير عادية، فبإمكانه أن يفعل ويقول أشياء ستكون تجديفًا إن فعلها الآخرون . ولأن مؤسسي الطرق يعترفون بالمتصوفة فإن كتاباتهم مملوءة بالضرورة ، « بالطريق » الذي نشروه كي يتبعه الآخرون ، وكانت النزعة الشخصية لمؤسس الطريقة هي ترسيخ اتجاهها وتأكيدها الذي قد يتراوح ما بين الزهد الصوفي المتطرف ووحدة الوجود .

إن دراسة هذه الكتابات التي تمنح الأسس العلمية للمؤسس والدروس التي تعطى للأتباع خاصة الأوراد والمدائح ، برغم أن البعض يضم دروساً دينية قويمة قد توضح

---

(١) احمد بن عبد الرحمن . منحة الأصحاب ص ٩٦

سبب إدانتهم من قبل العلماء ، ومن الصعب كما أوضح ر.ا.نيكلسون [١] إدانتهم بالزندقة (البدعة) فى الإسلام ، حيث يحاكم كل انسان بأفعاله فحسب على أساس التعاليم الفكرية شريطة أن يستمر، عملياً الأساتذة والموالين فى العمل مثل المسلمين العاديين بالعبادة جماعة ، وإذا أتوا ببدع جديدة فى الشريعة الدينية ففى هذه الحالة فقط يمكن اتهامهم بالزندقة . [٢]

ومن الصعب فى هذا المقام أن نقوم بمعالجة كاملة لتعاليم مختلف الطرق ، لذا فسنقوم بإجراء مجرد توضيح للقليل من الإتجاهات العامة ، وتجزم كل الطرق بأنها تملك نظاماً خفياً تم توارثه عن طريق « أهل السلسلة » ، ولكن فى كل أنحاءالسودان هناك جهل تام حتى بأبسط معانى المصطلحات الفنية للصوفية . ولكى يجعلوا طرقهم مقبولة للجماهير قام الشيوخ بحظر المذاهب التجريدية والتأكيد على الأشكال الصوفية للإخلاص والتدريب الصوفى والواجبات المادية والتدريبات الروحية ومعجزات الأولياء . ورغم ذلك فإن الإنسان قد يسمع فى بعض الأحيان حديثاً عفوياً عن « مقامات » أن تكون عاشقاً لله وعن الفناء وأن الشيوخ أنفسهم غير قادرين الآن على فهم الصوفية الحقة ، وأريد أن أؤكد على أنه بسبب الروايات المبالغ فيها التى قيلت بخصوص تعاليم الطرق فى الوقت الحاضر من أنها تماثل تماماً صوفية الماضى العظيمة ، وفى الوقت ذاته لا يمكن للمرء ان يتجاهل تماما التعاليم ؛ لأن العديد من الأفكار التأملية للصوفية قد توجد فى الوعى الفاسد الذى يؤثر على الحياة الدينية والفكرية الشعبية [١]، ويتصل هذا بالحاجات الخاصة لجماهير المسلمين .

لقد بينا أن التصوف – وهو يعمل ضمن النظام الإسلامى الخالص القائل بوحدانية الله – أدى بالضرورة إلى اتجاهين كليهما وثيق الصلة بوحدة الوجود وعبادة الولى . ولأن إله الإسلام المتعال (الكائن فوق الوجود المادى) ، وفوق معرفة البشر ، فإنه لا يمكن أن يكون موضع عبادة البشر؛ لذا فقد تطور فى الفكر التصوفى مبدأ اللوجوس الذى يوفر – دون أن يفسد الوحدة الإلهية – الأسس الفلسفية للحب الشديد العملى للنبى والولى الذى قد انبثق بالفعل من حاجة الناس .

---

(١) Studies in Islamic Mysticism, p.57

(٢) حيثما يبدأ تأثير زعماء الطرق في أن يصبح مرجحاً عن تأثير العلماء فى مكة يبدأ اتهامهم بالزندقة . فالسيد علي بن يعقوب بن المرشدى مؤسس الشاذلية اتهم بالزندقة عام ١٨٨٦م ، وكذلك الآخرون من أمثال الشيخ أحمد بن إدريس الذى أجبر على ترك بلاده ، بينما قام إبراهيم الرشيد بالدفاع عن نفسه ضد تهمتى زندقة (حوالي عام ١٨٥٦م) .

(٣) هناك نسخ رخيصة وسيئة الطبع للكلاسيكيات الصوفية مثل ديوان ابن الفارض ، ويستخدم في الإنشاد الذى يقام فى المناسبات الخاصة مثل حولية الولى ، ولا أحد يفهمها لأن معظمهم جهلة ، ولكنها تؤدى مفعولها عن طريق الكلمات والإيقاع الهادئ فى عالم الأحلام ؛ لذا فإنها تستخدم بالمعنى السحري ، إذ تنزع الكلمات المبهمة نحو هذا الاتجاه . أما الكلاسيكيات الأخرى فهى أقل صعوبة ، فهى فى الغالب شعر هزلى وقصائد تستخدم قبل الذكر لتتناغم المجموعة فى نوع من التوافق والانسجام .

ويقول ابن العربى إنه من خلال مبدأ وحدة الوجود «كانت كل الأشياء موجودة قبل الخلق في علم الله من حيث بعثها وعودتها في النهاية» [١]، وجاء من هذا المبدأ مذهب الوجود المسبق لمحمد وهو مذهب « النور المحمدى » [٢] الكينونة البدائية فى صورة الله وهو أول شئ خلقها الله . إن الكون قد تجلى فى ذلك الضوء : لقد تجسد فى آدم وكل الأنبياء والقديسين ، كل منهم الانسان الكامل بدرجات مختلفة ، إلى أن تجلت فى محمد الإنسان الكامل . ويكتب نيكلسون :

> **هذه بالطبع عقيدة لوجوس إسلامى تجعل محمداً من بعض الوجوه قريبًا جدًا من مسيح الإنجيل الرابع والرسالة الإنجيلية لبولس . وبرغم الشبه الكبير فهناك اختلاف – وتوحى بأبوة الرب والتجسيد والكفارة بالثراء اللامتناهى والشخصية المتجانسة حيث يتجه لوجوس محمد نحو اعتبار نفسه شيئًا واحداً مع المبدأ الفعال للظهور فى الجوهر الألهى [٣] .**

ولما كان عمل مؤسسى الطريقة تخصيص الفلسفة الصوفية لحاجات الرجل العادى ، لذا فمن خلال التدريس والكتيبات التعبدية الشعبية للطرق تم امتصاص هذه العقائد الثيوصوفية داخل الدين الشعبى للناس ، ولو بطريقة منحرفة ، ومثل هذه الأفكار أكثر وضوحاً فى الإسلام الشرقى حيث أدت الى الانشقاق ، وقد أتت إلى السودان مع قدوم المولد ، ونقرأ فى مولد محمد عثمان الميرغنى :

> هذا ولما أراد الله أن يبرز هذه العوالم العلوية والسفلية قبض قبضة من نوره فكانت هى محمد بن عدنان . وقال أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر جوابا لمسئلته المحكية . وكنت نبياً وآدم بين الماء والطين عنه لقد بان . وقال صلى الله عليه وسلم لجبريل كم عمرت يا جبريل فقال لا أدرى رواية جلية . غيرأن كوكبًا يبدو فى الحجاب الرابع يا معشر الإخوان . بعد كل سبعين ألف سنة مرة فهذه علامات اجتبائية . وقد رأيته اثنين وسبعين ألف مرة بلا نقصان . فقال صلى الله عليه وسلم تعريفًا بمقامه وأسراره المصطفوية : وعزة ربى أنا ذلك الكوكب الذى رأيته يا

---

(١) R.A.Nicholson, The legacyof Islam,p.224 لاحظ الأساس الثالوثى لطبيعة الإلهية في ابن العربى Tarjuman al-Ashwag, ed.Nicholson xii,4

(٢) إن مذهب الوجود المسبق لمحمد والذى يسمى أيضا « الحقيقة المحمدية » قد أعلنت صحتها التقاليد السنية المبكرة (ابن سعد جـ١ – ١– ٩٥ . ابن حنبل جـ ٤، ٦٦ – ١٢٧) ، كما يظهر فى الكميت (توفى عام ٧٤٢) مع انتقالها إلى أسرة علي ، والحلاج الذى عنده أن المسيح هو الانسان الكامل :

المجد له الذى ظهر بشريته وسر ألوهيته المجيدة ، ثم ظهر مرئيًا لخلقه على شكل الواحد الذى يأكل ويشرب ؛ لذا فقد وعاه خلقه فى رمشة عين .

يشير السطر الأول لآدم والبقية للمسيح ، ونجد أصل هذه العقيدة فى نظرية اللوجس عند الأفلاطونية المحدثة .

(٣) Studies in Islamic Mysticsm,p.87 ويجب ملاحظة أن مفهوم المسلم عن اللوجس يتجانس مع أريوس Arius الذى علّم أن الله واحد ، ومن المستحيل بلوغه قد خلق اللوجوس ليكون وسيطه فى الخلق . إنه ليس كلمة الله الأبدية التى هى « بالله وكان الله » ، ولهذا السبب فمن الطيش عقد مقارنة بين المفهومين ، فاللوجوس فى الإسلام لا يمثل شيئًا سوى الضلال وليس عاملاً أساسيًا للإيمان .

جبريل فى حجاب المنان ، وغير ذلك مما لا تحصره الأقلام فى الكتبية ، ولا يسعه فى الحقيقة حفظ الكاتبان [1] .

ويمكن إدراك أن لهذا التصور أكثر من مجرد كونه إهتماماً أكاديمياً لأن الموالين يسمعونه فى كل تجمع للذكر ، وهو لا يعنى أن مكان « النور المحمدية » فى نشأة الكون الشعبى وسط الناس الذين بالنسبة لهم جفاف وحدانية الله التى يقول بها أولئك الشديدو التمسك بالأساليب التقليدية أمر لا يمكن فهمه ، وهو أشبه باللوجس فى المسيحية . إن الخلق المسبق لمحمد فى كلمات من الواضح أنها مستعارة من إفادات يوحنا بشأن اللوجوس . وتنسب التقاليد إلى محمد مثل تلك الأقوال التى اقتبسها محمد عثمان « أول شئ خلقه الله كان نور النبى » ، وكذلك « أنا نور الله ، وكل الأشياء من نورى» ، ومن الصعب القول إن النبى قد يكون أول من شجب مثل هذه المعتقدات الهرطقية . إن المسيحيين قد دفعوا للاعتقاد بأن الطريق الوحيد الذى يحصلون به على النعمة الإلهية هو عن طريق شفاعته ؛ لذا فإن عقيدة محمد وخلقه المسبق تدعيان السيطرة القوية على جماهير غير متعلمة وعن طريق هذه المدائح أساساً – وهى الجزء الأساسى المهم فى أى تجمع – انتشر هذا المفهوم المثالى عن محمد، وقد توحد مع الارتباط التام لعقيدة الإله الواحد . وحكم تمحور محمد هذا فى التصوف الاسلامى المتأخر على المسلمين بالجهل الروحى الحاسم لتطور الحياة الروحية ؛ لأنه حوّل التأكيد من الحقيقى الى غير الحقيقى .

وأصبح المفهوم أكثر اقتراباً بالنسبة للناس فى القطب ، ويشعر السودانى بالحاجة إلى المعرفة الشخصية لعالم الله ، ويأخذ محمد اللوجوس فى كل عهد شكل ولى حى أو القطب الذى يظهر نفسه للصوفيين الحقيقيين . محمد عثمان مثلاً كان قطب عصره ومن ثم مُظْهر « النورالمحمدى » [2].وهو يكمن خلف كل هذه التعليمات كما يلى : «توقع المريد فى المرحلة الأولى الحب ، ونظر إلى الشيخ كأنه الكل فى الكل وتصرف وتكلم وصلى مثل الشيخ وفكر فيه ملياً باستمرار ، وهكذا تحول روحياً بهذه العملية إلى الشيخ . لقد تم تقديم المريد إلى النبى . » [3] . وهذا هو سبب تمركز الصوفية عملياً حول الشخصية المثالية للشيخ .

ويعكس بوضوح تطور مثل هذه النظرية فى الإسلام وانتشارها فى الدين الشعبى حاجة المسلم للتجسيد الحقيقى . إن الاختلاف بين المسيح والانسان الكامل هو

---

(١) مولد الميرغنى . الفصل الثانى . ويوجد هذاالمفهوم فى كل الموالد المستخدمة فى السودان .

(٢) وتعزز سلالته هذه الادعاءات المتطرفة (قارن مدحة جعفر حيث يقول فيها أيضا أنا أول من وجد ») والتي يطابقون أنفسهم فيها ليس فقط مع مرتبة القطب الصوفى بل مع لوجوس القطب ؛ لذا فليس من المستغرب أن هؤلاء الزعماء يطلبون ويحصلون من أتباعهم على التبجيل الذى يماثل العبادة تقريباً ، ويكتب جيلى Jili عن هذا التناسخ فى الإنسان الكامل (نيكلسون . مصدر سابق ص ١٠٥) الإنسان الكامل هو القطب الذى تدور حوله دنيا الوجود من البداية إلى النهاية وهو الواحد أبداً وأبداً . وله مظاهر مختلفة ويظهر فى أشكال جسدية متعددة : وفيما يتعلق بهذا فإن اسمه يعطى له ، أما فيما يتعلق بالأخر فلا يعطى له . إن اسمه الأصلى هو محمد ... ويحمل في كل مرحلة عمريةاسماً مناسباً لـ (لباسه) في ذاك العمر .

(٣) Moslim World, viii, 252-3

الاختلاف بين الحقيقة التى تجذب قلوب الناس إليها وتمنح القوة للفعل فى إعادة الخلق والاستبدال التجريدى الذى يعجز تماماً فى تأثيره على الحياة .

وبغض النظر عن هذا ، فهناك نوع غامض من وحدة الوجود تكمن خلف ممارسات الذكر كما يمارس في السودان ، ويعد الشخص الذي يصبح مجذوباً : قد فقد وعيه مؤقتاً فى الاتحاد الإلهى ، كما تعبر القضية عن نفسها أيضا فى « الملامتية » : إن الرأى المستقيم بالضغط المستمر على كل أنواع التصوف الهرطقي تتأصل باستمرار بالضغط المتواصل لإرجاعها وحصرها فى أضيق مجال ؛ لأن الشعب يمتص مثل هذه العوامل بإيمان صادق حقيقى من شيوخهم ، وليس هناك انحراف واع عن الرأي المستقيم . إن ما هو غير قويم هو علاقتهم بشيوخهم .

ويجب ان يُفْهم أن القيمة الفكرية لصوفية الطرق اليوم سطحية ، وأفكارها ليست بذات قيمة وليست بمستوى أفكارنا . إن محورالطرق ليس التدريس الذى يتم استيعابه بشكل غامض ، ولكنه الشيخ الذي يمتلك البركة المتأصلة فيه .

٦- الشعيرة والممارسة

الذكر : بدأ تطور ممارسة الطقوس فى الصوفية فى القرن الثاني الهجرى وتمركز حول المصطلح الفنى « الذكر »[١] واستخدمت الكلمة فى القرآن بمعنى عبادة الله ، ولكنها أصبحت تعنى طريقة بعينها لعبادة الله للحصول على الوجد الروحى بالتكرار المستمر لاسمه إما « بالذكر الخفى » أو بالذكر « الجلىّ » . وللاسلام القويم صلاته التي يؤديها الصوفى إذاما رغب فى أن يعد من المجتمع الاسلامى ، ولكنه يؤمن أن الصلاة منحة لضعف الانسان ، وأن الذكر هو المحور الحقيقى للممارسة الدينية ، وقد ارتكز علي الأمر القرآنى « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » (الاحزاب : ٤١). ولكل طريقة نظامها الخاص للتلاوة والكتيبات التعبدية ، وهى شائعة جداً تعطى مختلف طرق ممارسة الذكر . وكانت الطريقة الصوفية دائما ما تعتبر من قبل الصوفى الحقيقى بأنها سوقية وأكثر ملاءمة لإدخال الأعضاء في الطريقة ، وهناك مجموعتان رئيسيتان للذكر الصامت « الذكر الخفى » المسمى ذكر العبادة الذى يمكن أن يؤديه أى شخص ، والمرحلة المتقدمة جداً لذكر الشخصية كلها ، وفى كلتيهما فإن الفكرة الصوفية هى بلا شك معاون ذو قيمة للتأمل . لقد انحط الذكر وكذلك الطرق ولكن السودان لا يمكنه أن يترك الطرق الصوفية لينضم إلى سياقات صوفية عقلية . إن الطريقة الصوفية ترضى حاجاته العاطفية وتزوده برباط إضافى أقوى مع العبادة العامة مع الآخرين[٢]، وهو يشترك فى الذكر منذ صغره ، ويمكن رؤية الأطفال من سن العاشرة فما فوق فى الحلقة يقلدون حركات من هم أكبر سناً ، ومع ذلك فإن النظم الهادئة قد مورست فى السودان (التيجانية والإدريسية) ، وترضى قطاعات عديدة من السكان .

---

(١) مرتبطة بالكلمة السريانية (ذكران) التى استخدمها المسيحيون السريان بنفس المعنى .

(٢) حقيقى إن ذكر الأوقات يجب أن يتكرر بعد الصلوات الخمس ، ولكن هذه ميكانكية مثل الصلاة ، والقليلون يقبلون على تكرارها لأكثر من مرتين فى اليوم، وهى تتكون فى القادرية من تكرار « سبحان الله والحمد لله والله اكبر» ٣٣ مرة بمساعدة المسبحة .

وتشتمل الطقوس الدينية المنتظمة فى الخلاوى على البدء أولاً بتلاوة « الوظيفة » التى ألفها مؤسس الطريقة ، وقد تتكون من الأوراد أو الأحزاب أو الراتب [1] أو المولد – ويعنى المولد هنا ليلة الذكر – ،ويقيم الميرغنيه مرة كل عام مولداً بمناسبة ليلة الإسراء والمعراج (ليلة ٢٧رجب) ، يتم فيه إنشاد قصة المعراج ، وأيًا كانت مكونات «الوظيفة » فكلها موشاة بإنشاد أشعار روحية فى تمجيد الله أو مدح الرسول أو أولياء الطريقة .

ويتكون الاستعداد الصحيح للذكر من تكرار صيغة « لا إله إلا الله » ، وكلمة الله وصفات معينة مثل « الله حى » ، وهناك اعتقاد قوى فى القوة السحرية للكلمات ، ولكل طريقة أساليبها الغريبة للترانيم للصلاة وخاصة الذكر . وقد طورت الطرق القديمة فى السودان عناصر إفريقية مميزة فى ترديد الأغانى والذكر الذى تعتبره الصوفية الشرقية بربرية بكل ما فى الكلمة من معنى ، وتدريجيًا مع تكرار وتناغم الحركات الإيقاعية يحدث شعور عاطفى قد يجد له مخرجًا فى الحركات العنيفة التى تشتد أكثر فأكثر إلى أن تؤدى الى قصف معربد للانجذاب الصوفى . وكثيرا ما يصاب الذاكرون بغيبوبة ، ويشار إليهم فى هذه الحالة بالمجذوب [2]، ويعتبر السودانى البسيط مثل هذه الحالة الشاذة اتصالاً حقيقياً بالقدسى أو مع الشيخ مؤسس الطريقة ، ويكون الذاكر فى حالة الانجذاب هذه يفعل أشياء غريبة كالممارسات التى ذكرها « لين» ، إلا أن الممارسات تعد شيئًا غريباً بالنسبة للسودانى [3] .

ويصحب أداء الذكر ترديد أشعار ركيكة النظم ، والموضوع عادة هو النبى أو مؤسس الطريقة ، بالإضافة إلى موسيقى رتيبة ولكنها ذات طبيعة مثيرة وحادة . ويجب ان يكون مفهوما تماماً أن الذكر بالنسبة للأغلبية العريضة لا يمكنه أن يفعل شيئًا مع التصوف الحقيقى ، إنه مجرد أسلوب نفسى : بدنى حماسى ، ينزع بالتكرار المركز والإيقاع والغناء ودق الطبول نحو تطوير عصاب دينى تحت أشكال مختلفة ، وهو ظاهرة هستيرية ترجمها الأفارقة كعمل للقوة الجديدة التى دخلت جسد الإنسان ،

(١) تستخدم كلمة حزب أيضاً مع نفس معنى الورد للصلاة الخاصة والأحزاب القرآنية لتتلى فى أوقات مختلفة فى اليوم أو فى أيام بعينها ، وهناك مجموعة مستخدمة فى السودان تسمى « مجموع الأوراد والأحزاب والأدعيه » ، وهى تشتمل على « أحزاب » العديد من الزعماء المشهورين من أمثال الشاذلى والنواوى والرفاعى والبيومى ، كما أن « دلائل الخيرات » للجزولى (١٤٦٤م) ناشر الشاذلية فى المغرب مكونة من مجموعة أدعية للنبى ووصف لقبره وأسمائه ومناقبه ، وتستخدم هذه المجموعة بشكل خاص الطرق القديمة ودراويش الشاذلية ، كما تستعمل التيجانية « الوظيفة » والإسماعيلية « الراتب » للدلالة على « الشعائر الخاصة بها » .

(٢) ويستخدم المصطلح أيضا للدرويش الذى يعيش فى حالة تشبه الغيبوبة ، ويتكلم بشكل غريب أو غامض لا يمكن فهمه أو بشكل طفولى ، لذلك فالكلمة المستخدمة تعنى ضعيف العقل .

(٣) Lane,Modern Egyptian Everyman's-ed.,pp.248.ff وتؤدى هذه الممارسات فى السودان ، ولكن ليس عن طريق سودانيين ، واعتاد الرفاعية الذين كانوا فى الجيش واستقروا فى السودان القيام بهذا الأداء علنًا في ا لخرطوم ، وجاء حيران أحمد البدوى إلى أم درمان ، وعرضوا حيلهم لتسلية السودانيين الذين نظروا إليها على أنها مجرد عرض .

وأصبحت مرادفة للمقدس ، وهذه هي التأثيرات التي تحاول بعض الطرق تقديمها وهي الهدف من العرض كله ، وبعض الزعماء الواعين بتلك يحافظون على وضع قيد قوى على التطرفات الزائدة . إن الانغماس الزائد في الأذكار مؤذ بالنسبة لأعضاء المجتمع العاديين ، إذ يعيشون في حالة نوم دائم وحالة من الكسل .

إن الذكر الصامت (الذكر الخفي) هو الشكل الحقيقي للابتهال ، ولكن الذكر الجماعي هو بصفة عامة الشكل المتسم بالقصف والعربدة الذي يتم فيه ابتلاع الروح في التأثيرات الجسدية والمادية ، وهذا هو السبب في أنه لا يخلق من جديد ولا تأثير له على الحياة الأخلاقية ؛ لأن التعبير الحقيقي يرتبط بشكل جوهري السلوك ، وتؤدي في بعض الأحيان إلى التفسخ الحقيقي ، إذ ليس من غير المألوف زيارة عاهرة يليها الاشتراك في الذكر .

وأفضل تعليق على الصوفية السودانية ذلك النقد الذي كتبه أبو نصر السراج :

> يعتقد البعض أن الصوفية أغنية ورقصة وقبول الدعوات والبحث عن الصحة ، ويضيعون الوقت في تناول الوجبات وسماع الشعر والانجذاب المزيف والرقص ومعرفة تأليف النغمات للأصوات الجيدة والألحان الحزينة وفن صناعة الشعر الغزلي الذي يشابه الشعر الصوفي الحقيقي . هذا خطأ لأن موسيقى ونشوة أي قلب تنفس بالدنيوي ، وأي روع اعتادت على الغرور والطيش سيكون لها دافع خفي ومن ثم فإن فعله مظهري . إن الذي يعتقد أنه بتظاهره وخداعه ورغباته سيكون صوفيًا حقيقيًا أثناء الموسيقى والحركة والنشوة ... إلخ هو إنسان واهم ومخطئ . (١)

ولاستحالة وصف ممارسات الطرق تفصيليًا فإننا سنكتفي بوصف « ليلية » الطريقة الميرغنية .

ليلية الطريقة الميرغنية

تسمى الطقوس الدينية التي تقام بانتظام يومي الاثنين والجمعه بالليلة أو الحضرة(٢) ، ويمكن عقدها في المسجد أو الزاويه ، ولكنها تعقد عادة في حوش الخليفة أو الشيخ أو في حوش أحد الاعضاء أو حتى في الطريق ، وبصرف النظر عن

---

(١) As-Sarraj,kitab al-Luma fi,l-Tasawwuf, ed.Nicholson p.419

(٢) الحضرة هي الاجتماع للعبادة ، ويقول الميرغنية أن النبي هو الذي يحضر لأن الله حاضر في كل مكان ، وقد بني هذا الاعتقاد على حلم رأى فيه مؤسس الطريقة النبي ، وإليك وصف للحادثة من مقدمة « مولده » [فأمرني (النبي) كتابة قصيدة مقفاة في الهاء والميم ، وقد فعلت ، وبشرني أنه سيحضر عند تلاوتها ؛ لذا فقد كتبتها ليتشرف هؤلاء الناس بقدومه عند تلاوتها . * *

* هكذا في المتن والصحيح في الهاء والنون . [المترجم]

* * أما النص فهو « فأمرني أن أصف مولداً واجعل إحدى قافيتيه هاء بهية ، والأخرى نونا كما فعلت لأنها نصف دائرة الأكوان ، وبشرني أنه يحضر في قراءته إذا قرئ فسطرت ليتشرف به كلما تلى حكاية نوعية » ينظر مولد النبي المسمى الأسرار الربانية للسيد محمد عثمان الميرغني . المكتبة الإسلامية ، الطبعة الثالثة ١٩٩٠، ص ١٢ - ١٣ [المترجم].

«الحضرات» المنتظمة ، فقد يطلب أحد الأعضاء إقامة حضرة فى حوشه لأى مناسبة تقتضى الشكر كتسمية طفل (سمايه) ، أو ختان أو الإبلال من مرض أو العودة من الحج ، وفى سواكن وليس فى أى مكان آخر بمناسبة الزواج ، كما تقام الحضرات أيضا أثناء حولية أو سنوية الولى .

وتؤدى الطقوس دائمًا تحت إشراف الخليفة الذى يوجهها ويحافظ على النظام ، وهو الذى يدعو الأعضاء المنتظمين الذين يدعمون جماعة الليلية (كإحضار أشياء مثل السكر والشاى والقهوة ... الخ) ، ولكن بإمكان أى عضو الانضمام اليها . ويتوقع من العضو الذى يحضر باستمرار الإسهام بأى شئ فى التكاليف ، ولا تقدم الأطعمة فى الحضرة المنتظمة (الدوريه) ، ولكنها إذا أقيمت فى حوش خاص فإن صاحب الحوش يقوم باستضافة كل الحاضرين ، وينفح الخليفة عادة بهدية مالية [1] ، وإذا أقيمت الليلية فى منزل خاص فإنها تستهل « بالزفة » التى تبدأ من منزل الخليفة حيث تتجمع الصحبة . ويجب أن يكون الجميع طاهرين وأن يكونوا قد أدوا صلاة العشاء ، ولا تحمل الرايات إلا فى المناسبات الكبيرة ، ولون الطريقة الميرغنية هو اللون الأخضر ، ويقوم المنشدون بإنشاء القصيدة التى كتبها جعفر الميرغنى :

شربت كؤوس العلم فى عز مقصدى	ونوديت بالترحيب من كل وهبة
سقانى محبوبى من العلم شربة	أنا السيد المشهود فى كل غيبة
وحكمى ترى ياصاح فوق الخليقة	أنا عمدة الأكوان من رب وهبة
أنا نسل أطهار وربى شاهد	أنا كنز أنوار فى وسط الخليقة
أنا فخر أهل العصر ياصاح فأعلمن	أنانور مصباح بكرسى الغيومة
أنا منتقى الأخيار فوق العلية	أنا باب فى كل المشارق سطوتى

أنا لمعة الأنوار فوق الخليقة .... الخ [2]

ويعد كل بيت من أبيات هذه القصيدة المسرفة فى التعبير عن العاطفة تقوم كل المجموعة بإنشاد : شى لله يا ميرغنى ،شى لله يا ميرغنى . المكى المدنى . وعند وصول الموكب إلى الحوش يجلسون القرفصاء فى دائرة ، والمبخرة وكل أحذيتهم فى وسط الدائرة ، ويجلس فى أحد الجوانب المنشدون الأربعة ، ويبدأ الخليفة بقراءة الفاتحة

---

(١) يتكون الطعام من الفتة المكونة من الكسرة والشوربة والأرز واللحم وكذلك « اللقيمات » ، أما منطقة البحر الأحمر فتقدم " قهوة اللوز » (شاى باللبن واللوز المبشور) بدلاً من الشاى المعتاد بالنعناع .

(٢) قصة المعراج . ص ١٣٥ - ١٣٧

ويقوم الجميع بتلاوتها ثم ينشدون « التهليل » (لا إله إلا الله) مائة مرة ثم يبدأ المنشدون فى المدحة التى تسمى « المنبهية » التى يتضرعون بها الى الله . أما المرحلة الثانية فهى إنشاد « المولد النبوى » الذى كتبه مؤسس الطريقة محمد عثمان الميرغنى، وهو ينقسم إلى أربعة عشر فصلاً تسمى الألواح ، ويفتتح بفصل حول تفرد الإسلام ثم يليه سرد لحلم مؤسس الطريقة الذى رأى فيه النبى ، وكيف أن الله خلق تلك المادة المضيئة « نور النبى » أول الخلق وميلاده ، مع سرد لنسبه وقصة الملائكة الذين أخرجوا قلبه وطهروه ، وقصة المعراج والدعوة النبوية ووصف لمظهره الجسمانى والأخلاقي ، ويقوم الخليفة بإنشاد الفصل الأول ، ثم يقوم بعد ذلك بالإشارة إلى المجموعة التي يود أن تستمر ، ورغم أن العديد منهم جهلاء فإنهم يحفظون بعض الفصول عن ظهر قلب . كما يقرأ الخليفة الفصل الخاص بميلادالرسول وعندما يصل لكلمات « لقد ولد » ، يقوم الجميع بإنشاء المدحة ، وعندما يتم هذا اللوح تنشد قصيدة « تحية قدومه » وقوفاً ، بينما يتم إنشاد الباقى وهم جلوس ، وبعد الفصل الخاص بالمعراج يتم إنشاء قصيدة الشطرة الأولى منها من تأليف ابن العربى والثانية من تأليف محمد سر الختم (توفى عام ١٩١٥م) ، ويستمر المولد حوالى الساعتين ، ويتلو ذلك فصل إضافى ينشد فيه المنشدون قصيدة أو أكثر فى مدح الرسول (قصيدة المديح) ، ويتم خلالها تقديم الشاى بالنعناع إلى بقية الرفاق .

أما المرحلة الأخيرة فهى الذكر، وتبدأ هنا المحاولة الحقيقية لإظهار النتائج ، أما ما سبق فقد كان كله تمهيداً ، ويبدأ الذكر بطيئا ، ويقف كل الذاكرين فى حلقة ويرددون عبارة «لا إله إلا الله » مائة مرة مصحوبة بإمالة الرأس والجسم بشكل متواتر أولاً نحو اليمين ثم نحو اليسار والأيدى مدلاة فى ارتخاء وينتظم التنفس مع رد الفعل والحركات – الأمر الهام جدا إذا ما أريد للنتائج أن تظهر، ثم تتسارع الدرجة – ، ويتم التأكيد على المقطع الأخير، وتتغير الحركات إلى الأرجحة إلى الإمام وإلى الخلف ، ومع كل تغيير يصبح الصوت أكثر خشونة إلى أن تصبح الكلمات – فى المرحلة الأخيرة المصاحبة للقفز صعوداً وهبوطاً – غير واضحة وغير مفهومة تقريباً ، وتلفظ كلمة «الله» بصوت كأنه السعال أو صوت منشار خشن ، ويشهق المقطع الأول ويزفر المقطع الثانى ثم تعكس العملية إلى زفير فشهيق ، ويسمى أحيانا هذا القسم المكون من عبارة واحدة بالدروب ، والدروب الأخرى ببساطة هى «الله» أو«هو» أو «حى قيوم» ، ويشكل إيراد كلمة أو عبارة جديدة سرعة جديدة للذكر . ويدور المنشدون باستمرار حول الدائرة لإثارة حماس الذاكرين ويصيحون فى بعض الأحيان «مدد، مدد، يا ميرغنى» وذلك عندما يسير الذكر بشكل جيد. ويختتم الذكر « بحزب » يسمى دعاء الطريقة الختمية – الدعاء للإنسانية والفاتحة ، ثم يرتاح الجميع ، وعندما يقرأون الفاتحة فإنهم يذكرون أسماء كل الاشخاص الذين يحتاجون الدعاء، وأخيرا يتم تقديم الطعام .

٧- القادرية

كانت القادرية هـى أول طريقة إلى مـحددة تطورت لتخليد أحكام وتعـاليم الشـيخ، وتتـضح فى تطورها اللاحق إشـارات إلى ضـعف تنظيـمـهـا ، وعدم تماسك مـذهبـهـا وتنوعات ممارستها .

ومؤسس الطريقة هو عبد القادر الجيلانى (توفى عام ١١٦٦م) ، وكانت له مدرسة ورباط في بغداد ، ولم يخطط عبـد القـادر لإنشـاء طريقـة ، ولكن تعـاليـمـه وتدريباته الصـوفيـة شكلت الأسـاس لمجموعة الأحكام والمذاهب التى انتشـرت عن طريق ذريته الكبيرة وأتباعه الذين استـمروا فى نسبة أنفسـهم إليه ، وإدخال الأتباع فى اسمه ، وأصبحت مناهجه مشهورة جداً ، ونشر أتباعه - فى حياته - نظامه فى سوريا ومصر واليمن ، ثم انتشر بعد ذلك فى كل أنحـاء العالم الاسـلامى ، وأصـبح منذ ذلك الحين أعظم ولى شعبى فى الإسلام بلا استثناء ، ودَرّسَ كل خليفة كما يهوى وتنوع الذكر والأوراد فى كل بلد ، ويكتبRinn :

> **بسبب انتشارها على امتداد كل العالم الاسلامى ، وكذلك بسبب صفتهاالعامة المتسمة بالتسامح والإحسان لم يكن للطريقة القادرية تجانس القوانين التى نجدها فى الطوائف الأخرى التى يبدو أنها تشكل مذاهب صغيرة مقصورة على جماعة بعينها لا يوجد خلاص منها . إن الطريقة القادرية على العكس من ذلك مفتوحة للجميع(١).**

وقد تفاوتت التعاليم ما بين العبادة المفرطة لعبد القادر كشبه إله ، وموقف التبجيل لولى عظيم ، وكان للفروع الكثيرة ارتباط اسمى بالشيخ فى بغداد ، وأصبح للبعض منهم تنظيم جديد وخط صارم ، ويقال إن أول من أوقد نار عبد القادر فى السودان هو تاج الدين البهارى فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، « بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبـد القادر الجيـلانى » ، وقد جاء الاقتراح بزيارة السـودان من داوود بن عبـد الجليل مـحـمد (حـوالي عـام ١٥٥٠م) تاجـر الرقـيق من أويجي الذى التـقى به فى مـوسم الحج « فى أول مُلك الشـيخ عـجـيب » (توفى عـام ١٦٠٤م) ، وأصبح راعيه وسكن معه فى وادى شعير ، وقد مكث فى السودان سبع سنوات فقط ، ولكنه خـلال الفتـرة مـثله مـثل كل المبشـرين المسلمين تزوج من امـرأة سودانيـة وسلك العديد فـى « الطريق » وترك خلفه فى مـختلف المناطق خلفاء مـؤهلين ليسلكوا الآخرين فى الطريقة (٢) .

(١) Marabouts et khouan , p.186

(٢) ينظر ترجمة تاج الدين في الطبقات . م ٤٢ - ٤٣ ، ص ٤٤ - ٤٥

وتروى القصة المشهورة جدا فى الجزيرة عن كيفية اختيار المجموعة الأولى التى قدمت ليدخلهم فى طريق الصوفية ، وتذكرها الطبقات كما يلى :

اجتمعت الناس عنده ليسلكهم طريق الصوفية خبالهم خبية

ادخل كُبَاَشة فى قطيع وقال للناس اسلك وارشد وانبح وتموتوا على الايمان ، فإن الناس تفرقوا عنه إلا الشيخ محمد (الهميم) ولد عبد الصادق فهو حينئذ شاب لابس قميصاً عَلَجْ ملصو وتوضا وصلى ركعتين . وأدخله فى القطيع وسلكه وذبح أحد الكباشة وسال الدم من القطيع فظنوا أنه ذبحه ثم جاء الشيخ بان النقا وكان شيخًا كبيراً قال أنا نورا كَمَّل كراه (١) اخترت لقاء ربى . فتوضا وصلى ركعتين ودخل عليه وسلكه وذبح كبشا آخرَ وسال الدم على الناس ، وقال للناس : تعالوا ، لا حسد وبخل . فامتنعوا وعد ذلك خرج الرجلين سالمين (٢) .

قلنا فيما سبق أن العديد من هؤلاء الخلفاء أصبحوا رؤساء روحيين – دنيويين للأسر التى استمرت فيها الوراثة حتى اليوم ، وهكذا أسس محمد الهميم صادقاب منطقة السوكى بين ودمدنى والقضارف ، أما بان النقا الضرير الذى تقاعد من الخدمة الملكية ليخدم تاج الدين تلميذاً له ، والذى قبل عودته إلى الحجاز قلده برموز سلطة الفونج « الطاقية » والككر اللذين مازالا مع خليفة اليعقوباب حتى اليوم ، وكان بين الآخرين الذين سلكهم الطريق الشيخ عجيب الكبير المانجلك القائد العظيم للعبدلاب(٣) . ويقال إنه سافر إلى تقلى حيث :

سلك فيها عبد الله الحمال جد الشيخ حمد ولد الترابى مع جماعة ولما أراد السفر إلى الحجاز قال لجيرانه : انا جيت من بغداد لأجل هذا الولد خلفته فى مكانى مثل ما بتعاينولىْ عاينوا له واداه الاسما والصفات ومعرفة دخول الخلوات والرياضة ..... وسافر وخلالهم متوجهين الى الله تعالى. (٤) هناك خلط واضح فى الطبقات يمكن ملاحظته حيث تقرأ مثلا أن كلاً من على النيل وصالح بن بان النقا كان كلاهما ثالث الخلفاء « الاوقدوا نار الشيخ عبدالقادر» (٥). وهذا مرجعه أن كليهما ينتمى إلى طريقة مختلفة للخلافة من تاج الدين ، فصالح مثلا كان الخليفة الثالث منذ الشيخ إدريس.

---

(١) أى أخذت نصيبى من هذه الدنيا ، وهو مشهور يضرب لنهاية كل شئ .

(٢) الطبقات . ترجمتبان النقام ٣٢، ص ٣٥ . وهذه هى رواية *اليعقوباب للقصة* (Reid, Tribes of Blue Nile Province, pp.65-6-77-8) حيث ذكرت شخصان فقط، ولكن العركيين والآخرين يذكرون أن أربعة أشخاص هم الذين تظاهروا بالرغبة ، ولكن أحد الأربعة جبن عندما رأى اختفاء الثلاثة الآخرين . ويتغير اسمه طبقًا للجماعة التي ينتمى *اليها الراوى* .

(٣) عبد الله بن دفع الله العركى مؤسس العركيين قال أنه أحد أولئك الذين فشلوا فى اختبار تاج الدين ولكنه عندما رأى المعجزات التي أظهرها أتباع تاج الدين سافر الي مكة ولكنه وجده قد توفى . ثم أدخله حبيب الله خليفة تاج الدين (الطبقات . م ١٥٠ – ١٠٦ ، ص ١١٢ – ١١٣).

(٤) الطبقات . م ٤٢ – ٤٣ ، ص ص ٤٤ – ٤٥ .

(٥) الطبقات : م ١٣٣ ويا ٩ ، ص ١٤١ و ١٠٤

وأشهر كل الرجال الصالحين فى هذه الفترة هو المحسى الشيخ إدريس بن الأرباب[1] الذى قيل لنا إنه – بشهادة الشيخ خوجلي – «أول من أوقد نار عبد القادر»، ثم أظهر الخطوة الشيخ إدريس دون وساطة الشيخ ، ويقال إنه أخذها مباشرة من الرسول (ص) ، ويقول الآخرون إن رجلاً من الجزائر (المغرب) يسمى عبد الكافى سلكه فى الخطوة ، ويفترض أنه درس على الشيخ البندارى فى الحفاية . وينظر الدراويش بعين الريبة إلى كل شخص لم يتم إدخاله في الطريقة بالشكل الصحيح وكما ينبغى ، ولكن النفوذ الشخصى للشيخ إدريس كان قوياً جداً ، وقد خلفه ابنه حمد رغم أننا نقرأ أيضا عن الآخرين الذين ورثوا عنه ، فمثلا يقول الشيخ خوجلى « نار الشيخ عبد القادر أوقدت بعد الشيخ إدريس عند الشيخ بدوى (ود أبو دليق المتوفى عام ١٧٠٦م) وقد تلاه صالح بن بان النقا (١٦٨١ – ١٧٥٣ م) الذى روى أن المدد الإلهى جاءه وسمح له بالنار مشتعلة بعد وفاة الشيخ بدوى فى عام ١٧٠٦م ، وتستمر الحكاية لتقول كيف أن ابنه الزين واصل إيقاد النار لتستمر بدورها بابنه .

وقد تحولت بعض مجموعات الخلفاء الوراثية هذه إلى طرق أخرى ، وهكذا أصبح خلفاء الشيخ إدريس ميرغنية ، كما تحول اليعقوباب والعركيون وأولاد الترابى إلى السمانية .

ويسمى القادرية فى بعض الأحيان بالجيلانية فى صفتها كطريقة القوم ، وهى قوية جداً فى الجزيرة حيث تعيش هذه القبائل مع الخلافة الوراثية ، ومع ذلك توجد المجموعات غير القبلية في كل أنحاء السودان ، ويتركز البادراب وهم قادرية فى أم ضبان التى أدخل مؤسسها محمد بدر (١٨١٠ – ١٨٨٤م) الطريقة على يد الشيخ عوض الجيد فى عفينه ، وهم يحافظون على مدرسة شهيرة حيث ينشد فيها الأولاد الحصول على تعليم دينى مبكر . ويدعى العديد من الشيوخ الدينين والفقرا أنهم قادرية ، والمسلمية من أتباع القادرية الأقوياء ، لأنهم يدعون أن جدهم المسلم كان ابنا لأخت عبدالقادر الجيلانى ، وكان القادرية نشطين فى دارفور عندما كان التونسى يعيش هناك (١٨٠٣ – ١٨١٣م) ؛ لأنه يكتب عن طريقة الذكر والمنافسة بين أتباع ضيف الله والشيخ يعقوب [2].

كما يدعى الأمرأر – والعديد من أقسام البجة – بأن عبد القادر هو وليهم ، ومع ذلك فهم لا يعرفون إلا القليل ، أو لا يعرفون شيئًا عن العبادة . ويطلب أولئك الذين فى الشمال حمايته قبل أن يبدأوا فى رحلة أو فى مواجهة أزمات الحياة ومصاعبها فى «بيان» منسوب إليه بالقرب من حجارة أبو صير فى وادى حلفا .

---

(١) تقول The Sennar Chronicle التي لا يمكن الوثوق بها أنه عاش ١٤٧ سنة هجرية ٩١٣هـ (١٥٠٧م) حتى عام ١٠٦٠هـ (١٦٥٠م) ، وترجمته فى الطبقات غير كاملة ، ولكن هناك ذكر لتاريخ ٩٨١هـ .

(٢) Al-Tunisi, Voyage au Darfour, pp. 245-9

وتعتبر الطريقة من الطرق قويمة المعتقد ، وبسبب محليتها أو صفتها البدوية التى تميزها ، فقد عدت قبلية ولم ترتبط بكسب المشايعين ، ويهتم القادرى أساسًا بعبادة ولى القبيلة .

وسنستدل من الروايات فى الطبقات [١] أن تقليد منصب الخليفة فى الجزيرة يتضمن أن يحلق رأسه من يقوم بإدخاله الطريقة ، وإنشاد الأناشيد والجلوس على ككر مؤسس الطريقة والتخلى عن ككارة الخلفاء السابقين ، ولبس العمة الخضراء والجبة والفروة الخاصة بمؤسس الطريقة والعديد من خدمات الحيران .

كما تقلد بعض شيوخ الجزيرة برموز سلطة الفونج ، فبالإضافة إلى الككر هناك الحربة الحديدية أو الشعبة أو الصولجان ، ومن المحتمل أن تكون هذه مرتبطة بالسلطة الزمنية ؛ لأن تقليد المنصب بالككر يتضمن منح قطعة أرض ، ويحتفظ يعقوباب اليوم الذين أصبحوا سمانيه [٢] ومعظم المجموعات الأخرى بهذه الرموز فى شعائرهم ، ويتم عرضها فى الاحتفالات .

إن المثال البسيط لأخذ العهد اليوم لإدخال الأعضاء العاديين هو أن يتلو العضو ثلاث مرات « طلب المغفرة من الله العظيم « ولا إله إلا الله » والصلاة على النبى ، ثم يقوم بوضع يده في يد الشيخ ويردد خلفه « أقسم بالإخلاص لك فى الإيمان والحقيقة والقانون ، لقد أصبحت مريداً للشيخ عبد القادر الجيلانى أنار الله قبره وقدس سره وفاتحته » ، ثم يتلو الاثنان معًا الفاتحة ، ويقبل العضو الجديد يدالشيخ ، وبذا تتم المراسم.

وتتكون الليلية التى تقام « للمقدم » تلاوة مولد البرزانى والذكر [٣] مصحوبا « بالتوبة » وإنشاد المديح قبل وأثناء الذكر ، وينشدون فى الموكب « لا إله إلا الله » فقط، ويقيمون الذكر يوم الجمعة فى المسجد بعد صلاة الجمعة [٤] . وأداؤهم ذو ميزة إفريقية

---

(١) الطبقات . م٧٩ – ٨٠ ، ص ٨٦ – ٨٧ . وينظر أيضا رواية محمد بن داود الأغر ص ١٥١

(٢) ويعود التغيير ببساطة لاختيارهم الشيخ هجو (توفى عام ١٩٣٠م) الزاهد الذى عاش في جوف شجرة تبلدى وكان سمانيًا – شيخا لقبيلة بعد المهدية . ينظر ص ١٣٠٦هـ أعلاه

(٣) مازالوا يستخدمون كلمة « الكرير » كما فى الطبقات م ١٣٢ ، ص ١٣٩ ، وقفت في حلقة كرير أولاد برى ... وكان الشيخ عبد الحليم ينشد في الحلقة ..»

(٤) يفترض أن يتلو القادرى الورد الصغير بعد كل صلاة من الصلوات الخمس ، وهو يتكون من ترديد الأوراد التالية كل منها مائة مرة ، وذلك بمساعدة السبحة : التسبيح ، الحمد – الحوقلة ، البسملة – الاستغفار – التوبة – الصلاة – التهليل ،أما الورد الكبير فيتكون من التهليل الذى يكرر ٧٠ ألف مرة .

أكثر وضوحاً من أى طريقة أخرى . [1]

٨- الشاذلية

يمكن وصف هذه الطريقة بأنها مدرسة للمذهب الصوفى أكثر من كونها طريقة منظمة ، وقد وجدت فى السودان كما فى أى مكان آخر أساسًا فى العناصر المشتقة (الثانوية) مثل المجذوبية . وقد ولد مؤسسها أبو الحسن على بن عبد الله الشاذلى فى عام ١١٩٦م فى الشاذلية بالقرب من زفران بتونس ، وقد درس فى فاس حيث أصبح تحت التأثير الإشراقى للمدرسة الصوفية ، واضطهد لتعاليمه وشعبيته ، ولجأ إلى مصر حيث حقق شهرة عظيمة ليس فقط وسط العامة بل حتى وسط العلماء ، وقد اعتاد الذهاب إلى الحج كل عام ومات فى صحراء عتباى أثناء عودته من إحدى هذه الحجات فى عام ١٢٥٨م . [2]

وكان أبو الحسن شيخ طريقة جوالاً ، ولم يدخل تلاميذه فى أى شعيرة أو طقوس دينية ، وقد واصل طريقه تلاميذه ، واعتبر أحد تلاميذه وهو أبو العباس المرسى (توفى عام ١٢٨٧م) الذى سكن الاسكندرية خليفته [3] ، ولكن الطريقة لم توحد نفسها أبداً ربما بسبب أن مؤسسها لم يترك ابنًا ليخلفه ، وقد جمع تلاميذه بقايا أعماله الأدبية القليلة (أساسا الأوراد) ، وواصلوا نشر تعاليمه فى زوايا متفرقة ، ولم تكن لها سوى القليل من الروابط ، وفى أحيان أخرى دون أى رابط ولم يتطور أى نظام وراثى . ويقوم فى بعض الأحيان شيوخ بارزون لمثل هذه الطوائف بتلقى الأمر بإذن خاص من النبى لتأسيس طرق جديدة من أمثال الشايقية والطيبية والجزولية والدرقاوية .

إن أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولى (توفى ما بين عامى ١٤٦٥ - ١٤٧٠م) هوالذى نشر الطريقة فى المغرب ، وهو صاحب الكتاب المشهور « دلائل الخيرات »، ويقال إن إحدى بناته تزوجت الشريف حمد أبو دنانة الذى سافر إلى السودان مع ابنه السيد بن الحسن البيتى الذى سكن سقادى غرب (تسمى الآن المحمية) فى عام ٨٤٩ هـ (١٤٤٥م) ، وأدخل التعاليم الشاذلية فى السودان ودفن فى أبو دليق ، كما جاءت إلى السودان أيضا الطقوس الشاذلية عن طريق فقرا تعلموها أثناء الحج ، ونقرأ عن

---

(١) قال ضابط جيش هندى فى واد مدنى بصفته قادريًا دعى لحضور ذكر أن العرض صدمه ، وأنه شجبهم لاستخدامهم اسم عبد القادر الجيلانى .

(٢) يدعى الهندوة بأنه وليهم ويقولون أن قبره موجود فى « الهلوس » ، ويدعى العليقات أن قبره موجود فى عد الخشاب بين حلايب والدر، وهناك قبر آخر في الجميزة بناه سلطان مملوكى (ينظر . ابن بطوطه ج١ ص ٤٢ وبوركهارت . ص ٤٦٣) .

(٣) يوجد سرد لحياة وأقوال أبوالحسن وأبو العباس فى « لطائف المنن » لتاج الدين بن عطاء الله السكندرى الذى الفه عام ١٢٨٤ م (على حاشية لطائف المنن للشعرانى) .

ولى الجزيرة توتى خوجلى بن عبد الرحمن (توفى عام ١٧٤٣م) (١) أنه رغم كونه قادرياً فى الأصل فإنه درس الشعائر الشاذلية :

> وحج إلى بيت الله الحرام وسلك طريق القوم على الشيخ أحمد التنبكتاوى الفلاتى القطب الربانى القاطن بالحرم المدنى وأما أصل طريقته فالأساس قادرى والأوراد شاذلى وفى الحقيقة فإن شيخه كان تلميذاً لمحمد بن ناصر الشاذلى (٢) .

وكان فى حياته صورة طبق الأصل للعديد من الزعماء الدينيين المحدثين :

> لقد تابع السادة الشاذلية فى أقوالهم وأفعالهم وكان يلبس الثياب الفاخرة مثل البصراوى الأخضر وعلى رأسه الطربوش الأحمر ويتعمم بالشيشان الفاخرة ويتنعل الصرموجه ويتبخر بالعود الهندى ويتعطر بجعل الزباد الحبشى فى لحيته وثيابه ويفعل ذلك اقتداء بالشيخ أبو الحسن الشاذلى واظهاراً لنعمة الله تعالى وليحمده على ذلك ، وقيل له إن القادرية إنما يلبسون الجبب والمرقعات . قال ثيابى تقول لخلق أنا غنيه عنكم وثيابهم تقول أنا مفتقرة إليكم (٣)

وكان للشيخ خوجلى سمعة عريضة ومريدون كثر، وقد خلفه ابنه احمد الذى استمر خليفة لمدة ستين عاماً ، ولكن السمانية فازوا بأتباعه فى الجزيرة ، والمجذوبية بأولئك القاطنين حول الدامر ، والميرغنية بالآخرين شمال الخرطوم (٤)، وقد أثرت الشاذلية بشكل كبير على مذهب العديد من الطرق السودانية وتلاوة حزب البحر .

أما بالنسبة للذكر فتجلس مجموعة « البيتيه » إما فى حلقة أو يجلسون قبالة بعضهم صفين ، ويبدأون تلاوة « التهليل » (لا إله إلا الله) بصوت عالٍ يستمر حوالى ساعتين ، ثم يقوم الشيخ بإعطاء إشارة ، فيستمرون فى التلاوة فى صمت لمدة نصف ساعة ، ثم يكررون اسم الله لمدة نصف ساعة بصوت عالٍ يتلوه : هو-حق - حى - قيوم -قاهر، لمده نصف ساعة أخرى ،ثم يختتم الذكر بتلاوة واحد أو أكثر من أدعية مجموعة « المفاخر العليه » (٥) ، أما مولد « البرزنجى » فلا يتلى إلا فى الاحتفالات فقط، أما أخذ العهد فبسيط جداً ، إذ يجلس المريد أمام الشيخ ويكرر خلفه العهد التالى :

(١) هناك سرد لحياته فى الطبقات . م ٧١ - ٧٧ ، ص ٧٤ - ٨٣ وقام ماكمايكل بترجمة مقتطفات منها فى كتابه : Hist.ii, 250-9

(٢) الطبقات . م ٧ ، ص ٧٤

(٣) نفسه : م ٧٣ ، ص ٧٦

(٤) ما زال يوجد خليفة الخوجلى فى الحلفاية ، ولكنه يعد نفسه قادرياً ، ويوجد فى سنار مجموعة تسمى نفسها شاذلية ، وكان الفكى سليمان محمد الشاذلى (توفى عام ١٩٢٤م) آخر خليفة يقوم بالتدريبات ، أما قرية الشاذلى بالقرب من سنار والتى ذكرها بروس فهى الآن أطلال (Travels, vi-384) ، كما أن العديد من الحضارمة وأهل جدة على ساحل البحر الأحمر شاذلية .

(٥)أحمد بن عبادة : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية (القاهرة ١٣٢٧هـ)

ياإله لقد تبت إليك وقبلت تعاليم فلان الفلاني شيخاً لي في هذه الدنيا والآخره مرشدا قائداً لهدايتك ، وقائداً لطريقك ولن أخالفه لا قولاً ولا عملاً ولا بالإشارة ولا في السر . قوني يا ربي في طاعته وفي طريقته في هذه الدنيا والآخره ، وفي طريقة شيخ الشيوخ وإمام الأئمة قطب الشعب سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه .

وبعد العهد يقرأ الجميع الفاتحة والتهليل ، ويعقد الشيخ بانتظام « مجالس التربية » حيث تتركز الدروس أساساً على الواجبات تجاه الله والإنسان ، ويعطي المريد تدريجياً الإذن بتلاوة مختلف الأوراد والأحزاب .

٩- المجذوبية

بدأت هذه الطريقة كطريقة محلية بواسطة الجعلي حمد بن محمد المجذوب الكبير (١٦٩٣ - ١٧٧٦م) في القرن الثامن عشر في الدامر ، وكانت الأسرة قادرية ، ولكننا نقرأ في الطبقات أن حمد أصبح شاذلياً :

حفظ الكتاب على الفقيه حمد ابن الفقيه عبد الماجد وتفقه في خليل والرسالة على الفقيه مدني بن محمد وعلى الفزاري وعلم الكلام على الحاج سعد وحج إلى بيت الله الحرام وسلك الطريق على الشيخ الدراوي تلميذ سيدي أحمد بن ناصر الشاذلي . وانتصب للتدريس في جميع الفنون والفتاوي والأحكام والسلوك في طريق القوم والزهد والذكر وملازمة دلايل الخيرات والقيام بمصالح المسلمين . وأعطاه الله القبول التام مع الخاص والعام . وكان كثير الشفاعة عند الملوك والسلاطين خاصة الجعليين ، لا ترد له شفاعة ومن رده ينكب سريعاً. (١)

وأحرز حمد سمعة كبيرة ، وركز في يديه حكم المنطقة ، وأصبحت الدامر المركز الرئيسي للتعليم للقبائل النهرية ، الجعليين والشايقية والحسانية ... إلخ ، وأصبح شيوخ الدامر - لكونهم مبجلين بشكل واسع - وسطاء مهمين في المنازعات بين القبائل . إن السرد الذي كتبه بوركهارت عن « الدولة السلطوية الصغيرة » لفقرا الدامر يستحق الاقتباس لإظهار شئ ما عن سمعة الدامر فيما يتعلق بالدراسة والاحترام والسلطة التي تمتع بها رجال الدين من هذا الطراز في السودان . ويكتب بوركهارت عن الدامر في عام ١٨١٤م تحت حكم محمد المجذوب الصغير (١٧٩٦- ١٨٣٢م) حفيد حمد قائلا :

يسكنها عرب من قبيلة المجذوب التي ترجع أصولها إلى بلاد العرب . والجزء الأكبر منهم فقرا أو رجال دين وليس لهم شيخ يتزعمهم ولكن فكي يسمونه الكبير وهو الزعيم الفعلي ويفصل في كل المنازعات .إن أسرة المجذوب التي أصبح هذا المنصب وقفاً عليهم من قديم ولها سمعة تقديم السحرة والعرافين ولا شئ يخفى عنهم ، ولا شئ يصمد أمام سحرهم . وتروى قصص لا حصر لها عن قوة سحرهم ، منها أن عبد الله والد الفكي الحالي جعل خروفايثقو في بطن لص كان

---

(١) الطبقات . م٧٠- ٧١ ص٧٣ .

قد سرق الخروف وأكله ، ويحتكم القوم إلى الفكى فى كل الأحوال التى تتعلق بسرقة المال ، ولأن كل شخص يفكر فى الرعب العظيم لطمعه المفترض بكل شئ فقد أصبحت مهمته سهلة بشكل عام لممارسة معجزاته ، وإن لم أكن مخطئا فإن وظيفة الفكى الكبير وراثية ، وبالطبع يجب أن يكون الوريث رجل داهية وأن يكون متفقهاً فى الشريعة الإسلامية لأنها ضرورية لتمكينه من أداء وظيفته ، ومع ذلك فالشيخ الكبير ليس هو الشخص الوحيد الذى يمتلك القوة السحرية ، فهناك العديد من الفقرا الذين يتمتعون بسمعة مشابهة تناسب دائمًا قداستهم وتعاليمهم، وهكذا اكتسبت مدينة الدامر بأسرها سمعة عظيمة . وتوجد هنا مدارس عدة يتم فيها إعداد الشباب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء السودان الأخرى ليدرسوا الفقة دراسة تكفى لتمكينهم من أن يصبحوا من كبار الفقهاء فى بلادهم. (١)

وعبر حكم محمد المجذوب الصغير عن مرحلة جديدة فى تاريخ الطريقة ، فلقد قاوم المجاذيب غزو إسماعيل باشا ولكنهم سحقوا، وكنتيجة لقتل إسماعيل باشا على يد الملك نمر فى شندى تعرض كل الجعليين لانتقام شديد ، ودمرت الدامر وهرب محمد المجذوب إلى سواكن ، ومن هناك إلى مكة حيث سلك الطريقة الشاذلية على يد الشيخ محمد زاهر المدنى ووقع تحت تأثير الإحيائى أحمد بن إدريس ، وعاد إلى سواكن فى عام ١٨٣٠م مع أوراده الخاصة ، وكسب الأتباع فى تلك المنطقة وأصبح على دقنة عم عثمان دقنه – من بين آخرين – من خلفائه ، وفى عام١٨٣٢م عندما حصل كل الجعليين على العفو عاد إلى الدامر ومات فى العام التالى .

إن المجاذيب الذين كانوا يؤمنون بأن المهدى سيأتى من الغرب ساندوا المهدى بحرارة ، وقام الخليفة الأصلى فى سواكن – الشيخ الطاهر المجذوب – بعمل مؤثر للخضوع لعثمان دقنه – أحد أتباعه – عندما وصل الأخير إلى سواكن مندوباً من المهدى مما أدى إلى استمالة كل المجاذيب إلى المهدية ، وبقى مسانداً قوياً ومتعصباً للمهدى ، وقتل العديد من أسرته فى معارك عثمان دقنه (٢) .

والطريقة المجذوبية هى المثال « لطريقة الأسرة »ويلقبون أنفسهم بشكل جماعى «بالمجاذيب» ، أما الأتباع الآخرون الذين سكنوا حول الدامر فغالبًا ماتم امتصاصهم داخل القبيلة ، ويبلغ تعدادهم اليوم حوالى ٤ آلاف ، وكان الفتح المصرى قد شتت العديد منهم ، ولهم اليوم أنصار وسط قبائل البجة على شاطئ البحر الأحمر وفى سواكن حيث لهم مسجد فى كسلا والقضارف ووسط البشاريين عند نهر عطبره ، كما انضم العديد من قبيلة الرشايدة التى جاءت من بلاد العرب عام ١٨٤٦م إلى المجذوبية؛ إذ كانوا شاذلية فى بلاد العرب .

(١) Travels in Nubia, p.266

(٢) H.C.Jackson, Osman Digna, p.27

وكل الأنصار يعتقدون اعتقاداً قوياً في تمركز بركة الأسرة في الدامر حيث دفن كل الأولياء (عدا مدني في كسلا وأحمد في القضارف) ، أما الشيخ الحالي للطريقة فهو الشيخ بشير أحمد جلال الدين .

١- السمانية

السمانية فرع من الخلوتية(١)، وقد أدخلها إلى السودان الجموعي الشيخ أحمد الطيب بن البشير خليفة الخلوة في أم مرحي (٢٥ ميلاً شمال أم درمان) الذي سلك الطريقة، وعين الخليفة عندما كان في المدينة ، وربما الذي سلكه هو السماني أو خليفته،وعاد إلى السودان في حوالي ١٨٠٠م ، وتأثرت طريقته بالحركة الرجعية الجديدة في الإسلام التي انتشرت بنشاط ، وقد غادر موطنه إلى الجزيرة في محاولة لعلاج الوزير المشلول محمد أبو لكيلك ، ولم ينجح ولكنه منح هناك أراضٍ حيث أسس خلوة تسمى أم مرحي سعيد ، وانتشرت طريقته بسرعة وسط الجموعية والكواهلة والحلاوين وحقق نجاحاً عظيماً عندما عين الشيخ التوم من عائلة بان النقا القادرية خليفة له ؛ لذا أصبح كل اليعقوباب سمانية ، وأدى تخطيه أتباع يوسف أبو شره من العركيين أن قام يوسف بزيارته إلى نتيجة مؤداها أن طلب الشيخ الطيب من الملك أن يسمح له بالعودة إلى وطنه في أم مرحي حيث مات في عام ١٨٢٣م. (٢)

وكان للشيخ محمد شريف بن نور الدايم حفيد الشيخ الطيب تلميذ مشهور هو محمد أحمد الدنقلاوي الذي التحق فيما بعد بالشيخ القرشي الزين خليفة نور الدايم في المسلمية ، ولم يعش الشيخ القرشي طويلاً ، وقد نال محمد أحمد خيراً كثيراً ببنائه قبره . وقد وجدت السمانية بقوة على طول ضفتي النيل الأبيض داخل فروع قبائلها العديدة ، والخط الأساسي – أسرة الشيخ الطيب – يمثلهاالآن الشيخ الجيلي عبد المحمود نور الدين ، أما الشيخ القرشي فيمثله الشيخ الطيب في طيبة ، ويعتبر سكان طابت أنفسهم أعلى منزلة من المهديين ، لأن جدهم هو الذي سلك المهدي الطريق – كما

---

(١) كانت الطريقة الأصلية ضعيفة جداً في السودان ، وكانت هناك مجموعة في المولد بأم درمان عام ١٩٣٩م، ويسمى سكان المسيد أنفسهم خلوتية . وهناك مرحلتان رئيسيتان في تطورها ويعتبر عمر الخلوتي (توفي عام ١٣٩٨/٩٧) مؤسسها رغم أنه شيخ معلم من طراز قديم ، وانتشرت الطريقة بسرعة في تركيا والحجاز والهند لبعض الوقت ثم تحللت . أما المرحلة الثانية فهي مرحلة إحيائها وتوسعها في افريقيا ، وبدأ هذا عندما أرسل مصطفى بن كمال الدين البكرى (توفي عام ١١٢١ . ١٧٠٩م) إلي السودان الغربي أربع بعثات لنشر الإسلام وسط الوثنيين ، وقد تنازعت ثلاث من هذه البعثات علي الخلافة بعد وفاة البكرى ، وشكلوا ثلاث مجموعات جديدة . الحفناوية وأسسها محمد بن سليم الحفنيسي ، والشرقاوية وأسسها عبد الله الشرقاوى ، والسمانية وأسسها محمد بن عبد الكريم السماني (١٧١٨ – ١٧٧٥م) . أما الشيخ الحالي للسمانية فهو السيد محمد الحسن السماني الذي يعيش في المدينة ، وقد قام بثلاث زيارات للسودان ، وقام لبعض الوقت بجمع الرسوم المستحقة .

(٢) تم بناء الضريح الحالي عام ١٩٠٦م في هذه القرية التي تسمى الآن الشيخ الطيب .

يؤمن سكان طيبة – بينما يتمسكون بطريقتهم بقداسة محمد أحمد المهدى . والسمانية هى الطريقة الأساسية لقبيلة حمر كردفان والفادنية شرق – القبيلة الفرعية من الجعليين ، ويتبعها بقارة سليم ، رغم أن المهدية أثرت فيهم بشكل قوى ، وكان أحد أعظم الزعماء الدينيين في الوقت الحاضر الشريف يوسف الهندى (توفى عام ١٩٤٣م) زعيماً لفرع بدأ يسمى نفسه الهندية أوالشريفية ، وأتباعه وهم كواهلة بالدرجة الأولى يبجلون خرافات مروية عنه . وهناك أربع مجموعات مثلت السمانية فى المولد بأم درمان ، أهمها القريبية التى انحدرت من زاهد أم درمانى هو قريب الله صالح الذى توفى فى عام ١٩٣٠م ، وهذه المجموعة التى ما تزال تحت التأثير القوى لزعيمها الراحل على خلاف مع معظم الطرق التى تطلب من المريد أداء الصلاة والأوراد مع الشيخ بالإضافة إلى تلقى الدروس . (١)

ويعين شيخ السجادة المساعدين من بين الذين يعيشون بينهم ، وعند الاحتفال بتقليد المنصب يقام الذكر ثم يقوم الشيخ بتنصيب المرشد بالعمة ، ويقرأ شهادة الإجازة ثم يهديه « ركوة » وعصاية وفروة ومصحف ، وهكذا يصبح للشيخ الذى تم تعيينه سلطة قبول المريدين .

١١– الادريسية (الأحمدية)والرشيدية

لعب المؤسس – أحمد ابن ادريس الفاسى – دوراً مهماً فى الحركة الرجعية فى الإسلام فى بداية القرن الثامن عشر ، وقد هدف بصفته مصلحًا بالإضافة لكونه

---

(١) نضيف هنا سلسلة نسب تعطى أسماء ذات مغزى أكبر نسبة ، لأنها لم ترد فى تاريخ ماكمايكل :

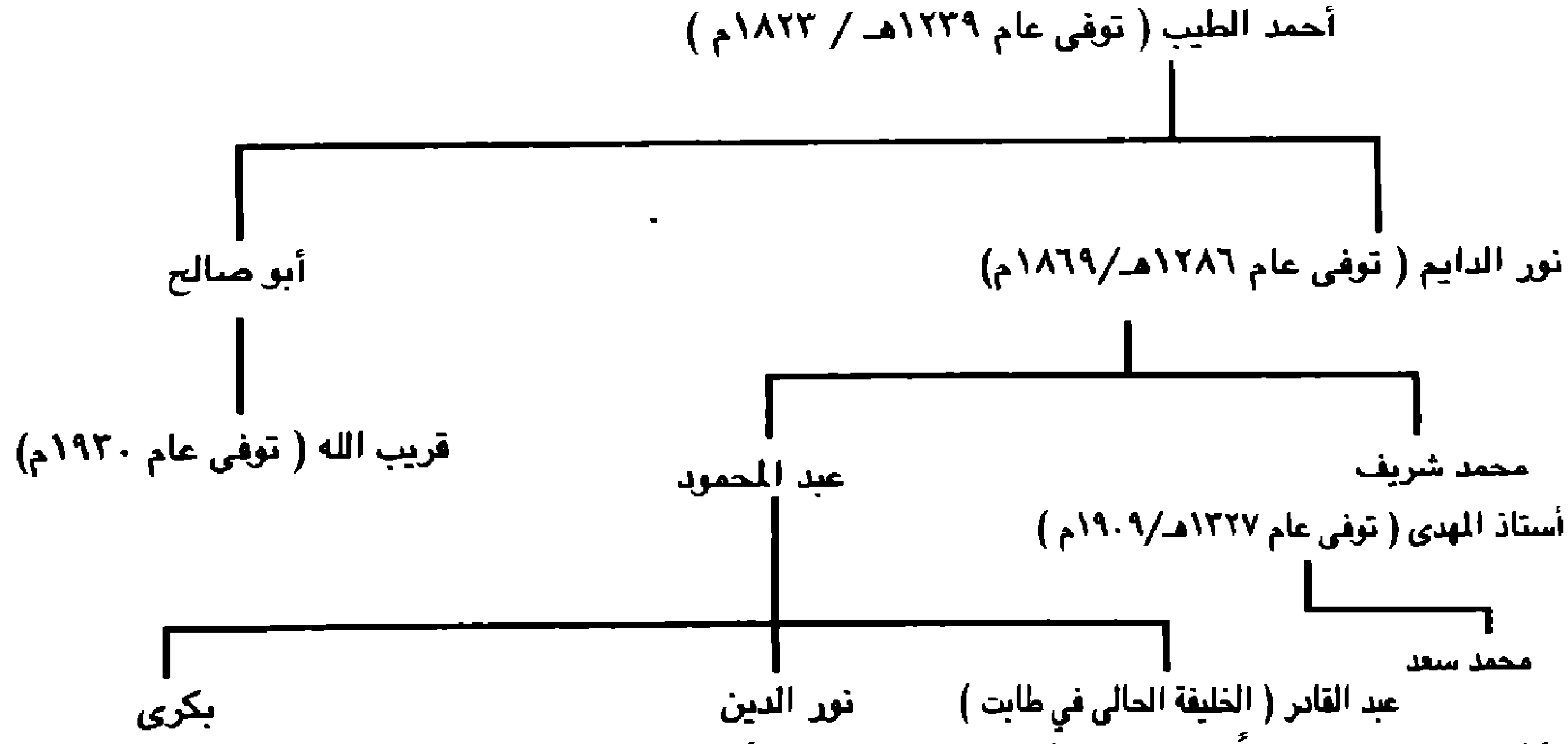

وكان عبد المحمود تابعًا للمهدى ، وكان الخليفة يكرهه ؛لأنه قال عنه إنه لا يعرف حتى كيف يصلى، وسجنه =

صوفيًا توحيد الاسلام ، وكان متعاطفاً مع الوهابية ، وكما أوضحنا فقد استهل طوراً جديداً فى الحياة الدينية لكل السودان الأوسط والشرقى من خلال النشاطات التبشيرية لتلاميذه .

ولد الأدريسى بالمغرب عام ١١٧٣هـ [١] ١٧٦٠م ، وتدرب بفاس حيث ألحقه عبد الوهاب التازى بالطريقة الشاذلية ، وبعد أن أدى فريضة الحج قام بالتدريس فى القاهرة من عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م إلى أن ذهب الى مكة فى عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م ، واستمر فى الحجاز وسعى وراء الشيوخ إلى أن أمر بالانكباب على القرآن على وجه الحصر، ووجد هناك طريقه الخاص وتلقى الإرشاد لنشره ، وقال له النبى « لقد أعطيتك ياأحمد مفاتيح السموات والأرض ، وهذا توسل خاص لصلاة المجد وعمل المغفرة » ، وبعد أن ظهر كشيخ مستقل أصبح شخصية دينية بارزة فى عصره ، وتجمع حوله عدد ضخم من التلاميذ . وقد أثارت شهرته حسد علماء المدينة مما جعلهم يوجهون له تهمة الزندقة ، وأجبر على الفرار طلبًا للسلامة فى عسير عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ، وتركه الوهابيون الذين كانوا آنذاك فى تنافس مع المصريين فى اليمن يعيش فى أمان ؛ لأن الكثير من معتقداته الإصلاحية كانت تتفق مع معتقداتهم، ومات هناك فى عام ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م . [٢] إن التاريخ اللاحق لطريقته كانت تاريخاً من الخلاف والتنافر، فبعد وفاته تنافس على وراثته الروحية اثنان من تلاميذه المشهورين وهما محمد بن على السنوسى ومحمد عثمان الميرغنى ، مما أدى إلى انشقاق فى الطريقة ، وأسس كلاهما زوايا فى مكة ، ونظم البدو أنفسهم تحت قيادة السنوسى أقوى الاثنين شخصية ، بينما ساند العلماء و« الأشراف » محمد عثمان ، وبرغم أن كليهما مختلفان تمام الاختلاف ، فقد اعترف كل منهما فى كتاباته بأنه مدين لأستاذه ، وسافر محمد عثمان بشكل واسع فى السودان نيابة عن أستاذه اسما ، ولكن ارتباط السودانيين كان بالطبع بالشيخ الذى عرفوه ، وبعد وفاة أحمد أرسل محمد عثمان ابنه لتنظيم أتباعه ، واعترف محمد بن أحمد بإبراهيم الرشيد – أحد تلاميذ أحمد– بأنه كخليفة لوالده ،وأخلص له كل الأتبا ع فى عسير والتحق عبد المتعال – ابن آخر لأحمد – فى البداية بالسنوسى ، وأمضى بعض الوقت معه فى الجغبوب ، ثم ذهب إلى دنقلا

=الخليفة وحكم عليه فى أخر الأمر – مع آخرين – بالجلد مائه جلده ، وحفظته معجزة لدرجة حتى أن جلده لم يتمزق بالجلد ، ومازال أتباعه يحتفظون بسرواله الذى لم تمزقه السياط ، وقد كتب ثلاثة كتب أرخ فيها للمهدى والخليفة والتلاميذ المشهورين لأحمد الطيب ، وكلها محفوظة لدى خليفته عبد القادر فى طابت .

(١) يجب ألا تختلط هذه الطريقة مع طريقة أحمد البدوى فى طنطا ، والتي سمي البدوية فى السودان حيث أتباعها مصريين بالدرجة الأولى عدا فى أم درمان حيث جذبت سكان المدن الذين كانوا فى الأصل من الرقيق.

(٢) هناك سرد موجز لحياته وتعاليمه ذكرها الرئيس الحالي شمس الدين بن محمد عبد المتعال في نسخة احمد بن إدريس « ورد العزم » اسمه «كنز السعادة والرشاد» (الخرطوم ١٩٣٩م) وكذلك فى مجموعته أحزاب وأوراد ورسائل (القاهرة ١٩٤٠م).

فى محاولة لإعادة بناء طريقة أبيه هناك ، ولاقى نجاحاً لا بأس به، وحصل على العديد من أتباع ابن السيد احمد الحسن الميرغنى ، وقبره فى دنقلا العرضى مزار مشهور ويتم الاحتفال بحوليته (٢١ رجب) هناك ، وفي أم درمان حيث يوجد أفراد من الأسرة عادة ، وهذه الحولية من الأحداث الكبيرة التى يحضرها رؤساء الميرغنية والرشيدية ، والزعيم الحالى هو حفيده شمس الدين بن محمد عبد المتعال .

كما أن رئيس فرع الجزيرة العربية - محمد بن على بن محمد بن أحمد إدريس (١٨٧٦ - ١٩٢٣م)- مؤسس الأسرة الإدريسية فى عسير ، كما كان له نفوذ كبير فى دنقلا حيث تزوج وكون نفسه حتى ذهابه إلى عسير فى عام ١٩٠٥م حيث استقرت أسرته لزمن طويل [١] ،لترث الإمامة وتناضل لفترة طويلة بلا جدوى ضد الأتراك من أجل استقلال عسير ، وكان هو أول حاكم عربى ينضم إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م ، وتوفى عام ١٩٢٣م وأدت الخلافات بين أعضاء أسرته الى نشوب حرب أهلية فى النهاية ، وقام ابن سعود فى عام ١٩٣٠م بضمها بمعاهدة تعطيها صفة استقلالية ، أما فى دنقلا - حيث يحترمونه ويبجلونه بشكل قوى - فإن محمد ابن على يعرف بمحمد الميرغنى .

وتدعى دائما أسرة أحمد بن إدريس زعامة أتباع الميرغنية والسنوسية على أساس أن المؤسسين كانوا تلاميذاً لجدهم الأعلى ، ويؤكدون على تعاليم أحمد كمصلح موحد للمسلمين ، ولكن هذه الادعاءات لم تؤخذ بجدية ، ويقال إن الميرغنية اليوم توسع من نفوذها فى دنقلا على حساب الأحمدية .

إن الاحمدية طريقة تطهيرية إلى حد ما مثل الوهابية ، وتعارض عبادة الأضرحة ، وقد بدأت تظهر الآن على الطريقة العديد من علامات التدهور ، ومع ذلك بقيت أذكارهم وقوراً وجادة ، وهم يستخدمون ورد العزم لأحمد بن إدريس .

وتتضمن التعاليم الخاصة بوضع التلاوة أنه يجب أن تكون للذاكرين الجالسين فى الحلقة نية التقرب إلى الله ، وأن يستدعوا فى أذهانهم حضور النبى فى شكل شمائل نبوية ، وأن يتصرفوا بوقار بسبب ذاك الحضور ، مع يقظة القلب والإحساس، وأن يلفظوا بوضوح ، ويعطوا كل تعبير نطقه الكامل الصحيح .

الرشيدية

لا تدعى هذه الطريقة أنها طريقة جديدة ، ولكنها الإدريسية الصحيحة المتوارثة بحق وصدق من أحمد بن إدريس ، ويعتبرها الآخرون فرعاً من الإدريسية وهى

---

(١) إن سكان عسير والقرى المحيطة هم من ذوى الدماء السودانية بشكل كبير ، وهم من الأرقاء الذين حُرِروا وأُعتِقوا ومن المولدين .

بالتأكيد طريقة منفصلة ؛ لأن إبراهيم الرشيد لم يتلق الوحى المعتاد والإذن برؤية نبوية ليبدأ طريقة ، ولكنه واصل طريق أستاذه باستخدام أوراده وإعطاء الطريقة اسمه .

وادعى إبراهيم الرشيد الدويحى [(١)] انتماءه لأسرة سيدى أحمد الرشيد (توفى عام ١٥٢٤م) مؤسس الرشيدية فى الجزائر ، وقد انضم إلى أحمد بن إدريس ، ورفض محمد بن أحمد خلافته بنفسه وأعلن أن والده قد عين إبراهيم خليفه له ، لذا فقد انضم لإبراهيم كل الأتباع ، وأعلن أعداء إبراهيم أنه يرجع إلى الشاذلية ، وذهب إلى مصر ليتجنب اشتراكه فى التنافس السنوسى – الميرغنى ، ولمحاولة توسيع نفوذه الخاص، ونجح فى تأسيس زوايا فى الأقصر ووسط الشايقية فى دنقلا (مروى) حيث مكث لبعض الوقت ، ثم عاد إلى مكة حزيناً لما أصابه من خيبة أمل ، وهناك إستأنف الادعاء بأنه الرئيس الشرعى للأحمدية ، وحصل بسرعة على الشهرة بسبب الهجوم عليه من كل الميرغنية وشيوخ مكة المرتبطين بأحمد ابن إدريس ، وكان عليه مواجهة تهمتى زندقة (حوالى عام ١٢٧٣هـ) أمام محكمة العلماء ، ولكنه خرج من المحاكمات منتصراً وبسمعة معززة ، وتقاطر الحجاج الهنود بصفة خاصة إلى زاويته وأرسل له الحجاج الهنود هدية مكونه من ألف روبية ذهبًا لتمكينه من بناء زاوية عظيمة ، ومات فى مكة فى عام ١٨٧٤م وخلفه ابن أخيه محمد صالح الذى توفى فى مكة فى عام ١٩١٩م، أما الخليفة الحالى فهو ابنه الرشيد ، ويسمى الزعماء المساعدون بالخلفاء أيضًا . إن أهمية استخدام مكة مركزاً للنفوذ يبرره حقيقة أن الطريقة انتشرت فى الهند وإريتريا وأرض الصومال وسوريا والحجاز والسودان .

والرشيدية فى السودان حيث يسمى أتباعها غالبًا بالرشايدة [(٢)] نشطة بين الشايقية فى مروى وسلامة (شندى حيث الخليفة هو سعيد بن الأمين) ، وعلى النيل الأبيض حول الكوة حيث هناك زاوية (سيد احمد بن عبد الله الدفارى) وأم درمان حيث مسجد وزاوية (شريف محمد التقلاوى).

١٢- الميرغنية أو الختمية

كان محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ – ١٨٥٣م) واحداً من أشهر تلاميذ السيد أحمد بن إدريس فى الحجاز ، وكانت أسرته – الشريفية الأصل – قد استقرت فى تركستان ثم فى الهند فيما بعد ، ولكنها عادت إلى مكة . وكان جده عبدالله الميرغنى المجذوب (توفى عام ١٧٩٢/٢م) صوفيًا مشهوراً ذكر كراماته الجبرتى (توفى عام (١٨٢١م) فى كتابه عجائب الآثار .

ويقال إن محمد عثمان كان ناضجًا عقليًا فى شبابه ، وملك بسرعة ناصية العلوم الدينية[(٢)] ، ولكن الصوفية كانت مجاله الحقيقى ، وسلك طريقة وراء أخرى إلى أن سلك

(١)الدويح قسم من شايقية دنقلا .

(٢) يجب ألايختلط الاسم مع القبيلة العربية التى بنفس الاسم .

طريقه الخاص ، وقد سلك فى البداية النقشبندية على يد الشيخ أحمد محمد بنا ، ثم القادرية على يد سيد القدومي – المقدم في مكة – ، ثم النقشبندية الهندية على يد سيد عبدالرحمن مفتى زبيد، ثم الطريقة الجنيدية – ميرغنية جده ، والشاذلية بأحمد بن إدريس. وكان أحمد بن ادريس هو شيخه المبجل الذى أرسله إلى شرق السودان وكيلاً للدعاية ، وأبحر محمد عثمان أولاً الى سواكن ، ولكنه وجد الطريق البرى خطراً بسبب الاضطرابات الداخلية ، لذا سلك طريق البحر الأحمر إلى القصير ثم صعد بالنيل حتى أسوان ، ولم تلاق بعثته فى مصر أى نجاح ، أما طريقه وسط النوبيين من أسوان حتى دنقلا فقد كان سيراً مؤزراً، إذ تقاطر النوبيون متأثرين بروعة حاشيته – لتقديم الولاء – وعبر من دنقلا الصحراء إلى كردفان حيث أقام لبعض الوقت محاولاً دون نجاح إدخال النوبا الوثنيين فى الإسلام ، ثم تقدم إلى سنار . وتسجل مدونة تاريخ الفونج :

> **زار فى عام ١٢٣٢هـ (١٨١٧م) العالم المشهور والشريف التقى النبيل السيد محمد عثمان الميرغنى المكي – سنار وقابل حكامها وناشد كل الرجال لاتباع طريقته ، ولكن عددا قليلاً من الناس فعلوا ذلك . ولم يبال به الحكام ولكنهم رغبوا فى اختباره بامتحان ، لذا أحضروا الفكى إبراهيم ود بقادى – أحد أذكى العلماء لامتحانه . وقدم الفكى إبراهيم إلى سنار بصداع مبرح وتزايد الألم حتى مات ، هذا قبل أن يقابل الشريف . لذا فقد ترك الشريف سنار وكان عمره آنذاك خمسة وعشرون عاما.** (٢)

وعلى الرغم من كرامته الخاصة هذه والروايات المبالغ فيها عن نجاحه ، يجب أن نستنتج أنه لم يحقق نجاحا بشكل بارز فى السودان ، ومع ذلك فقد وضع الأسس للمستقبل ، وككل المبشرين الإسلاميين خلق رباطا دائما مع السودان بالزواج من دنقلاوية بينما كان فى كردفان وكان ابنها الحسن هو « الضمان » الذى به قيد هؤلاء الموالين والأفارقة إليه عندما نصب نفسه فيما بعد أستاذاً مستقلاً « لطريق » ، وعندما عاد إلى الحجاز استمر فى خدمة أحمد بن إدريس وتبعه فى المنفى ، حتى وفاة أحمد عام ١٨٣٧ م .

وواصل محمد عثمان ومحمد بن على السنوسى معًا قيادة الطريقة ، وكانت النتيجة الانشقاق ، إذ إن كلاً منهما نصب نفسه شيخًا مستقلاً ، ولأنه من الأشراف فقد استطاع محمد عثمان كسب مساندة أشراف مكة ضد السنوسى ، وأسس زاوية مركزية فى دار الخيرزان وفروعاً فى المدينة وجدة والطائف ، وعدل تماماً قاعدة أحمد بن إدريس ، وطور نظريته الخاصة بقدسية الوراثة المتميزة لأسرته ، وأرسل أولاده لنشر الدعوة فى اقاليم أخرى ، وذهب ابنه الاكبر محمد سر الختم إلى اليمن وحضرموت وذهب الحسن الذى درس فى مكة إلى سواكن حيث استمال قبائل البجة – البنى عامر والحلنقه والهباب التى كانت فى السابق قد تأثرت بوالده ، ثم سافر الى سنار وكردفان وشمالاً إلى دنقلا محاولاً تأسيس زواياه ، ولم يحقق سوى نجاح ضئيل فى المناطق الوسطى ، ولكنه حقق نجاحاً عظيماً فى شمالى كردفان ودنقلا خاصة وسط الدناقلة والشايقية .

---

(١) MacMichael, Hist. ii-383-4

وجر عليه نجاحه عداوة علماء مكة مما جعله يتقاعد فى الطائف حيث مات فى عام ١٨٥٣م تاركاً طريقته ، وقد تأسست بقوة فى غربى وجنوبى عطبره وشمالى السودان . وبعد وفاته تم الاعتراف بابنه الأكبر محمد سر الختم شيخاً للطريقة ، وأدت وفاته بعد فترة وجيزة إلى بدء عصر من التنافس الذى كان السمة الغالبة لتاريخ الطريقة ، وتحطمت وحدة الطريقة ، وأصبحت سلالة محمد عثمان رؤساء العشائر الاصلية . لقد اهتممنا فقط بالطريقة فى السودان حيث بقى الحسن زعيمًا إقليميًا عظيمًا ، وقد استقر فى كسلا حيث أسس حى الختمية الذى استمر مركزًا للطريقة ، وتوفى هناك عام ١٨٦٩م . أتباع الميرغنية فى السودان يبجلونه اليوم أكثر من مؤسس الطريقة نفسه ، وأصبحت له بيانات عديدة فى كل أنحاء البلاد ، وأعظم قسم هو الذى يؤدى على قبره ، وقد خلفه ابنه محمد عثمان تاج السر ، وعند اندلاع ثورة المهدى ساندت الأسرة الحكومة المصرية وقادت البنى عامر والشكرية ضد الدراويش ، واضطر محمد عثمان فى آخر الأمر إلى الهرب إلى القاهرة حيث مات فى عام ١٨٨٦م ، وبعد إعادة فتح السودان عاد أبناؤه أحمد وعلى إلى كسلا وخلفاه فى إعادة تأسيس الطريقة بشكل كامل ، وقامت الحكومة بإعادة بناء مسجدهم فى كسلا الذى كان الدراويش قد دمروه ، وقامت الحكومة بتقليد على K.C.M.C,K.G.V.O وأحمد (توفى عام ١٩٢٨م) C.B.E. اعترافًا بمساندتهم وولائهم للحكومة .

ولم يتم الاعتراف بأى من الميرغنية رئيسًا دائمًا، وتم تنظيم الطريقة على أساس مجالات النفوذ الإقليمية ، فمناطق كسلا والقضارف والقلابات والشكرية والهدندوة تحت رئاسة محمد ابن أحمد المذكور عاليه ، وكردفان والخرطوم وبربر ودنقلا وحلفا تحت رئاسة على ، وجبال البحر الأحمر تحت رئاسة الشريفة مريم الميرغنية ، واريتريا تحت رئاسة الشريفة علوية [١] وجعفر بن البكرى ، وكلهم - مع ملاحظة أن المجموعة تضم امرأتين - متساوون فى المرتبة نظريًا نسبة لأن كلهم يملكون بركة الأسرة ، أما سياسيًا فإن السيد السير على الميرغنى هو الأكبر أهمية .

والطريقة صارمة جداً فى الإصرار على القداسة البالغة للأسرة ؛ لذا ترفض السماح لأتباعها بالانضمام لأى طريقة أخرى أو حتى الاشتراك فى شعائرها [٢] ، كما تعارض بشكل أكبر خاصة الإدريسية والمجذوبية ، وفى أفضل الأحوال فى منافسة سياسية مع المهدية .

---

(١) توفيت علوية الميرغنى فى اكتوبر ١٩٤٠م.

(٢) يجب تصحيح الرواية التالية التى كتبها د - ب ماكدونالد Aspects of Islam P.iss إذ كتب «أخبرنى رجل سورى مسيحى ورئيس تحرير أهم صحف القاهرة أن هناك جمعية الميرغنية المشهورة جدا فى السودان على استعداد تام بقبول المسيحيين ، وهم لايضعون حاجزًا أمام طريقهم وأنه لا يوجد فى شعائرهم ما يمنع المسيحى من استخدامها » . إن الميرغنية لاتقبل أبدًا مسيحيًا ، ولايمكن لمسيحى أن يستخدم شعائرهم دون أن ينكر دينه .

وقد تمت معالجة بعض الممارسات والعقائد فيما سبق [1] ، ويقال إن محمد عثمان قد سلك عدة طرق ، وتظهر كتاباته العديدة تأثير الصوفية الشرقية ، وهو ينتمى إلى طبقة الزهاد المتصوفة ، ولم يتأثر سوى قليل بأحمد بن إدريس المذهبى الإصلاحى .

وعندما أصبح شيخًا للطريقة قام بصياغة منهاجه الخاص ، وتبنى صيغة نقشجم[2] كرمز «للسلاسل» الروحية التى تركزت فى شخصه ، واسمها الشعبى هو الختمية ، والسلالة المباشرة لمؤسس الطريقة تحمل لقب «سر الختم» ، أى أنهم بصفتهم المطلقة الأمناء على القوة الغامضة التى أودعت فى الأسرة ؛ لذا فأتباعهم يعتبرونهم أنصاف ألهة ويضعون – أى الأتباع – أنفسهم وكل ما يملكون تحت تصرفهم .

١٣ – الإسماعيلية

مؤسس الطريقة هو إسماعيل الولى (٧٩٣ – ١٨٦٣م) بن عبد الله الكردفانى ، وكانت أسرته قد سكنت فى الأصل دنقلا (٣)، وكان والده قد ذهب إلى كردفان فى تجارة وولد إسماعيل هناك ، وحفظ القرآن فى صغرة وبدأ فى التدريس فى الخلوة ، وعندما قدم محمد عثمان الميرغنى إلى كردفان ، وأصبح واحداً من أتباعه وسمح له شيخه بعد عودته من الحج (١٨٤٢م) بتشكيل فرعه الخاص الذى أصبح يعرف بالإسماعلية وأصبح مشهورا جداً لإحسانه ومعرفته وتأليفه لحوالى ٤٥ كتابًا [4] ، وخلف إسماعيل الولى ابنه الاكبر محمد المكى (توفى عام ١٩٠٦م) ، والذى كان واحداً من أوائل الموالين للمهدى فى كردفان كما وثق فيه الخليفة ، ومن جهة أخرى فابن اسماعيل الثانى – أحمد الأزهرى شيخ الإسلام فى غرب السودان الذى درس فى الأزهر لمدة ١٢ عامًا – اشتهر بمعارضته المهدى ، وكتب رسالة يفند فيها مزاعمه [5]، وعندما عاد إلى القاهرة فى عام ١٨٨١م طلب منه رؤوف باشا الحاكم العام أن يصحب الحملة ضد المهدى سفيراً للتوفيق بين المهدى رؤوف باشا ، ولكن الحملة أبيدت وقتل الأزهرى .

---

(١) ينظر ما سبق الفصول ٥ .٦ – وينظر ايضًا «الرسالة الميرغنية ـ١٩٣٩م»، وهى مجموعة بحوث على العقيدة والممارسة كتبها مؤسس الطريقة وآخرون .

(٢) الحروف الأولى للطرق التى سلكها أى النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية والميرغنية . ينظر «منحة الأصحاب» ٨٧– ٧٨ .

(٣) ادعى أنه ينتمى إلى الدهمشية أحد اقسام البديرية ومن ثم الجعليين ، ولكنه جزئيًا من أصل تكرورى MacMichael,Tribes,p.70

(٤)طبع منها على الأقل سبعة كتب وهى : (١) ديوان الشطرات (٢) البراق (٣) الخيرة (٤) الموالد (٥) مشارق الأنوارالذى يعالج السموات السبع والأراضى السبع (٦) العهود وهو يقدم الأحكام وأسلوب الطريقة (٧)الأوراد

(٥) ذكرها شقير . مصدر سابق جـ ٢ ص ٢٨٣–٢٩١.

وبعد وفاة محمد المكى في عام ١٩٠٦م شب نزاع بين حفيده محمد ميرغنى إسماعيل المكى الذى كان زعيماً للأسرة بالنسب وعم محمد ميرغنى بخصوص منصب الرئاسة ، وكانت هناك مشاجرات من حين لآخر بين الموالين لمختلف الأطراف، أما اليوم فإن تأثير محمد ميرغنى لا يذكر، وقد استقر بأم درمان ويزور الأبيض مرتين فى السنة تقريباً .

وبالرغم من أنها ناشئة من الميرغنية فإنها طريقة واضحة المعالم ، وذلك بسبب نفوذ إسماعيل الولى وترتيب الأحكام والأوراد وقد اقتصر نفوذها أساساً على كردفان ويتكون أتباعها من ناظر كل قبيلة البديرية تقريباً ومواطنى الأبيض من الرقيق السابقين ، كما أن منصب الخليفة بقى فى هذه القبلية .

ولايقرأ «المولد» الذى كتبه المؤسس قبل الذكر إلا مرة كل أسبوع بعد صلاة الجمعة ، ويتم فى الحضرة التى تعقد مرتين أسبوعياً قراءة راتب [1] المؤسس أولاً ، وتنشد القصائد ويذكرون لحوالى ساعتين ، وتتم قراءة القصائد والمدائح بصفة مستمرة أثناء الفواصل ، وعلى خلاف الميرغنية تستخدم النوبة فى الذكر .

١٤ – التيجانية

تعد التيجانية واحدة من أكثر الطرق الإفريقية نشاطًا ، وكانت واحدة من أهم عوامل انتشار الإسلام فى غرب إفريقيا ، وسافر كثيراً مؤسسها أحمد بن المختار التيجانى [2] (ولد عام ١٧٣٧م فى عين مادى) ، وانضم إلى العديد من الطرق ، ولكن حتى عام ١٧٨١م لم يكن :

> **... الرسول قد سمح له بإدخال آخرين فى الطريقة فى الفترة التى تجنب فيها لقاء الناس وذلك مرجعه اهتمامه فقط بصلاحه الروحى ، ولم يكن يجرؤ بتسمية نفسه شيخاً حتى أذن له فى حال اليقظة وليس الحلم بتدريب الناس عامة وكلية وأبان له الورد وبدأ فى التدريس عام ١١٩٦هـ (١٧٨١م) ... وعندما سمح له بتأسيس الطريقة وتلقى الإلهام الإلهى عن طريق وساطة النبى ...قال له أنت لا تدين «بمنة» لأى شيخ طريقة لأننى وسيطك ومعينك بكل صدق ، اترك كل ما أخذته فيما يتعلق بالطريق . [3]**

لذا فقد طور التيجانى منهاجه الخاص على خطوط صارمة ، وتبنى سلسلة الخلوتية لوراثته الصوفية رغم أن تعاليمه وفلسفته تبدو أنها تدين أكثر إلى الشاذلية ، وكانت الالتزامات الضرورية فى الطرق التبشيرية بسيطة جداً ، ولا توجد كفارات مطولة ، كما

---

(١) ويوجد الراتب في كتاب الأحكام المسمي العهود الوفية ص١٣

(٢) هناك سرد لحياته فى «جوهر المعاني وبلوغ الأمانى فى فيض الشيخ التيجانى» والمعروف، «بالكناسة» صنفه على حرازم بتوجيه من أحمد. يوجد على الهامش كتاب «الرماح» بقلم سعيد الفوتى . ويعد هذا الكتاب - القوام الأساسى لمذهب التيجانى .

(٣) جوهر المعانى (طبعة ١٩٢٩م) ص ٤٣

أن الشعائر الخاصة بالخلوة بسيطة ، وهو يشدد قبل كل شئ على الحاجة إلى الشفيع بين الله والإنسان، وأنه و خلفاءه هم الشفعاء ، وأتباعه ممنوعون تماماً من التوسل إلى أى ولى سوى أولئك الذين من طريقته .

وتجول التيجانى فى الغرب وأسس الزوايا ، وعين «المقدمين» ، وانتشرت الطريقة بسرعة فائقة ، واستقر فى فاس وتوفى هناك فى عام ١٨١٥م ، وعين فى وصيته «مقدم» الزاوية فى تماسم الحاج على بن عيسى (توفى عام ١٨٤٤م)، ليكون خليفته، وأمر بأن تكون الخلافة متعاقبة فى أسرته وأسرة الحاج على .

ولم يحدث أى انقسام كبير حتى عام ١٨٧٥م عندما انفصلت مجموعات فى عين مادى وتماسم بسبب النزاع حول الخلافة ، وليس لهذين المكانين الآن سوى سلطة محلية ، واستقلت المجموعات بنفسها فى كل أنحاء أفريقيا حيث هى الآن أوسع الطرق انتشاراً . وفى الوقت الحاضر ، فإن السيد محمد الحافظ الذى يعيش فى مصر ، وهو الشيخ الإقليمى لمصر والسودان الإنجليزى المصرى والشرق الأدنى .

وأدخل الطريقة إلى السودان الإنجليزى - المصرى سيدى محمد بن المختار بن عبد الرحمن الشنقيطى المعروف بود العلية [(١)]، وقد ولد فى تاشت بالجزائر ودرس على يد العديد من الزعماء رغم أنه نسب نفسه إلى محمد السقاف تلميذ المؤسس فى مصر، وأخذ إجازة المقدم من صالح ابن احمد بلقاسم فى المدينة عام ١٨٤٧م ، وسافر كثيراً متاجراً فى السودان ومصر ، وعمل سفيراً بين سلطان دار فور والباب العالى ، ويقال إنه أعطى الطريقة لسعيد باشا خديوى مصر .

ورغم أنه كان تاجراً موسراً يروى أنه كان يهرب فى بعض الأحيان من الترف والتنعم، ويرتدى جبة مرقعة ويعمل سقا و«اجتاز مرة فى دارفور بعض القبور ورأى حالة سكانها، ورأى بالجوار مجموعة تعزف على الألات الموسيقية وترقص ، وقهره الحال العويص فهمه فقام بتوزيع كل ثروته وحرر كل عبيده ومعظم نسائه وخر على الأرض ساجداً لمدة سبعين يوماً. [(٢)] وعاش لبعض الوقت فى سواكن ، ثم ذهب إلى بربر مع زين العابدين الميرغنى ، وبعد وفاة الأخير - وبسبب بعض النزاع فى أسرته - ذهب للاستقرار وسط الجعليين فى جزيرة بالقرب من القوز حيث توفى عام ١٨٨٢م ، وكان قد تزوج بأكثر من ثلاثمائة زوجة ، ويقال إن سراريه بلا عدد،وأنه دفن أكثر من ستين ولداً .

---

(١) كان شريفاً من الجهينين ، ويقال إن أمه كانت امرأة متعلمة ، وهناك سرد لحياته وقائمة طويلة بتلاميذه في السودان في « الرسالة السادسة» التى أصدرتها جماعة الوحدة الإسلامية التيجانية . القاهرة ١٣٥٥ (١٩٣٩م) ص ١٧-٢٣.

(٢) الرسالة السادسة ص ١٨.

ودخل العديد من الأتباع فى الطريقة فى كل أنحاء السودان بما فيهم حسين سلطان دارفور والشيخ محمد البدوى الذى أصبح شيخ الاسلام فى الأيام الأولى للحكومة الحالية ، وقبره فى أم درمان مشهور ، وتوفى فى عام ١٨٨٢م بعد أن جهز قبره وكفنه . وكان سبب الوفاة «شدة المحبة» ، وترك ديواناً بالعربية (نشر) وآخر بالعامية السودانية «مولد الإنسان الكامل» (نشر) ، وكتاب «الوريدات» . وهناك دليل على أن التيجانية اضطهدت تحت الاحتلال المصرى منذ حياة المصرى عبد المنعم بن أحمد بن سلامة الذى قضى حياته فى السودان ، وعاش فى أم سعدون بالقرب من بارا فى عام ١٩٣٥م فى سن متقدمة جداً ، ونقرأ عن قدومه إلى الخرطوم «ألغى فى البداية طريقته وتظاهر بخدمة أولئك المهتمين بنشر الطرق الأخرى ، واضطهد بعض التيجانية وقتلوا ، ولكن إرادة الله حفظته [1] .

كما تأثر السودان الإنجليزى – المصرى بالتيجانية من غرب السودان أيضًا ، وكان القوام الرئيسى لأتباعها من غرب افريقيا ، ومنهم عمر جانبومن الهوسا تلميذ محمد الصغير بن علي التماسينى ، وقد عاش لفترة فى الفاشر تحت حكم على دينار الذى كان تيجانياً اسماً وقد اتهم عمر جانبو باستخدام السحر لجلب المرض للسكان مما جعله يفر ، وعاش فيما بعد فى الأبيض وأم درمان وتوفى فى مكة فى عام ١٩١٨م ، كما أن خليفة النوبا الذائع الصيت الشيخ الدرديرى محمد خليفة جبل حرازة كان قد أدخله فى الطريقة فكيًا غرباويًا .

كما استقر فى عام ١٩٠٦م سلطان ماى يرنو ابن السلطان السابق لسكوتو فى الشيخ طلحه بالقرب من خزان سنار ، وتعترف به الآن مستوطنة الفلاتة – حوالى ١٠آلاف – خليفة ووليًا ، كما زار السودان ألفا هاشم مقدم الفلاته التيجانية [2] فى عام ١٩٢٥م ، ومنح الطريقة لعدد ضخم من سكان غرب إفريقيا ، وقبل حوالى ١٥ عاما قدم عالم مغربى يسمى الشيخ الدرديرى (توفى عام ١٣٥٥ هـ) إلى السودان ومنح الطريقة لأناس شتى بينهم الشيخ مرزوق الذى بنى بالطوب الأحمر مكانًا للصلاة فى ودونوباوى شمال أم درمان .

ويسمح لمعظم المقدمين بإدخال الآخرين فى الطريقة ، وعندما يطلب مريد الدخول فى الطريقة يتم إفهامه بأن المطلوب منه معرفة مبادئ وأحكام الطريقة وأداء أوراد معينة ليسمح له بعدها بسلك الطريقة ، وعندما يوافق المريد يقوم المقدم بسرد سلسلة سلطتة، ويسلكه الطريقة بالمصافحة ، ويسلمه كتاب الأحكام (الفتح الربانى) ، ويأمره بأن يتلو بانتظام أوراداً معينة ، ثم يتم إعطاؤه أوراداً إضافية .

---

(١)المصدر السابق ص ٣٤

(٢) فر ألفا (أى حافظ) هاشم كلاجئ سياسى من نيجريا إلى المدينة فى عام ١٩٠٣م ، وتوفى عام ١٩٣٤م ويخلفه الآن ابنه ابراهيم .

ويقام الذكر بشكل جماعى مرة واحدة يوم الجمعة من كل أسبوع بعد صلاة المغرب، ويجلس فى الذكر المتعبدون فى دائرة ويتلون التعويذة لتطهير الجو من الجن والشياطين ، ويبدأون الذكر بلا إله إلا الله بعدد معين ، ويتم ذلك بصوت منخفض وملفوظ بوضوح، ولايوجد إنشاد للمديح .

والتيجانية شعبية وسط المتعلمين فى أم درمان ، وقد يكون مرجع ذلك صوفيتها الفلسفية ولبراليتها ، ويتبناها بعض مدرسى المدارس الثانوية .

١٥ - طرق ثانوية

ا - السنوسية : قام محمد بن على السنوسى (١٧٩١ - ١٨٥٩م) بعد تركه مكة بتركيز طريقته فى سرنايكا (برقة) ، ولم يزر أبداً شرقى السودان ، كما لم يبعث بأى رسل إلى هناك ، كما لم يهتم خلفاؤه بنشر أية دعاية سوى فى دار فور ، وكانت روابطهم دائما مع وسط السودان ، ويذكر أن محمد المهدى (١٨٤٤ - ١٩٠٢م) ابن وخليفة مؤسس الطريقة هو الذى كان المهدى قد دعاه ليصبح خليفته الثالث . تلك الدعوة التى احتقرها ؛ لأنه كان يعتبر نفسه المهدى .

وقد كتب محمد المهدى أو خليفته ثلاث مرات إلى السلطان على دينار طالبين تأسيس زاوية سودانية فى دار فور ، ولكن على دينار احتال للأمر حتى يكون بعيداً لبعض الوقت وحدث فى عام ١٩١١م تدفق اللاجئين الطوارق الهاربين من الفرنسيين إلى دار فور ، وكانوا سنوسية ، ولم يتم استقبالهم بشكل طيب ، ومازالوا مقيمين فى جنوب الفاشر مع الخليفة أبى بكر القدامسى . وفى بداية حرب ١٩١٤ - ١٩١٨م أصبح على دينار على اتصال مع السنوسية ، وعندما قرر التمرد سمح بمؤسسته للسنوسية فى شمال جبل ميدوب . واليوم فإن مختلف مجموعات المهاجرين من الغرب مع عدد قليل من مجموعات التبوالزنجية (قرعان وبديات) الموجودة الآن فى السودان هم السنوسية الوحيدون ، كما أن تأثير الطريقة ضئيل جداً .

ب - العزمية : أسس هذه الطريقة فى السودان شيخ مصرى هو محمد أبو العزايم (١٨٧٠ - ١٩٣٦م)الذى كان مدرساً فى كلية غردون من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩١٥م عندما رُحِّل إلى مصر بسبب مبادئه السياسية المنحازة ، وأسس مقره فى المطرية بمحافظة المنيا ، وقد خلفه ابنه أحمد، وكان محمد أبو العزايم شاذلياً فى الأصل وتأثر بشدة بالمبادئ الوهابية الإصلاحية ، وكان هدفه تحطيم النفوذ الموروث لشيوخ الدين . ودفع بقوة أن القداسة لاعلاقة لها بالوراثة ، وشجب تبجيل الشيوخ والتعبد فى

الأضرحة والحداد فى المآتم ، وبلغت الدعوة ذورتها فى السودان حيث كان أتباعها يسمون «العوازمة» فى عشرينيات هذا القرن ، لكنها تدهورت الآن نسبة ، لأن عبادة الولى هى جوهر الحياة الدينية السودانية ، ومع ذلك فقد حاول أن يكون إصلاحيًا، ولكنه لم ينجح فى الحقيقة فى تكوين طريقة أخرى . وفى عام ١٩١٥م وجه خلفاء الطرق الأخرى تهمة الزندقة إلى ممثله فى سواكن ، وقد كتب كتابين هما «المبادئ الأولى لاتباع النبى» و «الطريقة العزمية والإلهام السماوى» .

وتتكون السلطة من (١) الشيخ (٢)وكلائه الإقليميين ، واحدهم فى السودان ويعيش فى عطبره و (٣)الخلفاء ولهم الحق فى إدخال الأعضاء الجدد، ويسمى الأعضاء العاديون بالفقرا ، وهناك درجتان علييان «النجيب» و« النقيب» ، ولهما مهام خاصة فى الذكر.

ويبدأ الذكر – مع جلوس الذاكرين فى دائرة – بالتعويذ (أعوذ بالله من الشيطان) ، ثم تتلى الأوراد مثل الله أكبر بلفظ واضح ، ثم يتلوه المديح ، ويتم تكرار السطر الأول بترديد جماعى بين كل بيت وآخر من أبيات القصيدة ، وينتهى الذكر بالصلاة على النبى صلوات فردية وأخيراً فاتحة الكتاب.

جـ– جماعة أبو جريد [1]: أدخل عبد الله بن دفع الله العركى – الذى حج ٤٤ مرة – العديد من الأشراف من الحجاز إلى السودان ، وكان أحد هؤلاء شاذليًا يدعى محمود الغائب الذى تزوج امرأة من الجزيرة ، وأنجب ولداً أسماه أبا كر. وأبو كر هذا هو مؤسس الطائفة (أوائل القرن السابع عشر) التى عدت طائفة هرطقية وعرفت بالزبالعة [2] (الغشاشين) والملة الخامسة [3] ، وقد انضم أبو كر مع اثنين آخرين – أبو جريد وكرن الذى كان طبقًا لإحدى التقاليد أخاه – وأصبحت الطائفة متحدة مع اسم أبى جريد نسبة لأنه الزعيم المبشر.

ولايعرف كيف تم اعتبارهم زنادقة ، ومن ثم فصلوا بشكل مميز عن الجمعيات الأخرى . وقد لايكون بسبب اعتقاداتهم كالإدعاء بامتلاك التعاليم السرية ، ولا بسبب (شطحات أو حيوت) زعمائها ، حتى ولو كان أبو جريد قد وحد نفسه مع النبى أو مع الله ، وربما يكون الاتهام قد جاء من الممارسات التى تجعلهم يتجنبون أو ينأون بأنفسهم عن المسلمين الآخرين . والاتهام الذى ينكرونه بأنهم يدعون أن أبا جريد مثل

(١) سرد هللسون طائفته في : S.N.R., i. 176

(٢) زبلع : الشخص المخادع ، الغشاش . ينظر معجم دوزى ، مادة زبلع.

(٣) المذهب الخامس . أى ليسوا مسلمين.

النبى قد نشأ ببساطة لعدم سماحهم لأعضاء جدد بالانضمام إليهم بسهولة . وهم أنفسهم يضعون أبا جريد فى درجة أدنى من أبى كر الذى يعد مستودع معرفتهم السرية ، ومن المحتمل أن الممارسات الخليعة التى كانت تأخذ مكانها فى الذكر فى الماضى ، والتى تم شجبها جعلت الطريقة تأخذ شكل المجتمع السرى.

إن تنظيم الطائفة ليست لها أهمية عددية ، إذ هى طريقة قبلية مقصورة ، ومع ذلك فإن مختلف المجموعات القبلية منضمة إليها ، وأهم مجموعة هى كنانه، ويتزوج الأتباع من داخل المجموعة فقط ويتجنبون الانضمام إلى الآخرين . وهناك ثلاثة خلفاء منحدرون من أبى كر (الأمين البساطى بحلة الجويزات فى منطقة سنجه) وأبى جريد (أحمد النور ، منطقة سنجه) وكيران (بالقرب من كركوج) ، ويأتى المقاديم بعد الخلفاء ويسمى الأعضاء العاديون بالفقرا، ويقال إنهم يستخدمون فى أذكارهم الصيغ الشاذلية العادية ، وعندما ينفجر المجذوب صايحاً فى لغة تسمى «هبوت» ، يقال أنها هى اللغة التى علمتها الملائكة لأبى كر.

د- الطرق المصرية : جاءت الطرق المصرية أول الأمر مع الجعافرة ، ولقيت اعترافاً خاصاً أثناء الاحتلال المصرى ، وهى اليوم موجودة فى المدن فقط بين المصريين - المولدين ، وبعض الرقيق الذين لاطريقة لهم . وفيما يلى أنشط الطرق : الإبراهيمية (الدسوقية) والرفاعية والأحمدية (البدوية) التى لها أتباع كثر فى أم درمان ، والبيومية والنقشبندية.

• • •

-٧-

الإسلام والسودان الوثنى

١- الإسلام واتصاله بالسودان الوثنى

إن السودان الإنجليزى المصرى مثل السودان الفرنسى ، ميدان قتال بين الإسلام والأرواحية ، لقد كسب الإسلام بعض المناطق وتراجع فى البعض الآخر . لقد أوضحنا فى الفصل الثالث أن تأثير الشماليين المتحدثين بالعربية على زنوج السودان الجنوبى كان كارثة ، وأنه رغم أن كل الميزات كانت فى صالحه ، فإن القبائل الوثنية جنوب خط عرض ١٠° تمسكت بمعتقداتها التى بنيت عليها الحياة القبلية ، أما أولئك الذين بين خطى عرض ١٠° و١٢° ، والذين كانوا على اتصال مبكر وأكثر استمرارية مع الإسلام فقد تأثروا بشكل أكبر برغم وجود العديد من القبائل فى دار فور – جبال النوبا ودار فونج الذين – رغم إحاطة المسلمين بهم – بقوا وثنيين حتى اليوم ، وتبنى الآخرون فى هذه المناطق الإسلام بنسب متفاوتة دون أن يتم خلع الأرواحية من وعيهم .

أ-قبائل شرقى النيل : هناك حاجز طبيعى على النيل الأبيض بين الإسلام والقبائل الوثنية فى يانجانج (ثمانية عشر ميلاً جنوب الرنك) ، إذ تضيق الكثافة السكانية وتصبح مثل عنق زجاجة يمتد لثمانية أميال بعيداً على ضفتى النهر ، ويتحرك السود باستمرار فى نطاق هذه المنطقة ؛ لذا فهى نقطة استراتيجية .

إن الاتصال الوحيد فى هذه النقطة بين العرب والقبائل الوثنية هو اتصال البقارة [١] مع الدينكا والشلك ورفاعة[٢] مع المابان ، ويضع المسلمون فى الحكومة أعينهم على القيم الاستراتيجية ؛ لأنهم اقترحوا تحويل المنطقة كلها (ثمانية عشر ميلاً شمالاً فى عشرة أميال جنوب الرنك) لتصبح تحت النفوذ الاسلامى . وهم يحاولون فى الوقت الحاضر إنشاء مدرسة عربية فى الرنك،ويجب ملاحظة أن الطرف الشمالى لأرض الدينكا على نقطة تبعد ثمانية عشر ميلاً جنوبى الرنك ، وأن هذا التحرك سيكشف أرض الدينكا أمام التغلغل الإسلامى الأكثر إصراراً . لقد بدأ استخدام العربية كلغة مشتركة فى هذه المنطقة .

هناك أيضًا قرى «الملكية» فى هذه المنطقة ، وهى من بقايا الحاميات التى كانت متمركزة هناك أثناء فترة المهدية ، وهى مجموعات مختلطة من الزنوج المتحدثين بالعربية ويعتنقون الإسلام[٣]، ويوجد إلى الشرق جنوبى الجزيرة بين النيلين الأبيض

(١) قبيلة سليم على الضفة اليسري من الجبلين حتي كاكا ، وعلي الضفة اليمني من الجبلين حتي قرب الرنك . ويكتب ماكمايكل (Hist.i.246ff) «اختلطت بشكل كبير مع الدينكا ، ولأنهم غير مزارعين فإنهم يعتمدون عليهم وعلي الشلك فيما يتعلق بإمدادات الحبوب».

(٢) رفاعة الهوى على الضفة اليسري بين قشيش والديسة.

(٣) هناك مستوطنات ملكية تتحدث العربية جنوباً حتى واو.

والأزرق سهل مسطح تكسره مجموعات من التلال ، وتشبه إلى حد ما بلاد النوبا . وتعيش هنا مجتمعات زنجية من الهمج والأنقسنا والتورنسى والبورون (المابان) والبرتا والأدوك والخما.

ويتكون همج تلال الفونج من خليط من السكان الزنوج الذين تعربوا (كما يشير الاسم العربى الهمج «الرعاع») ، وهم يستخدمون العربية لغة مشتركة ، ولكنهم يحتفظون بلغتهم القديمة والعادات الوثنية ، وأصبحوا مسلمين اسمًا خلال فترة الفونج، وعانوا كثيرا خلال المهدية . وتوجد شرقى الروصيرص مجموعة زنجية صغيرة تسمى جوموس هاجرت مؤخراً من إقليم الحبشة ، وتتحدث العربية وتتظاهر بالإسلام ، كما دمرت المهدية ازدهار البرتا وجردت بعض التلال من سكانها . أما تأثير الثقافة العربية فسطحى.

أما الأنقسنا فهم سكان جبال تابى ، وبقوا وثنيين لأن حكم الفونج لم يطلهم ، وكانت بعض المجموعات مثل سكان جبل ككورعلى اتصال دائم مع العرب البدو الذين لم يكن لهم أى تأثير عليهم ؛ لأنهم لم يكونوا أبداً فى حاجة للحماية ، وأصبحوا الآن تحت التأثير الإسلامى القوى ، ويقال أنهم بدأوا فى تبنى الأسماء العربية ، وتم دمج طريقة الدفن ورمضان والأعياد مع النظام الطقسى للككور [١] . أما أغلبية الإنقسنا فلم تتأثر بالمرة.

ومازال سكان مجموعة جبال تورنسى وثنيين ، ولكنهم عانوا بشدة من هجمات الدراويش التى أدت الى تعطيل القوانين القبلية ، كما يعترف البورون (المابان) - المتاخمين للنوير جنوبياً - بسيادة مانجل دار فونج ، وهم مزارعون يستخدمون القوس والسهم ويدهنون أنفسهم بدهان أحمر ، وقد انخفض عددهم بشكل ملحوظ بسبب غارات اصطياد الرقيق من الأحباش فى الشرق والبقارة فى الغرب ، وقد مال البعض منهم إلى الإسلام ، ولكن القليل منهم من يتحدث العربية.

كان التأثير العربى محدوداً جداً على هذه المجموعات الزنجية الجنوبية ، كما كانت الغارات تشن أيضاً على رفاعة نفسها من قبل الأنقسنا والبورون والدينكا ، وتظهر هذه الشعوب صفات جسمانية وثقافية ذات صلة نسب مع مجموعات النوبا عن كونها ذات صلة بالنيليين . والزراعة هى أساس معيشتهم الاقتصادية ، وهم يربون الخنازير ولهم رؤساء دنيويون وروحيون.

ب- النوبا والتغلغل الاسلامى : تقدم القبائل التى تمثل جبال النوبا مشكلة مختلفة تماماً عن الدينكا مثلاً ، ولايوجد هناك تطور حديث للتأثير الإسلامى على النوبا ، ولكنه يعود إلى الماضى البعيد ، ويجب التأكيد على ذلك إذا ما أردنا فهم المشكلة .

---

(١) ينظر : seligman, Pagan Tribes, p.437

سكن النوبا كردفان كلها قبل القرن السادس عشر ، وفى بداية القرن السادس عشر استقرت فى كردفان بعض القبائل المسلمة - الأصلية فى السودان - رغم ادعائها اليوم النسب العربى (الجديات والبديرية والجوامعة والجليدات والشواهيت)(١) وتزاوجت مع قبائل النوبا (٢)، ولم تحدث غارات شاملة خلال عهود النونج (أو الفور)، وزرع النوبا قطعاً كبيرة من الأراضى فى السهول المحيطة بجبالهم ، وكان جبل تقلى - الذى بدأ اعتناقه الإسلام مع قدوم البعثة الجعلية - يدار فى زمن بروس من دار فور وجبل داير من سنار التى كانت مملكتها مزودة بحامية ضخمة ، وذكر بروس أنه قابل فى سنار كجور الوثنيين من كل مجموعات هذه الجبال(٣).

وتدفق البقارة فى اتجاه الشرق منذ ١٥٠ عاماً مضت ، واحتلت كل السهول والقرى ودفعوا بالنوبا إلى داخل الجبال التى شقوا على سفوحها مصاطب ، وقاموا بزراعتها، وأصبحوا ذوى ثقافات جبلية متحجرة ، وتم خلال الاحتلال المصرى الهجوم على بعض مجموعات الجبال الشمالية وإخلائها من السكان (٤). أما الجبال الأخرى (الدلنج والكدرو والكدر والغلفان) فقد دفعت جزية الرقيق وزودت الجيش بالمجندين ، بينما تركت الجبال الأخرى للبقارة الذين كانت لهم اليد المطلقة للعودة لاصطياد الرقيق.

كما هاجم الدراويش فى عهد المهدية كل الجبال ، وقام البعض (مثل النيمانج الذين كانوا مسلحين بالبنادق التى استولوا عليها من البقارة) بالصمود داخل الكهوف المحصنة بالحجارة . أما الأخرون (الغلفان) فقد تم احتلالهم بالقوة، بينما الأخرون (الميرى) فقد أخذوا غيلة وغدراً ، وتم ترحيل كل سكان الغلفان وديرى وأجزاء من كاديرو إلى أم درمان ، وأعيدوا مسلمين بعد معركة أم درمان،وساعدت الهيمنة السياسية وتجارة الرقيق خلال هذه الفترات بشكل أساسى على انتشار الإسلام . إذ

(١) ينظر .MacMichel, Tribs, p.6 وشجرة النسب الخيالية صـ ٧١

(٢) ينظر : وما كمايكل(Hish. 34) «دخلت العناصر العربية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى من اتجاهين . جاء البدو فى المقام الأول من اتجاه الدناقلة ، وسرعان ماحققوا التفوق فى السهول الواقعة شمال منطقة كاجا حيث يحتل الجبال الكبيرة فى الوقت الحاضر النوبا الذين تتراوح سماتهم مابين الزنجية والعربية المنحطة والصفات السطحية للدناقلة،وقامت فى القرن السادس عشر القوات المتحالفة من الفونج والعرب بعد أن استولت على سوبا وقرى من العنج أو النوبة بتأسيس مملكة سنار ، ثم بدأوا بالضغط فى اتجاه الشمال والغرب وفرضوا عند منتصف القرن التالى سلطتهم على وسط كردفان، ومازال سكان تلك المناطق من النوبا على الأرجح».

(٢) بروس مصدر سابق جـ ، ص ٣٧٢ - ٣٩١.

(٣) ينظر Pallme Travels in Kordofan pp.306 الذى كان فى الأبيض فى عام ١٨٣٨-١٨٣٩م. وقد وصف التوسع فى اصطياد الرقيق ، وكان يطلق على المغيرين لاصطياد الرقيق من الجبال «بالنهادة»، أما المغيرون من النهر فهم «البحارة».

من جهة بينما اتجهت نحو توحيد المقاومة لدرجة أن شعب مثل النيمانج لم يتأثر بالإسلام والتأثير الأجنبى ،كما أبيدت مجموعات أخرى ، أو تم تشتيتها أو امتصاصها كالتجمعات شبه القبلية ، وقد تبنى الإسلام كل الأرقاء وإذا ماعادوا إلى القبيلة فليس من الضرورى التخلى عن إسلامهم الاسمى.

وأدت الإحوال المستقرة فى الوقت الحاضر إلى اتساع تعريب وأسلمة النوبا [١] . إذ إن العملية تسير بشكل سلمى الآن لأن مقاومة النوبا أضعفتها عوامل أخرى . وقد أدى استقرار الأمن العام لخروج النوبا من جبالهم للزراعة فى السهول ، كما حملت الهجرة بحثًا عن العمل والتجنيد فى الجيش أعداداً كبيرة منهم للعيش لسنوات طويلة وسط مناخ إسلامى ، كما تم فتح الطرق أمام جمال العرب أو شاحنات الجعليين التى تحمل البضائع بالإضافة إلى إقامة العديد من الأسواق المنتظمة على طول المنطقة وعرضها ، كما أدى تنوع لغات النوبا لأن تصبح العربية هى اللغة المشتركة ، وارتبطت المنطقة كلها اقتصادياً وإدارياً مع الشمال المسلم ، وأصبح النوبا والعرب يعتمد كل منهم على الأخر. فالنوبا ينتجون والعرب ينقلون ، ولايمكن تجاهل هذه العوامل القوية.

هذا هو الوضع فى الوقت الحاضر ، وهناك عدد من الجبال فى منطقة شمال كردفان يسكنها النوبا [٢] وقد تعرب هؤلاء النوبا تمامًا فيما عدا الخرافات المعتمدة ، وقد تميزوا تمامًا عن نوبا الجنوب ، وكان لهم حتى وقت قريب ناظرهم الخاص ، ولكنهم الآن يتبعون ناظر الكبابيش، وهذه إشارة إلى ماقد يحدث إن آجلاً أو عاجلاً فى جبال النوبا.

---

(١)الاتجاه الرسمي لاعتبار هذه العملية عمليتين هو أمر مضلل ، إنها عملية ثقافية ، فكل منطقة وثنية تتعرب بشكل دائم تصبح متأسلمة بشكل دائم.

(٢) نوبا جبال الحراز وأم درق وأبو حديد وكتل وكاجا . وكتب Broun, Travels in Africa App.11 في عام ١٧٩٩م «إن سكان الحرازة عبدة أوثان ذوو بشرة مختلطة يغلب عليهم اللون الأحمر ، وهم لاعرب ولامسلمين وقد أدخلهم في الإسلام الدناقلة (الركابية) الذين استقروا هناك ، وتعربوا الآن تمامًا ويتزواجهم مع الدناقلة – خاصة أولئك الذين في جبل الحرازة – ينحدرون من نوبا جنوب كردفان . (ينظر : D.New bol, SNRm vii, 38) ، وهم مازالوا مسلمين فقط لدي المسئولين في حكومة السودان فيما يتعلق بالإيمان المعلن والأسماء العربية ، وقد تدهوروا وفقدوا الخصائص التى تحبب النوبا الوثنيين إلي اولئك الذين عاشوا بينهم . ويقول ما كما يكل عنهم (Hist,i.34) «يبدو أنهم بعد أجيال قليلة تميزوا عن السكان المستقرين في وسط كردفان» . ويلاحظ البروفسور سليجمان (Pagan Tribes, p448) أن سكان جبل كاجا رغم قولهم إن الأمطار تأتي من الله ، فإن الاحتفال يتم علي شرف واسترضاءً لأبى على – الجد العظيم وصانع المطر الذي لم يمت ولكنه اختفي والذي مازالت روخه تحوز المشاركة في الاحتفال . كما أن أبا على ثعبان ضخم ، وهو معروف في بعض قري كاجا بهذا الشكل فقط ، ولم يشاهد منذ عهد المهدية ، ويتم إجراء احتفال سنوي في أو أمام كوخ خاص بني بجانب صدع عميق علي الجبل المقدس مقر سكنه ، ويتم ذبح شاة ، وتلطخ الصخور بدمها ويطبخ لحمها على نار يتم إشعالها حديثًا بعصي النار ، ويأكلها أولئك الذين شاركوا في الاحتفال ، والذين تملكهم أبو على ، والذى يصفونه بأنه «ركبهم».

إن مدن (الدلنج وكادقلى وتالودى ورشاد) بمستعمراتها غير النوباوية والموظفين الزنوج الحاميين والتجار والعمال الآخرين كلهم مسلمون ، ويشكلون قسماً كبيراً من السكان . إن سكان جبال هذه المدن شبه مسلمين ، أما السهول فتعج بالبقارة المتجولين وبعض النوبا المتعربين المستقرين . أما فى سفوح بعض الجبال الجنوبية (الليرى وتالودى) فهناك مجموعات من النوبا شبه القبلية يطلقون على أنفسهم عرباً دون الإدعاء باللقب الذى أخذوه عندما كانوا عبيداً لدى قبائل الحوازمة والكواهلة ، أما جبال الداير وكتم وتقلى وكدرو وتاجوى وداجو وقدير وميرى فكل سكانها مسلمون أو شبه مسلمين ، وقد تغيرت عاداتهم ذات النزعة الإسلامية ، بينما بدأت تضعف القوانين القبلية، ويتنوع بشكل جوهرى إسلام هذه المجتمعات ، فمن جهة هناك تقلى التى تأسلمت بالكامل ، ومن جهة أخرى فالكدرو مازالت طقوسها الاسلامية فى حدها الأدنى وتحتفظ بكل قوانينها القبلية [1] . أما الداجو «فمرتدون وفاسقون ويرثون كل الرذائل ، وليست لديهم أى من الفضائل العربية». ويتظاهر بعض الزعماء بالولاء للإسلام بينما بقيت شعوبهم وثنية بالكامل ، ومع ذلك فيجب أن يفهم تماماً أن شعوب مجتمعات النوبا باقية على وثنيتها.

جـ- **القبائل النيلية الوثنية** : تشكل القبائل النيلية الكبرى الدينكا والشلك والنوير عنصراً حتمياً فى مستقبل السودان ، وهى شعوب رعوية لها كبرياء عرقى ، ولاتتأثر بالمؤثرات الخارجية ، وجزء كبير من المنطقة التى يسكنونها مستنقعات ، ولايمكن الوصول إليهم أثناء موسم الأمطار الذى يستمر حوالى ستة أشهر . وقد استطاعوا بهذين العاملين الصمود فى وجه هجمات الدراويش، ورغم أنهم عانوا الكثير ، فلم يتعرضوا للتفسخ والتحلل القبلى ، وحافظوا على نظامهم الاجتماعى سليماً.

وينقسم الدينكا (٧٥٠ ألفًا) إلى عدد من القبائل المنفصلة التى تغطى مساحة واسعة ، ويوجدون على النيل الأبيض شمالاً حتى الرنك وجنوباً حتى بور وملكال، ويحتل فرع كبير منهم حوض بحر العرب حيث أصبحوا على اتصال مع البقارة الرزيقات والهبانية يقيمون مستوطناتهم بالقرب من النهر فى موسم الجفاف ، ويعيشون فى الداخل فى مساكن مكدسة خلال موسم الأمطار. وقد أجبر العديد منهم الانضمام إلى الإسلام أثناء المهدية ، ولكنهم ارتدوا بعد سقوط المهدية. ويختلط بقارة سليم مع الدينكا الذين يعتمدون عليهم فى الحصول على الحبوب ، ولكن لانفوذ إسلامى لهم على الدينكا . وقد ذكر سليجمان أن العديد من الريك يختتنون،الآن وقد تعلموا هذه العادة

(١) S.F. Nadel, "The Hill Tribes of Kadera" (SNR, xxi 3) ff.

من العرب فى الأعوام القليلة الماضية [1]. ولايظهر إلا القليلون جداً ممن سافروا شمالاً كرقيق ، أو خدموا فى الجندية أى إشارة على مجاهرتهم بإسلامهم.

ويعيش الشلك (٤٠ ألفًا) على طول الحافة الضيقة للأرض كثيفة السكان على الضفة الغربية للنيل من كاكا حتى بحيرة نو ونهر السوباط [2] ، ولهم ملك هو الزعيم الروحى والزمنى لكل الشلك ، وينتمى إلى الطبقة الحاكمة التى تعرف بـ «الملوك المقدسون» ، وقاوم الشلك الدراويش بضراوة أشد من أى شعب آخر ، وقد انهزموا فى النهاية وعانوا كثيراً لدرجة أصبحت معها كل المناطق خالية من سكانها تقريباً ، ولم ينسوا حتى الآن تلك الأيام القاسية ولا التاجر الدنقلاوى الذى جاءهم بمرض الزهرى عندما كان يتاجر فى الدعارة.

أما النوير (٤٣٠ ألفًا) فهم مشتتون فى الإقليم الواقع فى السوباط الأعلى ومنطقة بيبور والزراف . وهناك ثلاثة أقسام رئيسية (١) نوير الزراف ، (٢) نوير الريل غربى بحر الجبل ، (٣) نوير الدوك ، وهى قبائل مولعة بالحرب ومستقلة معتدة بنفسها ويقاومون غارات الدينكا . ويوجد شرقى منطقتهم مركز الناصر التجارى حيث مستعمرة المسلمين الشماليين الذين يسمون محلياً «بالعرب» الذين يمارسون بشكل دقيق صلواتهم ، ولهذا الأمر بعض التأثير على النوير ، ولكن الاتجاه الطبيعى لمقاومة التغير وكبرياءهم جعل هذا الشعب مجتمعاًمغلقًا بشكل مميز ضد التأثير الخارجي.

إن الأعداد القليلة من القبائل النيلية التى اتجهت شمالاً داخل البيئة المسلمة بحثًا عن العمل ، والتجنيد فى الجيش تم ختانهم وأصبحوا مسلمين أسماء ، ولكنهم عندما عادوا إلى قبائلهم فإن بيئتهم الفعلية والاجتماعية احتوتهم تماماً ، ومع ذلك فإن الرادع القبلى قد لايعنى الكثير بالنسبة لهم .

وعلى العكس من قبائل نوبا الفونج التى سبقت مناقشتهم فإن الاسلام لم يكن له المميزت الاجتماعية والحماية التى قد تغرى القبائل النيلية بالدخول فى نظامه.

٢- الدعاية الإسلامية وسط الوثنيين

بينا كيف كانت عملية أسلمة القبائل الوثنية نشطه فى المنطقة الواقعة مابين خط ١٢° حتى خط ١٠° بين القبائل الصغيرة المتحدثة بلغات عدة ، والتى كانت عرضة للتأثير لزمن طويل ، أما القبائل النيلية الكبيرة والقبائل الموجودة جنوباً فلم تتأثر أبدا .

(١) Pagan Tribes, p.172 .

(٢) وقد توسعوا في زمن براون (١٧٩٨م) علي طول النهر شمالاً حتي مدينة الكوة الحالية Travels in Africa, pp.452-3) ، وأقصتهم من الدويم قبيلة الجعافرة المصرية خلال حكم الفونج ، كما عانوا الكثير في عام ١٨٩١م عندما اجتاحت أراضيهم بقارة سليم بقيادة الفكي محمد خير، وقام السيد صمويل بيكر في عام ١٨٦٥م بتشكيل معسكر قوامه ألف رجل في فاشودة لمنع تجارة الرقيق ، واحتل المصريون أرضهم في عام ١٨٧١م.

إذاً فالإسلام لم يذهب لأبعد من حدود معينة ، ويجب أن نستقصى لماذا لم يضغط جنوبياً بسرعة أكبر.

إن السبب الأكثر أهمية هو الكبرياء الطبيعي والاتجاه نحو مقاومة التغير من جانب النيليين ، وطبيعة نظامهم الاجتماعي ، إلى جانب الروادع القبلية التى تقاوم بشدة أى شئ خارجى قد ينهى النظام ، ويتركهم أفراداً بلا عشيرة وضعفاء تحت رحمة المخاطر المجهولة . إنهم آمنون داخل نظامهم ، وحصن هذا النظام هم «العرافون »الذين يملكون فى ذواتهم التقاليد القبلية ، ويقاومون التعديات الأجنبية . إن سياسة الحماية التى تتبعها الحكومة لها تأثير قوى لأنها تمنع الجلابة المتجولين والفقرا والخلاوى ، إلى جانب أن سياستها اللغوية هى منع تبنى اللغة العربية لغة رسمية . ومرة اخرى فإن خبرة هذه القبائل مع المسلمين لم تكن سارة ، فتجارة الرقيق وقسوة المصريين والمهديين وتعديات التجار المسلمين لم يتم نسيانه ، وستختفى هذه الذكريات بلا شك مع مرور الزمن ، ولكن سيكون هناك وقت طويل قبل أن تتوقف الأوامر القبلية عن أن تصبح قانونًا يحكم الناس . ويمكن للإسلام أن يتقدم من خلال التفسخ القبلى ، كما تقدم صورة مختلفة تلك المجموعات القبلية الصغيرة القاطنة بين خطى عرض ١٠° و١٢°، والتى تحتل بالدرجة الأولى التلال الداخلية شرق وغرب النيل . لقد بينا كيف يقعون تحت الضغط الإسلامى المتواصل ، ومالم يتحرك أى عامل غير متوقع تماماً مثل بعثة تبشيرية «تامة» تمثل هذه المناطق فلاشئ يمنع من امتصاصهم النهائى داخل حظيرة الإسلام.

دعنا الآن ننظر بإيجاز للعملية . لقد بينا فى الفصل الثالث كيف انتشر الإسلام فى إفريقيا الوثنية ليس عن طريق العرب الحقيقيين ، ولكن عن طريق الشعوب الحامية الإفريقية التى ادعت أولاً ولاءها ، زيادة على ذلك جاء الإسلام إلى الشعوب الزنجية عن طريق أولئك الغزاة الحاميين أو التجار ، ليس كدين ، وإنما كحضارة لشعوب افريقية أرستقراطية لاتعرف التفرقة العرقية ، بالاضافة إلى أنها كانت قادرة على التزاوج معهم وأن تحيا حياة اجتماعية مشتركة وتصبح سوداء مثلهم . إن الإسلام الأفريقى يختلف عن الإسلام الآسيوى حيث رُكِّب فوق الحضارات القديمة ، وتم امتصاصه داخلها ، وحل الأولياء المسلمون محل الآلهة ، هذا حقيقى فى إفريقيا الشمال فقط . لقد وجد فى السودان – فى دنقلا – حيث تقع أضرحة الأولياء ، وغالبًا فوق المقابر النوبية أو المواقع المسيحية ، ولكنها ليست كذلك فى إفريقيا الوثنية . ان الاسلام بالنسبة للوثنيين أتى – ليس كدين – وإنما كنظام مناخ فرض نفسه على الثقافات الإفريقية ، أو بالأحرى كان هناك تحول تدريجى وانصهار ثقافى أنتج وحدة جديدة .

إن الحضارة الجديدة – الاسلام – تم فهمها فهماً جيداً وأصبحت فطرية ، كما أن العامل الدينى كان ثانوياً . إن المطالب الأخلاقية للإسلام ليست شديدة ، ولا تؤثر أبداً فى قبوله ، لأن الإسلام تأسس لآجال قبل أن يعرف الافارقة ما هو الوازع وما هو غير الوازع .

كما يرجع انتشار الاسلام وسط السود بدرجة أقل إلى العامل التبشيرى الشخصى للتاجر والفكي الذى بالغ فى تأكيده كُتاب من أمثال ت.و. أرنولد عن كونه اتصالاً ثقافياً وتجارياً للسود مع الإسلام الذى تبنى الحياة الاجتماعية الإفريقية . إن خاصية الإسلام الإفريقى كبيرة لدرجة أن قبوله لا يسبب سوى اضطراب بسيط للإنسان العادى ولحياته الاجتماعية وعاداته ؛ لأن الاسلام يتبنى الملامح المركزية للوثنية عن طريق التوفيق بين المعتقدات الدينية المعارضة ، ويتم الاحتفاظ بالعادات الوثنية بينما تضيع روح العادة .

زيادة على ذلك فالإسلام فى تنافس مع البعثات التبشيرية المسيحية التى يديرها الأوربيون . وحتى عندما يكون الحكام مسيحيين ، فما زال الانتشار مستمراً ؛ لأن عروضه أكثر فهماً بالنسبة للقيم الدينية والاجتماعية والاقتصادية عن المسيحية الغربية التى تسمح فقط لأتباعها بالمساواة الدينية وليست الاجتماعية . وفى المناطق الحدودية فإن القيم الاجتماعية والاقتصادية للارتباط بالاسلام واضحة جداً لأن الدولة مسلمة .

إن الاتصال الثقافى والاقتصادى من أقوى عوامل انتشاره . لقد انتشر الاسلام دائما على طول خطوط التجارة ، أى حيثما وجد السود أنفسهم على اتصال بالبدو والتجار والفقرا . وليست لدى القبائل المستقرة ذات الحاجات ولا نفس العادات ، وهى تقاوم بشدة الأسلحة طالما بقيت المجموعة سليمة ومتماسكة ، ولكن عندما تنهار المؤسسات القبلية – كما حدث فى الماضى عن طريق الغزو أو تجارة الرقيق أو عن طريق التسرب الآن – فإن الهيبة الاجتماعية الأعلى للمسلم الإفريقى – الذى لا يملك سواها لتتشفع له – بدأت فى شد الانتباه .

ويؤثر الإسلام فى مشاعر العديد من زعماء النوبا الذين مطمعهم الأساسى هو الحصول على المركز الاجتماعى الأعلى للمسلم – وهو سبب كاف للدخول فى الاسلام – بالإضافة إلى ذلك إغراء التحالف مع الدين الرسمى ؛ لأن الحاكم الإقليمى يعتبر نفسه شيئًا واحداً مع الموظفين المسلمين كلهم . وهناك كتبه مسلمون عند بعض مكوك جبال النوبا .

وهناك تحالف وثيق بين الإسلام والتجار . إن تحول الامكانيات التجارية تحت النظام الحالى هو الذى فتح الطريق الجديد للتغلغل ، ومن مصلحة التاجر المسلم أن

يدعو ويهدى للدين بشكل أسهل فى الأسواق وفى القرى، من خلال نقاط الاتصال مع المسلمين المنعزلين هناك . إذاً فمن الحتمى أن كل المراكز الجديدة التى تطورت قد تأسلمت وانتشر تأثيرها وطوقت الجبال المحيطة (١).

ويبقى فى الخلفية العامل الإسلامى الخالص ، ولايظهر بشكل واضح إلا بعد أن يكون الإسلام قد تأسس منذ زمن طويل . وهناك حقيقة أن الدعاية أقل مباشرة ، ولكنها بطيئة ومستمرة وقائمة على الإيمان ، وليس على القدوة وتقليد الادعاءات الشعائرية . وأينما وجدت مجموعة صغيرة من المسلمين فإنها تقوم بالحصول على زريبة تجهزها كمكان للصلاة ، ويظهر الفكى وهو يدير «خلوة» تحت شجرة فى القرية . وللطرق الصوفية تأثير ضئيل على السود عدا عندما تكون على اتصال دائم ، وهى مؤثرة فقط فى المراكز الدينية حيث تمنح مقراً دينياً للتائهين(٢).

ومع ذلك فإن العامل الدينى موجود ، والإسلام الإفريقى يمكنه أن يمارس تأثيراً دينياً قوياً . إن الايمان القوى بالله الذى تم استيعابه دون تعلمه هو إيمان جذاب وفى المتناول .إنه المفهوم الإفريقى لله بأنه القوة العظمى الذى يمكنه منح قوى سحرية أقوى من قوى الأرواح المحلية التى تحمى الداخل فى الدين عندما تضعف الجزاءات القبلية، كما أن فكرة الحياة الآخرة تجذبهم أيضاً . ويمكن إدراك ذلك ؛ لأن رغبة المهتدى الدنيوية ومايتعلق بالنعيم قد تشبع بالآمال الجديدة فى الإيمان بالجنة ، وهذا هو الذى جعل فكرة المهدى تتغلغل بقوة وسط المسلمين الأفارقة .

وبينما يملك الإسلام قوة يقينية المطلق ليكون إيماناً حقيقياً ، فإنه ليس ثورياً، فهو لم يقهر روح الأرواحى ؛ لأنه يكيف نفسه مع الحياة الروحية للأرواحى، وكانت نتيجة الصفة التوفيقية للإسلام هى أنها لم تساعد على التطورالدينى الأعلى للأفارقة .

لقد انتشر الاسلام فقط عن طريقة اختراق النظام العشائرى ، واتجه بصفة عامة نحو خلق مجموعات جديدة صمدت كمجموعات أرستقراطية مستقلة واستخدم الكبرياء

---

(١) نجد هنا مثالاً للتغلغل فى منطة النوبا . إن محمد توتو – أهم مك نشط للمورو – مسلم ويقوم بالصيام بعد رمضان الأمر الذي يفتن شبعه . وهناك أربعة جلابه مفوضون وسط المورو وثلاث وسط الكرنجو وهناك سوقان وأربعة أيام أسبوعياً ، يسمح فيها للجلابة بالذهاب إلى أماكن محددة . إن الطريقة غير المباشرة للدعاية يتم توظيفها عندما يقومون بفرش بروش الصلاة أمام حوالى ٤٠٠ شخص . ويقوم جلابي واحد علي الأقل بالدعاية للدخول فى الدين ، ويأتى البقارة لهذه الاسواق ، وقد يستقر البعض منهم . إنهم لايهدون للدخول في الدين ، ولكنهم يبيعون الأحجبة ويتجول الفقراء في التلال ، وهم ممنوعون من ذلك، ولكن من الصعب اكتشفاهم وإبعادهم نسبة لأن الزعماء يدعونهم في الغالب ، ويقومون باخفائهم والمثال على الطريقة المباشرة هي أن المأمور السابق لدلامى الذى ذهب إلى الحج عاد متحمساً لنشر دينه ، وقام ببناء مسجد ، وقد اعتاد على جمع النوبا للذكر والصوم ، وأدخل فى الدين الإسلامى بعض الزعماء (ديلامي وكودري) اللذين قاما بجعل شعبيهما يصومان رمضان ويختنان الأولاد.

(٢) وجد فى الدلنج مثلا الميرغنية والقادرية والإسماعيلية وبعض التيجانية.

العرقى رغم أن مايسمون بالعرب يشبهون تماماً النوبا ، وظلت المجموعات المسلمة مثل نوبا الميرى محتفظة ببقائها إلا أن انحلال الجزاءات القبلية لن تضمن فى أن تظل كذلك ، وكان دائماً ماتعنى الأسلمة فى شرقى السودان الامتصاص التام داخل النظام القبلى العربى . إن المجموعات التى أضعفت التشتت القبلى دائماً مايصحب قبيلة عربية ما إما كأعضاء تابعين أو فعليين .وهكذا فإن معظم القبائل المستقرة فى الجزيرة وكردفان ودارفور - ذات الدماء العربية القليلة - يدعون ذلك ، والعملية طبيعية ؛ لأنهاتقدم الحماية ، ويمكن رؤيتها فى التقدم فى جبال النوبا حيث تدعى المسيرية سيادتها على بعض الجبال الشرقية والحوازمة على منطقة كادوقلى [١].

إن نتيجة هذا التغلغل السلمى هى أن النوبا ومختلف المجموعات شرقى النيل أصبحت الآن أسرع أسلمة من تلك الأيام التى كانت تشن فيها عليهم الغارات ، وعندما ساعدت المقاومة فى الحفاظ على تضامن المجموعة ، و لاتظهر عملية التحول أية إشارات على أنها سريعة إلا أنها مؤكدة.

---

(١) يجب أن نوضح أن العناصر العرقية الإفريقية غالبة في الحوازمة وهم خليط عربي - بديري - نوباوي - تكروري . ينظر Mac Michael, Hist..I.280-4.

-٨-

تأثير التغريب * على السودان

١- أثر الاحتلال البريطانى

نهدف فى هذا الفصل ، لاهتمامنا بالحياة الثقافية للسودانيين - محاولة رؤية بعض التغيرات التى حدثت فى حياتهم بتأثير الحضارة الحديثة ، وصدى الحياة والفكر الإسلامى الذى تم عرضه فى مكان آخر من هذا الكتاب .

فعندما ثبت البريطانيون بقوة حكمهم فى السودان ، كانت هى المرة الأولى فى التاريخ التى تعرف فيه البلاد تنظمياً حكومياً واحداً يعنى برفاهية الشعب ، إذ كان دائماً هدف القوى الأخرى التى حكمته هو استغلاله كمصدر من مصادر توفير أدوات الرفاهية مثل الرقيق والعاج والذهب ، كما أن الحكم البريطانى أمنه من قلق الانشقاقات الداخلية والعدوان والاستغلال من الخارج ، وبدأت البلاد عن طريق الاتصال بالحضارة الغربية فى التكيف مع الاقتصاد والفكر ومجالات الحياة الاجتماعية الأخرى..

وكانت قوى التغريب فى السودان هى نفسها التى فى البلاد الإسلامية الأخرى ، ويمكننا الآن تمييز الفروق المهمة بالتفصيل بين السودان والدول الأخرى التى نشأت من الاختلاف العرقى والبيئة التى تعمل فيها هذه القوى.

ومنذ أيام الهمجيةالتى استمرت حتى هذاالقرن ، كان هناك تخلف فى التطور مقارنة مع البلاد الإسلامية الأخرى، وفقط بعد معركة أم درمان بدأت المرحلة الانتقالية من فوضى المهدية إلى بدء الحكومة المنظمة حاملة معها تطوير الحياة الاقتصادية المنتظمة ، وتبنى مختلف مفاهيم الحضارة الغربية . وقد حدد نسبة هذاالتطورالوضع الجغرافى غير المبشر ، وفقر مصادر البلاد الطبيعية ، كما حدده أيضا شكل ومدى ومجال التأثير الغربى والدرجة التى تحولت بها الجماهير ، كما كانت صفة الشعب نفسه هى أهم العوامل ؛ لأن التغريب معناه التدريب على الانضباط والمبادرة والاستجابة التى تراوحت مابين مختلف الأعراق وبين المزارعين والبدو؛ لذا فبعض أقسام السكان (أى الجعليين - الدناقلة) فاقت الاقسام الأخرى (أى مزارعى الجزيرة - كردفان) ؛ لذا فيجب وضع كل هذه العوامل فى الاعتبار.

كان موقف البريطانيين منذ البداية اعتبار السودانيين شعباً مستغلاً متخلفاً ، بدلاً من اعتباره شعباً وضيعاً ، وبصفتهم حكامهم فقد فكروا بدءاً فى تأسيس مجرد حكم لتطوير الحياة الاقتصادية ، وحثهم بقدر الإمكان - من خلال مؤسساتهم

---

* Westernism

القائمة -، وكان الهدف النظرى «للحكم غير المباشر» كما ترجم فى السودان ليس الحفاظ تماماً على الجماعات فى شكلها القديم- مثل تبنى المؤسسات القبلية القائمة- لتلائم الظروف المتغيرة وانتظام معدل واتجاه التغير ، واتجه الحكم غير المباشر فى التطبيق العملى فى السودان المسلم نحو الوقاية والاندماج ، إذ لم يعد الحكام بعد المهدية يواجهون بأى انقطاع للمؤسسات الأهلية ، مقارنة مع تلك الموجودة فى المجتمعات الوثنية التى على اتصال مع الاستغراب فى الأجزاء الأخرى من إفريقيا . ومع ذلك فإن الحكم الإقليمى والبلدى والمجالس المركزية بدأت فى تحويل النظام السابق للإدارة الأهلية والحكم غير المباشر لزعماء القبائل إلى حكومة محلية على أسس تقليدية وديمقراطية معطية بذلك للسودانيين العاديين نصيباً فى إدارة شئونهم الخاصة . وقد دعم الحكام الجدد أهم عاملين جلبهما العرب إلى السودان - مفهوم التكافل الاسلامى والنظام القبلى العربى - ،وكان يرقد تحته الإرث الذى بقى منذ ما قبل الإسلام ، ولم يكن للتغريب سوى تأثير ضئيل ، وقد وضعت هذه الأشياء قيداً ثقيلاً على التحول الاجتماعي والثقافى ، وكانت التأثيرات السطحية هى التحول فى البيئة الاقتصادية.

إن المسئول البريطانى المعاصر - لكونه تربى فى بيئة اجتماعية تم التشديد فيها على الجانب المادى للحياة - كانت لديه رؤية مشوهة عن التغير الاجتماعى ، واعتقد وفكر أن نشر الأسلوب المادى الغربى على السودانيين معناه تحويلهم إلى مدنيته الغربية ، ولكن بدلاً من هذا الانتشار فإن الحياة الداخلية للسودانيين بقيت صحيحة كما كانت أبداً، وكان تأثير التغريب على السودانيين هو فرض تنمية لا متوازنة . إن إصلاح جوهر سلوكهم الاخلاقى الذى تحجركان قابلاً للنقل بسهولة ، ومن ثم امتصوه بسرعة إذ فى الجو الثقافى كان دائماً الشكل وليس ذلك الجوهر الذى قبلوه. (١) والسودانيون مواجهون بالنظام الدنيوى الذى - منذ قدومه من مصر - كان له منذ البداية مسحة إسلامية ، وقبلوه بشغف عندما شعروا أنه سيكون مفيداً ، وهو الآن لايعوق الوضع الراهن للدين ولايضر النظام، والنتيجة هى أن المثقف - فى محاولة لوراثة عالمين متناقضين - لم يحرز سوى تشويش واختلاط عقلى وروحى .

٢- تطور التعليم

مارست المجموعة الصغيرة من الإداريين السياسيين الأوائل حكماً استبدادياً ذاتياً صرفاً، ولم يفرق السودانيون فى البداية بين الإنجليز والأتراك ، وكان التقدم الإدارى بطيئاً بالضرورة ، ولم يكن هناك سودانيون متعلمين ؛ لذا فقد تم تزويد الإدارة العامة

---

(١) ظهر هذا بوضوح في كلمة إبراهيم أحمد إبراهيم عند افتتاح كلية غردون كمعهد للدراسات العليا في ١٩٤٥/٢/٢٠م عندما قال «إن الثقافة التي ستلبي حاجاتنا هي توليفة من الثقافة الشرقية تستمد روحها من (ال) دين الحقيقي والثقافة الغربية التى ستساعدنا فى السير نحو التفكير العلمى والإنجاز العملى » وقد حذفت أداة التعريف (ال) من الترجمة الإنجليزية.

واحتياجات البلاد ثم تدريبهم ، ومن ثم فقد بدأ الأفندية السودانيون فى الظهور . وفى بلاد مثل السودان – لديه الأحوال نفسها التى كانت سائدة فى القرن الماضى – لم يكن هناك سوى حافز بسيط لتفكر الحكومة فى تنمية البلاد عن طريق طاقات السودانيين ، وكان تطور التعليم لضرورات إدارية بحته ؛ وذلك لتوفير الموظفين السودانيين ، ومن ثم تخفيض العمالة المستوردة المكلفة . ومن أوائل أعمال اللورد كتشنر ، طلبه الأموال اللازمة لتمويل كلية غردون التى تم افتتاحها فى عام ١٩٠٢م

لقد بدأ التعليم بهدف استعمارى صرف ، وكان مرماه محدداً منذ البداية كما يلى :

١- خلق طبقة حرفية كافية .

٢- نشر التعليم وسط جماهير الشعب لتمكينه من فهم الآلة الحكومية خاصة فيما يتعلق بعدالة وإنصاف الإدارة الاستعمارية.

٣- خلق طبقة إدارية صغيرة قادرة على ملء العديد من الوظائف الحكومية ، البعض منهم إداريون والبعض الآخر ذوو طبيعة فنية[(١)] .

وتزايدت الحاجة إلى الوظائف مع القرار بتطوير الجزيرة ، وماتلاه من الازدهار الاقتصادى لما بعد الحرب ، ومن ثم فإن كل طلبة الكلية استوعبتهم الإدارة أو الخدمات الأخرى ، وأصبح التعليم مترادفًا مع الحصول على الوظيفة الحكومة ، وكانت الإدارة التعليمية فى واقع الأمر جزءًا من الخدمة السياسية ، وقد تدرب فيها موظفوها ، ولكن بدءًا من عام ١٩٣٠م لم تعد الحكومة قادرة على توفير العمل لأكثر من نسبة محددة من الأولاد ؛ لذا فقد كان عليها إيجاد توازن بين الإنتاج والاستهلاك.

وقد فكرت السلطات التعليمية – التى وجدت نفسها معاقة بالتأسيس المبكر لكلية غردون – فى إيجاد حل لسنوات التعليم التى تؤدى إليها ، وخططت لنظام التعليم الأولى لمجرد تغذية المدارس العليا ، وحتى حرب ١٩١٤ -١٩١٨م «كان هناك مبدأ محدد واحد فى كل مكان ، ألا وهو تناسق الجهد التعليمى مع تنفيذ البرنامج الاقتصادى المحدد طويل المدى المجسد لسياسة الحكومة الجماعية وملحق بها »[(٢)].

وأشار تقرير لجنة ملنر (١٩٢٠م) إلى أن الحكومة لاترغب فى تكرار الخطأ الذى ارتكب فى مصر بتقديم نظام يناسب التلاميذ لتأهيلهم فقط لتولى وظائف كتابية وإدارية صغرى ، وخلق قوام لطموحات مفرطة للوظيفة الحكومية ، ومع ذلك لم تتم أية محاولة لتبنى نظام صمم بشكل خاص ، لتجنب النظام الذى تمت إدانته ،حتى فرضت الضرورة مثل هذا التبنى على الحكومة .

---

(١) Sir James Cume, "The Educational Experiment in the Anglo-Egyptian Sudan, 1900-33", J.Afr.Soc.,1934 p.364.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٨.

وكانت إحدى نتائج اغتيال السير لى ستاك فى عام ١٩٢٤م ، هى سحب العديد من الموظفين المصريين الذين تم استبدال السودانيين بهم ؛ لذا فإن خريجى كلية غردون والمدارس الوسطى تم امتصاصهم فى الوقت نفسه ، ولكن عند حدوث الأزمة الاقتصادية وتخفيض النفقات عام ١٩٣٠م مع تطور الحكم غير المباشر ، ونتيجة لتزايد خريجى كلية غردون - رغم انخفاض أعداد الخريجيين - فقد كان العدد أكبر من الحاجة .

وتم فى عام ١٩٣٢م تشكيل لجنة لدراسة مشكلة التعليم ، وأوصت هذه اللجنة بتوسيع قاعدة التعليم الأولى وتعديل التعليم الثانوى ليلائم الظروف الحالية للبلاد(١) ، وأدى هذا إلى تحولات كبيرة فى التعليم فى السودان بما فى ذلك إنشاء مؤسسة لتدريب معلمى الأولية فى بخت الرضا بالقرب من الدويم فى عام ١٩٣٤م ، وقد خلق ذلك ارتباطًا وثيقًا بين مصلحة التعليم والسلطات المحلية التى لم تكن راضية عن أهداف التعليم.

وزارت السودان فى عام ١٩٣٧م بعثة ديلاوار التعليمية ، وكتبت تقريراً تأسس عليه تقدم التعليم للفترة ١٩٣٨-١٩٤٦م ، وكانت أهم التوصيات :

١- توفير الأموال اللازمة للحاجة المتزايدة للتعليم.

٢- التعجيل فى التوسع التعليمى مع التحسين المستمر للتعليم الأولى للبنين.

٣- التعجيل فى التوسع فى التعليم الأولى للبنات.

٤- تحسين وتوسيع المدارس الوسطى للبنين.

٥- تحسين التعليم الثانوى.

٦- التسليم بأن الهدف النهائى لسياسة التعليم العالى هو إنشاء جامعة فى الخرطوم(٢).

وأعاقت الحرب التطور الكامل للبرنامج التعليمى ، ومع ذلك تم تقدم مهم، وكانت المشكلة هى صعوبة توفير معلمين مدربين بشكل جيد ؛ لأن مركز بخت الرضا ركز على النوعية وليست الكمية ، وعلى ذلك فقد تطور المركز من كلية لتدريب معلمين للمدارس الأولية إلى معهد للتعليم لكل المراحل بنفس الأهداف - إصلاح التعليم ؛ لذا فقد كان قريب الصلة بالحياة اليومية للتلميذ ، وتدريب المعلمين بالطرق الحديثة.

---

(١) Sudan Annual Report, 1933, p.11

(٢) ينظر «مذكرة مدير التعليم حول خطة الحكومة لتطوير التعليم في السودان الشمالي للسنوات العشر القادمة»، والتى قدمت فى الجلسة الخامسة للمجلس الاستشارى للسودان الشمالى فى إبريل ١٩٤٦م.

وبرزت فى عام ١٩٤٥م إلى الوجود مختلف مدارس التعليم العالى (القانون والآداب والعلوم والهندسة والزراعة والبيطرة) لتشكل نواة كلية المستقبل الجامعية ، وتم تحويل المدرسة الثانوية التى كانت تعرف باسم «كلية غردون التذكارية» إلى المؤسسة الجديدة ، وارتفع خلال فترة السنوات الثمانى هذه الإنفاق على التعليم من ١٥٠ ألفاً فى عام ١٩٣٨م إلى حوالى ٤٥٠ ألف جنيه فى عام ١٩٤٦م.

لقد أعطت فترة الحرب - مع تنامى الشعور القومى - زخماً إضافياً لحاجات السودانيين لتسهيلات تعليمية أكبر . وقام مدير التعليم فى عام ١٩٤٦م بوضع خطة مهمة للتطوير التعليمى لفترة السنوات العشر التالية تلبى هذه الاحتياجات ، ويكتب المدير «إن العزم المعلن للحكومة هو تقدم البلاد على طول الطريق المؤدية إلى الحكم الذاتى بأسرع مايمكن ، ولهذا الغرض تم وضع خطة لتدريب السودانيين بأسرع مايمكن لملء الوظائف ذات المسئولية فى الخدمة المحلية والمركزية»، وبالتالى فقد تم وضع اهتمام كبير لبرامج التعليم الثانوى والأوسط ، وتدريب المعلمين والمشتغلين بالثقافة والعلوم ، بينما يتم التركيز على إعداد البنين لتدريب مهنى أكبر؛ لتأهيلهم فى الوقت ذاته ليلعبوا دورهم فى الحياة الاجتماعية السودانية .

كما تم اقتراح مؤسسة تدريبية إضافية لمعلمى المدارس الأولية ، واعتمد على أنه حتى نهاية فترة السنوات العشر ، فإن ٥٦٪ من البنين فى المناطق الحضرية و٢٩٪ فى المناطق الريفية سيجدون تسهيلات للتعليم فى المرحلة الأدنى (مجرد معرفة القراءة والكتابة) والمدارس الأولية . إن أهم ملامح البرنامج هو الاقتراح بمتابعة هؤلاء الأولاد عن طريق تعليم الكبار وتطوير مراكز المجتمع الريفى ، وتكوين مكتب النشر ، وسيوفر هذا الأخير مطبوعات جيدة مبسطة من الأدب العربى ، ويمكن بذلك مساعدتهم حتى لايعودوا إلى الجهل.

٢- التحول الفكرى والاجتماعى

إن الموقع الجغرافى والطبيعة الصحراوية للسودان عزلته عن أى اتصال ثقافى واقتصادى مباشر مع أوربا ، وكان هذا معناه أن اتصاله بمصر كان مهماً جداً ، ومن ثم فقد أدى استمرار كل العناصرالثقافية الجديدة إلى تطوير دولة «عربية» ، وسدت مصر بطريقة ما الفجوة مابين الفقر الفكرى والاجتماعى الذى ورثه السودانى المسلم وبين الحياة الأوروبية .

والسودان بلد أدى الاستغراب فيه بدرجة ما إلى تكوين «بوليتاريا فكرية» (الأفندية)، وبدايات الصراع للمشاركة فى توجيه الدولة . ومن الخطأ إطلاق كلمة «طبقة» على الأفندية . إنهم مجرد «نزعة» ، إذ لامكان لهم فى المخطط الاجتماعى التقليدى ، إذ هم من كل الطبقات . ولايوجد حتى الآن أى تغيير فى الحياة الاجتماعية،

ولم ينفصل الأفندى عن أسرته ، ولكن هذه النزعة أو أى تغير فى الاتجاه الفكرى والحياة الاقتصادية سيؤدى إلى التغيرالاجتماعى .

والأفندية هم أولئك السودانيون الذين تلقوا التعليم العصرى ، ويرتدون الملابس الغربية ، ويعانون التمزق الثقافى والحياة الدينية . وقد جاءوا بشكل أساسى من قبائل الدناقلة – الجعليين النهريين الذين لديهم مستو عالٍ من الذكاء ، وروح استغلالية أكبر من خلال غياب طبقة العبيد ، وهم أكثر تطوراً نحو الروح الاجتماعية مقارنة مع الروح الفردية للعرب. والأفندية متساوون فى التدريب والوظيفة ، فكلهم تلقوا تعليمهم فى السودان ، إما فى المدرسة الوسطى أو فى المدرسة الثانوية .إن أسلوب ومحتوى التدريب فيما عدا الدين هو الأسلوب والتدريب الغربى ، وتأثيرة تأثيرممزق ، فضلاً عن كونه تأثيراً موحداً . لقد عرض عقولهم لدمار دائم ، ولكنه ترك أرواحهم جائعة ، وقد تعلموا كيفية أداء العمل الكتابى أو الفنى ، وليس كيف يعيشون.

إن البيئة الاجتماعية للأفندى تقيده بشكل كلى، وقد تم جره الآن إلى استشراف أوسع مما جعله يدرك أنها تكبله وتتركه عرضة لصرا ع الولاءات والغايات ، وقد صنف الناظر السابق لكلية غردون (الأولاد الذين هجروا) المدرسة فى ثلاثة نماذج فكرية:

١– أولئك الذين رفضوا الأفكار العصرية وأساليب الحياة وأصبحوا مسلمين متعصبين.

٢– أقلية أصبحت غير مؤمنة سراً ، والتصقت بالنظام الاجتماعى ، ولكن لاتأثير للدين على حياتها.

٣– أغلبية احتفظت بأفكارها العصرية والدينية فى أقسام منفصلة ، مما أدى إلى الشخصية المنفصمة.

ويجب أن نأخذ فى الاعتبار حقيقة أن للمدرسة تأثيرات تربوية على السودانيين ، أما العوامل الأخرى فهى الصحافة والسينما والإذاعة ، وقبل كل شئ العمل فى مكاتب الحكومة والورش والمزارع والمستشفيات التى توظف مختلف درجات القيم بدءاً من بيئته المعتادة التى تؤثر فيه بشكل طبيعى.

وسنشير إلى كل من تلقى مبادئ القراء ة والكتابة بالمتعلم (غير الأمى) ، ولكن هل كلهم كذلك ؟ ، إن كل خريجى المدارس الأولية هم فقط الذين يمكن أن نطلق عليهم شبه متعلمين ، إذ إن هذه هى طبيعة اللغة العربية والتدريب عليها ،وهم لايستطيعون قراءة الصحف بسهولة ، ولعدم وجود صفوف مدرسية أخرى أو فصول محو الأمية فإن الأغلبية لايستطيعون القراء ة أبداً مرة أخرى ، ولكن يجب أن نستمر . إن أولئك الذين

لايستطيعون القراءة بذكاء وفهم ، والذين يطلق عليهم «الأمية الوظيفية» ينطبق على معظم خريجي المدارس الوسطى والثانوية الذين توجد بينهم الأمية الاجتماعية والسياسية والدينية . إن الصعوبة في هذه الحالة ليست كبيرة كما هي الحال بالنسبة للغة ، لأن عقلية المسلم وتيار فكره الدخيل جاء من التقليد والمحاكاة من مصر المسلمة.

قلنا إن القاهرة هي مكة الفكر بالنسبة للسوداني ، إنها تصب سيلاً من الصحف والمجلات والمطبوعات الدينية والعصرية ، ويمكننا أن نلمس في مقاهي أم درمان تصارع التيارات الفكرية وتفسخها والتعديلات التي يسببها تأثير الفكر الغربي على الأفكار الاجتماعية والسياسية . إن كتاب محمد حسين هيكل « حياة محمد » وأعمال طه حسين والمصريين الآخرين تمت قراءتها كلها بشغف ، وابتعد الكثيرون عن إيمانهم التقليدي ، وأصبحوا كقطيع بلا راع.

ولاتتعمق مع ذلك دنيوية الأفندي كثيراً ، إذ يظهر في وقت الأزمات تأثير سنوات تكوينه الأولى التي عاشها في الحوش مشرباً بالخرافة ، فهو ينشد العلاج الطبي العصري ، ولكنه لن يقاوم لفترة طويلة حث الأسرة له على زيارة الفكي ، وسيظهر موقفًا لا أدريًا مع أصدقائه في يوم ، ومدافعًا عن الإسلام في اليوم التالي في حشد من الناس ، وسيستمع في أسبوع لمحاضرة في النادي الثقافي حول وضع المرأة ، والأسبوع الذي يليه سيكون عريسًا مزينًا معطونًا «بالدهن» . كما أن لديه غرفه لاصدقائه مفروشة على الطراز الأوربي ، وفي الجانب الآخر تعيش زوجته في القذارة المعتادة . إنه مثقف جبان لايجرؤ سوى على نقد الطرق القديمة في محيطه الخاص ، لأنه يخشى لوم من هم أكبر منه سنًا . ولخوفه فهو لايملك أبدًا موقفًا عقليًا علميًا تجاه الإسلام كعقيدة أو كنظام اجتماعي ، ولايكيف إيمانه لبرنامج حياته الجديدة ، وهو يتشبث بيأس بالنظام كموقف تجاه العالم الغربي الذي يعارضه الإسلام شاعراً بأنها الوسيله الوحيدة لأمنه . وينشأ عدم استقرار سلوكه الأخلاقي من حقيقة أن تدريبه الديني المبكر لم يعلمه أن لدى الدين كل شئ إزاء أخلاق الحياة اليومية ، وخطأ بالنسبة له – كما بالنسبة لأي ريفي – ماتحرمه الشريعة ، وصحيح كل مايبعده عن تلك المحرمات.

زيادة على ذلك فالأفندية متساوون في الوظيفة . إن هدف التعليم بالنسبة لهم – وكل طموحهم في الحياة – أن يصبحوا موظفين حكوميين ، سيتقاضون معاشًا في المستقبل . إن التعليم يعني للأفندي نوعًا من التدريب على التجارة. إنها وسيلة تجعله من بين المحترمين المهابين ؛ لذا فأي ثقافة يحصلون عليها هي مجرد ثقافة ظاهرية وسطحية ، ويكمن هنا الخطر في أن التدريب الغربي الذي تلقاه – منفصلاً عن التعليم الأخلاقي– لايؤدي إلى استقامة الخلق أو تطور روح المساعدة ، هذا هو السبب في لماذا لايتعلم المسئولية ، وأن إشراف الأوربيين ضروري دائمًا إذا ما أردنا الإبقاء على المستويات الأوربية . فعقله يعمل كعقل الفلاح ، وبإمكانه التقليد والمحاكاة ، وأداء كل

مايأمره به رئيسه ، ولكنه عاجز تماماً عن الاتصال بالمعرفة ، ولايمكنه رؤية الأشياء ككل ، والأكثر خطورة هم أولئك الذين تلقوا تعليماً بسيطاً للحصول على منصب جيد، ولم تستطع الإدارة أو التجارة استيعابهم كلهم ، وتم لفظ غير الصالحين والأقل ملاءمة ليعيشوا حياة غير مستقرة متطفلة على أسرهم أو على وظائف زهيدة الراتب . ولهؤلاء وجوداجتماعى كئيب ، ونضالهم من أجل العيش فى مستوى حياة جيدة بمرتب منخفض لهو أمر محزن ، مما يؤدى إلى السخط وعدم الرضا .

لاشئ يوقف انتشار روح الأفندية ، وتريد الحكومة فى الأساس الكتبة ، ولأنها وضعت عملية الإنتاج فى حركة فقد وجدت نفسها فى مأزق قاسم بابا فى قصة «على بابا والأربعين حرامى» الذى عرف العبارة التى يدخل بها الكهف ، ولكنه لم يعرف بقية العبارة التى تخرجه من الكهف . إن الشكوى المرة للأفندى هى أن الحكومة تحاول تقييد التعليم العالى مفتاح الثراء والشرف ، واذا لم توفره الحكومة فإنهم سيتجهون نحو توفيره لأنفسهم مفترضين أنه إذا كان هناك رجال مدربون فإن الحكومة ستخلق الكراسى المطلوبة للمكتب[1] .

قد يكون الأفندية مخطئين فى مفهومهم عن أهداف ومفاهيم التعليم ، ولكن لايمكن تجاهلهم ، لأن مستقبل البلاد يعتمد عليهم . إن المستقبل كئيب جداً أمامهم دون إعادة تكييف روحى عميق ، وهم فى حاجة إلى توجيه لدمج الدنيا الجديدة للعلوم والتقنيات مع الأخلاق والدين الذى سيعيد لأرواحهم المشوهة الصفاء ، كما سيرضى كل الناس.

ولايوجد حتى الآن ردود فعل عميقة تقف فى طريق التحول الاجتماعى ، والقليل الموجود – رغم أنه يؤثر على رجل الإدارة – يبدو ظاهرياً . إن «الاستغراب» فى دولة إسلامية – بسبب طبيعة النظام الاجتماعى للإسلام – لاتأثير كبير له على الحياة الاجتماعية ، كما هو الحال فى المجتمعات الإفريقية الوثنية. وللإسلام مناعة تامة ضد أى مخاطر من نظام المدنية الغربية أساساً ؛ لأن المدنية قدمت للمسلمين مجردة من هذه العوامل الروحية التى تقدم وحدها مشروعيتها، والتى يعارضها بلا هوادة . ومن جهة أخرى فإن الإسلام نفسه لايغير شكله الاجتماعى ؛ لأنه لايسمح بالتطبيق الاجتماعى الحر ، ويمكن القول إنه ليس لديه الأسس ، إذ التزم بتثبيت الأحكام ؛ لذا فإن أى تكيف (انسجام) للأفندى مع المقاييس والمعايير الغربية هو مجرد تكيف ظاهرى ، وليس حقيقياً.

لقد بيَّنا أن الأفندى – مثل المسلمين فى أى مكان– مازال يحيا حياة ذات شقين . فحياة أسرته منفصلة تماماً عن الحياة التى يعيشها فى مكتبه ، ومع أصدقائه فى

(١) بدأت المدارس الاهلية الوسطي التي أدارتها هيئة من السودانيين أولا فى أم درمان والأبيض ، كما خطط لمدرسة أخري بالفاشر ، وإحدى أشهر هذه المدارس أسسها بابكر بدري – وهو رجل عصامى علم نفسه بنفسه – ، وقد بدأت كل هذه المدارس فصولاً ثانوية في عام ١٩٤٢–١٩٤٤م.

المقاهي والنوادى . لقد كان موجوداً دائماً التميز الاجتماعي الذى ارتكز على السلالة ، ولكن هناك الآن اشارات بسيطة ، وذلك على أساس الوظيفة والثقافة والثروة ، وقد يبدى الأفندى غروراً وتكبراً ، ولكنه مايزال واحداً من الأسرة.

لن نتوقع الكثير من الذى قيل قبل أن نجد أى إحساس حقيقى للقومية فى السودان الشمالى ، رغم وجود ثقافة مشتركة وإرث دينى [1]، كما أن الوطنية بالمفهوم الذى نعرفه غير موجودة ايضاً ، وقد حل محلها ذلك الإحساس الغامض بوحدة المؤمنين ضد العالم الغربى.

ولاتشعر الجماهير التى كانت دائما خاضعة بأى تغير سياسى حقيقى تحت الإدارة المباشرة السابقة على النظام الحالى ، عدا إحساسها بالأمان من المجاعة والجيران المعادين ، ومنذ ذلك الحين أصبح هناك تنازل تدريجى من السلطة عن طريق الإدارات المحلية لقبيلتهم القديمة أو للرؤساء الأبويين ، وقنعت الجماهير بنتيجة القرعة السياسية ، وفى الوقت ذاته قدم النظام الحالى الأفندية الذين - من خلال تدريبهم على أسس التعليم الغربى وعملهم فى إدارة واحدة - نَمّوا إحساساً بالتضامن السودانى، وأصبحوا ملتحمين معاً بالمصالح المشتركة والطموحات التى وجدوها فى الصراع مع السياسة التنازلية للحكومة ، مع دعم السلطة التى لايفضلونها . وقد أدى هذا إلى التعبيرات القومية الوليدة عن طريق مؤتمر نادى الخريجين الذى رغم أنه بدأ من عام ١٩٢٤م تم التعبير عنه لأول مرة فى بداية الحرب عام ١٩٤٠م ، وقد أدى إلى النقد السلبى لما تفعله ومالا تفعله الحكومة ، ومازال ضعيفاً ؛ لأنه لم يكسب لا ود السودانيين حسنى الإطلاع ولا سكان الريف . إنه تعبير عن إيقاظ فردية الا نتلجنسيا الذين حجب عقولهم النظام الغربى ، وأثارتهم صحافة القاهرة عن التغيير والحديث المتسم بالتقليد والمحاكاة حول أفكار الحرية التى ليست لهم خلفية للإحساس بها ، وأثارهم لرد الفعل السياسى لمصلحة طبقتهم ، ويدركون فى الوقت نفسه أكثر فأكثر مغزى الأحداث السياسية الخارجية - خاصة أى حدث مثل العلاقة بين السودان ومصر، والحرب الإيطالية الحبشية والحرب الحالية وميثاق الأطلنطى - التى قد تكون لها علاقة بمستقبلهم .

الإحساس السياسى فى السودان كأى شئ آخر لايمكن فهمه دون أخذ الدين فى الاعتبار . لقد انقسم نادى الخريجين - الذى بدأ أساساً كناد للأفندية الذين تلقوا تعليماً فى المدرسة الوسطى فى عام ١٩٣٢م إلى طائفتين (مهديين وميرغنيين) عند انتخاب الرئيس . وهاتان الطائفتان هما الآن الحزبان الرئيسيان : الأمة والأشقاء . إن

(١) عندما تسأل أي شخص «جنسك إيه» سيجيب : جعلي أو سكوتي أو بشاري أو شايقي ، وليس سودانياً . وقد تبني الأفندية هذا المفهوم الواسع عن المسئولين البريطانيين ، ويستخدمونه الآن للتعبير عن طموحاتهم السياسية.

هذه «الحركة القومية» هى خطوة نحو بلوغ سن الرشد ، وقادتها الحكومة بحكمة نحو القنوات التى تؤدى إلى التقدم ، وتمهد الطريق من خلال الحكومة المحلية والمجالس الإقليمية نحو مستوى أعلى لتقرير المصير.

وكانت نتيجة التحول لدى المزارعين هى أن القرى بدأت تدريجيًا ، وخاصة منذ تطور النقل بالسيارات فى التعلم والفهم ، ودخلت الإمكانيات الجديدة حياتهم ، وبدأوا فى كسب مفهوم أوسع عن العالم ، وأصبح المزارعون على اتصال وثيق بالمراكز الكبيرة ، وأصبح لبعض القرى مدارس أولية ، كما يذهب بعض الأطفال إلى المدرسة أو يعملون فى المدن ، ولم تغز بعد المقاهى ووسائل «الإثارة» الأخرى القرى عدا تلك التى على طريق التجارة ، رغم انتشار أنماط المغامرة الغريبة ، ومازال الفكى محترمًا ومبجلاً كناظر للمدرسة ووسيطًا روحيًا . وهناك أنواق بعينها لم تتغير عن طريق الازدهار الكبير والحصول على وسائل جديدة من وسائل الراحة كالشاى والسكر اللذين أصبحا من ضرورات الحياة ، وصارت بعض العادات القديمة مهجورة مع الحقائق الاقتصادية الجديدة ، ولكن لاتوجد إشارات تقود إلى تطور نظام اجتماعى جديد . وكان للخدمة الطبية الحكومية والمستوصفات والقابلات تأثير كبير على الصحة ، فالبلهارسيا – الوباء الذى تعانى منه مصر – والأمراض الأخرى قد تمت مراجعتها ، كما أن الحكومة مدركة بشكل جيد أهمية الطب الوقائى ؛ لذا فقد أعدت مشاريع لتطويره بعد الحرب . إن الأحوال المخيفة التى يتم فيها تنشئة الأطفال ، والانتشار الكبير للأمراض كالزهرى والملاريا تقلل بشكل كبير من طاقة وكفاءة الفرد .إن المشكلة هى أن العلاج الطبى هو مجرد مسكن مالم يتم تغيير البيئة ، كما أن الضعف هو الوضع الذى تعيش فيه الأسرة المسلمة ، ويبدو بلا جدوى مثلاً علاج الأمراض التناسلية طالما المريض يعود بعد أسابيع قليلة بشكل أسوأ عما كان عليه فى السابق.

وهناك بعض التقدم تجاه القوانين والأحوال الاجتماعية المناوئة ، ففى السابق لم يكن لأى سودانى مفهوم عن القانون كشئ ذى قيمة متأصلة وبالتالى فهو شئ يجب أن يطيعه الجميع . وهم يعتبرون القوانين قوانين استبدادية فرضها أولئك الذين بيدهم السلطة ، وهم بالتالى سيحاولون التهرب منها بكل الوسائل الممكنة كتقديم رشوة للحاكم ، وتتولى المحاكم الأهلية المسئولة أمام الحكومة المركزية لتحقيق العدالة وحفظ النظام ، وأهميتها المتزايدة لفرض العقوبات الرادعة بدلاً من تطبيق العرف . كل ذلك أدى إلى وجود إحساس جديد بالقانون ، وفى الوقت ذاته يجب التأكيد على أن المجالس القبلية والقروية مازالت ترتكز فى قراراتها بشكل كبير على العادات القديمة، وأن التغيير بالنسبة للفرد مازال مجرد رضا متزايد فى إمكانية الحصول على العدالة.

لقد تبدل إيقاع حياة المزارع ، حقيقة «أن لا أحد يستحم فى النهر نفسه مرتين»، لذا ولأسباب عملية للاستحمام يبقى النهر نفسه ، ومن ثم فإن «روح» حياة القرية لم

يتغير رغم أن جريان النهر قد يكون أسرع ، وأن أشياء غربية جديدة ترى طافية . إن التحولات التى جلبها الغرب غير متصلة بجوهر روح مجتمع القرية ، وهذا ليس خطأ الفقر ، فالمزارع فى حال أفضل عما كان عليه فى السابق، وقد ذهب الخوف من المجاعة ، ربما يعود الخطأ جزئياً لمشكلة تدريس لغة «الكتاب» الذى حتى عندما يعرف الإنسان كيف يقرأه يتركه غريبا عن تبادل الأفكار ، ولكن السبب الرئيسى هو أن كسل القروى حددته البيئة العقلية والجغرافية التى ورثها ، والتى تجعله يتشبث بيأس بالحياة التى يعرفها .

إن أساس المشكلة بالنسبة لأولئك الذين يخططون لمستقبل السودانيين المستقرين هو الاستمرار بكل ذلك فى انسجام جوهرى مع حياة أولئك الذين يجب أن يبقوا زراعيين ، ومن ثم شغلهم بشئ جديد وحيوى يؤثر بشكل قوى على حياتهم الداخلية لدرجة تجعلهم متحركين وليسوا جامدين . وبقدر اهتمام الإداريين بحاجة المزارعين فهناك بعد نظر فيما يتعلق بالموارد المالية الريفية التى تم توجيهها نحو القيم الثابتة ، بعكس الموارد المالية الحضرية والمكاسب العاجلة ، وسيأتى التقدم الحقيقى من الحرية – عدم التراخى فى المعنى الأصلى لتعبير e.ducere ، لذا فبرغم أنهم مازالوا مقيدين ببيئتهم الطبيعية فإن حياتهم العقلية والشخصية قد تكون مفعمة بالحيوية والنشاط.

وكان تأثير الحكومة المستقرة على البدو موجهاً نحو الدمج أو الاستقرار ، وكان الكثير من البدو دائماً على استعداد لانتهاز أية فرصة للهروب من عدم الاستقرار والزعزعة إما بالانضمام إلى قبائل أكبر أو التحول إلى شبه البدو ؛ لذا فإننا نجد فى السودان بدواً فى مختلف مراحل التحول . إن الأحوال المعيشية للبقارة مثلا ، قد تعدل عن طريق إدخال زراعة القطن ، رغم أن المكاسب مازالت فى الماشية ، وتسير بسرعة وسط البجة «عملية التوحيد تحت حكم الحكام المحليين ، كما تجذب التجمعات القبلية مثل اللقاءات الرياضية والسباقات فى هذه المناسبات الرغبة الشديدة لتصفية الضغائن والعداوات وحل النزاعات والخلافات عن طريق الاتحاد».

٤- التحول الاقتصادى

السودان فى وضع اقتصادى غير سار ، فامتداد الصحراء وطبيعة التربة والحاجة للرى المناسب لبعض المناطق بعينها وصعوبات المواصلات كل ذلك يمنع أى تنمية واسعة ، ولايوجد أى مجال من مجالات الحياة قد تغير ، كما هو الحال بالنسبة للحياة الاقتصادية . إن تأثير الحكومةالغربية – جالبة معها الأمن والاصلاح الادارى وتسهيلات النقل – أدى إلى التغلغل الاقتصادى بشكل أكثر أو أقل إلى كل قطاعات الفلاح والبدوى، وأصبح للنشاط الاقتصادى تأثير بعيد المدى على حياة الناس.

(١) تقرير الحاكم العام عن السودان ١٩٣٠م.

ويسود السودان ثلاثة نماذج للتنظيم الاقتصادى من خمسة نماذج ذكرها لورد هيلى فى African Survey [(١)].

١- حيث يوفر الأوربيون رأس المال والإدارة الفنية والنقل والتسويق ، ويكون الأهالى مسئولين - تحت نوع من الرقابة - عن الإنتاج الزراعى . وقد وجد هذا النموذج فى مشروع الجزيرة ، وهو تعاونية ثلاثية بين المزارع والقطاع الخاص والدولة [(٢)] . وتؤجر الدولة الأرض ، وتعطى الرقابة على الزراعة والتسويق إلى النقابة ، ويقوم المستأجرون وهم أصحاب الحق الأصليون فى الأرض بزراعة وجنى القطن ، ويتلقون نصيبًا محدداً ، كما يمنحون قطعاً من الأرض لزراعتها بما يحتاجونه من المحاصيل المعيشية الأخرى.

٢- حيث يتولى «السكان المحليون تمويل الإنتاج الزراعى دون أية استشارة أجنبية ثابتة ، ودون أى أعمال أجنبية مقصورة على تسويق ونقل المنتجات» ، كما فى زراعة القطن فى جبال النوبا ، ومشاريع الطلمبات التعاونية فى دنقلا .

٣- اقتصاد الزراعة البدائية السائد فى أغلب أجزاء السودان ، وأصبح العديد من المزارعين فى مناطق زراعة القطن فى الجزيرة والقاش وطوكر مرتبطين بالاقتصاد الأوروبى ، ومن ثم الاعتماد على مصانع تقع خارج نطاق سيطرتهم ، وقد اتخذ المشروع الإجراءات الوقائية ضد مخاطر هبوط الأسعار فى منطقة كبيرة كمشروع الجزيرة يعتمد على محصول واحد ، وتم بقدر الإمكان توفير الاستقرار للمزارعين ، بالإضافة إلى التدبير الكامل لزراعة الذرة لتوفير الطعام للبلاد كلها ، ونمت قرى بجاوية جديدة على طول ضفاف قنوات منطقة زراعة القطن فى القاش وبركة ، حيث يؤثر ازدهارهم على حياة القبائل البدوية.

وقد شهد السودان تحت الحكم الحالى تحولاً بسيطًا فى السكان مقارنة مع ماكان عليه فى عهد المهدية ، وهناك زيادة كبيرة فى توظيف العمالة الموسمية ، كما هاجر شرقًا الغرابة (الدارفوريين والفلاتة) والنوبا للعمل فى الجزيرة ، وقد نجحت قليلاً المحاولات التى بذلت لتحسين الوسائل البدائية فى الزراعة المتعلقة بالمحاصيل المعيشية، حتى وإن كان المزارعون يعملون فى الوقت نفسه فى محاصيل مثل القطن تحت ظروف جديدة ، وتلاشت الصناعات الوطنية ، ولكن التأثير الغربى لايلام على ذلك ، إذ إنها تلاشت قبل إعادة الفتح . فالدمورية مثلاً انخفض إنتاجها بسبب استيراد الأقمشة الرخيصة ، ومع ذلك فقد أدت الحرب لأن تشجع الحكومة إحياء الغزل

---

(١) ينظر . African Survey p.i. 360.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥٢-١٠٥٥.

والنسيج كماتركزت الثورة الاقتصادية فى المناطق الريفية حول الأسواق ، ففى السابق، وبسبب مخاطر السفر كان رجال القبائل مقيدين بحدود قبائلهم ، أما الآن فإن مد السكك الحديدية والطرق وتطور النقل بالسيارات والسفر الآمن نمى الأسواق الريفية وربطها بشكل أوثق مع بالمدن ، وزالت الأسواق الكبيرة السابقة ، وتطورت أسواق جديدة أخرى لموقعها على طول الطرق المؤدية إلى أسواق المدن ، واستقلت السودان تجاريًا عن مصر وذلك بمد السكك الحديدية إلى بور سودان وتمركزت التجارة فى الخرطوم وأم درمان وبور سودان، وكانت النتيجة تلاشى مراكز الأسواق القديمة (بربر والدامر وشندى والمتمة) ، وتطورت مراكز جديدة (أم درمان وعطبره ووادى حلفا وكريمة وودمدنى).

وبينما تعتمد الأغلبية السكانية على الأرض فإن نمو الاقتصاد المتركز فى المدن جذب الكثيرين للاعتماد على الاقتصاد غير المرتكز على الأرض ، كما أن إيقاع الحياة فى المدن سريع وأكثر إمتاعًا ، كما يمكن شراء وسائل اللهو والهيبة الاجتماعية ؛ لذا فالحوافز الاقتصادية الجديدة - المبنية على الرغبات الجديدة - استحوذت على العديدين فتح الطريق لإشباعها .

هناك شئ واحد يجب التأكيد عليه وهو أنه بينما يقع مركز الجاذبية الاقتصادية بالنسبة للكثيرين خارج المنطقة التى ولدوا فيها ، فإنه لم يؤد لأن يحاول الأفراد تحرير أنفسهم من الروابط العائلية ، فمازالت الأسرة تمسك كما السابق بقوة ، ويتم رعاية أولئك المعدمين من أفراد الأسرة .

ومن الطبيعى أن يكون هناك تفاوت كبير بين الأحوال الاقتصادية لسكان الريف والحضر ، ومع ذلك فهناك القليل من ملاك الأرض الأثرياء (عدا الزعماء الدينيين) كما فى مصر يعيشون مباشرة على عمل المزارعين ، زيادة على ذلك فإن المجموعات التى تبيع منتجات الفلاحين (عدا القطن) إلى الأسواق الخارجية ، وتستورد السلع المصنعة هم الأجانب ، يونانيون وسوريون وأرمن . إن تفاوت الثروة وسط السودانيين أنفسهم هو أساسًا بين المنتج الزراعى والأفندى الذى لايمكن القول بعد أنه أصبح عضوًا فى الطبقة الجديدة ؛ لأن ارتباطه بقريته لم ينفصم ، وقد نجده هناك خلال الإجازة يعيش حياة الفلاحين ، ويمكن القول عمومًا إن المنتج السودانى قد منح فرصة عادلة التدريب والإشراف وتسويق إنتاجه ؛ لذا فإن مستقبله الاقتصادى من خلال حدوده الضيقة التى فرضتها البيئة محمية ومصانة .

٥- المرأة والتحول الاجتماعى

بينا أنه بينما تحكم العادة الحياة الاجتماعية ، فإن الشريعة هى التى تحكم العلاقات الأسرية ؛ لذا فإمكانيات تطور المرأة فى بيئة كبيئة السودان محدودة جداً، ومن الواضح إن تدريب الفتيات أمر حيوى بسبب ما يمكن أن يقمن به لسعادة المنزل والمجتمع . إن تدريب أم المستقبل مهم بشكل خاص فى بلد يرتكز نظامه الاجتماعى على أنانية الرجال ، حيث لامكان للمرأة فى تأسيس وبناء النظام ، وارتباطها مع الماضى مبنى على العادة والخرافة.

وللإرساليات الريادة فى تعليم المرأة ، وتلتها الحكومة التى قامت بافتتاح كلية لتدريب المعلمات فى أم درمان عام ١٩٢١م ، وفى عام ١٩٢٣م كان هناك ٢٢ مدرسة ابتدائية بها ٢٢٠٣ تلميذة وفى عام ١٩٣٨م أصبح هناك ٣٥ مدرسة تضم ٣٤١١ تلميذة ، وكانت الطالبات يتعلمن القراءة والكتابة والحساب وقراءة القرآن ، أما بقية الدراسة فقد صممت لتكون ذات فائدة للحياة المنزلية كالعادات الصحية ورعاية الأمومة وأشغال الإبرة والطبخ . وتم افتتاح مدرسة وسطى للبنات فى أم درمان عام ١٩٣٩م . وقد أكدت بعثة ديلاوار فى عام ١٩٣٨م على الحاجة للتوسع فى تعليم البنات ، ومد فترة الدراسة وتوفير وسائل أكثر لتدريب المعلمات ، وكان التقدم بطيئًا جداً ، وكانت معظم هذه المدارس فى المدن ؛ لذا فلم تمس سوى نسبة ضئيلة من النساء ، وقام العديد من أولياء الأمور بإخراج بناتهم من المدارس فى سن الحادية عشر أو الثانية عشر ليسجن خلف أسوار الحوش حتى الزواج ،وقد اختفت سريعاً الآراء المعارضة لتعليم المرأة - ذلك الأمر الذى تغلبت عليه الإرساليات فى عملها الريادى - لدرجة أن القبائل البدوية طالبت بالمعلمات للفتيات . ويقول تقرير الحاكم العام لعام ١٩٣٠م:

> فى الاجتماع الأخير لقبيلة الأمرأر دافع الناظر بشدة عن تعليم المرأة ،وكانت أسبابه لدعم تعليم المرأة شيقًا إذ قال أليست الفتيات هن اللائى ينهضن بعبء معظم المشاجرات والمعارك، وكيف يستطيع الزوج الغائب الاتصال بمن تشاركه أسراره فى المنازل إذا لم تعرف فتياتنا كيف يقرأن ويكتبن[١].

وكان العلاج الطبى يلقى معارضة الحبوبات والفقرا ، وحتى اليوم يتم فى المدن إحضار المريضات إلى المستشفيات بعد أن تفشل معالجة الفكى . وتم فى عام ١٩٢١م افتتاح مدرسة تدريب الدايات فى أم درمان ، وتوجد اليوم دايات مؤهلات فى المناطق الريفية النائية . إن التأثير العام للمدرسة والأعمال الطبية فى المدن أدى لأن يصبح العديد من الأطفال أنظف وأفضل رعاية ؛ لأن النساء تعلمن حكمة زيارة المستوصفات ومراكز الرعاية والمستشفيات . إن تدريب فتاة القرية من الأمور المهمة جداً ، ولاتوجد حركة نسائية كما هو الحال فى مصر ودول الشرق الأدنى الأخرى .

(١) Report on the Sudan , 1930, pp.12.13.

ولم تتأثر جذور الحياة بالمرة ، ولايوجد تنوير فيما يتعلق بقيود العادة والخرافة ، وحتي المتعلمون من الرجال لايظهرون أى إشارات لإدراك وضع واحتياجات المرأة ، وفيما يتعلق بالبحث عن المتعلمة لاتخاذها زوجة تتجاذب الأفندى طريقان ، وليس أمامه من خيار فيما يتعلق بالزوجة ،فهو يخشى أن تطالبه الزوجة المتعلمة بحياة جديدة ، وأن تصبح متحررة أكثر مما ينبغي ، وفي الوقت ذاته يحب الزوجة التي يمكنها التحدث فى أشياء غير أحاديث القيل والقال ، والملاطفة المتبادلة والمشادة بشأن حلية جديدة ، كما تعاني الزوجة المتعلمه السجن ذاته مثل الأخريات ، وعموماً فكل ماينشده الأفندى هو زوجة ألعوبة وأماً تلد له الأطفال .

٦- الصحافة

الصحافة مهمة جداً فى الحياة العصرية للدولة المسلمة ولايمكن تجاهلها فى هذا المسح ، لأنها برهان أخر لتضامن النظام الإسلامى . إن الفكر السائد فى الافتتاحيات هو الفكر الاسلامى ، وهذا أمر طبيعى لأن الصحيفتين اليوميتين (النيل وصوت السودان) يملكهما زعيما الطائفتين الدينيتن (المهدية والميرغنية) ، وتعكس توجهاتهما، ولكن فى الواقع بسبب وجود الشئ نفسه فى الدول الاسلامية الأخرى بالإضافة الى الدينيين ، فإن الانحياز الإسلامى مرجعه هيمنة الإسلام على كل مناحى الحياة ، ومع ذلك فقد أدت هذه الملكية الدينية لأن تصبح هذه الصحف أقل حرية عما هى عليه فى الدول الإسلامية الأخرى . وقد جلبت الصحافة فى الوقت ذاته طوفاناً من الأفكار الجديدة التى لاوجود لها فى النظام التقليدى ، وبرغم ذلك فقد تمت مثلاً مناقشة وضع المرأة بكل حرص.

وكانت للصحافة مكانة بارزة فى السودان عما هى عليه فى البلاد الإسلامية الأخرى ، ولم تزد نسبة من يعرفون القراء ة والكتابة عن ٢٪، وأقل من هذه النسبة ينفقون يومياً قرشاً واحداً لشراء الصحف[١] . كما أن هناك قراء ة للصحف بصوت عال فى المقاهى[٢] ، ومن ناحية أخرى فإن الصحافة هى مؤشر لتيارات الأفكار التى يتم تداولها فى المقاهى والنوادى ، برغم أن صحافة السودان تعتمد بشكل كبير على مصر فيما يتعلق بالأخبار واتجاهات الرأى.

(١) أرقام التوزيع اليومية هي : النيل ١٢٠٠ نسخة وصوت السودان ٨٠٠ نسخة (١٩٤٢م) ، والأرقام الحكومية لمن يعرفون القراءة والكتابة هي ٢.٢٪ عام ١٩٣٧م و ٤٪ عام ١٩٤٢م.

(٢) كان لتطور الحرب الحالية وإذاعة الأنباء بالإذاعة تأثير أكبر.

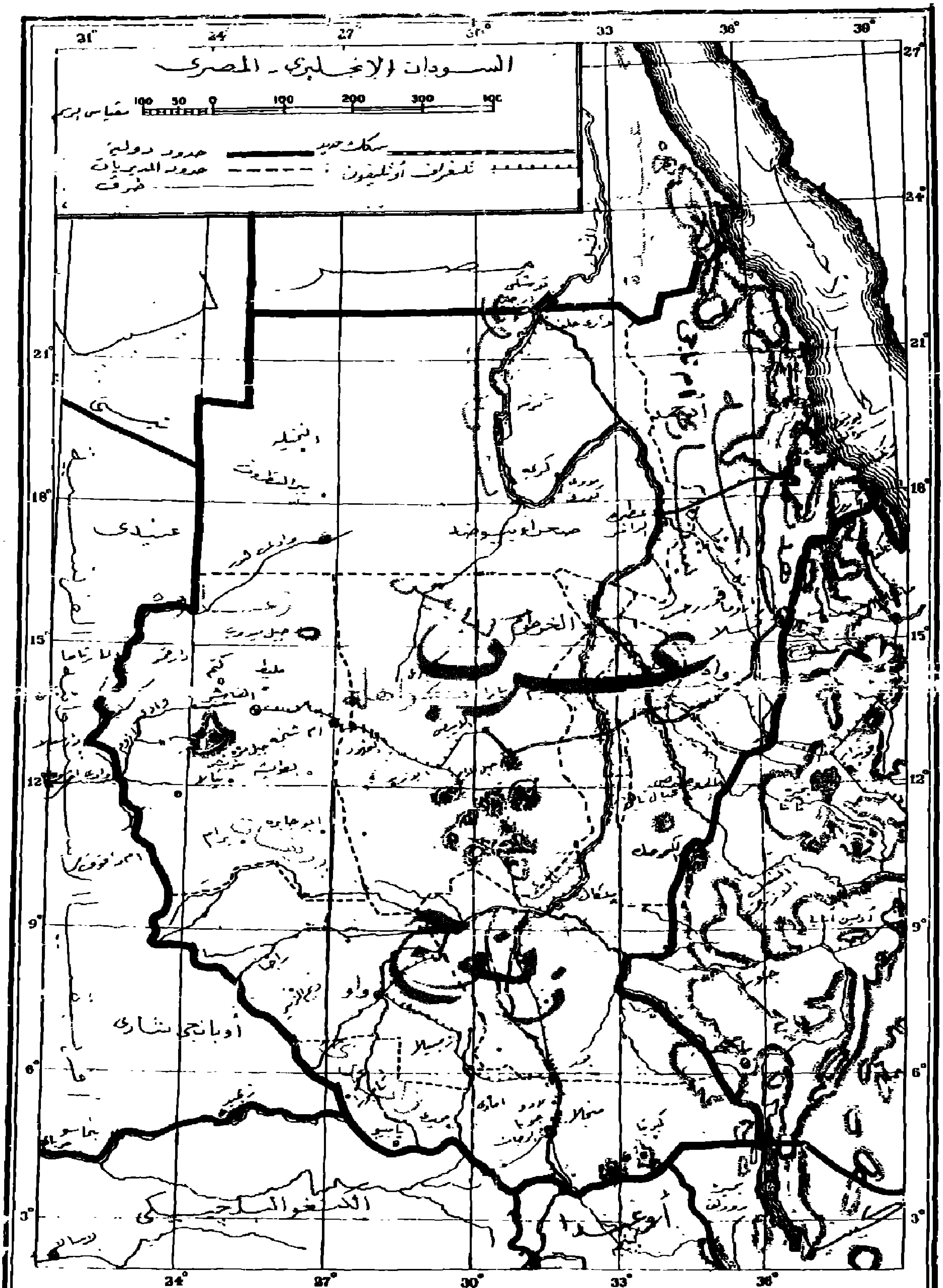
السودان الإنجليزي - المصري
100 50 0 100 200 300 400
حدود دولية
سكك حديد
حدود المديريات
تلغراف أو تليفون
طرق
الخرطوم
أوبانجي شاري
الكنغو البلجيكي
أوغندا

فهرس أسماء الأعلام والأماكن والبلدان والقبائل

أ

أبا ، الجزيرة
إبراهيم باشا
إبراهيم ، سلطان دارفور
إبراهيم بن آدم
إبراهيم البولاد
إبراهيم الدسوقى
إبراهيم الرشيد
إبراهيم ولد أم رابعة
الإبراهيمية
إبريم (بريمس)
ابن ابى زيد القيروانى
ابن بطوطه
ابن تومرت
ابن جنبلان
ابن خلدون
ابن سعد
ابن سعيد
ابن سليم الأسوانى
ابن مسعود
ابن سيرين
ابن طولون
ابن عبد الحكم
ابن العربى
ابن الفارض
ابن سره
ابو بكر
ابو جريد
ابو الحسن الشاذلى
أبو حمد ١٢
أبو حنيفة

أبو دليق
أبو زيد
أبو سرور الفضلى
أبو شريعة
أبو صالح
أبو عبد الله بن سليمان (انظر الجزولى)
أبو العباس المرسى
أبو الفضل علامى
أبو القاسم احمد هاشم
أبو القاسم القشيرى
أبو كر اسماعيل
أبو المكارم هبة الله
أبو نصر السراج
أبو اليزيد البسطامى
أبى عمر
أبيون
أتيكا
اثنا تيوس
أثيوبيا
الاحامدة
أحمد الازهرى
أحمد البدوى
أحمد بوكر
أحمد بن خوجلى
أحمد بن ادريس الفاسى
أحمد بن المختار التيجانى
أحمد الرفاعى
الاحمدية
أحمد الطيب بن البشير
أحمد المقر
أحمد الهجونى الغفرونى

أحمد المهدى
أحمد ود الطريفى
أحمس الاول
الأخضرى
آدم محمد البرقاوى
إدريس بن الأرباب
الإدريسية
ادريس المجذوب
الادريسى
ارتيقة (قبيلة)
ارجاميد
آركل ، ا.ج
أرنولد ، السير ن.ج
أريوس
الزاندى
إسماعيل باشا
إسماعيل بن عبد القادر
إسماعيل بن عبد الله
إسماعيل المكى الدقلاشى
الاسماعيلية
اشور بانيبال
الاصطخرى ، ابو اسحق
العشماوى
اللعسر ، الشيخ
الفا هاشم
الفاريز
أكسوم
أم درمان
الأمرأر
آمون آمون تاريت
أندوكا
أنقسنا (قبيلة)
الأيوبيون
أوديسيوس
أورليان
أورفيوس
أولاد حامد (قبيلة)
إيزيس ، معبد

(ب)

بادراب
بادى بن رباط
بادى الثانى ابو دقن
بادى الرابع
بادى (قبيلة)
باجرمى
بالم ، ل.
بالمر ، السير ، ر
بان النقا
البجه ١٣ ، ٤ ، ١٥،
بخارى
بدج ، والس
بدوى بن ابو دليق
بدوى الشيخ
البديوية
بديات (قبيلة)
بديرية (قبيلة)
بروان ، و.ج
برتا (قبيلة)
برنى (قبيلة)
بربر
برزانى
برقد (قبيلة)

برقو
برهامية
برسكس
بروس ، جيمس

بريمس (أنظرابريم)
بريكوبيوس قيسارية
البشاريين (قبيلة)

بشر بن مروان
بشير احمد جلال الدين
بطاحين (قبيلة)

بطلمية
بطليموس
بطن الحجر
بطن المناصير
بعنخى
البقارة (قبيلة) ٨ ، ١١،

بقط
البكرى ، الشيخ
بكرى بن عبد الله
بكرى الشيخ
بكرى ود ادريس
البلاذرى
بلانه
بلل الشيب بن الطالب
بلو (قبيلة ارتيرية)
بلوتو
البليميون
بنيامين
بنو جعفر
بنو كنز
بنو هلبه (قبيلة)
بنى سليم
بنى عامر (قبيلة)

بنى هلال
بوركهارت
برنو (قبيلة)

البوصيرى
البويهيون
بيبرس، ركن الدين
بيبتون ا.س
البيضاوى
بيقو (قبيلة)

بيكر، السير صمويل
بيكر ، س.هـ
البيومية
(ت)
تاج الدين البهارى
تانوت امانى
تبو (قبيلة)

ترر امانى
تشاد ، بحيرة
تشرشل ، ونستون
تعايشه
تقازه (عطبره)
تقلى
تكرورى
التلمسانى
تلميس
تمبكتو
تميم الدارى
تورنسى
التونسى
التيجانية

تيجرى
تيراب
(ث)
ثيودورا
ثيوردور ، اسقف طيبة
ثيدور ، بطريرك بنوقسيته الاسكندرية
ثيو دوز يوس الأول ، الأكبر
ثيودوزيوس الثانى.
(جـ)
جابر الانصارى
جبل البركل
جبل سقادى
جبل قولى
جبل ماسا
جبل مرة ١١
جبل مويا
جبل ميدوب
جديات (قبيلة)
الجرمنت
جريجورى الاكبر ، البابا
جريفث ، ف
الجزرى
الجزولية
الجزيرة
جستنيان الاول
جستنيان الثانى
جعافرة
جعز
جعفر الميرغنى
جلال الدين الرومى
الجعليين
جماعة ابو جريد
جِمِع (قبيلة)
جمَيعاب (قبيلة)
جموعيه (قبيلة)
جنزير ، الشيخ
الجنيد
الجنيدية
جهينة
جورج ، ملك مقرة
جوش
جولد تسهر
جوليان
جوليانوس
جون ابوت البكلارمى
الجيلانى (انظر عبد القادر الجيلانى)
(ح)
الحباب الحارث بن اسد المحاسبى
الأحباش
الحبشة
حبيب الله العجمى
الحجاز
حجازى بن ابى زيد
الحاكم بأمر الله الفاطمى
الحدارية
الحرازة
حرحور
الحسانيةحسن بن محمد عثمان الميرغنى
حسن ود حسونه
الحفناوية
الحلاج
الحلاوين
الحلنقة
حمد ابو دنانة
حمد بن الشيخ ادريس
حمد بن محمد المجذوب

حمد النحلان
حمد ود الترابى
حمد وراب
حمر
الحنفى ، المذهب
حنك
حنين بن اسحق
الحوازمة
(خ)
خاسه
الختمية
الخرازى
الخضر ، النبى
خليل بن اسحاق
الخلوتية
الخمه
خوجلى بن عبد الرحمن
خوالده
(د)
داجو
دار حامد
دار رونجا
دار قرتيت
دارفور ١١،

دار فونج

دار محارب
دار مسيرية
داو
داوود
داود بن عبد الجليل
الدرقاوية
الدسوقية
دشين ، القاضى
دفع الله القرقان
دفع الله العركى بن أبو ادريس
دقلال
دليل بحر
الدناقله ١٤ .١٦

دقلديان
الدواليب
دونى ، شارلز
دوديكا شيون
ديرابى
ديلاتور
ديلاوار
دينكا ١١
(ذ)
ذو النون المصرى
(ر)
رابعة العدوية
الرباطاب
ربيعة
الرحمانية
الرحراح
الرشايده
الرشيدية
رفاعة
الرفاعية
الرزيقات
رؤوف باشا
الرومان
رن ، ل
ريزنر ، ج.ل
(ز)
زالنجى
الزبالعه
الزاندى ١١
الزبير باشا
الزغاوة

الزنافج
زكريا
الزنج
زنكوفسكى
زهلار
الزين بن صغيرون
(س)
ساموري
ساندر ، ج. ا.ر ،
ستاك ، السير لى
سترابو
سكوت ١٤
سلاطين
سلكو
سلمان الطوالى
سليجمان ، س.ج ١٤.
سليمان سولونج
سليم الاول
سليم (قبيلة)
السعادية
سعيد باشا
السمانية
سنار
سنو
سنوسرت الثالث
السنوسية
السهروردية
سوبا
(ش)
الشاذلية
الشاطبى
الشافعى
الشانتيراب
الشاياب
الشايقية
شاو دورشيد
شباكا
شرتاى
شرف الدين ود برى
الشرقاوية
شقير ، نعوم
الشريعة
الشكرية
شكنده
شلك ١١،
شمامون
شمس الدولة توران شاه
شنخاب
شهاب الدين السهروردى
الشواهيت
شيشنق
(ص)
صادقاب
صالح بن بان النقا
صلاح الدين ، السلطان
(ض)
ضياء الدين السير وردى
(ع)
عايداب
عائشة بنت ابو دليق
عالياب
العبابدة
العباسية ، الدولة
عبد لاب
عبد الله بن دفع الله العركى
عبد الله بن سعد
عبد الله بن سليم الأسوانى (انظر ابن سليم)

عبد الله بن سنيو
عبد الله بن على الحلنقى
عبد الله التعايشى ١٠،

عبد الله الحمال
عبد الله الشرقاوى
عبد الله الميرغنى
عبد الرازق ابوقرون
عبد الرازق ود عويضة
عبد الرحمن بن اسيد
عبد الرحمن بن جابر
عبد الرحمن الرشيد
عبد الرحمن بن المهدى

عبد القادر الاول
عبد القادر بن ادريس
عبد القادر الجيلانى

عبد الكريم الجامع
عبد الماجد بن عمر
عبد المتعال احمد بن ادريس
عبد المجيد بن محمد
عبد المحمود بن نور الدايم
عتباى ام ناجى
عثمان دقنه
عجيب المانجلك او الكافوتى
عدلان الثانى
العرب

العركيين
العزمية
علوة

علوية الميرغنى
على بن ابى طالب
على بن يعقوب بن المرشدى
على الجويرى
على دينار بن زكريا
على اللبدى
على مبارك
على الميرغنى
على النيل
على ود حلو
على ود عشيب
على ود موج
عمارة دنقس
العمراب
عمر بن الخطاب
عمر جنبو
عمر الحاج
عمر الخلوتى
عمرو بن العاص
العمرى، ابن فضل الله
عقبة بن نافع
العلاقى عووضه بن عمر
عيزانا

عيسى ، النبى
(غ)
الغرابة (انظر فلاته)
غردون ، الجنرال
غز
الغزالى
غلام الله بن عابد
(ف)
الفاطمية ، الدولة
فاليران

فان جنب
فديجة ١٦،
فرتيت
فرح ود تكتوك
فريمنتوس
الفرس
فزاره
فزان
فلاته ١٤،
فلاته مللى
الفلانى
فولى
فونج

الفور

فيله
(ق)
القادرية
قبطى
القرشى ، الشيخ
القشيرى
القرآن
القرطبى
قرعان
قرى

قريب الله
قسطنطين الأكبر
القسطنطينية
القصر
قطر مير
القفرونية
قلاوون السلطان
قليدرون
القلقشندى
القواسمه
قيرقى بن زكريا
(ك)
كاتسينا
كاسو ، مروى
كاشتا
الكاملاب
كانم
كانو
كانورى
الكبابيش
كتشنر ، اللورد
كرمبس
كزموس
كرمة
كروفوت
كرومر ، اللورد
كزماس إنركوبليستس
كزمس
الكشاف
الكعبة
كلواجى
كلمنت
الكميت
كميلاب
كنانة
كنجارة
كنز الدولة
الكنوز ١٥،
كنون
الكواهلة
كوار بن سرور
كورسكو
كوش (كاش)
كوكر (جبال تابى)
كيت ، السير آرثر

كيرا
كيروان ، ل.ب

(ل)

لامبن ، ج.د
لامبن ، ١
لتمان ، ١
الليبيون
لين ، ا.و
لونجينوس

(م)

مابان
ماسبيرو ، ج
ماسينيون
ماكدونالد، و.ب
ماكمايكل ، هـ.ا
مالك ابن انس
المالكى ، المذهب
مالى
المأمون، الخليفة
ماى احمد
ماى يرنو
ماير ، أ
ماينهوف
المتوكل ، الخليفة
المتوكية ١٦
المجاذيب(انظر المجذوبية)
المجذوبية
محمد ، النبى
محمد أبو لكيلك
محمد أحمد بن عبد الله المهدى
محمد أحمد بن عبد الله بن مرت
محمد بحر الدين
محمد بدر
محمد بن داود الأغر
محمد بن سالم الحنفى
محمد سر الختم
محمد شريف ، خليفة المهدى
محمد شريف بن نور الدايم
محمد بن الريده
محمد بن عبد الصادق
محمد بن عبد الكريم السمانى
محمد بن عدلان
محمد بن على بن احمد ادريس
محمد بن على السنوسى
محمد بن المختار
محمد بن مسعود بن عبد الرحمن
محمد البدوى
محمد التوم
محمد التويم
محمد السن السمانى
محمد خير
محمد بك الدفتردار
محمدبن قدم
محمد زاهر المدنى
محمد عثمان ابو قرجة
محمد عثمان الميرغنى
محمد على باشا
محمد قيلى
محمد ماضى ابو العزايم
محمد المجذوب الصغير
محمد المهدى السنوسى
محمد النصرى الشاذلى
محمد النقشبندى
محمد الهميم
محمد ود عيسى سوار الذهب
المحس ١٤ ،١٦،

محمود أبو شيبة
محمود العركى
محمود المصرى
مدنى الناطق
المرابطين
مرجليوت ، د.س
مريس . ١٦،
مريم الميرغنية
مروى
المروية، اللغة
المساليت
المسبعات
المسعودى
المسلمي الصغير
المسلمية
المسيرية
مصر ١٤ ، ١٥ ، ١٦،

مصطفى بن كمال الدين البكرى
مصوع
المضوى
المعاليا
المعز لدين الله الفاطمى
معروف الكرخى
المعهد العلمى

مقرة

المقريزى

مكسيمنس ، الجنرال
الملكانية
مليكاب
المماليك

المنوفستية

المهدى المنتظر
موراى ،ح.د

موسى بن ابراهيم
موسى بن يعقوب
المولاوية
الميدوب
الميرغنية، الطريقة

ميشيل السورى
ميما

(ن)

نباتا (نبته)
الناصر محمد بن قلاوون
نبتاب
نتريا (دير وادى النطرون)
نرسيس
النقشبندية ، الطريقة
نكلسون .. ر.ا
النوبا١١

النوبه ، النوبيون ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦

النوير
نيرون
نيمانج

(هـ)

هامبورجر
الهباب
الهبانية
هجا بن عبد المطلب
هجو عبد القادر المسى
الهدندوة ١٤،

هرقل
هشام بن عبد الملك
هكس، الجنرال
الهكسوس
هللسون
الهمج
الهواره
الهوسا
هيرودوت
(و)
ود أم مريوم
ودان
وداى
ود ضيف الله
ود عجيب
ورش
وستنفيلد
وسترمان ، د
ونجت ، السيرريجنالد هـ ١٣،
ونسنك ،ا.ج
الوهابية
(ى)
ياقوت
اليعقوياب
اليعقوبى
يوحنا افسس
يوسف ابو شريعة
يوسف الهندى
يوسيبيوس قيسارية
يوليا نوس هلكار نسوس
يوليا نوس ، امليا نوس
اليمنيين

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامثي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت . هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت · لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت · منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيتل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت . محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت . عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٢٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت . وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت . مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : علي عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جي أتيال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دي مان	ت : سعيد الغانمي
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو–أمريكي	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيري	إدوين إمري وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : علي يوسف علي
٢٠٧ – ليل إفريقي	رامون خوتاسندير	ت . محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت . محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوي	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد علي الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	ت : محمد محمود محيى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – عولمة السياسة العالمية	جون بايلس وستيث سميث	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : علي إبراهيم علي منوفي

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ - شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراي	ت : نسيم مجلي
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادي
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : مني عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركي	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت . ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ - الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود

رقم الإيداع ١٠٢١٧ / ٢٠٠١
مطابع المجلس الأعلى للآثار

المجلس الأعلى للثقافة

ISLAM IN THE SUDAN

J. Spencer Trimingham

يقدم هذا الكتاب سرداً قيماً للممارسات والخرافات التى ما تزال باقية من عهود ما قبل الإسلام ، كالسحر الأسود والأرواح المسيطرة للمخلوقات النيلية الخرافية وحوريات الماء ، بالإضافة إلى الآثار الباقية من النظام الأمومى واستنزال المطر والطقوس الخاصة بحلب اللبن ، كذلك تطور وظهورالطرق الصوفية فى السودان وتكويناتها المعاصرة وممارسات وتعاليم هذه الطرق.

ويقول المؤلف إن هدفه هو محاولة تزويد القارئ بخلفية يبنى عليها فهماً صادقاً للسودانيين ويمهد الطريق لاتصال حى وقوى ، ويجب أن يكون مفهوماً ، بشكل جلى ، أنه لا يصف الإسلام النظرى ، ولكن يصف الدين الحى لمنطقة بعينها . ويضيف : إنه إذا ما حاول أن يصف المسيحية فى إنجلترا اليوم فإنه لن يهتم فى ماذا يقول رجال اللاهوت عن ما هى المسيحية ، ولكن الأحوال الاجتماعية التى كانت فيها المسيحية عبر القرون عاملاً مؤثراً ، وكيف أنها شكلت الإنسان ، وكيف أن سلوك الناس وبيئتهم قد صاغت بدورها شكل مسيحيتهم . هذا ما حاول المؤلف أن يقوم به بالنسبة للسودان الشمالى .

كما يتعرض الكتاب- فى فصوله الأخيرة - لعلاقة القبائل الوثنية بالإس
الوقت الحاضر ومظاهر أثر التغريب على السودان .